تاريخ العصر العباسي والأندلسي
السياسي والحضاري


وقل رب زدني علما
Damascus University

منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ العصر العباسي والأندلسي
السياسي والحضاري

الدكتور فوزي مصطفى
أستاذ في قسم التاريخ

الدكتور عمار محمد النهار
أستاذ في قسم التاريخ

الطبعة الأولى
1432 – 1433 هـ
2011 – 2012 م

جامعة دمشق


وقل رب زدني علما
Damascus University

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	7
القسم الأول: التاريخ العباسي والأندلسي السياسي	11
الباب الأول: العصر العباسي	13
الفصل الأول: مراحل قيام الدولة العباسية، والعصر العباسي الأول	13
الفصل الثاني: العصر العباسي الثاني – عصر النفوذ التركي	35
الفصل الثالث: العصر العباسي الثالث – عصر النفوذ البويهي	51
الفصل الرابع: العصر العباسي الرابع – عصر النفوذ السلجوقي وسقوط الخلافة العباسية	65
الفصل الخامس: الدول المستقلة عن الدولة العباسية	81
الباب الثاني: العصر الأندلسي	117
الفصل الأول: الفتح الإسلامي للأندلس وعهد الولاة الأمويين	117
الفصل الثاني: عهد الإمارة الأموية	132
الفصل الثالث: عهد الخلافة الأموية	145
الفصل الرابع: عهد دول الطوائف وسقوط غرناطة	159
القسم الثاني: التاريخ العباسي والأندلسي الحضاري	175
الفصل الأول: المؤسسات العلمية	177
الفصل الثاني: مؤسسة الترجمة	216
الفصل الثالث: العلوم النظرية	258

الفصل الرابع: العلوم التطبيقية	336
المصادر والمراجع.	461

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يتحدث هذا الكتاب عن عصرين كبيرين وعظيمين طالما تغنّت بهما كتب التاريخ والأدب والفن والحضارة، عصر في شرق العالم العربي الإسلامي وآخر في غربه.

عصران؛ سواء التقيا أم انفصلا فإنهما يشكلان العصر الذهبي لتاريخنا العربي الإسلامي الطويل والمجيد.

عصران تجلت فيهما الانتصارات السياسية والعسكرية والدبلوماسية كتجلي الشمس على كوكب الأرض، وماجت فيهما الإنجازات الحضارية العربية الإسلامية الإنسانية العالمية.

عصران تتراءى لك فيهما حضارة العرب والمسلمين كأمواج تتدافع من بغداد والشام والشرق باتجاه الأندلس، لتنتقل هذه الموجات إلى أوربة وإلى العالم.

إنهما العصران: العباسي والأندلسي، ومن وجهيهما السياسي والحضاري.

فالعباسيون ينتسبون إلى العباس بن عبد المطلب آخر أعمام الرسول صلى الله عليه وسلم وفاة من بعده، وقد استطاع حفيده محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أن يؤسس جماعة سرية توسعت في خراسان خلال ثلاثين سنة تقريباً، وتولى بعده ابنه إبراهيم المعروف بالإمام، والذي أمر بإعلان الثورة العباسية، وتزعم هذه الثورة في خراسان شاب فارسي اسمه أبو مسلم، وقد استطاع أن يجمع الأحقاد المختلفة ضد الأمويين في قناة واحدة، ثم تحرك الثوار إلى العراق بقيادة قحطبة الطائي ثم ابنه الحسن، فاحتلوا الكوفة وأعلنوا خلافة عبد الله أبي العباس محمد، وبينما كانوا يحاصرون البصرة توجه عبد الله بن علي العباسي شمالاً وانتصر على مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في معركة الزاب الفاصلة (132هـ = 750م)، فقامت الدولة العباسية التي ستأتيكم سيرتها تباعاً مع أسطر وصفحات هذا الكتاب .

أما تاريخ الأندلسيين؛ فقد اندفعت طلائع الفاتحين المسلمين عبر سواحل إفريقية الشمالية سنة 21هـ = 641م، وبعد سبعة وخمسين عاماً استقرت أقدامهم في برقة وطرابلس وإفريقية (78هـ = 697م)، ثم تابع موسى بن نصير وطارق بن زياد الفتوحات، وعبرت جيوشهم مضيق جبل الزقاق (طارق بعد ذلك) إلى إسبانيا وأطاحت بالقوط الغربيين، ثم استطاع المسلمون أن يعبروا جبال البرانس، فاستقر الحكم الإسلامي في معظم الأراضي الإسبانية التي سموها الأندلس، بينما قامت في الشمال الغربي مملكة ليون النصرانية .

وفي السنوات الأولى حكم الأندلس سلسلة من الحكام العرب المسلمين الذين أُرسلوا من المشرق للتوسع من جهة ونشر الإسلام والعربية من جهة أخرى (حوالي 24 والياً خلال 45 سنة)، إلا أن انهيار الحكم الأموي في المشرق أوصل إلى الأندلس سنة 138هـ = 756م عبد الرحمن الأول الذي لُقب فيما بعد باسم (الداخل)، وكان واحداً من الأمويين القلائل الذين نجوا من المذبحة في أعقاب استيلاء العباسيين على الحكم، فأقام إمارة بني أمية المستقلة في الأندلس، ومن خلالها بدأ التاريخ الأندلسي الذي ستتابعون تفاصيله في صفحات هذا الكتاب.

لقد حاولنا في هذا الكتاب أن نتّبع منهج السلاسة في عرض المعلومات، مع الحرص الواجب على توثيقها، وكان الجديد فيه التركيز على التاريخ الحضاري الذي يكاد يكون مهملاً في كتبنا الجامعية، فهو التاريخ الذي صار أجدادنا من خلاله سادة العالم في الدين والعلم والأخلاق والقيم مدة عشرة قرون خلت، وهذا اعتراف من العالم جورج سارتون الذي قال: « إن العرب كانوا أعظم معلمين في العالم » .

ومسؤوليتنا يجب أن تكون أكبر أمام الحرب الإعلامية التي تُوجه إلينا، فإن ما يجري اليوم من طمس للحقائق العلمية مقصود باعتراف كبار مؤرخي الغرب، فهاهو العلامة المستشرق سيديو يصرح: « قُصد نسيان العرب وإنكار ما كان لهم من تأثير في الحضارة الحديثة ».

وكي نعلم قيمة أجدادنا العلماء؛ لنقرأ قول هربرت هوفر أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية: « إن علماءنا هم أثمن مقتنياتنا القومية ».

ونحن هنا نضع أبناءنا الطلبة أمام بعض الفوائد العظيمة من قراءة التاريخ وخاصة التاريخ الحضاري، بعد أن شاهدنا زُهدهم بمقررات مادة التاريخ، فلقد ثبت للعلماء اليوم؛ أن الباحثين غير الدارسين أو المطلعين على تطور العلم (تاريخ العلم) الذي يدرسونه منذ الماضي وإلى وقتهم (أي الذين ابتعدوا عن دراسة أسس وأصول العلوم) ثبت لهم أن هؤلاء يتعرضون لأمرين على الأغلب:

الأول: يضلون طريقهم.

والثاني: تكثر أخطاؤهم.

ولذلك لّما تجاهل بعض علماء الغرب تراث الحضارة العربية الإسلامية، وبدؤوا بدراسات جديدة وفق تقنيات حديثة، توصلوا إلى إنجازات انبهروا بها في البداية، ولكن سرعان ما تبين لهم أنها إنجازات سبق لعلماء الحضارة الإسلامية اكتشافها، وأن أفكارهم هذه ليست سوى إعادة تشكيل لأفكار أولئك العلماء.

ومن الفوائد؛ أن هذا التاريخ هو تاريخ أمتنا الذي يمثل ذاكرتنا، فالأمة التي لا تعرف ماضيها لا ذاكرة لها، ومن فقد ذاكرته يسير هائماً لا يعلم شيئاً، وهذا بالضبط ما يحدث لنا اليوم، وما علينا إلا أن نستعيد هذه الذاكرة، والأمل موجود، حيث بدأت البلاد العربية والإسلامية تُنظم ما يُعرف بمؤتمرات تاريخ العلم وتاريخ العلوم، والتي ترصد دقائق إبداعات أجدادنا العلماء.

ومن الفوائد؛ الاقتداء بأجدادنا العلماء، إذ يعجب المرء من غزارة الإنتاج الذي تركه لنا وبأمانتنا علماء الحضارة العربية الإسلامية، إذ كان كل عالم منهم أشبه بموسوعة، للأعداد الهائلة من الأبحاث والرسائل والكتب التي ألّفها، والتي تضم أكثر من تخصص في فروع العلم.

ونحن هنا لا ندعو إلى إثارة مشاعر الاعتزاز بالماضي، بقدر ما نـــدعو أنفســـنا وشباب الأمة إلى المزيد من الثقة بالنفس، وإلى استجماع القوى للانطلاق من موقف (المُنَظِّرين) إلى موقع العطاء والبذل والتقدم والنهضة.

وقد كتب المقدمة والقسم الثاني من هذا الكتاب الدكتور عمار محمد النـــهار، وكتب القسم الأول الدكتور فوزي مصطفى.

والله أعلم، والله الموفق

والحمد لله رب العالمين

القسم الأول

التاريخ العباسي والأندلسي السياسي

Damascus University


وقل رب زدني علما
Damascus University

الباب الأول

العصر العباسي

الفصل الأول

مراحل قيام الدولة العباسية

والعصر العباسي الأول

– مراحل قيام الدولة العباسية.

أ– الدعوة العباسية:

نتيجة للاضطرابات الخطيرة التي شهدتها الدولة الأموية، استغل الهاشميون هذه الفرصة وتربصوا بالأمويين الدوائر، بزعامة العباس بن عبد المطلب – عم النبي – بقصد المطالبة بحق آل البيت في الخلافة، ونلاحظ أن العباس[1] مؤسس هذه الأسرة، لم يثبت أنه طالب بالخلافة ربما لأنه تأخر في إسلامه إلى ما قبل فتح مكة[2]، وقد حرص المؤرخون العرب القدامى على إظهاره بمظهر المؤيد للدعوة الإسلامية، وأنه لم يحمل لها الحقد مثل غيره من أعمام النبي كأبي لهب وأبي جهل؛ فهو الذي خرج مع النبي عند بيعة العقبة ليمهد له الأمر، وكان يكاتبه سراً وهو بالمدينة، ولم يظهر العباس طمعاً في خلافة النبي، بل أقبل بعد موته على ابن أخيه علي، وقال له «ابسط يدك لنبايعك»، ولكن علياً تباطأ أيضاً وانشغل بدفن النبي[3]، وكان عمر بن الخطاب ينظر إلى العباس على أنه رأس أسرة النبي، ففرض له في الديوان وبدأ به. وقد توفي العباس في خلافة عثمان سنة 32هـ = 652م[4].

وابنه عبد الله بن العباس، كان غير طامع للخلافة، وبعد مقتل علي وتسلم الحسن، اعتزل عبد الله الفتنة وأقام بمكة واهتم بجمع الحديث حتى نبغ فيه، وعرف بالبحر لعلمه[5]، ورفض عبد الله بن العباس مبايعة ابن الزبير وخرج من مكة إلى الطائف مع ابن الحنفية محمد بن علي بن أبي طالب حيث توفي فيها سنة 68هـ = 687م، كذلك لم يسع علي بن عبد الله بن العباس إلى الخلافة وهو الذي ولد في الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب فسماه أبوه علياً، وقد أقام في قرية الحميمة بشرق الأردن اليوم، ربما بأمر من الأمويين ليكون تحت رقابتهم إلى وقت وفاته سنة 118هـ = 736م[6].

ب- انتقال الدعوة إلى بني العباس:

إن طموح بني العباس للخلافة ظهر على يد محمد بن علي بن عبد الله بن العباس استناداً إلى روايتين؛ الأولى: تعزو ذلك الطموح إلى الصدفة عندما جاءه أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وريث الدعوة الشيعية المعروفة بالكيسانية[7] وأوصى له بها. فقد كان أبو هاشم في زيارة الخليفة سليمان بن عبد الملك (96 - 99هـ = 715- 717م) لقضاء بعض الأعمال، فلما رأى الخليفة سليمان علمه وفصاحته خافه، فدبر من وضع له السم في اللبن، ولما شربه أبو هاشم وأحس بالسم قصد الحميمة - وكان بها محمد بن علي - فأوصى له بأن يرثه في إمامة الشيعة خصوصاً وأن أبا هاشم لم يكن له عقب.

أما الرواية الثانية: فتذكر أن الوصية سلمها أبو هاشم إلى علي بن عبد الله بن العباس بدوره إلى محمد حتى بلغ، فهو الإمام[8]. ولما آلت إليه الدعوة جعل هدفها القضاء على دولة بني أمية وإعلان الخلافة في بني هاشم، وذلك بالدعوة الغامضة للرضا في آل محمد[9] دون أن يذكر الدعاة المقصود أهو فرع آل علي بن أبي طالب (العلويين) أو آل العباس (العباسيين)، واستمر محمد بن علي في إرسال الرجال والدعاة، وكان أبو هاشم طلب من الدعاة الطاعة له فأصبحت الدعوة أكثر تنظيماً

على يديه بجعله لها مجلساً يشرف عليها يتكون من اثني عشر نقيباً، أما الدعاة فكان عددهم كبيراً حتى بلغ السبعين، وكانوا يذهبون في زي التجار مستبضعين، على أن يجتمع بهم محمد بن علي في موسم الحج إذ يأتون إليه بالمال ويأخذون منه التعليمات والأوامر،[10] وتميزت الدعوة العباسية بالسرية والكتمان واستجاب للعباسيين في خراسان أعداد كبيرة لأن بني أمية لم يحسنوا معاملتهم وبخسوهم حقهم في العطاء، غير أن محمد بن علي مات قبل أن ينال غرضه من دعوته في سنة 124هـ = 742م، فعهد بالإمامة إلى ولده إبراهيم الذي عرف بالإمام.

جـ – قيام دولة الخلافة العباسية:

بعد أن استقرت الدعوة العباسية في خراسان بفضل جهود أبي مسلم الخراساني الذي قاد الثورة في خراسان واتخذ السواد شعاراً له فعرف جيشه «بالمسودة»، حتى تهيأت القيادة لتسديد الضربة القاضية للدولة الأموية، ونجح الحسن بن قحطبة بن شبيب القائد الأعلى للجيوش العباسية في دخول الكوفة، واعترف بأبي سلمة الخلال، رئيس دعاة العراق، وزيراً لآل محمد، وبعد سيطرة أنصار الثورة على العراق، حان الوقت لاختيار الشخص من آل محمد الذي أُعلنت الثورة باسمه، وكان اسم إبراهيم بن محمد هو الشائع لكن هذا التداول كشف الغطاء عنه، فقبض عليه مروان الثاني آخر خليفة أموي وقتله، وكان قد أوصى قبل وفاته إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد، فبويع له في الكوفة بعد أن انتقل إليها من الحميمة يوم الجمعة في (الثاني عشر من شهر ربيع الثاني عام 132هـ = شهر تشرين الأول عام 749م) [11]، لكن تاريخ خلافته يبدأ بعد مقتل مروان الثاني في شهر آب عام 750م = 133 هـ وهو تاريخ قيام دولة الخلافة العباسية.

انتهجت دولة الخلافة العباسية منذ نشأتها سياسة مشرقية واضحة وتطلعت إلى خراسان مهد نشأتها، وجاء هذا التحول نتيجة لعدة عوامل، أهمها:

– مناوأة أهل الشام للعباسيين.

- انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد.
- التأثير الفارسي على النظم والحياة العباسية.
- انتعاش التجارة المشرقية.
- ابتعاد الدولة العباسية عن عالم البحر الأبيض المتوسط.
- عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول بحري في المتوسط يقارع الأسطول الأموي.

وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ دولة الخلافة العباسية إلى أربعة عصور وفقاً لقدرات الخلافة وتطور أوضاعهما السياسية، وازدهار الحياة الثقافية والفكرية، وهي: عصر القوة والتوسع والازدهار، عصر النفوذ التركي، عصر النفوذ البويهي الفارسي، وعصر النفوذ السلجوقي التركي.

العصر العباسي الأول

132- 232هـ = 750- 847م

- خلفاء العصر العباسي الأول:

1- أبو العباس عبد الله السفاح 132- 136هـ = 750- 754م:

هو أول الخلفاء العباسيين، والذي عمل على تمتين دعائم الدولة الجديدة بالضرب بشدة على أيدي أعدائها، لأنه كان يعلم أن أي تراخ أو تسامح مع خصومها قد يقضى عليها في المهد، لذلك نراه يتهدد ويتوعد في أول خطبة له بالكوفة حين قال: «يا أهل الكوفة، أنتم أهل محبتنا ومترل مودتنا فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير»،[12] وقال آخرون إنما لقب بالسفاح لكرمه،[13] وانشغل خلال فترة حكمه بتصفية الجيوب الأموية وارتكب المجازر ضدهم، وقضى على منافسه السياسي أبي سلمة الخلال الذي أراده أن يملك ولا يحكم[14].

– حروبه الخارجية:

أ– جبهة المشرق: حيث نجح الصينيون في بسط سيطرتهم على أجزاء من بلاد ما وراء النهر وظهروا أمام فرغانه وهاجمو الشاس (طشقند الحالية)، ولكنهم انسحبوا بسبب الصراع على العرش، ومع ذلك تقدمت القوات العباسية واشتبكت مع القوات الصينية في معركة طراز التي جرت سنة 133هـ = 751م، وانتصرت القوات الإسلامية بقيادة زياد بن صالح ووضعت حداً للتدخل الصيني في المنطقة التي نعمت في ظل الحكم العباسي بعهد طويل من الرخاء[15].

ب – الجبهة البيزنطية: استغل البيزنطيون الاضطرابات في الدولة الإسلامية، فأغار الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس على الثغور الشامية والجزرية وهاجم أرمينيا واستولى على أرضروم وكماخ الواقعة على نهر الفرات، فقامت الدولة العباسية باستئناف حركة الصوائف والشواتي،[16] وتمكن المسلمون سنة 134هـ = 752م من السيطرة على ملاطية ودخلوا حصن طوانة.

– الوزارة في عهد أبي العباس السفاح:

أقر أبو العباس نظام الوزارة ليؤكد على تطور الدولة واتجاهها نحو المركزية وتوزيع السلطات، وهذا المنصب أخذ من النظام الفارسي القديم[17] وتم ذلك بتحريض من الفرس وتأثير الخراسانيين، حيث إنهم دعوا أبا سلمة الخلال «وزير آل محمد» وأقره أبو العباس.

تميز أبو العباس السفاح بأنه كان يؤمن بسلطة الخليفة المطلقة والقضاء على كل من يشك في إخلاصه، وهكذا كانت عمليات اغتيال أقرب المقربين إليه مثل وزيره أبي سلمة الخلال داعي العباسيين بالكوفة بتهمة أنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل علي بن أبي طالب[18].

– وفاة أبي العباس السفاح:

في مرضه الذي توفي فيه، عهد أبو العباس في عام 136هـ = 754م لأخيه أبي جعفر المنصور بالخلافة من بعده، ثم لعيسى بن موسى بن محمد، وكانت وفاته بسبب إصابته بمرض الجدري، ودفن في قصره بالأنبار[19].

2– عبد الله أبو جعفر المنصور 136– 158هـ = 754– 775م:

يعد أبو جعفر المنصور – عبد الله بن محمد – المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، لما عرف عنه من العزم، ولما اتصف به من الدهاء والمكر والجرأة، فعندما تولى أبو جعفر الخلافة، لم تكن دعائمها قد توطدت بعد، وقد خشي من منافسة عمه عبد الله بن علي الذي كان يطالب بالخلافة، كما انتابه الخوف من تعاظم نفوذ أبي مسلم الخراساني، ومن خروج بني عمه آل علي بن أبي طالب على حكمه، فقرر ضرب أعدائه حتى تخلو له الساحة السياسية.

– الأوضاع الداخلية في عهد المنصور:

أ– التخلص من عمه عبد الله بن علي:

كان عبد الله بن علي على رأس الجيش الذي أرسله أبو العباس السفاح إلى آسيا الصغرى لمقاتلة البيزنطيين، ولما وصل إلى دلوك، بنواحي حلب، علم بوفاة الخليفة أبي العباس فتوقف عن الزحف، وارتد إلى حران، وبايعه الجند بالخلافة، ثم زحف نحو الجزيرة، ندب المنصور أبا مسلم الخراساني لقتاله، ونجح هذا القائد في التغلب عليه قرب نصيبين، وقبُض على عبد الله، وسجن، ثم قتله المنصور في عام 147هـ = 764م[20].

ب– نهاية أبي مسلم الخراساني:

استخدم المنصور المكر والدهاء للقضاء على أبي مسلم الذي كان يشعر بأنه المؤسس الحقيقي لدولة الخلافة العباسية، وراودته أحلام وطموحات شخصية في التفرد

بحكم خراسان وبلاد فارس كلها، فقد ظهر ذلك بوضوح عندما وصله كتاب الخليفة أبي جعفر بتوليته على مصر والشام، فأجاب غاضباً: «هو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي»[21]، ولجأ المنصور إلى أسلوب الدهاء حيث دعاه إلى مجلسه وأمر رجاله بقتله سنة 137هـ = 755م[22].

ولكن نلاحظ أنه بعد أن تخلص المنصور من هذا الخطر نتج عن مقتله ظهور حركات فارسية دينية سياسية وقوميه غريبه عن الإسلام، أظهر أصحابها الإسلام وأبطنوا أهدافهم الدينية المجوسية، والسياسية الهدامة، والعنصرية الفارسية، واتخذوا من أبي مسلم رمزاً ووسيلة للتعبير عن معارضتهم للسلطة العباسية، والتنفيس عما في نفوسهم، ومنفذاً لتحقيق آمالهم وأهدافهم. نذكر من هذه الحركات: حركة سنباذ والحركة الراوندية، وحركة أستاذ سيس وقد نجح المنصور في القضاء عليها[23].

ج- العلاقة مع العلويين:

إن خطر العلويين من بيت الحسين بن علي، كان أشد خطراً على العباسيين من عهد عبد الله بن علي وأبي مسلم الخرساني، لأنه يمثل حركة جماعية تتجه نحو عدم الاعتراف بحق البيت العباسي بأجمعه في الخلافة، في حين أن بيت الحسين بن علي – الذي كان يمثله الإمام جعفر الصادق آنذاك – آثر التريث و لم يشترك في الثورة ضد أبي جعفر المنصور، وقد حاول العباسيون من جانبهم، في مستهل حياتهم السياسية، أن يتعاونوا مع العلويين لإعطاء دولتهم الناشئة الفرصة لتثبيت أقدامها، ثم بدأ الفريقان في التباعد شيئاً فشيئاً، والواقع أن أول الخارجين من العلويين على حكم العباسيين، كان محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، وقد انطلق من المدينة، ثم أخوه إبراهيم الذي خرج في المشرق ودانت له الأحواز وفارس والمدائن، واستطاع المنصور أن يقضي على محمد سنة 145هـ = 762م[24]، وعلى إبراهيم في باخمرا وهي إحدى قرى الكوفة بعد عدة أشهر.

– الأوضاع الخارجية في عهد المنصور:

أ– البيزنطيون:

قام الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس سنة 138هـ = 755م بحملة عسكرية على «ملطية» إحدى الثغور الإسلامية في الجزيرة، مستغلاً انشغال الخليفة المنصور في قمع الفتن الداخلية، فهدم سور المدينة وعاث فيها فساداً وخراباً[25]، فردت القوات العباسية وطردت البيزنطيين من الثغور الشامية والثغور الفراتيه. ثم انصرف الإمبراطور البيزنطي إلى قتال البلغار في البلقان من جهة، ومواجهة مشكلة عبادة الأيقونات من جهة أخرى، حيث أعاد المنصور بناء ما تهدم من حصون وثغور، ولجأ البيزنطيون إلى طلب الصلح مقابل جزيه يؤدونها للمسلمين.

ب– الأندلس:

تمكن الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان من دخول الأندلس وأسس فيها الدولة الأموية، وبسبب بعد المسافة بين العراق والأندلس وصعوبة وصول الجيوش العباسية إليه، لجأ المنصور إلى الحيلة لاسترداد الأندلس، حيث قام بتحريض أحد الزعماء العرب في المنطقة واسمه «العلاء بن مغيث الجذامي» في مدينة باجه[26] غرب الأندلس على الثورة ضد الأمير عبد الرحمن واعداً إياه بإعطائه إمرة الأندلس إن هو نجح في الانتصار على عدوه الأموي، لكن الأمير عبد الرحمن تمكن من الانتصار على العلاء بن مغيث الجذامي وقتله[27].

ومن هذا الواقع صرف المنصور النظر عن فكرة استعادة الأندلس وأبدى إعجابه بشجاعة عبد الرحمن، وقال[28]: «إن صقر قريش هو هذا الأمير الشجاع عبد الرحمن الذي ذهب إلى الأندلس شريداً طريداً واستطاع بذكائه وشجاعته أن يؤسس هناك ملكاً عريضاً»، ومنذ ذلك الوقت لقب عبد الرحمن بلقب «صقر قريش».

جـ – بناء مدينة بغداد:

يعد بناء مدينة بغداد من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور من أهم الأعمال، وتركت أثرها على مستقبل دولة الخلافة العباسية، وتم اختيار المكان بعناية فائقة بين نهري دجلة والفرات، مدفوعاً بعدة عوامل سياسية وعسكرية واقتصادية ومناخية.[29] شرع المنصور في بناء عاصمته في عام 145هـ = 762م واستغرق بناؤها أربع سنوات، وانتهى في عام 149هـ = 766م. وظلت بغداد عاصمة للعباسيين حتى سقوطهما على يد المغول عام (656هـ = 1258م).

– وفاة المنصور:

توفي أبو جعفر المنصور عام 158هـ = 775م وهو في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج وكان قد أجبر ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد على خلع نفسه سنة 147هـ = 764م، فصارت ولاية العهد للمهدي بن المنصور أولاً ثم لعيسى بن موسى من بعده[30].

3– أبو عبد الله محمد المهدي 158– 169هـ = 775– 785م:

– سياسة المهدي الداخلية:

لأجل استرضاء الناس، رد معظم الأموال التي صادرها أبوه إلى أصحابها، وأطلق سراح المسجونين السياسيين وبخاصة العلويين منهم، واسترضى أهل الحجاز عندما حج سنة 160هـ = 776م بتوزيعه عليهم الأموال والغلال، كما استخدم منهم نحواً من خمسمئة في حرسه الخاص لكسب رضاهم، وطابع الرخاء الذي تميز به عهد المهدي واكبه حرصه التام على القيام بإصلاحات كثيرة؛[31] منها تخصيص الجرايات للمجذومين وأهل السجون، وإقامة البريد لأول مرة بين المدينة ومكة واليمن، وتوسيع المسجد الحرام. ولم يتوان المهدي عن إقرار العدل بين الناس، و لذلك كان يجلس للمظالم وإليه ترفع الشكاوي[32]. وأمر المهدي باتخاذ بيت له شباك

من الحديد على الطريق توضع فيه الشكاوي والقصص، يدخله هو بنفسه، فيأخذ ما يقع بيده منها وينظر فيها دون أن يتقدم بعضها على بعض بلا وجه حق.

-الحركات المعارضة في عهد المهدي:

أ- حركات الزنادقة: وتعني بشكل مختصر الشك والإلحاد وفساد العقيدة والخروج عن روح الدين، وفي البداية أطلقت الكلمة على أتباع الديانات المجوسية ثم اتسع ليشمل الشعوبية، واستخدمت السلطة العباسية هذا المدلول الاصطلاحي لضرب خصومها السياسيين والدينيين، وأطلقت أخيراً على بعض الخلعاء والمجان والظرفاء،[33] والحقيقة أن الزندقة حركة سياسية مغلفة بإطار فكري ديني منظم، ينادي أتباعها بنشر مذهب المانوية بكل ما يحويه من عقيدة دينية وتراث فكري، كبديل للتراث الإسلامي العربي، وهو ثورة مجوسية ترمي إلى هدم الدولة الإسلامية من أساسها، وإقامة الدولة الفارسية مكانها، وقد أدرك المهدي مدى الخطر الذي يشكله الزنادقة على الدين والدولة، فتتبعهم في سائر الآفاق من خلال حملات منظمة وقضى عليهم، وكان قد أنشأ ديواناً خاصاً بهم سماه «ديوان الزنادقة» وأمر المتكلمين بالرد عليهم[34].

ب- حركة المقنّع: وهي من الحركات الإلحادية التي قامت في عهد المهدي وخرج زعيمها في ناحية مرو بخراسان بهدف تقويض الحكم الإسلامي العربي وإقامة الدولة الفارسية، فتصدى له المهدي وقضى على حركته، أما المقنع فقد أحرق نفسه قبل القبض عليه وذلك سنة 163هـ = 779م[35].

- العلاقة مع البيزنطيين:

استغل المهدي الفوضى التي أعقبت وفاة الإمبراطور ليو الرابع واعتلاء زوجته إيرين عرش الإمبراطورية في عام 164هـ = 781م، فجهز حملة عسكرية ضخمة عهد بقيادتها إلى ابنه هارون، وأمره بمهاجمة القسطنطينية. توغل هارون في عمق الأراضي البيزنطية حتى بلغ خليج القسطنيطينة، وهدد العاصمة البيزنطية، فاضطرت الإمبراطورة إيرين التي رأت نفسها في موقف حرج لايتيح لها التصدي للتوغل

الإسلامي، أو المساومة، للخضوع لشروط هارون بدفع الجزية وتبادل الأسرى، على أن يستمر الصلح مدة ثلاثة أعوام[36].

– العلاقه مع الأندلس:

حاول المهدي استعادة النفوذ العباسي في الأندلس بالتعاون مع شارلمان ملك الفرنجة في فرنسا، ووالي المغرب عبد الرحمن بن حبيب الفهري، ولكن الأمير عبد الرحمن الداخل استطاع أن يتفرغ لابن حبيب الفهري ويضربه منفرداً ويقضي عليه ثم يحرق أسطوله[37]، وكان ذلك في سنة 160هـ = 778م، أما شارلمان فإنه انسحب من حصار مدينة سرقسطة، بسبب مقاومة السكان له، وكذلك بسبب ثورة الساكسون في ألمانيا عليه والتي اقترنت بشدتها وارتداد الساكسون عن المسيحية وعودتهم إلى الوثنية، وهكذا مني العباسيون للمرة الثانية بالفشل في استرجاع الأندلس.

– وفاة المهدي:

أجبر المهدي ولي عهده عيسى بن موسى على خلع نفسه مقابل عشرين ألف دينار وقطائع كثيرة أخذها عيسى[38]. توفي محمد المهدي في سنة 169هـ = 785م وكان قد عهد إلى ولديه من بعده وهما الهادي ثم هارون الرشيد.

4– أبو محمد موسى الهادي 169– 170هـ = 785– 786م:

أ– علاقة الهادي بالعلويين:

تبين للهادي أن السياسة السلمية التي انتهجها المهدي مع العلويين مدة طويلة لم تنجح في تهدئتهم، لذلك اتبع سياسة حازمة معهم، فقطع عنهم الأرزاق التي خصصها لهم أبوه المهدي، كما أمر عماله بالتضييق عليهم ومراقبتهم، الأمر الذي أدى إلى اندلاع ثورتهم بالحجاز سنة 169هـ = 785م بزعامة الحسين بن علي بن الحسن وهو ابن عم محمد النفس الزكية[39]. ولكن المهدي تمكن من قمع حركتهم في معركة «فخ بين المدينة ومكة»وقضى على الحسين وأتباعه[40]، وتمكن رجلان من العلويين

من الفرار وهما: إدريس بن عبد الله بن الحسين – أخو محمد النفس الزكية – فوصل إلى المغرب وأسس دولة الأدارسة[41]، وأخوه يحيى بن عبد الله بن الحسين[42] الذي مضى إلى بلاد الديلم في فارس حيث بايعه أهلها. واقتدى الهادي بوالده في التنكيل بالزنادقة.

ب– ولاية العهد ووفاة الهادي:

حاول الهادي الحد من تدخل والدته الخيزران في شؤون الإدارة والحكم، وعمل على خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد، وجعلها لابنه جعفر الذي كان لا يزال طفلاً. وكاد الرشيد يرضخ لطلب أخيه لولا تحريض أستاذه يحيى بن خالد البرمكي له[43]، فأخذ يماطل ويهرب من أخيه، ولما علم الهادي بما فعله يحيى البرمكي أمر بإلقاء القبض عليه تمهيداً لقتله، لكن المنية عاجلت الخليفة الهادي قبل أن يحقق غرضه، فتوفي وله من العمر 26سنة وذلك في سنة 170هـ = 786م.

5– أبو جعفر هارون الرشيد 170 193هـ = 786– 809م:

– شخصية الرشيد:

تجاوزت شهرة الرشيد الشرق ووصلت إلى الغرب حيث تناولها المجتمع الغربي بالتحليل والدراسة، وحاول بعض ملوك أوروبا التقرب منه واكتساب مودته. اتصف الرشيد بمجموعة من الصفات الشديدة الاختلاف، فهو سياسي بارع، فيه حزم المنصور وعنفه مع مرونه واضحة وسخاء بالمال لاصطفاء الناس، شديد الاهتمام بشؤون الرعية، مرهف الإحساس، حاد المزاج، سريع التأثر، يثور غضباً، ويفرط في الانتقام، وقد ترق عواطفه فيبكي، ويظهر رحمة متناهية، متديناً، ورعاً، فهو بين حج وغزو، حتى قيل إنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وكان إذا حج، حج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج عنه ثلاثمئة رجل بالنفقة والكسوة الباهرة[44]، يحب الشعر والأدب والفقه، ويعد عصره العصر الذهبي لدولة الخلافة العباسية.

– الأوضاع الداخلية في عهد الرشيد

أ– العلاقات مع العلويين:

على الرغم من محاولة الرشيد استقطاب العلويين عن طريق الرفق بهم، وبذل الأمان لهم، إلا أنهم لم يعدلوا اعتقادهم الراسخ بأحقيتهم بالخلافة، فقد نجا اثنان من زعماء العلويين من معركة فخ التي جرت عام 169هـ = 785م في عهد الهادي وهما إدريس بن عبد الله بن الحسن وأخوه يحيى، فقد أقام الأول لنفسه دولة مستقلة في المغرب وهي دولة الأدارسة وتمكن يحيى من إقامة دولة في بلاد الديلم في المشرق وأعلن خروجه عام 176هـ = 792م، وقرر الرشيد القضاء على الأخوين، ونجح في التخلص منهما، إلا أنه لم يتمكن من القضاء على دولة الأدارسة [45].

ب– حركة الخوارج:

ازداد نشاط الخوارج في منقطة الجزيرة، في عهد الرشيد، الذين أخذوا على الخلفاء مأخذ الاستبداد في السلطة والخروج عما توجبه الأوامر الشرعية في كتاب الله وسنة نبيه، حسب اعتقادهم، وكانوا بقيادة الوليد بن طريف الشاري الشيباني المقيم في الجزيرة بنواحي نصيبين، فأرسل الرشيد قوة عسكرية في عام 179هـ = 795م بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني، اصطدمت بهم في حديثة الفرات وقضت عليهم[46].

جـ– الاضطرابات في شمال إفريقية:

تمكن قائد الرشيد هرثمة بن أعين من القضاء على الاضطرابات بفعل خروج الخوارج وقادة الجند والبربر، إلا أن تجدد الانتفاضات على الحكم المركزي، دفعت الرشيد إلى توليه إبراهيم بن الأغلب والياً على إفريقية في عام 184هـ = 800م الذي نجح في التغلب على الصعوبات التي اعترضت حكمه، ثم مهد لقيام دولة الأغالبة التي ما لبثت أن استقلت عن الإدارة المركزية واتخذت من القيروان حاضرة لها[47].

د- الاضطرابات في المشرق:

نتيجة لسوء تصرف ولاة الرشيد في المشرق قامت الانتفاضات الشعبية وأهمها خروج رافع بن الليث بن نصر بن سيار في سمرقند (بلاد ما وراء النهر) على الحكومة المركزية بسبب دوافع شخصية، وتبعه سكان خراسان وبلاد ما وراء النهر، بسبب كراهيتهم لسياسة العباسيين، واضطر الرشيد أن يخرج بنفسه إلى خراسان لوضع حد للاضطرابات فيها، إلا أن المنية وافته وهو في الطريق[48].

هـ- نكبة البرامكة:

يعود أصل البرامكة إلى برمك وهو رجل فارسي مجوسي من مدينة «بلخ». وهو لقب أطلق على سادن معبد النوبهار في هذه المدينة[49]، وقد برز من هذه الأسرة في أوائل عهد الدولة العباسية خالد بن برمك، فقلده أبو العباس ديوان الخراج والجند، كما تولى وزارة التنفيذ بعد مصرع أبي سلمة الخلال، وعمل مستشاراً للمنصور. أنجب خالد ولداً هو يحيى الذي ارتبط تاريخه بتاريخ هارون الرشيد، وقد أدى دوراً بارزاً في تأمين ولاية العهد له في مواجهة الضغوط الكبيرة التي مارسها عليه الهادي بهدف تنحيته عن ولاية العهد، وتولية ابنه جعفر بدلاً منه، وحفظ الرشيد فضل يحيى عليه، فولاه الكتابة والنيابة عنه ووزارته[50]، ومنحه سلطات مطلقة، فكانت الدواوين كلها بيده. واستطاع يحيى من خلال ابنيه الفضل وجعفر من إدارة الدولة محققاً بذلك نظريه المشاركة الكاملة في الحكم، وأحاط البرامكة بالرشيد يتحكمون به، كما أن معظم الرجال البارزين في الدولة كانوا من صنائعهم وأتباعهم لدرجة أن الرشيد وجد صعوبة كبرى في العثور على رجال لم تكن لهم صلة بهم، ليتولوا بعض شؤون الدولة[51]، ويبدو أن البرامكة كانت لهم سياسة كامنة لإحياء الإرث الفارسي المندثر، وبلغ أوج هذه الأسرة في حياة الخيزران والدة الرشيد، فلما توفيت في عام 173هـ = 789م بدأت ثقة الخليفة بأفرادها تهتز حتى نكل بهم، فقد تبين له ميلهم إلى

الطالبيين وميولهم العنصرية[52]، ومن جهة أخرى، استبد البرامكة بمالية الدولة حتى قيل إن الرشيد «يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه»[53].

في الوقت الذي كان البرامكة يسرفون في النفقات، وقد قيدوا الخليفة في هذا التصرف المالي، كما كبلوه في تصرفه السياسي، وأدت الوشاية، من قبل خصومهم، دوراً أخر في التأثير على الرشيد، فقتل جعفر في 187هـ = 802م، وسجن يحيى وأبناءه وصادر ممتلكاتهم وأموالهم.

– العلاقات الخارجية في عهد الرشيد:

أ– العلاقة مع البيزنطيين:

عمد الرشيد إلى تحصين الحدود وتقوية الجيش، ونجح في إجبار الإمبراطورة إيرين على القبول بشروط الصلح التي فرضها عليها. وفي عام (187هـ = 803م) خُلعت إيرين عن العرش البيزنطي وتولاه نقفور الأول، وقد نقض الصلح مع المسلمين، وطالب الرشيد بإعادة مادفعته إيرين من الجزية، وجاء الرد الإسلامي سريعاً وحاسماً، وهزم نقفور عسكرياً، فالتزم بدفع الجزية، والامتناع عن ترميم الحصون التي هدمها المسلمون، على أن تستمر الهدنه مدة ثلاث سنوات، ثم بعد ذلك نلاحظ أن الرشيد تفرغ لحل المشكلات التي استجدت في خراسان و لم تتهيأ له بعد ذلك ظروف مناسبة لمتابعة نشاطه الجهادي على الجبهة البيزنطية[54].

ب– العلاقة مع الفرنجة:

انفردت المصادر اللاتينية بذكر الصلة التي ربطت هارون الرشيد بشارلمان ملك الفرنجة، لكنها تبدو مضطربة وغامضة مما يقلل ثقة المؤرخين بها، واستناداً إلى هذه المصادر، فقد ابتدأت العلاقات بين العاهلين في عام 181هـ = 798م، وتبادلا الوفود والهدايا، لكنها لم تسفر عن قيام تحالف سياسي. والراجح وجود نوع من العلاقات التجارية وخاصة على يد التجار اليهود الذين كانوا حلقة الوصل بين المشرق والمغرب وبخاصة أن أساليب التجار آنئذٍ أن يدعوا بأنهم سفراء لتسهل مصالحهم[55].

– وفاة الرشيد:

قبل وفاته اختار الرشيد أبناءه محمد الأمين وعبد الله المأمون والمؤتمن، على التوالي لولاية العهد من بعده، وسجلت هذه المواثيق وعلقت في الكعبة حرصاً على زيادة قدسيتها وقوة تنفيذها[56]، وتوفي الرشيد في طوس بخراسان سنة 193هـ = 809م، وكان قد خرج إلى خراسان بصحبة المأمون لوضع حد لثورة رافع بن الليث[57].

6– أبو موسى محمد الأمين (193– 198هـ = 809– 813م):

– أسباب النزاع بين الأمين والمأمون:

أ– مشكلة ولاية العهد:

كان الأمين هو البادئ بنقض بنود العهد الذي أخذه والدهم عليهم، فقد حاول بسط نفوذه على ولايات أخويه، ثم قدم ابنه موسى عليهما، مما تسبب في تفجير الوضع. وظل المأمون قابعاً في خرسان لم يبرحها، وخشي الأمين عاقبة هذا الاعتكاف، فكان طبيعياً أن تسوء ظنون الأخوين أحدهما بالآخر[58].

ب– صراع العنصرين العربي والفارسي:

لقد كان للفضل بن سهل كاتب المأمون ومديره، والذي مثل العنصرية الفارسية في الإدارة العباسية، والفضل بن الربيع الذي مثل التطلعات العربية، دوراً كبيراً في ملامح الدور السياسي، حيث انكشفت نوايا الرجلين بعد وفاة الرشيد وظهر التناقض بينهما في وجهات النظر السياسية، وهكذا اتخذت قضية النزاع بعداً شعوبياً بين العرب والفرس[59].

جـ – أطماع الحاشية:

شجع الفضل بن سهل المأمون على البقاء في خراسان رافضاً طلب الأمين بعودته إلى بغداد، ساعياً لإيصال صاحبه إلى منصب الخلافة، في حين ساند الفضل بن

الربيع وعلي بن يحيى بن هامان الأمين ودفعاه إلى نكث العهد، وهكذا أدى تدخل رجال الحاشية إلى حدوث الصراع بين الأخوين[60].

– الحرب بين الأخوين:

جرت سفارات ومراسلات متبادلة بين الأخوين حول قضية ولاية العهد والصلاحيات الخاصة بالخلافة، والتي حاول فيها الأمين إثبات أحقية ابنه بالخلافة قبل أخيه ناقضاً للعهد، ثم كان الرفض القاطع من قبل المأمون لذلك بتشجيع من كاتبه الفضل بن سهل[61]، وسير الأمين جيشاً إلى خراسان بقيادة علي بن عيسى بن ماهان الذي اصطدم بجيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين الذي انتصر وقتل علي بن عيسى، وبعد هذا الانتصار بايع الناس في مرو المأمون بالخلافة، وتمكن طاهر بن الحسين من القضاء على جيش الأمين الثاني بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنصاري في همدان، ودخل جيش المأمون بغداد وتم أسر الأمين ثم خلعه، وتم إعدامه على يد طاهر بن الحسين في 25 حرم 198هـ = 25 أيلول 813م[62].

7– أبو جعفر عبد الله المأمون (198– 218هـ = 813 – 833م):

– الأوضاع الداخلية في عهد المأمون:

كان للفضل بن سهل دور كبير في تولي المأمون الخلافة، لذلك نجده يستجيب لطلب وزيره بتعيين أخيه الحسن بن سهل والياً على العراق[63] بدلاً من طاهر بن الحسين، كما عين هرثمة بن أعين والياً على خراسان، وكافأ المأمون وزيره فخلع عليه لقباً جديداً هو «ذو الرئاستين» أي رئاسة السيف ورئاسة القلم، وهذه خاصية تدل على مدى النفوذ الواسع الذي وصل إليه هذا الرجل الفارسي.

سبب هذا التصرف سخط العناصر العربية، واستاء بنو هاشم من ميل المأمون إلى العلويين حيث لبس الثياب الخضراء شعارهم، وطرح السواد شعار العباسيين، وصاهر علي الرضا الإمام الثامن عند الشيعة الإمامية، واختاره لولاية العهد من بعده سنة 201هـ = 816م[64]، فنشبت الفتن في بغداد، وبايع سكانها إبراهيم بن

المهدي عم المأمون الذي اكتفى بحكم مدينة بغداد، وقد حجب الفضل بن سهل أخبار هذه التطورات السياسية السلبية عن المأمون الذي عرفها من علي الرضا، فأدرك خطأ بقائه في خراسان، وأن بغداد لا يمكن أن تعيش بدون خليفة، وقرر العودة، ورأى من خلال تصرفات وزيره أنه كان يخطط لكي يسيطر على الدولة العباسية من داخلها، فتخلص منه عام 202هـ = 818م. ولما وصل إلى طوس توفي علي الرضا فجأة، ولما وصل المأمون بغداد في سنة 203هـ = 819م طرح شعار العلويين وعاد إلى لبس السواد وبايعه الناس[65].

– الحركات المناهضة للدولة في عهد المأمون:

أ– الحركات العلوية:

نتيجة للصراع بين الأمين والمأمون حصلت حالة عدم استقرار سياسي، فانتهز العلويون ذلك، فقاموا بعدة حركات مناهضة في العراق والحجاز واليمن، وبخاصة بعد أن اتهموا المأمون بأنه تخلص من علي الرضا بدس السم له، وأهم هذه الحركات حركة أبي السرايا، وحركة محمد الديباج بن جعفر الصادق الذي بويع له في مكة، وقد تمكن المأمون من القضاء عليهما، فقتل أبا السرايا واضطر محمد الديباج إلى خلع نفسه[66].

ب– الحركات غير العلوية:

– لم تهدأ الأوضاع في الجزيرة وشمال الشام، إذ قامت القبائل العربية في هذه المنطقة بثورة ضد النفوذ الفارسي في الدولة العباسية، وتزعم هذه الانتفاضة عربي من بني عقيل اسمه «نصر بن شبث»[67] الذي سيطر على منطقة شمال حلب وانضم إليه الكثير من العرب، فندب ضد المأمون طاهر بن الحسين لمحاربته، ثم ابنه عبد الله بن طاهر، الذي اضطره إلى طلب الصلح.

– ثورة الزط: كان جنوب العراق مسرحاً لثورة خطيرة في عهد المأمون، عرفت باسم ثورة الزط، وكلمة الزط هي تعريب للفظ «جت» الفارسي، وهم خليط من الشعوب أقرب إلى الغجر، نزحوا أول أمرهم من شمال غرب الهند، فسكنوا

شواطئ الخليج العربي، واستغلوا الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون، فاستولوا على البصرة التي عاثوا فيها فساداً[68]، وقطعوا الاتصالات بين البصرة وبغداد، فأرسل اليهم المأمون عدة حملات عسكرية لقمعهم، إلا أنه لم يتمكن من القضاء عليهم، وظل الزط شوكة في حلق الدولة العباسية إلى أيام المعتصم الذي قضى على حركتهم عام 219هـ = 834م بقيادة «عجيف بن عنبسة»[69].

– الاضطرابات في مصر: استغل بعض الزعماء الفتنه بين الأمين والمأمون فقاموا ببعض الحركات الاستقلالية منها حركة السري بن الحكم في عام 206هـ = 821م. كما ثارت القبائل العربية في مصر السفلى في عام 214هـ = 829م بسبب سياسة الولاة التعسفية، ولكن المأمون تصدى لها ونجح في القضاء عليها[70].

– حركة بابك الخرمي: تعد أخطر حركة دينية المظهر، سياسية الهدف، وقد شكلت ذروة التآمر الفارسي المسلح ضد السلطة العربية العباسية، وصادف بابك نجاحاً في الأقاليم الشرقية حيث إنه أباح للناس سائر المحرمات وقطع السبل ونشر الفساد، واتبع سياسة عسكرية قائمة على هدم الحصون وكسرها وتخريبها حتى تضعف دفاعات العباسيين، وقد وجه إليه المأمون عدة حملات عسكرية فشلت في القضاء عليه، وأضحى بابك يشكل قوة خطيرة ضد الدولة[71].

– العلاقات الخارجية مع البيزنطيين:

شهدت الجبهة مع البيزنطيين فترة من الركود بسبب الظروف التي كانت تمر بها الخلافة، ولكن الملاحظ تعاون البيزنطيين مع بابك الخرمي في تنفيذ هجمات على الأراضي الإسلامية وبخاصة مدينة زبطرة، وفي المقابل تعاون المأمون مع الثائر البيزنطي توماس الصقلبي ضد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن سنة 206هـ = 821م، وتمكن المأمون وابنه العباس من فتح عدة حصون في منطقة كبادوكية، واستردا هرقلة ولؤلؤة[72].

– وفاة المأمون:

تكررت غزوات المأمون ضد الدولة البيزنطية، وتوغل فيها وفتح الحصون، وأجبر إمبراطور بيزنطة على طلب الهدنة، وتوفي أثناء خروجه لغزو البيزنطيين سنة 218هـ = 833م حيث حمل جثمانه ودفن في طرسوس، وكان قد عهد قبل وفاته إلى أخيه المعتصم[73].

8- أبو إسحاق محمد المعتصم (218- 227هـ = 833- 841م):

تولى أبو إسحاق المعتصم بالله مصر والشام في عهد أخيه المأمون، فأظهر من ضروب الشجاعة وقوة الشكيمة ما جعله موضع ثقة أخيه فولاه عهده، وقد رفض غالبية الجند في أول الأمر مبايعة المعتصم بالخلافة، وأرادوا تولية العباس بن المأمون، لكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراماً لوصية أبيه، فحذا الجيش حذوه.

– الأوضاع الداخلية في عهد المعتصم:

يعد حكم المعتصم حكماً استبدادياً مقروناً بشيء من العطف وحسن التدبير. اتصف بالشجاعة والإقدام، ولم تكن سياسته تجاه العلويين أقل شدة من سياسة من سبقه من الخلفاء باستثناء المأمون. خرج في عهده محمد بن القاسم بن علي الزيدي في عام (219هـ = 834م) في مدينة الطالقان بخراسان[74]، وقضى المعتصم على حركة الزط، وقضى على حركة بابك الخرمي بعد عدة حملات عسكرية وجهها إلى مناطق نفوذه، وجيء ببابك إلى سامراء عام 223هـ = 838م ومعه أخاه عبد الله، فقتلهما المعتصم[75].

– المعتصم وظهور العنصر التركي:

في ظل الصراع العنيف بين العرب والفرس، نجد أن الخليفة لم يركن إلى العنصر العربي، ولم يثق بالعرب نظراً لكثرة تقلبهم، وقيامهم ضد الخلفاء، كما أن هؤلاء فقدوا كثيراً من مقومات قوتهم السياسية والعسكرية، كما ضعفت ثقه المعتصم بالفرس بعد استحالة التوفيق بين تطلعاتهم ومصالح العباسيين. حملت هذه المعطيات

الخليفة المعتصم على أن يوكل أمر سلامته الشخصية إلى فرقة من العنصر التركي، جلبهم من أقاليم بلاد ما وراء النهر، إما عن طريق النخاسة أو عن طريق الأسر في الحروب، ومكن لهم في الأرض وخصهم بالنفوذ، وقلدهم قيادة الجيوش، وجعل لهم مركزاً متقدماً في مجال السياسية، وسمح لهم ركوب الخيل في شوارع بغداد مما أدى إلى اصطدامهم بالناس، فأثار ذلك مشاجرات بينهم وبين أهلها[76]، ولماشكا أهل بغداد إلى المعتصم عنت الأتراك وعنفهم، قام ببناء مدينة خاصة بالأتراك على بعد ستين ميلاً من بغداد عرفت باسم «سر من رأى» ولما خربت سميت «ساء من رأى»، ثم اختصرت إلى «سامراء»[77].

– المعتصم والمعتزلة:

اتبع المعتصم وصية أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن، ولأنه كان محدود الثقافة، ضعيف الكتابة، كره العلم منذ صغره، و لم تعقد مجالس المناظرة في عهده، كما كانت تعقد في عهد أخيه المأمون، ولكنه حرص على سياسة القول بخلق القرآن والامتحان به، لا عن اقتناع وتفكير، وإنما تنفيذاً لوصية المأمون التي جاء فيها: «وخذ بسيرة أخيك في القرآن»،[78] وقام المعتصم بجلد الإمام أحمد بن حنبل لإقناعه بالقول بخلق القرآن ثمانية وثلاثين سوطاً حتى سال منه الدم، وتعددت جراحه[79]، بعدما كان استحضره من سجنه الذي ظل محبوساً فيه منذ وفاة المأمون، وأدخله في حضرته ليناظر مجموعة علماء، وعلى مر ثلاثة أيام متواصلة، فشلوا في إقناعه، الأمر الذي جعل المعتصم يأمر بضربه، ثم أرسل إلى السجن.

– العلاقات الخارجية مع البيزنطيين:

في السنوات الأولى لخلافة المعتصم شهدت المناطق الحدودية هدوءاً شبه تام، لانشغال الخليفة بالقضاء على ثورة بابك الخرمي، وانصراف الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل إلى التخطيط لاستعادة جزيرة صقلية من المسلمين، ثم استؤنفت العمليات العسكرية بعد أربع سنوات لأن ثيوفيل أراد التعاون مع بابك الخرمي ضد العباسيين،

لذلك أغار على منطقة الفرات ليؤمن اتصالاً مع بابك في أرمينيه وأذربيجان، واستولى في طريقه على زبطرة، مسقط رأس والدة الخليفة، وأسر من فيها من المسلمين، ومثل بهم، وسبى المسلمات، كما هاجم سمسياط وملطيه وأحرقهما[80].

بعد أن أخمد المعتصم ثورة بابك، جهز جيشاً كبيراً وأراد الثأر لزبطرة وأهلها متوجهاً إلى عمورية مسقط رأس أسرة الإمبراطور ثيوفيل في وسط آسية الصغرى، ودخل المنطقة من ثلاثة محاور، ومنيت القوات البيزنطية بهزيمة نكراء، وتراجع ثيوفيل إلى نهر هاليس، وحاصرت القوات الإسلامية عمورية ودخلتها في شهر رمضان عام 223هـ = 838م ودمرت أسوارها، وأمر بالمقابل بترميم زبطرة وتحصينها[81]، ثم تقررت الهدنة بين الجانبين وتوفي كل من المعتصم وثيوفيل في العام نفسه، وفي نصر عمورية امتدح الشاعر أبو تمام الخليفة المعتصم بقصيدة شهيرة مطلعها:

السيف أصدق أنباء من في حده الحد بين الجد

9- أبو جعفر هارون الواثق (227- 232هـ = 841- 847م):

تسلم الخلافة أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن هارون الرشيد – تاسع الخلفاء العباسيين – بعد وفاة والده المعتصم، وقد أحسن في أيام خلافته إلى بني عمه الطالبيين[82]، كما أنه اتبع سياسة أبيه في الاعتماد على الأتراك الذين تزايدت أعدادهم، فشغلوا المناصب الكبيرة في الدولة حتى أنه ولى قائده التركي «أشناس» السلطة وتوجه بتاج مرصع بالجواهر سنة 228هـ = 842م.

– سياسة الواثق الداخلية:

أ– ثورة القبائل العربية:

تصدى الواثق في بداية عهده لحركات الأعراب من بني سليم وغيرهم الذين عاثوا فساداً في الحجاز بل وتطاولوا على الناس في ضواحي المدينة المنورة، حيث تمكنت قوات الواثق من هزيمتهم والقضاء عليهم بقيادة القائد التركي «بغا الكبير» وفرض الأمن على الطرق التجارية في شمال الجزيرة العربية[83].

ب – التعصب للمعتزلة:

تعصب الواثق للمعتزلة شأنه في ذلك شأن والده المعتصم وعمه المأمون، وتشدد في القول بخلق القرآن، مما أثار غضب الرأي العام ضده، وكان على رأس الساخطين أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم لخزاعي، الذي أخذ بمبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، أي أنه أجاز الخروج على الحاكم إن انحرف وجار وظلم، ولكن فشلت الثورة وتم إلقاء القبض على أحمد بن نصر الذي أصر على أن القرآن «كلام الله ليس بمخلوق» فعده الواثق كافراً أو خارجاً عن الإسلام وقتله بيده[84]، و لم تتوقف حركة التذمر من قبل العامة والفقهاء على تشدد الواثق في فرض آرائه الدينية على الناس، واجتمع أهل بغداد عليه، وتنادوا إلى عزله، واعترى إدارة الواثق الضعف، وتفشت الرشوة في عهده، وكثر الفساد، وتمتع ولاة الأقاليم بنفوذ كبير، وتوفي الواثق بمرض الاستسقاء عام 232هـ = 847م دون أن يولي أحداً بعده[85].

الفصل الثاني

العصر العباسي الثاني

عصر النفوذ التركي

232– 334هـ = 847– 946م

– طبيعة العصر العباسي الثاني:

ابتدأ هذا العصر بخلافة المتوكل وانتهى بخلافة المستكفي، وتميز بضعف الخلافة وسقوط هيبتها شيئاً فشيئاً حتى تجرأ أمراء الأطراف على الانفصال عنها، وانتقلت الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم، وقامت دول انفصالية مستقلة استقلالاً تاماً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة الروحي، ومن مظاهر اعتراف الدول الانفصالية بسلطة الخليفة الدينية، الدعوة للخليفة على المنابر، وضرب اسم

الخليفة على النقود قبل اسم الأمير المستقل، وإرسال قسم من الخراج إلى بيت مال الخلافة[86].

ونلاحظ أن دولة الخلافة العباسية، أثناء قيامها، حملت بذور هذا الانفصال، حين تطلعت الشعوب غير العربية للحصول على مبدأ المساواة التامة مع العرب وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، بعد أن حرمت منه في مراحل سابقة، وعملت الخلافة العباسية على تنفيذ هذا المطلب مما أدى إلى تقوية الروح الشعوبية لدى الشعوب غير العربية، ودفعها إلى إقامة دول انفصالية عنصرية، لكنها حافظت في الوقت نفسه على الولاء لمنصب الخلافة، واعترفت بسلطان الخليفة الروحي، وعليه، فإن مطالبة هذه الشعوب بتطبيق مبدأ المساواة، كان يخفي وراءه هدفا سياسياً.

وكان لأسلوب الحكم في الولايات النائية دور في تغليب نزعة الانفصال، فقد عمد خلفاء بني العباس، خاصة في عهد تصاعد نفوذ الأتراك، إلى تعيين بعض قادتهم حكاماً على هذه الأقاليم، وأهملوا في الوقت نفسه مراقبتهم ومحاسبتهم، وبحكم الأوضاع الفوضوية السائدة في الإدارة المركزية، عمد هؤلاء إلى تعيين نواب عنهم لإدارة الأقاليم باسمهم فيما حافظوا على وجودهم في العاصمة، يشاركون في رسم السياسة العليا للدولة، ويشتركون في المؤامرات، وينعمون بحياة البلاط، وأحكم الأتراك قبضتهم على أجهزة الدولة، ومنذ عهد المتوكل بدأ الانحلال يتسرب إلى جسمها بفعل ازدياد نفوذهم، وتقلصت نتيجة لذلك رقعة الدولة، واقتصر حكم الخلفاء على العراق وبعض مناطق فارس والأحواز، وتولت الدول الانفصالية مسؤولية الدفاع عن العالم الإسلامي كل من ناحيتها، إلا أن الخلافة استعادت قدراً كبيراً في سلطتها بين عامي (256-295هـ = 870-908م).

وتشمل عهود الخلفاء: المعتمد والمعتضد، والمكتفي الذي تمكن بعد قتال طويل من قتل زعيم القرامطة زكرويه سنة 294هـ = 909م[87].

وقد أطلق على هذه المرحلة اسم «صحوة الخلافة».

– العلاقة مع الأتراك:

منذ أن انتقلت عاصمة الخلافة من بغداد إلى سامراء التي أصبحت مقراً للعصبية التركية ما يقرب من خمسين عاماً، وأصبح الخليفة خاضعاً لقواته التركية الجديدة التي سرعان ما أدركت هذا الوضع، وبدأ القادة الأتراك يتجهون إلى تكوين كيانات خاصة بهم، كما طمع بعضهم في الاستئثار بشؤون الحكم في العاصمة، فاضطر الواثق أن يخلع على أشناس لقب «السلطان» معترفاً له بحقوق تتجاوز نطاق المهام العسكرية،(88) وأحكموا قبضتهم على دار الخلافة، فأحاطوا بالخليفة يراقبون تحركاته، ويشاركون في صنع القرارات السياسة(89)، ويتدخلون في اختيار الخلفاء وتوليتهم وعزلهم حتى أضحى قادتهم أهل الحل والعقد.

لم يخضع الخلفاء للنفوذ التركي بسهولة، بل قاوموه، وحاولوا التخلص من «صانعي الخلفاء»، لكن لم يكن لديهم القوة اللازمة لمجابهة نفوذهم الطاغي، وفيما يلي دراسة مختصرة عن الخلفاء العباسيين في عصر النفوذ التركي وأهم الأحداث التاريخية في فترة حكمهم.

1– خلافة أبي الفضل جعفر المتوكل (232–247هـ = 847–861م):

تولى الخلافة بقوة الأتراك وشعر هؤلاء أن الخلافة عاجزة عن الاستغناء عن خدماتهم مما ساقهم إلى مزيد من العنفوان، ولم يلبث المتوكل أن أدرك حقيقة موقفهم الضاغط على الخلافة، وشعر باستبدادهم بشؤونها، وقلة احترامهم لشخصه، فقرر تحجيم قوتهم فبدأ بأهم قادتهم وهو إيتاخ فتمكن من إبعاده عن منصبه وسجنه وتوفي في سجنه عام 235هـ = 850م(90).

ولكي يقطع على الأتراك طريق التدخل لاختيار خلف لقائدهم إيتاخ عمد المتوكل إلى عقد البيعة لأبنائه الثلاثة بولاية العهد وهم محمد المنتصر وأبو عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد، وقام بتقسيم البلاد بينهم، عندها أدرك الأتراك خطورة وأبعاد ذلك، واشتد حقدهم على الخليفة، وعدوا إبعادهم من مناصبهم خطوة أولى في سبيل القضاء

عليهم، لذلك أصبحت مؤامراتهم ودسائسهم لا تنقطع، وشعر المتوكل في هذا الجو الخانق، بالضيق، ولما كان وجوده في سامراء يجعله في قبضتهم، وإذ لم يكن قادراً على تلبية مطالبهم الملحة بالحصول على المال، فقد حاول اجتناب سيطرتهم بأن انتقل إلى دمشق وجعلها حاضرة له، لعله يجد فيها من يقف إلى جانبه من العنصر العربي، لكن الظروف الداخلية والمناخية لم تساعده على البقاء فيها واضطر للعودة إلى سامراء بعد أن قضى في دمشق ثلاثة أشهر[91].

واشتد العداء بين المتوكل والأتراك إلى أن تمكنوا من قتله بمعاونة ابنه المنتصر الذي نقم على والده لأنه حاول تغيير ولاية العهد بتقديم المعتز عليه، إضافة إلى اعتراض المنتصر على سوء معاملة والده للطالبيين حيث كان يتعاطف معهم وكان يرى فيهم قرابة يجب ألا تنتهك حرمتها، وكان مقتل المتوكل إنذاراً لكل عباسي يريد أن يعتلي الخلافة، بأن يختار أحد أمرين: إما الإذعان التام لأهوائهم، أو القتل. وقد أثارت حادثة القتل موجة من النقمة ضد تسلط الجند التركي، فحدثت في سامراء في عام (248هـ = 862م) حركة شعبية عبرت عن استنكار العامة لعبثهم بالخلافة[92].

2- أبو جعفر محمد المنتصر: (247-248هـ = 861-862م):

لقد وصل المنتصر إلى الحكم بفضل دعم الأتراك له، لذلك كان من الطبيعي أن يكون خاضعاً لنفوذهم، ولم يكن له من شيء إلا مظهر اسمي اختصر على السكة والخطبة.

وأجبر أخويه المعتز والمؤيد على خلع نفسيهما بأمر من الأتراك خوفاً من أن يقوما بالثأر لدم والدهم، وأدرك المنتصر خطورة التسلط التركي، فكرههم وحاول التخلص من زعمائهم، وتنبه الأتراك لهذا الخطر المحدق بهم فتخلصوا من الخليفة بواسطة الطبيب الطيفوري الذي سمه بمشرط حجمه به [93].

3- أبو العباس أحمد المستعين (248-252هـ = 862-866م):

اتفق الأتراك على عدم اختيار أحد من أولاد المتوكل خشية أن يقتلهم بدم أبيه وقاموا بتنصيب أحمد بن محمد بن المعتصم خليفة ولقبوه بـــ «المستعين» وتوزعوا المناصب الكبرى في الدولة، وبسبب تسلط الأتراك على الحكم قامت ثورة شعبية في سامراء، حيث اصطدام العامة والأتراك في حرب شوارع انتهت بانتصار الأتراك، وانتقلت الثورة إلى بغداد، ولكن الأتراك سيطروا على الموقف [94]. ثم حصل انشقاق بين الأتراك فاستغل المستعين هذه الخلافات وراح يتخلص من زعمائهم، فنفى أحمد الخصيب إلى جزيرة كريت وقتل آتامش وباغر، ثم انتقل إلى بغداد للاحتماء بأهلها، وشبت الحروب بين مجموعة من القادة الأتراك والخليفة وقام عامة الناس بمساعدته، ولكن استطاع الأتراك دخول بغداد، فخرج المستعين إلى منفاه في البصرة متنازلاً عن الخلافة، ولكن الأتراك خشوا من بقائه حياً فعمدوا إلى قتله [95].

4- أبو عبد الله محمد المعتز (252- 255هـ = 866-869م):

أثناء الصراع بين القادة الأتراك والخليفة المستعين قاموا بخلعه وتنصيب المعتز الذي تكتل حوله معظم قادتهم، و لم تكن ظروف الخلافة في عهد المعتز بأفضل حالاً، ذلك أن الخليفة عاد إلى سامراء ووقع تحت تأثير النفوذ التركي. ومن جهة أخرى، ازداد استبداد الأتراك، وكثرت اضطراباتهم، ومطالبهم بالمال، وعجز الخليفة عن تلبيتها مما أدى إلى إقدامهم على خلعه وتنصيب أخيه المؤيد بن المتوكل. لكن الخليفة أجبر أخاه على خلع نفسه ثم قتله، وتخلص من بعض الزعماء الأتراك مثل وصيف وبغا كونهما مسؤولين عن الحرب الأهلية التي وقعت بينه وبين المستعين [96]، وأدرك الأتراك مرامي الخليفة فتحركوا للمحافظة على حياتهم ومكتسباتهم فأرغموه على خلع نفسه وأسندوا الخلافة إلى محمد بن الواثق ولقب بـــ «المهتدي»، وسلموا المعتز إلى من يعذبه حتى مات [97].

5- أبو إسحاق محمد المهتدي (255-256هـ = 869-870م):

كان المهتدي شديد الرغبة في الإصلاح، ورعاً تقياً [98]. وبدأ بنفسه فتجرد من أبهة الحياة وزخرفها، وحرم الشراب، ونهى عن القيان وأظهر العدل، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب بالناس ويؤمهم، وأشرف على الدواوين، وأخذ ينظر في المظالم، فبنى قبة لها أربعة أبواب سماها قبة المظالم، كان يجلس فيها للعام والخاص [99]، ولكنه تعرض لثورة الجند بسبب التأخر في دفع أرزاقهم وتبعهم العامة، وأذكى الطالبيون نار الثورة في كثير من الأقاليم [100]، ونشبت ثورة الزنج التي هددت كيان دولة الخلافة العباسية زهاء أربعة عشر عاماً، وثار الخوارج في الموصل، ولكن الخليفة رأى أن التخلص من الأتراك ضرورة ملحة لنجاح الإصلاح وتأمين الاستقرار، واستعادة الخلافة لهيبتها.

لذلك قرر الخليفة أن يضرب القادة الأتراك بعضهم ببعض. إلا أن محاولته باءت بالفشل واتفقت كلمة الأتراك على التخلص منه وقتله [101].

6-أبو العباس أحمد المعتمد: (256-279هـ = 870-892م):

بعد أن قام الأتراك بقتل المهتدي، قاموا بالبيعة لأبي العباس أحمد بن المتوكل ولقب بالمعتمد، ونتيجة لازدياد الخلافات الداخلية بين الأتراك، طلبوا من الخليفة أن يولي أحد إخوته إمرة الجيش، فولى أخاه أبا أحمد طلحة الموفق، ويُعد هذا الرجل نبراس الفاعلية في انتعاش الخلافة، فهو الرجل الذي جمع الأمور كلها في يده، وأبقى للخليفة الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين، فانكسرت شوكة الأتراك خاصة بعد هزائمهم أمام الزنج وعجزهم عن مقاومة المد الانفصالي وقيام الدول الانفصالية، لكن الموفق توفي في عام (278هـ = 891م) [102]، وكانت الخلافة لا تزال بحاجة إلى رجل قوي يحافظ على مكتسباتها، وظهرت أحداث هامة في عهد المعتمد، مثل ثورة الزنج، واختفاء الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الإثنا عشرية، وتأسيس طائفة الإسماعيلية التي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد تأكد المعتمد من ضعف

ابنه جعفر والذي كان ولياً للعهد فعزله، وبايع لابن الموفق أبي العباس المعتضد، ثم ما لبث أن توفي فجأة بعد عدة أشهر [103].

ولا بد لنا من إلقاء نظرة سريعة على الأحداث الهامة التي حصلت في عهد الخليفة المعتمد.

أ- ثورة الزنج:

الزنج طائفة من العبيد الأفارقة، كلفوا بالأعمال الشاقة في إصلاح الأراضي الزراعية جنوبي العراق، دون أن يتقاضوا أجراً سوى قليل من التمر والدقيق يقتاتون به، وسط هذه الأوضاع ظهر رجل فارسي الأصل يقال له علي بن محمد ادعى نسباً علوياً على أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب [104]، اشتهر بفصاحته وبلاغته ونبله استطاع أن يستميل قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها حينما قال بأن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت. فاجتمع إليه منهم خلق كثيرون، حتى عظم شأنه وقويت شوكته وصار له عز بعد فاقة، حينما غزا أصحابه المدن ينهبون ويشيعون الذعر في قلوب الأهالي فأثرى بسببها وعظم حاله ونهبه.

وكان علي بن محمد شخصية محيرة فعلاً، حيث يلاقي الباحث صعوبات جمة في معرفة نسبه، وذلك بفعل تقلباته السريعة، تبعاً للظروف التي كان يمر فيها، واتصف بأنه رجل طموح وموهوب جداً وبعيد عن الزهد لأنه شارك في السلب والنهب، ويبدو أن حياته غير طبيعية، فقد بدأها كشاعر في بلاط الخليفة بسامراء، ثم حاول القيام بحركة ضد النظام في البحرين للوصول إلى الحكم، إلا أنه أخفق في تحقيق مبتغاه، ثم ادعى نسباً علوياً محاولاً أن يستثمر ما للشيعة من عطف وتأييد بين الناس، وقام أتباعه بتقديسه حتى أنهم حملوا له الخراج [105]، وقد استغل الأوضاع الداخلية السياسية والاجتماعية في البصرة وحالة العبيد البائسة، فرصة لتحقيق طموحاته، وفي

عام 255هـ = 869م تزعم حركة ثورية، مدعياً أن الله أرسله لتحرير العبيد وإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس، كما ادعى العلم بالغيب [106].

والواقع أن فكرة المهدي المنتظر قد رافقت علي بن محمد في جميع مراحل حياته السياسية، فاستغلها بذكاء، وهو بادعائه المهدوية، كان يضرب على وتر حساس في نفوذ جماعة العلويين الذين برح بهم الشقاء، فكانوا يأملون ظهور مهدي منقذ يزيل عنهم الغمة، ويفرج عن أيامهم كربتها [107]، ويبدو التناقض في عقيدة هذه الحركة، حيث نجد أن علي بن محمد أعلن أن ثورته قامت لأجل العدالة الاجتماعية والمساواة، ولكنه في الوقت نفسه وعد أتباعه بأنه سيملكهم المنازل والعبيد، وهذا يعني تحويل حياة الزنج من أرقاء إلى ملاكين للعبيد [108]، إن هذا التناقض جعل هذه الثورة حركة مسلحة ضد النظام لا غير، كما جعل من قائدها رجلاً مغامراً طموحاً إلى السلطة، مما حد من اندفاعها لدرجة كبيرة و حصرها في فئة من الزنج، وأبعد عنها تدريجياً الفئات الأخرى التي شاركت فيها.

وما زال الزنج يلتفون حول علي بن محمد وهو يخطب بهم، ويعيد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت، ومناهم الأماني الطيبة، واتخذ من مدينة المختارة، التي بناها جنوب شرق البصرة، كقاعدة للانطلاق [109].

وقد برهن على أنه قائد مقتدر، إذ تميزت حملاته بكفاءة استطلاعية، فتوفرت له دائماً المعلومات عن تحركات جيوش الخلافة، وأعطته السياسة القتالية التي اتبعها، والقائمة على نصب الكمائن، التفوق على قوات الخليفة، فدخل البصرة عام 257هـ = 871م، وقتل سكانها وأحرقها[110].

كانت الخلافة آنذاك منهمكة في حرب يعقوب بن الليث الصفار مما أعطى علي بن محمد فرصة التمادي والتوسع والتدمير، فسيطر خلال عشرة أعوام (255-265هـ = 869-879م) على رقعة واسعة تمتد بين الأحوار و واسط، وباتت بغداد مهددة، عندئذٍ عهد الخليفة المعتمد إلى أخيه أبي أحمد الموفق طلحة، بمحاربة

الزنج، فتولى هذا القائد قيادة العمليات العسكرية بنفسه، واستعمل كل ما لديه من إمكانيات سياسية واقتصادية وعسكرية ليكفل النجاح، فحاصرهم اقتصادياً ليضعف قدراتهم، فأحرق غلالهم ومؤنهم، وقطع التموين عنهم الذي كان يقدمه الأعراب لهم، فغطهم الجوع، وخارت قواهم، فاستسلمت أعداد كبيرة منهم، ومن حيث الصدمات العسكرية، فقد تمكن الموفق من إجلائهم عن الأحواز، وفتح مدينتهم المختارة، ثم توالت هزائمهم وسقوط مواقعهم الأخرى حتى تم النصر النهائي عليهم عام (270هـ = 883م)، وقُتل علي بن محمد إبان المعارك واستسلم من بقي من أتباعه [111]، وبإخماد الثورة أسدل الستار على هذه الحركة التي أقضت مضاجع الخلافة العباسية، وكلفتها الكثير من الجهد والأموال والأرواح، والتي دامت أكثر من أربعة عشر عاماً (255-270هـ = 869-883م).

نلاحظ أن هذه الحركة رغم نجاحاتها الأولية أصابها الضعف لافتقارها إلى برنامج ثوري يصوغ تطلعات وأهداف القائمين بها، ويوضح العلاقة بين القيادة والأتباع، كما يلاحظ أن رجالها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم، وأن قائدها لم يستطع أن يحرر نفسه من مسألة فكرة الزعامة القرشية، بالإضافة إلى أن أطرها الثورية كانت محلية ومحدودة و لم تكن لديها تطلعات شاملة، وندرك من هنا عدم نجاح علي بن محمد في اكتساب قطاعات كبيرة من المجتمع العراقي، كالفلاحين وكبار الملاك والتجار والحرفيين، وحتى القرامطة، فأصبح العبيد بمفردهم ضعفاء رغم عددهم الكبير، ومن جهة ثانية، فإن سرعة الأحداث، وتصميم العباسيين على القضاء عليها، لم يعطيا قائدها حملة لتنظيم صفوف قواته، وتمكنه من بناء مجتمع مستقر ذي أنظمة خاصة، لذلك كان من الطبيعي أن تفقد هذه الحركة طابعها الإنساني والثوري مما دفعها إلى نهايتها المحتومة، لكن قاعدتها الثورية التي تشتت استطاعت أن تكون إحدى الدعائم الأساسية التي دفعت الحركة القرمطية إلى الظهور فيما بعد [112].

ب- اختفاء الإمام محمد بن الحسن العسكري- الإمام الثاني عشر- عند الشيعة:

توفي الإمام محمد بن الحسن العسكري [113]- علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق- الإمام الحادي عشر من أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية في عهد المعتمد سنة 260هـ = 874م، وكان ابنه في الخامسة من عمره، فأصبح الإمام الثاني عشر عند تلك الطائفة. دخل محمد بن علي الهادي سرداباً من مدينة سامراء وأمه تنظر إليه، ولكنه لم يعد، ولم يقف له أتباعه على أثر منذ ذلك الحين، أي منذ السنة التي اختفى فيها وهي سنة (265هـ = 879). وبحسب عقيدة الإمامية الإثنا عشرية أن محمداً سيظهر ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، لذا سموه الإمام المنتظر وصاحب الزمام والقائم بالأمر والحجة.

جـ- تأسيس طائفة الإسماعيلية:

في وقت كانت فيه حركة الزنج تحتضر ظهرت دعوة الإسماعيلية التي يعود تاريخ حضورها على المسرح السياسي إلى أواخر عهد دولة الخلافة الأموية عندما انضم عدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق، وبعد وفاته انقسمت الشيعة إلى قسمين بفعل اختلاف الرأي في كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام، وهما الإمامية الموسوية، وقد أطلق عليها فيما بعد الإثنا عشرية، واعتقد أتباعها بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع، والإمامية الإسماعيلية الذين اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أولاد أبيه، ومع أن وفاته حصلت في حياة والده، فقد حوّل أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور، وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية لتميزهم عن الإثنى عشرية[114]. لجأ الأئمة الإسماعيليون إلى الاختفاء، وعمدوا إلى نشر دعوتهم، خوفاً من مطاردة العباسيين لهم، ولم يمض وقت طويل حتى انقسموا إلى فرقتين كلتاهما عملت ضد الدولة العباسية:

الأولى: اتخذت من بلدة «السلمية» قرب حمص مركزاً لها حيث أن ميمون القداح وهو من أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية، قام بوضع أسس المذهب الإسماعيلي، ممهداً السبيل لابنه عبد الله الذي أقام في سلمية، وانتشر دعاته في المناطق المضطربة لاستغلال تذمر بعض قطاعات من الناس من الإدارة العباسية، وكانت هذه الفرقة أكثر اعتدالاً من الثانية ومنها انبثقت الدعوة الفاطمية.

الثانية: تنسب هذه الفرقة إلى زعيمها حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط، لذلك عرفت هذه الفرقة بـــ «القرامطة» الذين أقلقوا بال العباسيين في الكوفة والعراق وبادية الشام وغيرها.

انتظمت الدعوة الإسماعيلية منذ الثلث الأخير من القرن التاسع الميلادي في بلاد اليمن والعراق [115]، والراجح أن الدعوة إلى هذا المذهب ظهرت بشكل واضح عقب وفاة الحسن العسكري وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الإثنا عشرية، في عام (260هـــ = 874م) تعرض الإسماعيليون للاضطهاد على أيدي السلطة، فاضطروا إلى الاعتصام [116] في مواطن نائية ومنيعة يصعب على العباسيين اقتحامها، كما نشروا دعوتهم سراً، واجتهدوا لاستقطاب الأتباع منطلقين من سلمية إلى كافة البقاع الإسلامية، لممارسة العمل السياسي ضد الدولة العباسية كلما سمحت لها الظروف.

7- أبو العباس أحمد المعتضد (279-289هـــ = 892-902م):

سلك المعتضد نهج والده في حروبه وأعماله الإدارية بهدف استمرارية إنعاش الخلافة، وتثبيت هيبتها واستمر في عهده تراجع نفوذ الأتراك. عرفت الأوضاع الداخلية للدولة العباسية في عهده بعض الاضطراب بسبب قلق العرب من سيطرة الأتراك، فكان أن عاث بنو شيبان في الجزيرة فساداً، الأمر الذي جعل الخليفة المعتضد يتولى بنفسه حملة لتأديبهم، ثم خرج سنة 281هـــ = 894م للاستيلاء على قلعة ماردين التي أخذها عنوة حمدان بن حمدون- جد الأسرة الحمدانية- فكان له ما أراد وهدم القلعة المذكورة بعد أن قبض على حمدان [117]، ثم قام المعتضد برد غارات

القرامطة الذين أغاروا من البحرين وسواحل فارس بزعامة أبي سعيد الجنابي على إقليم البصرة سنة 287هـ = 900 بعد ما حلت بالمنطقة خسائر جسيمة [118]، وهناك إشارة أخيرة لا بد لنا من ذكرها، وهي أن المعتضد انتقل من مركز خلافته في سامراء إلى بغداد، فكان ذلك بدء عهد أفول نجمها وخرابها بعدما بلغت درجة من الحسن والجمال نافست بها بغداد، و قبيل وفاته ولي الخلافة بعده ابنه أبو محمد الملقب بالمكتفي.

8- أبو محمد المكتفي (289-295هـ = 902-908م):

بدأت ظواهر الضعف في الدولة بسبب الصراع على النفوذ بين كبار موظفي الدولة مما شجع القرامطة بزعامة الحسين بن زكرويه على القيام بالأعمال العسكرية والتخريبية في الشام والبحرين والعراق وطريق الحج إلى مكة، وأظهر هذا الرجل شامة في وجهه وزعم أنها آية له، فلقب بـ«ذي الشامة» وسمي بـ«أمير المؤمنين» بين سنتي 289-290هـ = 902-903م وارتكب المجازر البشعة، فما كان من أهل الشام إلا أن رفعوا شكواهم ضده إلى الخليفة المكتفي بالله الذي توجه إلى الشام عن طريق الموصل على رأس قوة عسكرية طاردت أبا شامة حتى تم القبض عليه سنة 290هـ = 903م مع عدد كبير من رجاله [119].

أخذت العلاقات العباسية - البيزنطية بين الدولتين طابع المسالمة حيناً والعداء أحياناً في عهد المكتفي، ففي سنة 290هـ = 903م وصلت رسل لبيزنطة يسألون الخليفة العباسي المفاداة بمن في أيدي المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا. تم الفداء سنة 293هـ = 906م [120]، وكان جملة من فودي من المسلمين نحو 1200 أسير.

وكما ذكرنا أعلاه، لم تدم هذه العلاقات الطيبة بين الدولتين، إذ توجه جيش إسلامي سنة 291هـ = 904م من طرسوس لمهاجمة أنطاكية التي كانت تعد من أهم الثغور البيزنطية البحرية، فتمكن المسلمون من فتحها وقتل وأسر عدد كبير من أهلها، كما استولوا على ستين مركباً للبيزنطيين، وتمت مفاداة ثانية في عهد المكتفي

سنة 295هـ = 908م فبلغ عدد من فؤدي به من المسلمين ثلاثة آلاف نفس من الرجال والنساء [121]، وتوفي المكتفي سنة 295هـ = 908م فخلفه أخوه المقتدر.

9- أبو الفضل جعفر المقتدر (295هـ = 320هـ = 908-932م):

رفض الأتراك ترشيح عبد الله بن المعتز لمنصب الخلافة لأنه كان كفئاً واختاروا أبا الفضل جعفر بن المعتضد وكان في الثالثة عشرة من عمره، فولوه الخلافة وتلقب بـ «المقتدر»، ولكنه بقي مغلوباً على أمره طوال مدة خلافته، وحتى إنه خلع مرتين، ونظراً لصغر سنه فقد كانت أمور الدولة تدار من قبل أمه ونسائه وخدمه، ويبدو أن مقاليد الأمور كانت بيد أمه صاحبة النفوذ القوي، التي كانت تسمى «السيدة» والتي كانت إذا غضبت من أحد الوزراء فإن مصيره العزل، وبلغ بها الاستهتار أن عينت قهرمانتها «تومال» على رأس ديوان المظالم، الأمر الذي أدى إلى استخفاف العامة بالدولة وتفشت الرشوة في عهد المقتدر، وأصاب الدولة الضعف الشديد مما شجع القرامطة بقيادة أبي طاهر سليمان الجنابي [122] على غزو البصرة ونهبها وقتل الكثير من الناس، وفي سنة 317هـ = 929م غزا أبو طاهر بجنده القرامطة مكة المكرمة [123] فاستباح الحرم، وقتل الحجاج في المسجد الحرام، وفي البيت نفسه، كما قلع الحجر الأسود وخلع كسوة الكعبة، وقتل جماعة من الأشراف، ثم ألقى بجثثهم في بئر زمزم، وهكذا لم يرد الحجر الأسود إلى مكانه إلا بعد دفع الأموال الكثيرة والرجاء والتهديد من جانب المهدي عبد الله العلوي مؤسس الدولة الفاطمية في شمال إفريقية، وخلع المقتدر بالله عن الخلافة وبويع بها عبد الله بن المعتز، فمكث يوماً واحداً في الخلافة لأن المقتدر عاد وانتصر عليه فأخذه وقتله، ولم يعد عبد الله بن المعتز من الخلفاء لقصر مدة ولايته [124]، ثم خرج مؤنس الخادم أمير الجيوش على الخليفة سنة 317هـ = 929م، وفي سنة 320هـ = 932م كذلك، وقد انتهى النفور بينهما أخيراً إلى قتال ذهب ضحيته المقتدر الذي قتل، ثم بويع بالخلافة بعده أخوه القاهر بالله.

10- أبو منصور محمد القاهر: (320-322هـ = 932-934م):

لم تكن خلافة القاهر القصيرة خيراً من خلافة المقتدر، فقد استمر شغب الجند وغدا منصب الخلافة، مرة أخرى، هدفاً للازدراء، وحاول مؤنس الخادم الاتفاق مع الوزير ابن مقلة للخروج على الخليفة، لكن القاهر الذي رأى في القادة الأتراك أعداء لدولته استطاع أن يتخلص من هذا القائد التركي [125]، وعلى الرغم من قوة القاهر وقسوته فإن القادة تمكنوا أخيراً من القبض عليه وخلعوه وسملوا عينيه، ولم يسمل قبله أحد من الخلفاء، وبايعوا الخليفة الراضي (322-329هـ = 934-940م) [126].

11- أبو العباس أحمد الراضي (322-329هـ = 934-940م)، وظهور نظام إمرة الأمراء:

لقد حدث تطور جديد في شؤون الحكم في عهد الخليفة الراضي، حين بذلت محاولة أخيرة لإنقاذ الخلافة تناولت مركز الخلافة والوزارة ووضع الأتراك، وانتهى هذا التطور بظهور منصب أمير الأمراء الذي سيطر متقلده على مقاليد الحكم، وامتدت صلاحياته إلى الضرائب والإدارة، فهيمن على الخلافة حتى أضحى الخليفة مجرد رمز ولم يعد له من صلاحيات فعلية في ممارسة الحكم، وأزال نفوذ الوزراء، وتوقف الصراع بين الخلافة والأتراك الذي شغل جانباً كبيراً من العصر العباسي الثاني.

ابتدأ هذا المنصب بالظهور في عام (324هـ = 936م) على حساب منصب الوزارة، ذلك أن الراضي استعان في إدارة شؤون دولته ببعض وزراء كانوا ضعافاً عجزوا عن النهوض بأعباء الوزارة، وفقدوا ما كان لهم من نفوذ، حتى أضحوا عرضة للتنكيل والمصادرة. ومن جهة أخرى، تراجع نفوذ الأتراك بفعل التفكك الذي ساد بينهم، والتنافس على مركز الصدارة، وتفشي الحسد بين قادتهم.

وهكذا عندما شعرت الخلافة نتيجة هذه الأوضاع المتردية بضعف الوزراء، وبعجز الأتراك، وبفراغ الخزانة، أخذت تتطلع إلى حكام الإمارات القريبة من بغداد لتستعين بهم على إنقاذ الموقف الذي بلغ درجة خطيرة من التدهور.

فاستدعى الخليفة الراضي محمد بن رائق أمير واسط والبصرة وسلمه مقاليد الأمور، وأطلق يده في سلطات الدولة كلها ولقبه أمير الأمراء [127].

وهذا المنصب هو عبارة عن نقل كل سلطات الخليفة إلى قائد تتوفر فيه صفات الرئاسة المدنية والقيادة العسكرية [128]، وقد وصف ابن الأثير أوضاع دولة الخلافة العباسية في عهد الراضي فقال: «... ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم» [129].

ويبدو أن نفوذ ابن رائق قد ضعف في عام (326هـ = 938م) بفعل منافسة الأمراء له، فقد حاربه أبو عبد الله البريدي حاكم الأحواز، كما خرج عليه أحد قادته ويدعى بجكم الذي دخل بغداد في عام (327هـ = 939م).

واستولى على مقاليد الأمور وآلت إليه إمرة الأمراء، أما ابن رائق فقد فر إلى بلاد الشام [130]. استمر بجكم في منصبه زهاء ثلاثة أعوام وصلت فيها الحالة العامة إلى درجة خطيرة من الفوضى والتدهور [131]، وقتل بجكم في عام (329هـ = 941م) بيد أحد الأكراد [132].

ولكن قبل مقتل بجكم بأربعة أشهر تقريباً مات الخليفة الراضي في بغداد، وتشاور أعيان الدولة وأفراد البيت العباسي فيمن يصلح للخلافة، فرشحوا جعفر بن المقتدر لهذا المنصب وبايعوه في عام (329هـ = 940م) ولقب بـ«المتقي» [133].

12- أبو إسحاق جعفر المتقي (329-333هـ = 940-944م):

كان المتقي مجرد ألعوبة في أيدي القادة المتنافسين على السلطة خاصة أبو عبد الله البريدي وابن رائق والحمدانيين، وانتقلت في عهده صلاحيات منصب أمير الأمراء إلى يد البريدي الذي برز بعد مقتل بجكم، لكن دون أن يقلده الخليفة هذا المنصب

تقليداً رسمياً وذلك بفعل مواقفه المتقلبة، واكتفى بأن جعله وزيراً [134]، لكنه جمع إلى منصبه المدني قيادة الجيش فأضحى في حكم أمير الأمراء، ويبدو أنه عجز عن تلبية حاجات الجند ومطالبهم المتزايدة، وأضحى هدفاً لدسائسهم، فاضطربت الأمور في بغداد واضطر إلى مغادرتها وعاد إلى البصرة [135]، فتقلد ابن رائق المنصب مرة ثانية بعد أن استدعي من بلاد الشام فتفاهم مع البريدي وقلده منصب الوزارة، وظل الأمر على ذلك مدة، ثم اختلف الرجلان، فعزل ابن رائق البريدي من منصبه، فجمع هذا جيوشه وهاجم بغداد، فاضطر الخليفة وابن رائق إلى الهرب والتجأ إلى بني حمدان في الموصل، واستولى البريدي على منصب أمير الأمراء ودخل بغداد للمرة الثانية، ولكن البريدي وجماعته لم يظفروا بمحبة الناس بسبب إمعانهم في السلب والنهب، ومن جهة أخرى عين الخليفة ناصر الدولة الحمداني أميراً للأمراء في عام (330هـ = 942م) وأرسله على رأس جيش كثيف لمحاربة البريدي فأخرجه من بغداد وعاد إليها الخليفة في العام المذكور. [136] برز في هذه الأحداث القائد التركي توزون، فقلده المتقي شرطة بغداد ثم جعله أميراً للأمراء، لكن الوضع العام لم يتحسن بفعل استمرار النزاعات الداخلية، فاضطر هؤلاء إلى ترك حاضرة الخلافة، خاصة وأنهم خسروا الحرب التي نشبت بينهم وبين توزون وعادوا إلى الموصل بصحبة الخليفة [137].

ويعد توزون من أقوى الأمراء الذين تولوا الأمر في العصر العباسي الثاني، فقد استطاع هذا الرجل أن يستولي على الحكم من متنافسين قويين هما الحمدانيون والبريديون. وخشي من محاولة الخليفة التقرب من الإخشيديين في مصر، فتحايل عليه حتى عاد إلى بغداد مرة أخرى، فقدم له فروض الطاعة ظاهرياً، وأوغر سراً إلى بعض أصحابه فقبضوا عليه وأجبروه على خلع نفسه ثم سملوا عينيه وذلك في سنة (333هـ = 944م) وسجنوه مدة خمس وعشرين سنة حتى توفي في عام (357هـ = 968م)، واختار توزون عبد الله بن المكتفي خليفة ولقب بـ «المستكفي» [138].

13- أبو القاسم عبد الله المستكفي (333-334هـ = 944-945م):

لم تطل خلافة المستكفي فقد حكم سنة وأربعة أشهر استبد توزون خلالها بالسلطة، ثم خلفه ابن شيرزاد وبقي في منصب أمير الأمراء حتى استولى معز الدولة ابن بويه على بغداد وألغى منصب أمير الأمراء [139].

والواقع أن دولة الخلافة العباسية لم تستفد من هذا النظام الذي أنشأه الراضي لإقالة الخلافة من عثرتها، بل زادت أحوالها سوءاً، وإن من يستقصي عهود الراضي والمتقي والمستكفي يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تنقطع بين رجال الدولة العباسية الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولي إمرة الأمراء [140].

الفصل الثالث

العصر العباسي الثالث

عصر النفوذ البويهي

334- 447هـ = 946- 1055م

يعد العصر العباسي الثالث ردة فعل مناهضة للنفوذ التركي الذي تمكن من السيطرة على مقدرات الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني. أما العصر البويهي فيمثل حركة فارسية شيعية زيدية لإعادة الاعتبار الذي تراجع خلال القرن الثالث الهجري، واختلف هذا العصر في مظاهره عن العصر العباسي الثاني من حيث التركيز على المشرق.

يرجع نسب البويهيين إلى زعيم فارسي اسمه بويه، عاش في إقليم الديلم إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين. وقد بدأ ظهورهم على مسرح الأحداث، عندما دخل علي بن بويه وأخواه الحسن وأحمد في خدمة مرداويج بن زيار مؤسس الدولة الزيارية

الانفصالية في طبرستان عام 316هـ = 927م، وكانت دولته تشمل جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان والكرج. وقد ولى مرداويج علي بن بويه بلاد الكرج[141]، وهكذا هاجرت هذه الأسرة من الشمال من بلاد الديلم المنطقة المجاورة لبحر قزوين، واشتهرت على يد الأخ الأكبر من الأخوة البويهين الثلاثة، وهو علي بن شجاع بن بويه، ويبدو أن علياً كانت تراوده نزعات تتعدى الاستقلالية إلى التوسع على حساب جيرانه بالإضافة إلى الطموح السياسي الذي تحقق له سريعاً، حيث ما لبث أن أصبح صاحب شوكة في هذه النواحي، واستمال الناس بحسن سياسته، وتمكن بفضل مقدرته العسكرية، والإدارية، وكرمه، وحسن معاملته لأتباعه، من بناء جيش قوي، انتزع به معظم بلاد فارس، خلال فترة قصيرة، واتخذ مدينة شيراز قاعدة لحكمه[142]، كان علي يستولي على هذه البلاد باسم الخليفة العباسي ظاهراً، لكنه في باطن الأمر كان يهدف إلى إقامة دولة خاصة به مستغلاً ضعف الخلافة السياسي والعسكري وعجزها عن التدخل في هذه المناطق لترتيب أوضاعها[143]، ثم أرسل إلى الخليفة الراضي يطلب منه الاعتراف بسلطانه وهذا طبيعي، فقد كان عليه أن يأمن جانب الخلافة لأنه سيطر على إحدى ولاياتها رغم إرادتها، فأراد أن يكسب حكمه صفة شرعية، وقد تم له ما أراد[144].

ثم التفت إلى مرداويج الذي كان قد غضب منه بسبب ضمه همذان وأصفهان وغيرها من الأقاليم في بلاد فارس الأمر الذي جعل الأمير مرداويج يخافه، فقرر طرده من بلاد الكرج، وأرسل جيشاً كبيراً لطرده منها، فتنقل علي بن بويه حوالي سنة 322هـ = 934م بين أصفهان واصطخر وشيراز، وأخيراً رأى ابن بويه أن من مصلحته أن يسترضي الأمير مرداويج بإقامة الخطبة له، وتقديم الهدايا الثمينة، كما أرسل أخاه الحسن ليكون رهينة عند مرداويج[145]، فلاقى هذا الأسلوب استحساناً لدى الأخير فأضاف إليه أرجان بعد أن ثبته على بلاد الكرج، أما فيما يتعلق بالعلاقة بينه وبين الخلافة العباسية، في هذه الفترة، فقد تحددت بمقتضى التقليد الذي أرسله

الخليفة، لكن الخلافة حاولت أن تستعيد هيبتها، فأرسلت جيشاً بلغ مشارف فارس، لكنه رد على أعقابه بعد وقعة أرجان في عام (323هـ = 935م) [146]، وثبت علي بن بويه أقدامه في المنطقة، وأقام دولته فيها، ويبدو أن الظروف السياسية كانت تعمل لمصلحة البويهيين، ففي عام (323هـ = 935م) قتل مرداويج، فاستفاد علي من هذه الفرصة، وسيطر على بلاد الجبل التي كانت تحت سيطرة وشمكير الزياري شقيق مرداويج. وأرسل أخاه حسن، الذي فر بعد مقتل مرداويج، إلى عراق العجم، فسيطر على أصفهان والري وهمذان والكرج وبقية بلاد العراق العجمي، واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيراً له[147].

تطلع علي بن بويه بعد ذلك إلى تأمين حدود الأقاليم التي استولى عليها وتطلبت سياسته الاستيلاء على كرمان والأحواز قبل الدخول إلى العراق الذي كان محط أنظاره، على اعتبار أن هذين الإقليمين يشكلان ممراً طبيعياً لأي غزو محتمل لإقليم فارس من ناحية الشرق أو من ناحية الشمال، لذلك أرسل أخاه أحمد على رأس قوة عسكرية، فاستولى على كرمان في عام 324هـ = 936م بعد معركة القنطرة، وأضافها إلى أملاك آل بويه، ثم سيطر على الأحواز[148]. لم تقف الخلافة العباسية مكتوفة اليدين إزاء هذه التطورات السياسية والعسكرية لذلك انتهزت فرصة هذا الصراع البويهي – الزياري وحاولت استعادة الأحواز، فأرسلت قوات بقيادة بجكم لاستردادها وطرد البويهيين منها، ووقف هذا عند حدود الأحواز القريبة من العراق منتهزاً الفرصة للتدخل. لكن القائد العباسي اضطر إلى التراجع تحت ضغط الأحداث العسكرية بعدما مالت كفة البويهيين للرجحان. وأضحت الأحواز نتيجة ذلك في يد آل بويه الذين ضموها إلى أملاكهم، نتيجة لهذه التطورات، تم لبني بويه توسيع قاعدتهم بما يتماشى مع تطلعاتهم التوسعية وأضحى نزولهم من الأحواز إلى العراق أمراً ميسوراً، فراحوا يراقبون الأحداث في عاصمة الخلافة، حتى تسنح لهم الفرصة لدخولها[149].

أما بالنسبة للأوضاع في العراق فكانت الحالة مضطربة نتيجة اشتداد الخلافات بين ابن رائق والي البصرة وأمير الأمراء من جهة، وبين أبي عبد الله البريدي والي الأحواز السابق والفار من وجه قوات الخلافة من جهة ثانية، وقد التجأ إلى علي بن بويه وأطمعه في دخول العراق. ومن جهة أخرى، كانت الخلافة واقعة تحت نفوذ الأتراك، وظهر عجزها في إقرار الأمور في العراق، فشعر الناس بهذا الفراغ السياسي، وبفشل أمراء الأمراء، كما اختلت المالية العامة في الدولة، وفرغت خزائن الخلافة، ووقع الخلفاء في ضائقة مالية شديدة نتيجة لتحكم الأتراك وجشعهم.

ولذلك تطلع الناس إلى هذه القوة الجديدة التي ظهرت بالقرب منهم وأثبتت جدارتها، لتنشلهم من الفوضى، كما تطلع بعض القادة المغلوب على أمرهم إلى قوة البويهيين النامية، آملين أن يحصلوا بواسطتها على الامتيازات التي حرموا منها أو أبعدوا عنها، وأخيراً مال الخليفة المتقي لطلب المساعدة من البويهيين لوضع حد للنزاعات الداخلية بين الأمراء، خاصة بعدما ساءت العلاقات بينه وبين توزون، وفعلاً دعا الخليفة أحمد بن بويه وطلب منه دخول بغداد، كما كاتبه بعض القادة للغاية نفسها، فسار إليها في عام (332هـ = 944م) ودخلها في عام (334هـ = 945م) بعدما خرج الأتراك منها، واستقبله الخليفة المستكفي واحتفى به وخلع عليه، وعينه أميراً للأمراء، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه علياً عماد الدولة، كما لقب أخاه حسن ركن الدولة[150]، ومن ثم أضحت هذه الألقاب الفخمة والتسمية المألوفة للأمراء البويهيين، وهكذا أسس البويهيون في فارس والعراق والأحواز وكرمان والري وهمذان وأصفهان إمارات وراثية دامت حتى عام (447هـ = 1055م)، وقد أدى نظام الوراثة هذا إلى إيجاد نوع من الاستقرار السياسي في دولة الخلافة العباسية، سيطر البويهيون أثناءها على مقاليد الأمور، وتصرفوا بشكل مطلق، لكن هذا الاستقرار كانت تشوبه بعض الاضطرابات الناتجة عن النزاعات المذهبية بفعل تشيع الأسرة البويهية.

– علاقة الخلافة العباسية بالبويهيين:

عندما استنجدت الخلافة العباسية بالبويهيين كان من المتوقع أن يعيد البويهيون الاستقرار والوحدة إلى أقاليم الخلافة بفرض سيطرتهم عليها، وكبح جماح جندهم، وإفساح المجال أمام الخلافة كي تضطلع بمسؤولياتها وتجنب إثارة الفتن المذهبية. إلا أن ذلك لم يتحقق لأنهم دخلوا بغداد يحملون روح العداء للخلفاء العباسيين المخالفين لهم في المذهب.

وقد فكر معز الدولة بعد دخوله بغداد، وسيطرته على مقاليد الأمور فيها، في إلغاء الخلافة العباسية وإقامة خلافة شيعية على أنقاضها، وتنصيب أحد زعماء الشيعة الزيدية، وكان بإمكانه تحقيق ذلك، إلا أنه أحجم، بعد استشارة أصحابه، لأن مثل هذا التغيير كان سيعرض العالم الإسلامي لهزات عنيفة بالإضافة إلى زعزعة الحكم البويهي. وبالتالي فإن شيعة العراق الذين حاول معز الدولة استمالتهم إليه، كانوا على مذهب الإمامية، وهذا يدل على أن تنصيب خليفة زيدي سيكون مماثلاً في نظرهم وبالمقارنة مع الخليفة العباسي، لهذا أدرك معز الدولة من خلال فكرته السياسية الثاقبة بأن البقاء على الخلافة العباسية أجدر، متبعاً المبدأ الزيدي القائل «بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل» وأجاز على هذا الأساس الذي أقره المبدأ الزيدي، وعلى أساس المصلحة السياسية، أن يدين بالولاء لخليفة سني[151]، إلا أنه اتبع سياسة ترمي إلى الحد من سلطته مقابل تقوية نفوذه.

لقد ساد العهد البويهي شيء من الاستقرار السياسي من حيث مدة حكم الخلفاء فقد تولى الخلفاء الحكم سنوات طويلة قبل أن يعزلوا، ولعل مرد ذلك يعود إلى أن إمرة الأمراء التي تولاها البويهيون، كانت تتحمل كافة تبعات الحكم، وأضحوا في ظلها مطلقي التصرف في العراق مقابل استمرار تحديد نفوذ الخليفة الذي ظل رمزاً لا يتولى من مقاليد الأمور شيئاً يمكن أن ينازعه فيه أحد، واقتصر عمله على إضفاء الصفة الشرعية على أعمالهم.

يذكر كثير من المؤرخين بأن بنو بويه أذلوا الخلفاء العباسيين، وسلبوهم سلطانهم، ولم يتورعوا عن التعدي على أشخاصهم، أحياناً، وأن الخلافة فقدت هيبتها، وضعف شأنها، في عهدهم، وأن الخليفة أضحى ألعوبة في أيديهم، يمثل رمزاً دينياً، ليس له من السلطة سوى الاسم فقط، أما السلطة الفعلية في الدولة فكانت في يد الأمير البويهي[152]، والحقيقة أن بني بويه لم يكونوا السبب المباشر لضعف الخلافة العباسية، وفقدانها لهيبتها، إنهم ورثوا وضعاً قائماً بدأ قبل عهدهم، فقد الخليفة في أثنائه كل اختصاصاته كمصدر أول للسلطة في الدولة[153]، وهكذا يمكن القول أن بني بويه حين تولوا منصب إمرة الأمراء، لم يغيروا شيئاً من صلاحياته ومسؤوليات من يتولى هذا المنصب، ولعل التغيير الذي حدث هو جعل إمرة الأمراء وراثيه في بيتهم، بل إن معاملتهم للخلفاء جرت على النسق الذي كان متبعاً قبلهم، ولعل أوضاع الخلافة في عهدهم كانت أفضل مما كانت عليه في عصر النفوذ التركي، وذلك بفعل استقرار الحكم لبني بويه، مما أبعد الخلفاء عن المشاكل التي كانوا عرضة لها في الأيام السابقة، نتيجة لتنازع القادة وأمراء الأمراء حيث كان ذلك سبباً مباشراً لخلعهم في أوقات متقاربة، والاعتداء عليه، بل إن الأمراء البويهيين حرصوا على إظهار الطاعة والولاء لمقام الخليفة العباسي أمام الناس، نظراً للنفوذ الديني الذي كان يتمتع به بين المسلمين باعتباره الرئيس الأعلى للجماعة الإسلامية[154]، ولما انتهى الصراع على السلطة، وأصبح منصب أمير الأمراء وراثياً في أسرة بني بويه، لم يعد هناك من داع للاحتكاك بالخليفة، ومن جهة أخرى، فقد فوّض الخليفة إلى الأمير البويهي إدارة الدولة بصفة رسمية مما أضفى الصفة الشرعية على تصرفاتهم وأعمالهم، والواقع أن الأمراء البويهيين لم يتدخلوا في اختيار الخليفة العباسي وفي عزله من منصب الخلافة سوى مرتين[155] كانت أولاهما في عام (334هـ = 945م) أي عقب دخولهم بغداد مباشرة، فقد قبض معز الدولة البويهي على الخليفة المستكفي وخلعه من الخلافة.

وبايع معز الدولة للمطيع، والراجح أن الأمير البويهي سلك هذا النهج مع الخليفة بفعل سياسي وديني[156].

أما السبب السياسي فمرده إلى الخليفة المستكفي الذي كان يراسل ناصر الدولة الحمداني أثناء الصراع العسكري الذي كان دائراً بينه وبين معز الدولة في الموصل ويخبره بأسرار الجيش البويهي العسكرية وتحركاته[157].

وأما السبب الديني فقد قبض الخليفة على رئيس الشيعة، وكان يتولى الإفتاء في بغداد، وأهانه أمام معز الدولة، فاستاء هذا الأخير لأنه كان شيعياً، فأقدم على خلع المستكفي الذي أظهر عدم احترام لمذهبه[158].

وأما المرة الثانية التي تدخل فيها البويهيون في خلع الخليفة العباسي، فكانت في عام (381هـ = 991م) عندما خلع بهاء الدولة الخليفة الطائع وأجلس القادر على سدة الخلافة[159]. وقد عزا السيوطي ذلك إلى أن الخليفة قبض على أبي الحسن بن المعلم، وكان فقيه الإمامية ومن خواص بهاء الدولة، وسجنه فعظم ذلك على بهاء الدولة فقبض على الخليفة، وخلعه واستولى على أمواله، وعلى كل ما وجده في دار الخلافة[160]. لكن الراجح أن وراء حادثة الخلع قضية مالية، فقد وقع بهاء الدولة في ضائقة مالية، وكثر شغب الجند عليه، فزين له أبو الحسن بن المعلم بالقبض على الخليفة والاستيلاء على أمواله، أما فيما يتعلق بنفقات الخليفة، فإن أمراء الأمراء كانوا قد خصصوا لتلك النفقات ضياعاً تسمى الضياع المستخلصة[161]، أما بنو بويه فجعلوا للخليفة راتباً، فقد خصص معز الدولة للخليفة راتباً يومياً حدده بمبلغ خمسة آلاف درهم، ويبدو أنه وجد أن ذلك غير عملي، لأن الأموال قد تتأخر، لذلك أضاف إلى ذلك بعد فتح البصرة عام (336هـ = 947م) ضياعاً مستخلصة بمثابة إقطاعات[162]، ومع ذلك فقد كانت أموال الخليفة عرضة للمصادرة.

تمتع الأمراء البويهيون ببعض الامتيازات التي دلت على قوتهم وعلى تميزهم عمن سبقهم من الأمراء والقواد، منها:

1- لقد جرت العادة عند تعيين الخليفة لأمير ما، أن يحضر ذلك الأمير إلى مجلس الخليفة، فيطوقه، ويسوده، ويقلده سيفاً، ويعقد له لواءً مطعماً بالفضة، ويكتب له عهداً بالإمارة أو الولاية[163]، إلا أنه حدث تغيير في هذه العادة في العصر البويهي في عام (367هـ = 977م) إذ حضر الأمير عضد الدولة إلى دار الإمارة، يصحبه عدد من الجنود الأشراف والقضاة والأعيان، فقلده الخليفة الطائع الخلع السلطانية، وعقد له لواءين بيده أحدهما مفضض على رسم الأمراء، والآخر مذهب على رسم ولاة العهود. ولقبه تاج الملة، إضافة إلى عضد الدولة، وكتب له عهداً قرئ بحضرته، ولم تجر العادة بذلك إنما كانت العهود تدفع إلى الولاة بحضرة الخلفاء، فإذا أخذه الرجل منهم قال له: هذا عهدي إليك فاعمل به[164]. وأضحت هذه العادة وهي عقد لواءين، وقراءة الإمارة بحضرة الخليفة، حقاً من حقوق الأمراء البويهيين الذين تعاقبوا على السلطة بعد عضد الدولة.

2- واكتسب البويهيون ميزة أخرى وهي ضرب الطبول أمام دورهم إيذاناً بدخول وقت الصلاة، وكانت هذه العادة من أهم مظاهر السيادة العباسية، وهي أن تضرب الطبول أمام دار الخليفة خمس مرات في أوقات الصلاة، ولم يشاركه فيها أحد، حتى أولياء العهد[165]، وقد حاول الأمراء البويهيون منذ عهد معز الدولة التمتع بهذه العادة لكنهم فشلوا. حتى إذا تولى عضد الدولة أمور العراق في عام (367هـ = 977م) طلب من الخليفة الطائع أن يمنحه حق ضرب الطبول أمام داره، فأجاز له ذلك ثلاث مرات يومياً في أوقات الصبح والمغرب والعشاء، ويبدو أن الخلاف الذي نشأ بين الرجلين عند النزاع بين بني بويه والأتراك، كان الدافع للخليفة على منح هذه الميزة بهدف تحسين علاقته به[166]، وأضحت هذه الميزة بعد ذلك حقاً من حقوق الأمراء البويهيين، فكانت الطبول تضرب أمام دورهم ثلاث مرات يومياً، حتى إذا تولى سلطان الدولة الحكم في عام (403هـ = 1012م) أمر بأن تضرب الطبول أمام داره خمس مرات في اليوم وذلك دون أن يستأذن الخليفة[167]. وحذا

حذوه جلال الدولة في عام (418هـ = 1027م) بالرغم من احتجاج الخليفة الذي اضطر بعد ذلك إلى الموافقة تحت الضغط.

3- أما فيما يتعلق بالخطبة والسكة، فقد جرت العادة بأن يخطب للخلفاء ولأمراء الأمراء معهم على جميع المنابر في الولايات، باستثناء بغداد حيث كان يخطب للخليفة وحده، لكن في عام (368هـ = 978م) أمر الخليفة الطائع بأن يخطب لعضد الدولة على منابر بغداد بعد الخطبة للخليفة، أما كتابة اسم أمير الأمراء البويهي على السكة فقد كان أمراً جرت به العادة من قبل[168].

4- واكتسب الأمراء البويهيون ميزة أخرى تمثلت في التلقب بالألقاب. والواقع أن تلقيب هؤلاء الأمراء بلقب ملك أو غيره يعود إلى مقدرتهم العسكرية، وتحمسهم لقوميتهم الفارسية، بإحياء التراث الفارسي القديم، ففي عام (351هـ = 962م) لقب الخليفة المطيع الأمير شجاع فناخسرو بلقب عضد الدولة، وفي عام (355هـ = 966م) لقب أحمد بن بويه مؤيد الدولة، ولقب الأمير بختيار عز الدولة، وفي عام (364هـ = 975م) لقب أبا الحسن علي بن ركن الدولة بـ فخر الدولة[169]، ويبدو أن الخليفة كان يختار بنفسه اللقب للأمير البويهي، وعلى الأخير قبوله، وعدم الاعتراض عليه، غير أن ذلك لم يدم طويلاً فمنذ عام (369هـ = 979م) أضحى الأمير البويهي هو الذي يختار لنفسه ما يشاء من الألقاب، ثم يحصل على موافقة الخليفة عليها، فقد طلب عضد الدولة، عندما قدم إلى بغداد في العام المذكور، من الخليفة أن يضيف إلى لقبه «تاج الملة» فوافق الخليفة ومنحه اللقب، وعندما اشتد ساعدهم تمادى الأمراء البويهيون في إضفاء العظمة على هيبتهم من خلال الألقاب فقد تلقب عضد الدولة بلقب «ملك الملوك» ولم يكن الخليفة راضياً عن ذلك، وتلقب أبو كاليجار بلقب ملك الأمة[170].

وزيد في ألقاب جلال الدولة في عام (429هـ = 1038م) لقب شاهنشاه الأعظم ملك الملوك وذلك بموافقة الخليفة وخطب له بذلك على المنابر. فنفرت العامة

من ذلك ورموا الخطباء بالآجر، ووقعت فتنة شديدة بعد ذلك[171]، وتلقب الأمير خسرو فيروز في عام (440هـ = 1048م) بلقب «الملك الرحيم» وقد امتنع الخليفة، في بادئ الأمر، عن منحه هذا اللقب. ثم وافق بعد ذلك مرغماً[172].

خلفاء العصر العباسي الثالث

1- المستكفي بالله 333-334هـ = 944-946م:

أشرنا سابقاً إلى أن الخليفة المستكفي بالله استقبل أحمد بن بويه، واحتفى به، ولقبه معز الدولة، فكان أن بايع ابن بويه الخليفة، وحلف كل منهما لصاحبه، هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة، وفي أحد الأيام ركب معز الدولة إلى دار الخلافة وسلم على المستكفي، وقبل الأرض بين يديه، وأمر المستكفي فطرح كرسياً، فجلس عليه معز الدولة، ثم تقدم إلى المستكفي رجلان من الديلم بمواطأة معز الدولة فمدا أيديهما نحوه، فظن الخليفة أنهما يريدان تقبيل يديه، فمد يده فجذباه ونكساه من السرير ووضعا عمامته في عنقه، وسحباه إلى دار معز الدولة، فاعتقل بها، وخلع من الخلافة، وذكرنا سبب خلعه أنه كان على اتصال مع عدو معز الدولة وهو ناصر الدولة الحمداني، وكذلك عدم احترامه لمذهب الشيعة الذي يعتنقه معز الدولة وآل بويه، وتم اعتقال المستكفي في دار السلطنة حتى وفاته[173].

2- المطيع لله 334-363هـ = 946-974م:

بويع المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد ابن عم المستكفي بالخلافة سنة 334هـ = 946م، وطالت خلافته حتى بلغت أكثر من 29 سنة، وبالرغم من طول مدة خلافته، لم يكن له نفوذ فيها، وإنما كانت الكلمة الأولى والأخيرة في الدولة العباسية للسلاطين من آل بويه.

3- الطائع لله 363-381هـ = 974-991م:

استمرت خلافة الطائع لله مدة سبعة عشر عاماً وثمانية أشهر، وازدادت حالة البلاد سوءاً، واشتد تيار الفتنة بين السنة والشيعة، فسفكت دماء كثيرة، وأحرقت

الكرخ وتعطلت أحوال الناس ووقف الجنود الأتراك إلى جانب الشعب بقيادة سبكتكين[174].

في وسط هذه الأزمة كتب حاكم العراق البويهي عز الدولة بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصبهان، وإلى ابن عمه عضد الدولة طالباً مساعدتهما ضد الأتراك، فجهز إليه ركن الدولة جيشاً، في حين طمع عضد الدولة في حكم العراق، فخرج لذلك بنفسه قاصداً بغداد، وتمكن من التغلب على الأتراك سنة 364هـ = 974م. ثم أخذ يعد العدة ليحل محل بختيار، وأخيراً كان له ما أراد عندما ظهر عجز بختيار عن دفع أموال الجند الثائرين عليه والمطالبين بالأموال[175]، فأسرع عضد الدولة إلى عزله وحل محله ابن عمه في بغداد سنة 367هـ = 977م، لكن العلاقة بين الخليفة الطائع لله وعضد الدولة، لم تلبث أن ساءت، لأن الأخير حذف اسم الخليفة من الخطبة، وأمر بأن يخطب له على منابر بغداد، إضافة إلى ضرب الطبول على بابه ثلاث مرات في اليوم.

وعندما تولى بهاء الدولة البويهي السلطة في بغداد أراد أن يستميل إليه قلوب الجند عن طريق منحهم الأموال، فلما قلت عنده الأموال، أطمعه البعض في أموال الخليفة الطائع لله، وحسن له القبض عليه، فقبض على الخليفة وهو يصيح ويستغيث فلا يلتفت إليه أحد، وكان ذلك سنة 381هـ = 991م[176].

4- القادر بالله 381-422هـ = 974-1031م:

بويع القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بالخلافة سنة 381هـ = 974م ومكث فيها مدة طويلة - إحدى وأربعين سنة - إلى أن توفي سنة 422هـ = 1031م. وقد كانت العلاقة طيبة بين بهاء الدولة البويهي والخليفة العباسي القادر بالله إذ تزوج الخليفة من سكينة بنت بهاء الدولة بن عضد الدولة سنة 383هـ = 993م على صداق بلغ مئة ألف دينار[177].

وشعرت الخلافة العباسية بالخطر في عهد القادر بالله، عندما أقام قرواش بن المقلد – أمير بني عقيل وصاحب السيادة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة– الخطبة للخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله (386-411هـ = 996-1020م). فشكا أبو جعفر عبد الله– الخليفة القائم بأمر الله فيما بعد ابن الخليفة القادر بالله لبهاء الدولة الأمر، طالباً إليه إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه. فأرسل الأخير جيشاً اضطر قرواش إلى إعادة الخطبة[178] للخليفة العباسي بالرغم من أن البويهيين كانوا متمسكين بالمذهب الشيعي، ويتطلعون من وقت إلى آخر إلى الخليفة الفاطمي.

5– القائم بأمر الله: 422–467هـ = 1031–1055م:

تسلم الحكم بعد وفاة أبيه، فوصلت الدولة العباسية في عهده إلى أقصى درجات الانحلال والتدهور، فغدت بغداد العاصمة مسرحاً للشغب والمنازعات المذهبية والعنصرية بين مختلف عناصر الجند من عرب وديلم وترك، إضافة إلى المنازعات والحروب بين البويهيين أنفسهم، وفي عهد القائم بأمر الله، أخذ البويهيون يتقربون من الفاطميين الشيعة للضغط على العباسيين، حتى لا يرتمي الخلفاء العباسيون في أحضان السلاجقة السنة. ومما لا شك فيه أن الحروب الكثيرة التي قامت بين البويهيين أدت إلى ضعفهم، وبالتالي مهدت الطريق أمام سيطرة السلاجقة على بغداد.

– نهاية البويهيين:

اضطربت أوضاع البويهيين بعد وفاة بهاء الدولة في عام (403هـ–1012م)، ولعل مرد ذلك يعود إلى:

1– تنازع أبنائه؛ ذلك أن البيت البويهي لم يتبن قاعدة ثابتة لولاية الأمر، فاختلف أفراده فيما بينهم، و لم يحتفظوا بتضامنهم، فقد استأثر كل واحد من أبناء بهاء الدولة بناحية، فأقام سلطان الدولة في شيراز، وولى أخاه مشرف الدولة إمرة الأمراء في بغداد، كما ولى أخاه جلال الدولة منطقة البصرة، وأخاه أبا الفوارس كرمان[179]،

فتطلع كل منهم إلى الاستقلال بما في يده، وطمع بانتزاع ما بيد أخيه، حتى دب الشقاق داخل الأسرة.

2- اعتمد البويهيون منذ عهد معز الدولة على الأتراك، فجندوا الكثير منهم، ووصل بعضهم إلى مناصب قيادية، وبالرغم من أن السيادة ظلت في يد البويهيين، إلا أن قوة الجند الأتراك ازدادت باستمرار تحت حكم البويهيين المتأخرين بعد عضد الدولة وأضحت قوة لا يمكن الاستغناء عنها، وشكل الأتراك وحدات الفرسان في حين شكل البويهيون المشاة.

كان من الطبيعي في ظل هذا الوضع أن ينشأ التنافس بين الطرفين مما سبب الكثير من المتاعب للبويهيين، إذ كثيراً ما أدى ذلك إلى اندلاع الثورات والحروب الأهلية و لم يتورع الجند الأتراك عن نهب العاصمة أحياناً، كما لم يتورعوا عن نهب قصور أمرائهم، مطالبين بزيادة مرتباتهم، وبتعويضات إضافية، ونظراً لعجزهم عن معالجة هذه المشاكل وتلبية حاجات جنودهم، لجأ البويهيون إلى تبني سياسة جديدة تمثلت بظهور نظام اجتماعي جديد هو نظام الإقطاع، فلجؤوا إلى منحهم القرى مقابل خدماتهم، وتميز هذا الإقطاع بالمرحلية أي أنه أقطع لفترة محددة لتأمين حياة الجند، مما جعل التغير المتكرر في المستفيدين من الإقطاعية السمة البارزة.

فأهمل المقطعون، الذين أدركوا أن القرى ستؤخذ منهم بعد وقت قصير، صيانتها مما جلب الخراب للقرى، وتدهوراً اقتصادياً تأثرت به الخزانة البويهية فضلاً عن خزانة الخلافة العامة.

3- انكمش البويهيون على أنفسهم ضمن دائرة نفوذهم، وأهملوا في الوقت نفسه الاهتمام بما كان يجري من أحداث في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، فلم يشاركوا فيها، مما أفسح المجال إلى نشوء إمارات أخرى، أخذت على عاتقها القيام بهذه المهمة، أمثال العقيليين في شمال العراق وبعض مناطق الجزيرة، والنميريين في حران

والرها والرقة، والمروانيين في ديار بكر وميافارقين وغيرهم، وقد نتج عن ذلك حدوث اصطدامات بينهم وبين القوى الناشئة.

4- أما على الصعيد الخارجي، فإن البويهيين لم يعيروا اهتماماً لتنامي القوة البيزنطية المتجددة في عهد الأسرة المقدونية، كما لم يتطلعوا إلى بلاد الشام التي شهدت، في بعض الأحيان، نزاعات حادة بين الطولونيين والإخشيديين من جهة، وبين الخلافة العباسية والدولة الحمدانية من جهة أخرى.

5- أما في الشرق، فإنهم لم يشاركوا السامانيين والغزنويين في الدفاع عن مناطق الحدود مع الهند والترك الوثنيين، والراجح أن الخلافات الداخلية التي كانت تنشأ داخل الأسرة، منعتهم من الاهتمام بالأمور الخارجية، أو الحرص على أن يكون لهم دور فعال في العالم الإسلامي، وفي هذا الوقت قام أبو الحارث أرسلان المعروف بالبساسيري- غلام تركي- بثورة ضد الخلافة العباسية [180]، وكاتب الخليفة الفاطمي المستنصر بالله 427-487هـ = 1035-1094م بمصر ليدخل في طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد، فرأى الخليفة العباسي القائم بأمر الله أن عليه الالتجاء إلى السلاجقة السنة للقضاء على البساسيري والبويهيين.

فكتب إلى السلطان طغرلبك طالباً نجدته، فكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها طغرلبك بفارغ الصبر، وأسرع في السير إلى بغداد متظاهراً أنه يريد الحج ومن ثم التوجه إلى الشام ومصر لإزالة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، أما الخليفة العباسي القائم بأمر الله فقد أمر بالخطبة لطغرلبك السلجوقي في جوامع بغداد مفصحاً عن نواياه، وهكذا تمت الخطبة للسلجوقي طغرلبك في يوم الجمعة 22 محرم سنة 447هـ = 1055م[181] ثم دخلها بعد ثلاثة أيام ليقضي على الملك الرحيم آخر سلاطين بني بويه، ويضع الخلافة العباسية تحت سيطرة جديدة، هي سيطرة السلاجقة السنة.

الفصل الرابع

العصر العباسي الرابع

عصر النفوذ السلجوقي وسقوط الخلافة العباسية

ظهر الأتراك السلاجقة على مسرح أحداث الخلافة العباسية في الوقت الذي تجاذبت فيه السيادة على منطقة المشرق الإسلامي خلافتان؛ أولاهما الخلافة العباسية السنية، والثانية الخلافة الفاطمية الشيعية. وقد أصابهما الضعف واعتراهما الانحلال بسبب تسلط بني بويه على الخلفاء العباسيين وازدياد نفوذ الوزراء بعد خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي. وأحدث ظهور السلاجقة الأتراك في هذه الفترة تغييراً في موازين القوى بالمنطقة.

1- قيام الدولة السلجوقية:

بزغ عصر جديد في تاريخ الخلافة والإسلام، عندما ظهر السلاجقة في الشرق في مطلع القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي، كان الخليفة لا يتمتع بشيء من سلطة الخلافة الحقيقية وكانت دولة الخلافة العباسية قد تمزقت، فالأمويون قد استتب أمرهم في الأندلس، وكذلك الفاطميون في مصر و شمال إفريقية، و لم يعد لبغداد من سبيل إلا القضاء على شوكة هؤلاء جميعاً. وعمت الفوضى السياسية والعسكرية جميع الأنحاء. وتفاقم الخطاب المذهبي البغيض بين السنة والشيعة بحيث خُيل للناظر أن دولة الإسلام في طور النزع الأخير. تلك كانت حال الخلافة الإسلامية حين ظهرت على مسرحها السياسي، وعلى أنقاض أسلافهم البويهيين «الإمارة السلجوقية».

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق الغزية التركية، وينتسبون إلى جدهم سلجوق بن دقاق[182]، وكانت منازلهم في الصحراء الواسعة والسهوب الممتدة من الصين حتى

شواطئ بحر الخزر[183]، اعتنقوا المذهب السني ونصروه بغيرة وحماسة. وفي عام (375هـ = 985م) نزحوا من موطنهم الأصلي إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان بسبب الظروف الاقتصادية السيئة في هذه المناطق الصحراوية، أو بسبب الحروب التي كانت تدور بين هذه القبائل المختلفة، فاصطدموا بالغزنويين الذين كانوا يسيطرون على المنطقة، وطردوهم منها بعد سلسلة من الاصطدامات، وأسس السلطان السلجوقي طغرلبك دولة في خراسان في عام (431هـ = 1040م) على أثر انتصاره على السطان مسعود الغزنوي في معرة داندانقان واعترف الخليفة العباسي القائم به سلطاناً في العام التالي[184]، واصل السلاجقة سياستهم التوسعية في فارس ضمن دائرة اعتراف الخلافة العباسية، بهدف القضاء على قوة البويهيين، تمهيداً لمد نفوذهم إلى العراق، فاستولوا على الري في عام 432هـ = 1041م ودخلوا في العام التالي جرجان وطبرستان واستولى السلطان طغرلبك في عام 442هـ = 1050م على أصفهان واتخذها عاصمة له، ثم ضم بعد أربع سنوات إقليم أذربيجان[185]، وهكذا قامت دولة السلاجقة العظام في خراسان وفارس وأضحت جيوشهم على أهبة الاستعداد لدخول العراق.

2- الوضع الداخلي في بغداد عشية دخول السلاجقة:

كانت الأوضاع متوترة في بغداد حين شارف السلاجقة على العراق، كان أبو الحارث أرسلان البساسيري، أحد قادة بني بويه وهو ضابط تركي متشيع، يسيطر على بغداد وما جاورها ويتمتع بنفوذ كبير لدرجة أنه أضحى يخطب له على المنابر في العراق والأحواز، و لم يعد بإمكان أي من الخليفة العباسي أو الملك البويهي، اتخاذ أي قرار يتعلق بأمور الدولة إلا بعد موافقته، وقد شكل هذا القائد خطراً حقيقياً على الخلافة العباسية والدولة البويهية، أما خطره على الخلافة العباسية فقد تجلى في عام (446هـ = 1054م) حين نشب الخلاف بينه وبين الخليفة العباسي القائم مما دفعه للاتجاه نحو الفاطميين، واستعان بهم[186]، وأما خطره على البويهيين، فقد تجلى في

الخلاف الذي نشأ بينه وبين الملك الرحيم البويهي، مما هدد النفوذ البويهي في العراق بعد ضياع أملاك البويهيين في إيران على يد السلاجقة، في هذا الجو المضطرب، أخذ كل طرف يسعى لمصلحته، وأما الخليفة الذي فقد ثقته بمن حوله، رأى أن مصلحته تقضي عليه الاتصال بالقوة العالية، خاصة وأنها كانت تدين بالمذهب السني، وتحترم الخلافة، وتدين لها بالولاء. فاستنجد بالسلطان السلجوقي طغرلبك طالباً مساعدته ضد البساسيري[187]، وانتهز السلطان هذه الفرصة، وسار بجيوشه إلى بغداد، ودخلها في عام (447هـ = 1055م). واعترف الخليفة به سلطاناً على جميع المناطق التي تحت يده، وأمر بأن يذكر اسمه في الخطبة، وهكذا دخل العراق ضمن دائرة نفوذ السلاجقة، فكان دخول طغرلبك إلى بغداد إعلاناً بسقوط الدولة البويهية وقيام الدولة السلجوقية حملها في الوصاية على الخلافة العباسية، وتدعيماً للتعاون العباسي السلجوقي تزوج الخليفة القائم بأمر الله من خديجة خاتون أرسلان بنت داود أخي السلطان طغرلبك.

3- العلاقة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية:

بعد دخول السلاجقة إلى بغداد أقام طغرلبك فيها مدة ثلاثة عشر شهراً، عمل في أثنائها على تدعيم النفوذ السلجوقي في عاصمة الخلافة، وتوثيق صلة السلاجقة بالخليفة، ورأينا قبل قليل عملية المصاهرة بين البيت السلجوقي والخليفة العباسي القائم بأمر الله، وفي غمرة هذه الانتصارات التي حققها طغرلبك، قام البساسيري، من مقره الجديد، الرحبة، بعدة حركات ارتدادية عسكرية وسياسية، بهدف إخراج السلاجقة من بغداد، فعلى الصعيد العسكري، نجح في الاستيلاء على الموصل، بعد أن هزم السلاجقة قرب سنجار في عام (448هـ = 1056م) وأخذ يستعد لدخول بغداد، وعلى الصعيد السياسي، أعلن انضمامه إلى الفاطميين، وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي أرسل إليه الخلع، مما أحدث اضطرابات مذهبية عنيفة[188]، في هذا الوقت عانى طغرلبك من عدة صعوبات داخلية، اضطرته للخروج من بغداد في

عام (449هـ = 1057م)، وسار إلى الموصل لوضع حد للمشاكل التي أثارها البساسيري ضده، فبسط نفوذه على ديار بكر، ثم عاد إلى بغداد، حيث استقبله الخليفة بالترحاب ولقبه «ملك المشرق والمغرب»، ويدل هذا اللقب على أن الخليفة اعترف لطغرلبك بما أضحى تحت يده من البلاد في المشرق، وأذن له باستخلاص المغرب من الفاطميين[189]، ثم حدث أن واجه طغرلبك مشكلة جديدة تمثلت بتمرد قام به أخوه إبراهيم أينال في بلاد الجبل، فاضطر للخروج من بغداد، مرة أخرى، لقمع هذا التمرد، فانتهز البساسيري ذلك، ودخل بغداد في (شهر ذي العقدة عام 450هـ = كانون الأول عام 1058م) وخطب فيها للخليفة الفاطمي مدة عام كامل، وخرج الخليفة منها إلى عانه ملتجئاً إلى قريش بن بدران وأخذ يراسل طغرلبك يستغيث به[190]، ويبدو أن الخلافة الفاطمية، لم تكن تملك القوة الكافية لإمداد البساسيري حتى تحتفظ بما وصلت إليه، كما يبدو أن ثقتها في هذا الرجل، لم تكن كبيرة، لذلك لم تتحرك للقيام بعمل جدي، وتركته يواجه الموقف منفرداً أمام قوة السلطان الذي ما لبث أن عاد إلى العراق، بعد أن فرغ من إخماد تمرد أخيه، واضطر البساسيري إلى الخروج من بغداد لعدم قدرته على الوقوف في وجه الجيش السلجوقي، ومن ثم قتل في عام (451هـ = 1059م)، وبعد أن دخل طغرلبك بغداد، دعا الخليفة للعودة إلى عاصمته واستقبله في النهروان، وأبدى اغتباطه بعودته [191]، وبذلك استتب الأمر للسلاجقة في العراق وأصبحوا يمثلون ظاهرة جديدة في حياة دولة الخلافة العباسية، فقد اختلف موقفهم تجاه الخلافة عن موقف البويهيين، بشكل عام، فكانوا يحترمون الخلفاء تديناً ينبع من عقديتهم، ونشأتهم السنية، ومن جهة أخرى استطاع السلاجقة أن يوحدوا المشرق الإسلامي من جديد تحت رايتهم ويمدوا رقعته في غربي آسيا إلى حدود البوسفور عن طريق جهاد الدولة البيزنطية، وسيطروا على معظم بلاد الشام من الفاطميين، وظلت العلاقات الطيبة قائمة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ما يقارب من ثمانية عشر عاماً منذ أن أعلن

طغرلبك قيام دولته في خراسان. والراجح أن الظروف السياسية التي ذكرت، والتي أحاطت بالطرفين حتمت أن تكون هذه العلاقات وثيقة، لكن سرعان ما نشب الخلاف بين الطرفين، بسبب محاولة طغرلبك الاستئثار بجميع السلطات في العراق، حتى تلك المتعلقة بالخليفة، بالإضافة إلى أنه حمل موارد العراق المالية إلى الخزانة السلجوقية، فقد أناب عنه في حكم بغداد، قبل أن يعود إلى عاصمته الري، موظفاً سلجوقياً أطلق عليه اسم «العميد»[192]، كما عين موظفاً آخر لحفظ الأمن يعرف بـــ«الشحنة»، يأتمر بأمره، ويتمتع بنفوذ كبير حتى عند الخليفة. وترك في بغداد حامية عسكرية، وضمّن بعض المدن لخواصه[193]، وهكذا أضحى الخليفة العباسي مجرداً تماماً من سلطاته، واستأثر نواب السلطان بالسلطة. ومما زاد الأمر تفاقماً محاولة السطان ربط البيتين العباسي والسلجوقي بالمصاهرة، فخطب ابنة الخليفة، متجاوزاً بذلك، تقاليد الخلافة العباسية، وهذا مطمح لم يسع إليه أحد من قبل،[194] ويبدو أن إقدامه على هذه الخطوة كان وسيلة لتدعيم نفوذه السياسي برابطة أدبية قوية مع الخلافة العباسية. لكن الراجح أن السلاجقة طمعوا في منصب الخلافة، إلا أنهم افتقروا إلى شرط النسب باعتبارهم أعاجم. وهدى التفكير طغرلبك إلى الزواج من ابنة الخليفة أملاً في أن يلد منها ولداً يكون له من شرعية النسب وقوة السلاجقة ما يوصله إلى سدة الخلافة، وكانت ردة الفعل سلبية، فقد انزعج الخليفة القائم من ذلك واستعفى السلطان، فلم يعفه واضطر الخليفة إلى قبول طلب السلطان طغرلبك وزوجه ابنته في عام (455هـ = 1063م)[195]، ثم توفي طغرلبك بعد عدة أشهر من زواجه ابنة الخليفة وله من العمر سبعين سنة، وقد حقق طغرلبك للمسلمين قدراً كبيراً من الوحدة، إذ صارت إيران والعراق تؤلف وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسي.

4- الدولة السلجوقية بعد وفاة طغرلبك:

- السلطان الب أرسلان (455-465هـ = 1063-1072م):

تولى الحكم في الدولة السلجوقية بعد وفاة طغرلبك ابن أخيه عضد الدولة الب أرسلان، ظلت الأوضاع كما هي عليه من استئثار السلطان بالسلطة دون الخليفة، ففي عام (458هـ = 1066م) عين السلطان ابنه ملكشاه ولياً للعهد من بعده، وأمر بأن يخطب له في جميع البلاد التي يحكم فيها، ومنها بغداد، دون أن يأخذ رأي الخليفة، في ذلك التعيين، وفي تلك الخطبة، وعين السلطان في العام المذكور أبا العلاء محمد بن الحسين وزيراً دون علم الخليفة، الذي استاء من هذا التصرف، واعتبره تدخلاً في شؤون الخلافة الخاصة، ورفض استقبال الوزير[196]. أما ما يتعلق بالأعمال العسكرية فإن أول عمل قام به الب أرسلان هو الاستيلاء على حلب وشمال بلاد الشام كي يحمي ظهره من الخطر الفاطمي قبل توجهه لمحاربة الروم في الشمال، فاستطاع أن ينتزع من محمود بن صالح بن مرداس أمير حلب اعترافاً بسلطانه والخطبة للخليفة القائم بأمر الله والسطان الب أرسلان[197]، خرج الب أرسلان في خمسة عشر ألف فارس لحرب الروم وصد هجوم إمبراطورهم رومانوس الذي توجه نحو الثغور الإسلامية لمهاجمتها على رأس مئة ألف مقاتل، وعندما وصل الأخير إلى ملاذكرد من أعمال خلاط على الفرات الأعلى شمال بحيرة «فان» كان السلطان الب أرسلان قد بلغ مدينة «خوي» في أذربيجان واختار السلطان مواجهة الروم في يوم الجمعة في الساعة التي يكون فيها الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين بالنصر، وذلك بناءً لنصيحة الفقيه أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي. ثم صلى بجنوده وبكى فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه وقال لهم: «من أراد الانصراف فلينصرف فما ههنا سلطان يأمر وينهي»، وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده، ثم قال لهم: «إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت

فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة، فإن ابني ملكشاه ولي عهدي» [198]، ثم كانت معركة ملاذكرد التاريخية عام 1071م والتي أدت إلى سحق الجيش البيزنطي وتكبيده الخسائر الفادحة بالأرواح بل وسقط الإمبراطور رومانوس في الأسر وغدا الطريق بعد موقعه ملاذكرد مفتوحاً أمام السلاجقة ليتوسعوا في آسيا الصغرى دون أن تقوى الدولة البيزنطية على صدهم. وتم تأسيس دولة سلاجقة الروم من قبل سليمان بن قتلمش والتي استمرت إلى أن سيطر عليها الأتراك العثمانيون في أواخر القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي، كما كانت هذه المعركة من أهم الأسباب الرئيسة التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية، بسبب مخاوف الدول الأوربية إزاء الخطر التركي، وتنادوا إلى وجوب تقديم المساعدة إلى الدولة البيزنطية، وبالرغم من الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية، فقد أخذ البابا غريغوري السابع 1073-1085م، والبابا أوربان الثاني 1088-1099م على نفسيهما تحريض ملوك أوروبا على مساعدة بيزنطة، إلى أن قامت الحروب الصليبية. توفي السلطان الب أرسلان سنة 465 = 1073م على أثر ضربة بسكين في خاصرته من قبل أحد حراس قلعة سمرقند المدعو يوسف الخوارزمي، وكان قد أوصى بولاية العهد لابنه ملكشاه كما ذكرنا قبل قليل.

- السلطان معز الدين أبو الفتح ملكشاه الأول 465-485هـ = 1072-1092:

واصل السلاجقة حربهم ضد النفوذ الفاطمي في بلاد الشام فقد تمكنت قوات السلطان ملكشاه بقيادة قائده أتسز من الاستيلاء على دمشق سنة 468هـ = 1076م، ثم عين السلطان أخاه تتش بن الب أرسلان ملكاً على بلاد الشام يتوارثها أبناؤه وأحفاده من بعده، وبذلك تأسست دولة سلاجقة الشام التي انتزعها من النفوذ الفاطمي [199].

بلغت الدولة السلجوقية ذروة اتساعها في عهد ملكشاه حتى امتدت من فلسطين جنوباً إلى أفغانستان شرقاً وآسيا الصغرى غرباً. ويعود الفضل في تقدم الدولة السلجوقية الحضاري إلى الوزير أبي الحسن بن علي قوام الدين نظام الملك الطوسي الذي تلقب بلقب «أتابك»[200] طوال عهد السلطان ملكشاه، وفي أواخر حكم هذا السلطان، ازدادت علاقة الخليفة به سوءاً، حتى عزم على طرده من بغداد، ونقل عاصمة الخلافة إلى أصفهان، تمهيداً لتعيين ابن ابنته خليفة، لكن القدر كان بانتظار السلطان، فكفى الخليفة شر عزله[201].

– دولة السلاجقة في العراق بعد ملكشاه:

تعرضت دولة السلاجقة بعد وفاة ملكشاه في عام (485هـ = 1092م) للانقسام والضعف بسبب النزاعات التي نشبت بين أولاده، وقد انعكس ذلك على أوضاع الخلافة العباسية التي تعرضت وفق ما تمليه مصلحتها للانعتاق من الطوق السلجوقي. فوقفت موقف المتفرج أحياناً في هذه النزاعات، في حين تأرجحت باعترافها بين مراكز القوة أحياناً أخرى، وأحياناً كانت تمنحه لأكثر من شخص في وقت واحد، أو للغالب، في محاولة لضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض، فانتهز الخليفة المسترشد (512-529هـ = 1118-1135م) ومن أتى بعده من الخلفاء هذه الفرصة، وأخذوا يعملون على استعادة ما كان للخلافة من سلطات وساعدهم على ذلك ابتعاد السلاجقة العظام عن بغداد بحيث أضحى الخليفة بعيداً عن تأثير النفوذ المباشر للسلطان السجلوقي، وقد سار هذا الخليفة خطوات في هذا الطريق إلا أنه في النهاية ذهب ضحية محاولته[202]، ثم استطاع المقتفي في السنوات الأخيرة من حكمه أن يحقق جزءاً كبيراً من الهدف الذي أخفق المسترشد في تحقيقه مستغلاً تطور الأوضاع السياسية لغير مصلحة السلاجقة، ففي عام (536هـ = 1141م)، انهزم السلطان سنجر، آخر السلاطين السلاجقة، أمام القراخطائيين. كما تجددت الخلافات السلجوقية الأسرية في كل من خراسان والعراق في عام (541هـ = 1146م)، هذا

في الوقت الذي أخذ الخليفة يقوّي مركز الخلافة من الناحية العسكرية، فأمر العامة بجمع السلاح، وحفر الخنادق حول بغداد وأصلح أسوارها[203]، فكانت البداية الفعلية لانتعاش الخلافة العباسية، وكان ذلك نتيجة عجز السلطان مسعود السلجوقي حاكم العراق عن إخضاع أمراء الأطراف الذين ثاروا عليه، مما أعطى الخليفة فرصة النهوض بالدولة. ولما توفي السلطان مسعود في عام (547هـ = 1152م) فقدت الدولة السلجوقيةفي العراق، ركناً كبيراً، فأصابها الوهن، وأخذت بالتداعي، وعمتها الاضطرابات، مما أدى إلى تقلص النفوذ السلجوقي في العراق شيئاً فشيئاً حتى زال في النهاية، كان أول عمل قام به الخليفة المقتفي بعد وفاة السلطان مسعود هو أنه استولى على ممتلكات شحنة بغداد وهو لقب لكبير موظفي الأمن في العاصمة بغداد والذي يعين من قبل السلطان السلجوقي شخصياً، وعزل الموظفين الذين ولاهم السلطان، وعين بدلاً عنهم موظفين يثق بهم، ثم جهز جيشاً حارب به شحنة بغداد وهزمه واستعاد منه الحلة والكوفة وواسطاً[204]، وانتهج الخليفة المقتفي سياسة ضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض للاستفادة من انقسام أمراء البيت السلجوقي، فولى في عام (551هـ = 1156م) سلمان شاه بن محمود سلطاناً على العراق، كما عقد لأخيه ملكشاه بولاية العهد، ثم سيرهما إلى همذان لقتال السلطان السلجوقي محمد الثاني[205]، و ازدادت أوضاع دولة سلاجقة العراق تدهوراً بعد وفاة السلطان محمد الثاني في عام (554هـ = 1159م) وقد حاول خلفاؤه إعادة نفوذهم السابق، لكنهم جوبهوا بمعارضة الخلفاء القوية، وقد عبر المؤرخ السلجوقي البنداري عن هذا الموقف المتداعي بقوله: «ووقعت في أنفسهم من بغداد الهيبة، ومن حصولها الخيبة، فلم يقدم ملك إليها ولا سلطان عليها»[206]. واستمر الخلفاء في النضال للتحرر من الطوق السلجوقي حتى تحقق لهم الاستقلال التام عن السلاجقة في عهد الخليفة الناصر حيث وصلت سلطة ونفوذ الخلافة المتجددة إلى الأوج، وتلاشت السلطة السلجوقية

من العراق وغربي فارس، لكن محاولات الخلافة فرض سلطتها على فارس أثبتت إخفاقها رغم أنها نجحت في استعادة الأحواز.

زالت دولة السلاجقة في عام (552هـ = 1157م) بمقتل السلطان سنجر على أيدي الغز، في حين زالت دولة سلاجقة العراق في عام (590هـ = 1194م) بمقتل السلطان طغرل الثالث على يد علاء الدين تكش خوار زمشاه[207]. ونتيجة لهذا التطور دخلت دولة الخلافة العباسية في فترة استقلال فعلي دامت حتى عام (656هـ = 1258م)[208].

المرحلة الأخيرة من حكم دولة الخلافة العباسية

590-656هـ = 1194-1258م

- الدولة الأتابكية - الشاهات - المغول:

بسبب الضعف الذي أصاب السلاجقة، برزت في أواخر عهدهم ظاهرة قيام دول منفصلة على حسابهم، دارت في فلك دولة الخلافة العباسية، عرفت بالدول الأتابكية، والكلمة تركية: (أتا: أب، بك: أمير) فيأخذ معنى «الأب الأمير»؛ وهو مصطلح أطلق على الرجل الذي يقوم بالإشراف على تربية ابن السلطان.

نشأ الأتابكة في البلاط السلجوقي نتيجة للنظام الذي استحدثه السلاجقة القائم على شراء المماليك الأتراك الذين يتم جلبهم من بلاد القبجاق[209] أو القفجاق، وهو إقليم يحوض نهر الفولغا بالجنوب الشرقي من روسيا وشمال البحر الأسود والقوقاز، ويتم إدخالهم في خدمة القصور السلطانية، خاصة فيما يتعلق بتربية أبنائهم، بالإضافة إلى تولي الوظائف العامة، وترقى هؤلاء في المناصب الإدارية والعسكرية حتى وصلوا إلى المناصب القيادية واتخذوا من نشوب النزاعات داخل البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه الأول فرصة لفرض سيطرتهم على المناطق التي تحت حكمهم،

وتسابقوا في توسعة رقعتها كل على حساب الآخر، وبذلك نشأ نزاع أتابكي سار في خط مواز للنزاع السلجوقي الداخلي.

وأشهر هذه الأتابكيات: حصن كيفا وماردين ودمشق ودانشمند والموصل والجزيرة وأذربيجان وفارس.

ويعد من أشهر الأتابكة، في بداية القرن الثاني عشر، الأمير عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل والشام وديار ربيعة ومصر – في الجزيرة الفراتية — وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب عند السلطان ملكشاه[210]، وبفضل عماد الدين وابنه نور الدين زنكي انتقلت النظم السلجوقية إلى مصر، فتمثلت في الدولتين الأيوبية والمماليك، بظهور صلاح الدين الأيوبي فيها نائباً عن الزنكيين.

وقامت إلى جانب الأتابيكات دول أخرى، نتيجة تولية السلاطين السلاجقة نواباً لهم في الأقاليم التي كانت تحت حكمهم، فاستأثر هؤلاء النواب بحكم هذه الأقاليم وأورثوها أبناءهم، وقد تلقبوا بـــ«الشاهات» وأشهر هؤلاء الشاهات: شاهات خوارزم وشاهات أرمينيا.

وهكذا ورثت الدول الأتابكية وشاهات خوارزم أملاك السلاجقة، حيث نلاحظ أن دولة السلاجقة انقرضت بخراسان وبلاد الري والجبل وما وراء النهر[211] على أيدي ملوك خوارزم: أتسز، وتكش وعلاء الدين الذي كان يمتلك آلاف المماليك. لكن هذه الدولة الخوارزمية انتهت على أيدي المغول سنة 628هـــ = 1231م في عهد جلال الدين خوارزمشاه، ومن أصل هؤلاء المماليك قامت دولة المماليك الأولى في مصر.

وهكذا نجد أن ضعف السلاجقة مهد السبيل لقيام مرحلة استقل فيها الخلفاء العباسيون، واستردوا ما كان لهم من سلطات، كما أتاح هذا الضعف والانقسام للغرب الأوربي الفرصة لشن الحروب الصليبية ضد البلاد الإسلامية من جهة، ودفع المغول لاجتياح العالم الإسلامي في أقاليم بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق من جهة

ثانية، فدمروا بغداد وقضوا على دولة الخلافة العباسية. ولما كان سقوط هذه الدولة قد تم على أيدي هؤلاء المغول، فلا بد من أن نلم إلمامة وجيزة بتاريخ هذا الشعب قبل أن نتحدث عن ظروف سقوط دولة الخلافة العباسية.

– نشأة المغول:

الواقع أن ظروف خروج المغول من موطنهم الأصلي في جوف آسيا باتجاه العالم الإسلامي له علاقة بالمدى الذي وصلت إليه العلاقات بينم وبين الدولة الخوارزمية.

فما أن انبثق فجر القرن السابع الهجري حتى شهد العالم الإسلامي اندفاع الجيوش المغولية الجرارة من شمالي شرقي آسيا على دفعات متقاربة ومتباعدة، وكان لها أثرها القريب والبعيد من النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية.

لم يكن المغول إلا مجموعة من القبائل الرحل، نشأت في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي، وعاشت على روافد نهر آمور، وسيطرت على الأراضي الواقعة بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال كانكان على حدود منشوريا في الشرق[212]، وقد نبغ من بين أفراد المغول تيموجين الذي اختارته القبائل المغولية زعيماً عليها، واتخذ اسم جنكيزخان أي قاهر العالم، وقد أنشأ إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت من بلاد الصين شرقاً حتى حدود العراق وبحر الخزر وبلاد الروس غرباً وبلاد الهند جنوباً.

– ظروف توسع المغول باتجاه العالم الإسلامي:

وهكذا حل الخوارزميون محل السلاجقة في حكم المناطق الشرقية من العالم الإسلامي، في بلاد ما وراء النهر وخراسان وإيران، وراح زعماؤهم يتدخلون في شؤون الخلافة العباسية حتى عزموا الاستيلاء على بغداد[213]، فقد طمع علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي خلف أباه تكش في تحقيق هذه الرغبة، وانتزاع السلطة من يد

الخليفة العباسي الناصر. إلا أنه اضطر إلى التراجع تحت الضغط المغولي الذي أخذ يجتاح بلاده، بالإضافة إلى مضايقة الأمراء له[214]. ويبدو أن الكارثة على الخوارزميين كانت آتية، لكن سببها المباشر يعود إلى إحدى هذه البعثات التجارية، حين أرسل جنكيزخان قافلة تجارية إلى غربي آسيا للتجارة في الأسواق الخوارزمية، ولما وصلت إلى مدينة آوترار الواقعة على نهر سيحون أجهز آينال خان، حاكم المدينة، عليها وقتل جميع أفرادها وسلب البضاعة، لم يكن بوسع جنكيزخان أن يتغاضى عن هذه الإثارة خاصة بعد أن رفض السلطان طلباً له بتسليمه حاكم آوترار، فجهز جيشاً جراراً وهاجم الأراضي الخوارزمية، فسيطر على إقليم ما وراء النهر في عام 617هـ = 1220م وقام بمطاردة علاء الدين خوارزمشاه الذي توفي في إحدى جزر بحر قزوين في عام 618هـ = 1221م غادر جنكيزخان الأقاليم الغربية بعد أن ثبت حكم المغول في إقليمي ما وراء النهر وخراسان بشكل نهائي[215].

– سقوط دولة الخلافة العباسية:

استأنف المغول زحفهم باتجاه مناطق غربي آسيا بعد وفاة جنكيزخان في عام (624هـ = 1227م) ضمن سياسة توسعية، فقد عهد منكوخان، الذي سلم الزعامة المغولية إلى أخيه هولاكو بقيادة حملة على فارس، وأوصاه ببسط السيطرة المغولية على البلاد الممتدة من العراق حتى أقاصي مصر، وحدد له إطار العلاقة مع الخليفة العباسي، بحيث إذا قدم فروض الولاء والطاعة فلا يتعرض له، أما إذا عصى، فعليه أن يتخلص منه حتى لا يشكل وجوده عقبة في طريق الزحف المغولي[216]، هذا وقد وضع هولاكو خطة عسكرية تقضي أولاً بالقضاء على الإسماعيلية في شمال إيران، ثم غزو المناطق الغربية وصولاً إلى مصر في مرحلة ثانية. وبعد أن حقق هدفه الأول انطلق لتحقيق هدفه الثاني.

كانت الأوضاع في بغداد آنذاك، سيئة جداً، فقد اشتهر الخليفة العباسي المستعصم بعدم جديته في إدارة الشؤون العامة[217]. فلم يستعد لمواجهة الزحف

المغولي، ظناً منه أن في نفسه القدرة على المكر والصمود أمام خطرهم[218]. كما تعددت مراكز القوى آنذاك في بغداد، واختلفت فيما بينها بفعل عوامل سياسية ومذهبية. ووقف الخليفة عاجزاً عن وضع حد للمشاكل المتفاقمة فترتب على ذلك أن اشتدت حدة الخلافات بين مجاهد الدين أيبك الدوادار الصغير، وكان سني المذهب، وبين مؤيد الدين بن العلقمي، وزير المستعصم، وكان شيعياً، مما كان لها أثرها السيئ في اضطراب الأمور، وتقويض سلطة الخلافة[219] وتعدت الخلافات أهل الحكم لتنتقل إلى العامة من سكان بغداد الذين انقسموا على أنفسهم في تناحر مذهبي، مما دفع الوزير ابن العلقمي إلى مراسلة المغول، وأطمعهم في ملك بغداد[220]، والواقع أنه لم يكن لهذه المراسلات بين الطرفين، ولا للمباحثات التي جرت بينهما في وقت لاحق من أثر كبير في دفع هولاكو أو في ثنيه عن مهاجمة بغداد، لأن الاستيلاء على العراق كان من ضمن سياسة مغولية عامة في هذه الظروف الحرجة، و طلب هولاكو من الخليفة أن يمده بجيش ليعاونه في القضاء على الإسماعيلية في شمال إيران. شاور المستعصم معاونيه، فنصحوه بعدم الإقدام على هذا العمل، لأن هولاكو يريد بهذه الوسيلة إفراغ بغداد من المدافعين عنها حتى يسهل عليه الاستيلاء عليها عندما يهاجمها، وامتنع عن إرسال المدد إلى هولاكو[221]. ولما فرغ الزعيم المغولي من القضاء على الإسماعيلية، أرسل إلى الخليفة رسالة عتاب تتضمن تهديداً ووعيداً لامتناعه عن إرسال المدد المطلوب، والواقع أنه لم يكن هذا الاحتجاج إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد للأمراء البويهيين ثم للسلاطين السلاجقة، وطلب منه:

- أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه.
- أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه والدوادار[222].

رد الخليفة بالرفض الذي اتسم بالتهديد والوعيد، ظناً منه أن ذلك سوف يثني هولاكو عن عزمه، ويجعله يفكر ملياً قبل أن يقدم على خطوته.

ويبدو أن الخليفة العباسي كان يأمل في تلقي المساعدة من الأمراء المسلمين، إلا أنه أخطأ في تقديره إذ إن الأيوبيين في بلاد الشام، والمماليك في مصر، الذين عقد آماله عليهم، توافر عندهم من المشاكل ما منعهم من النهوض لمساعدته، و لم يتحرك الأتابكة والترك والفرس لمساندته بفعل ما استبد بهم من الخوف من المغول، أما سلاجقة الروم فقد خضعوا لحكم هؤلاء[223]، وهكذا بدا العالم الإسلامي مفككاً، فلا يعقل أن يهب أمراؤه لنجدة الخليفة الذي لم يكن له سند حقيقي حتى يستطيع أن يقف هذا الموقف المتشدد، فكان لهذا الموقف العباسي الرافض أسوأ الأثر في نفس هولاكو مما دفعه إلى الزحف باتجاه بغداد. وصلت رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطلع هذا على رسالته وعلم بما لحق برسله من أذى العامة في بغداد استبد به الغضب، فأعاد رسل المستعصم، وحملهم رسالة آخرى تتضمن إنذاراً نهائياً له صيغ في لهجة شديدة [224]، ولما عاد الرسل إلى بغداد، وأدرك الخليفة ما ينطوي عليه الرد المغولي من تهديد ووعيد، عرض الرسالة على كبار رجال دولته مستطلعاً رأيهم، فأشار عليه وزيره ابن العلقمي أن يبذل الأموال والتحف والهدايا، ويرسلها إلى هولاكو مع الاعتذار إليه وأن يجعل الخطبة والسكة باسمه، على النحو الذي كان متبعاً أيام البويهيين والسلاجقة، وقد مال الخليفة إلى قبول هذا الرأي، والأخذ به، لكن مجاهد بن أيبك الدوادار الصغير الذي كان يستند على قوة الجيش، رفض رأي الوزير ابن العلقمي، وأصر على المقاومة، فعدل الخليفة عند ذلك عن رأي الوزير وتبنى خيار المقاومة[225]. وهكذا لم يكن لتبادل الرسائل بين الطرفين من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها، ولما أيقن هولاكو أن في استطاعته السير إلى العراق دون أن يتعرض للمصاعب، وأن في مقدور قواته الاستيلاء على بغداد، أخذ في تنفيذ خططه الحربية التي وضعها أثناء إقامته في همذان، وأصدر أوامره بأن تتحرك الجيوش المغولية باتجاه عاصمة الخلافة. ولما وصلت إليها في (الثالث عشر من شهر محرم عام 656هـ = كانون الثاني عام 1258م) ضربت حصاراً مركزاً عليها، وأقام هولاكو معسكره

في ظاهرة المدينة من ناحية الشرق[226]، ولما رأى الخليفة حرج موقفه أراد أن يهدئ المغول ويثنيهم عن عزمهم على متابعة الهجوم، فأرسل إلى هولاكو الرسل والهدايا، لكن هولاكو رفض الاستجابة لهذا النداء، ونفذ خطة عسكرية، تقضي بإفراغ بغداد من مدافيعها قبل أن يقتحمها جنوده، فأرسل نصير الدين الطوسي إلى الخليفة يأمره بإرسال سليمان شاه والدوادار، فاضطر الخليفة إلى الاستجابة، ولما وصلا إليه، أعادهما إلى بغداد لاصطحاب أتباعهما وأصحابهما بحجة أنهم سينفون إلى الشام ومصر، فخرج معهما جند بغداد وكثير من السكان، فلما خرج هذا الجمع أمر هولاكو بقتلهم جميعاً[227]، فانكشف عندئذٍ موقف الخليفة، ولما رأى أن لا مفر من دخول المغول بغداد مال إلى التسليم، ولم يمض على ذلك يومان حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة. وقد اشترك ابن العلقمي في هذه المؤامرة حين أقنع الخليفة بوجوب الاستسلام، لأنه مهد طريق الصلح، وسوف يأتيه هولاكو والمغول طائعين، وقد ذكر ابن كثير أن الوزير ابن العلقمي كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه، ثم أشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف الخراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة[228]، وفي يوم الأحد (الرابع من شهر صفر عام 656هـ = شهر شباط عام 1258م) خرج الخليفة من بغداد وسلم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط، بعد أن وعده هولاكو بالأمان، عندئذٍ دخل الجنود المغول إلى المدينة وعاثوا فيها مدة أسبوع، فهدموا مساجدها، وجردوا القصور فيها من التحف النادرة، وأتلفوا عدداً كبيراً من الكتب القيمة في مكتباتها، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم فيها، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن. وتعطلت المدارس والربط وأضحت المدينة قاعاً صفصفاً وتكدست الجثث في الطرقات والأزقة. ثم انتشر الوباء فحصد كثيراً ممن كتبت لهم النجاة، وقد انتهت الأحداث بقتل الخليفة المستعصم وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخوته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم[229]، وبسقوط بغداد ومقتل الخليفة العباسي

المستعصم انتهت دولة الخلافة العباسية التي عمرت أكثر من خمسة قرون، ويبقى أن نذكر أن هذه الأحداث جعلت منصب الخلافة شاغراً يتطلع إليه كل زعيم طموح، فلما تولى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عرش مصر، بحث عن أحد أفراد الأسرة العباسية ونصبه خليفة في مصر عام (659هـ = 1261م)، والواقع أن السلطان المملوكي هدف إلى إضفاء الصفة الشرعية على حكمه بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة، وقد استمر هذا الواقع قائماً في مصر إلى أن ضمها السلطان العثماني سليم الأول في عام (923هـ = 1517م) وأنهى هذه الظاهرة.

وشغل السلاطين العثمانيون منصب الخلافة، فأداروا شؤون العالم الإسلامي من عاصمتهم إستانبول حتى عام (1924م)، حين قاد كمال أتاتورك انقلاباً وأعلن إلغاء منصب الخلافة وقيام الجمهورية التركية، وتبق الخلافة العباسية بالرغم من سلبياتها، صورة متألقة في ضمير كل مسلم وعربي يعتز بها ويفتخر بمآثرها.

الفصل الخامس

الدول المستقلة عن الدولة العباسية

– الدول المستقلة في المشرق الإسلامي:

أولاً – الدولة الطاهرية: 205–259هـ = 820–873م:

سميت باسم مؤسسها طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان، كان جده زريق مولى إسلام لا مولى عتق، لطلحة بن عبيد الله الخزاعي والي سجستان، أي أنه أسلم على يده فانتسب إلى قبيلته. قام المأمون بتوليته على خراسان في عام (205هـ = 820م) وأضاف إليه أعمال المشرق كلها من بغداد [230]، واتخذ طاهر نيسابور قاعدة له وراودته منذ توليته نزعة انفصالية، فخلع المأمون من الخلافة في عام (207هـ = 822م) وقطع الدعاء له، ثم طرح لبس السواد معلناً بذلك انفصاله عن

بغداد. إلا أن طاهراً توفي فجأة بعد ذلك وقد حامت الشبهة حول الخليفة بأنه أمر بدس السم له [231] وعلى الرغم من وقوف المأمون على أطماع طاهر فإنه أقر ابنه طلحة على ولاية خراسان [232].

ومن جهتهم، حرص الطاهريون، خلفاء طاهر، على استمرار سياسة التعاون مع الخلافة معترفين بسلطانها، وتجلت هذه السياسة في:

- قيام طلحة بحرب الخوارج في سجستان.

- قيام عبد الله بن طاهر بالقضاء على الفتن الخارجية في مصر، وعلى الحركات الطالبية المناهضة للنظام في خراسان، كما تعاون مع الخلافة على القضاء على حركة المازيار في طبرستان.

وقد قدر العباسيون هذه الخدمات، فقربوا آل طاهر ومالوا إلى جانبهم في صراعهم مع الصفاريين، وتمتعت خراسان في عهدهم بالأمن والرخاء والازدهار، شجعوا الزراعة ونظموا الري، اهتموا بالتعليم حتى أضحت عاصمتهم نيسابور في عهدهم مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية. ومن حيث العلاقات الخارجية فقد حافظوا على الولايات الشرقية من تعديات الأتراك، ووسعوا رقعة البلاد، ووطدوا سلطان المسلمين والقضاء على الخارجين، ولكنهم وقفوا عاجزين أمام تفاقم الحركات الطالبية حتى سقطوا تحت ضربات الصفاريين في عهد أميرهم محمد بن طاهر سنة 259هـ = 872م[233]. ونلاحظ أن العباسيين جعلوا للطاهريين منصب قيادة شرطة بغداد حتى بعد زوال إمارتهم في خراسان، واستمرت في أيدهم حتى سنة 301هـ = 913م[234].

ثانياً- الدولة الصفارية 254-298هـ = 867-911م:

تمثل هذه الدولة امتداداً سياسياً للحركات الانفصالية التي قامت في المشرق الإسلامي في جزء من أجزاء إيران الجغرافية وهو الجزء الجنوبي، أسسها يعقوب بن الليث الصفار، لأنه بدأ حياته يعمل بصناعة الصفر؛ أي تصفير الأواني النحاسية، الذي

استغل فرصة ضعف الخلافة العباسية المنهمكة في قتال الزنج، فتغلب على أقاليم إيران الجنوبية وضم إليه بلاد فارس، وتوسع باتجاه خراسان بعد أن قضى على الدولة الطاهرية في عام 259هـ = 872م فاشتدت شوكته، وسيطر على سجستان في أقصى شرقي إيران الجنوبية ووادي كابل والسند ومكران[235]، ثم كتب إلى الخليفة بما آلت إليه الأوضاع في المشرق، وتميز حكمه بالخصائص السائدة في ذلك العصر، فحقق الأمن والسلام في المناطق التي تحت سيطرته فتعلق الجيش به وسانده السكان، ويبدو أن الخليفة العباسي المعتمد لم يرض عن تصرفات يعقوب وتوسعاته، وعد الدولة الطاهرية القاعدة التي تعتمد عليها الخلافة في المشرق وأن القضاء عليها من شأنه أن يشكل تهديداً مباشراً لها، وخطراً على الوجود العباسي في الولايات الشرقية، لذلك جاء رد الخليفة المعتمد على ازدياد نفوذ يعقوب سريعاً وقاسياً، فلعنه أمام حجاج خراسان والري وطبرستان وجرجان[236]، وأثار تصرف الخليفة هذا غضب يعقوب فتحدى السلطة المركزية وتقدم نحو فارس واحتلها، وتابع تقدمه باتجاه العراق حتى وصل إلى الأحواز، فأرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يعقد له على ولايات المشرق وشرطتي بغداد وسامراء وأن يبطل لعنه أمام الحجاج[237].

شعرت الخلافة بعجزها عن التصدي للزحف الصفاري، فمالت إلى المهادنة وأجابت يعقوب إلى طلبه، وكانت آنذاك بصدد الصدام مع الزنج، والحقيقة أن الخلافة لم تركن إلى المهادنة إلا بقدر حاجتها إلى التقاط أنفاسها، وسنوح فرصة أخرى تستغلها للقضاء على قوة الصفاريين، وكانت قد أقامت حكماً موالياً لها في إقليم بلاد ما وراء النهر بقيادة نصر بن أحمد الساماني، فهددت بذلك الدولة الصفارية من الخلف، وأدرك يعقوب بن الليث سياسة الخليفة العدائية تجاهه، فقرر أن يضع حداً نهائياً لهذه الحالة بالسيطرة على بغداد وإخضاع الخلافة لسلطته المباشرة، ولكن أصابه المرض حيث توفي في عام (265هـ = 878م) بعد أن تجاوز طموحه التبعية للخليفة العباسي إلى الانفصال عن دولة الخلافة العباسية[238].

خلف عمرو أخاه يعقوب باختيار الجند له، وقد اتصف بالبراعة السياسية فلجأ إلى أسلوب آخر في نزاعه مع الخلافة متبعاً سياسة اللين والمهادنة واضعاً كل اعتبار لتغير الظروف، لذلك كتب إلى الخليفة المعتمد يعلن طاعته، فأرسل إليه الموفق شقيق الخليفة التقليد بما كان بيد أخيه، ثم أخذ يعمل على تدعيم مركزه وتثبيت سلطانه في الداخل. فأنشأ جيشاً خاصاً من المماليك الترك لحراسته وأهدى كثيراً منهم لقادته، وأغراهم بالمال ليوافوه سراً بالأخبار التي لا يستطيع الحصول عليها علناً، وبعد أن قضى الخليفة المعتمد على الزنج أصدر قراراً بعزل عمرو بن الليث وأرسل جيشاً بقيادة شقيقه الموفق لمحاربته وأجبره على التراجع إلى سجستان، لكنه لم يستطع السيطرة على كرمان وسجستان فعاد أدراجه[239].

ولما ولي المعتضد الخلافة في عام (279هـ = 892م) سارع عمرو إلى استرضائه فأعلن ولاءه له وأرسل إليه الهدايا وسأله ولاية خراسان، فأجابه الخليفة إلى ذلك، ثم طلب من الخليفة أن يوليه بلاد ما وراء النهر دون أن يقدر الصعاب التي تعترض ذلك، وهنا وجد الخليفة فرصته للقضاء على قوة الصفاريين المتزايدة، فأراد أن يضرب عمراً بالقوة السامانية النامية، لذلك أجابه إلى طلبه، وهو يتوقع حصول صدام بين القوتين للفوز بحكم هذا الإقليم، وفعلاً صدقت توقعات الخليفة، فقد اصطدم السامانيون بالصفاريين في عام (287هـ = 900م) وتغلبوا عليهم، وأسروا عمراً، وأرسل إلى الخليفة الذي سجنه. ومات في سجنه في عام (289هـ = 902م) [240]

وأخذت الخلافة ترسل الجيوش تلو الجيوش إلى الولايات الشرقية لبسط سيطرتها الفعلية عليها حتى استطاعت القضاء على خلفاء عمرو، وتمكن أحمد بن إسماعيل الساماني من السيطرة على سجستان في عام (298هـ = 911م)، [241] ومن ثم زالت الدولة الصفارية، بعد هذه الفترة القصيرة من الحكم، على الرغم من قوة جيوشها، واتساع رقعة البلاد التي حكمتها، وحسن إدارة قادتها، والسبب الرئيس

لزوالها هو تهديدها للخلافة العباسية، وموقف هذه الأخيرة العدائي منها، وما بذلته من الجهود المتصلة للقضاء عليها.

ثالثاً- الدولة السامانية: 261-389هـ = 874-999م:

ينتسب السامانيون إلى إحدى الأسر الفارسية العريقة التي كانت تدين بالديانة الزرادشتية. ثم أسلم جدهم سامان خداه، وهو أحد أشراف مدينة بلخ في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك. وانضم إلى الدعوة العباسية في خراسان وعمل في صفوف أبي مسلم[242].

كان لسامان ابن يدعى أسداً وقد سماه بهذا الاسم تيمناً باسم أسد بن عبد الله القسري والي الأمويين على خراسان الذي أسلم على يديه[243]. قامت الدولة السامانية في إقليم ما وراء النهر، وامتدت إلى إيران وبسطت سلطانها على خراسان كما ضمت طبرستان والري والجبل وسجستان، واتجهت إلى تبني النزعات الانفصالية الفارسية بشكل أكثر بروزاً من خلال إحياء اللغة والثقافة الفارسية.

وأدى أولاد أسد وهم نوح وأحمد ويحيى وإلياس دوراً بارزاً في وضع حد لحركة رافع بن الليث بن نصر بن سيار في عهد الخليفة المأمون، فكافأهم ورفع من شأنهم وعينهم ولاة على أهم مدن بلاد ما وراء النهر[244]، ونجح الإخوة في التصدي لغارات الأتراك الوثنيين على مناطق الحدود بالتعاون مع الطاهريين، كما شاركوا في النزاع الذي قام بين هؤلاء والصفاريين، فساندوهم وشدوا أزرهم، الأمر الذي جعل الطاهريين يقرونهم على أعمالهم بشكل دائم. ولما انتصر الصفاريون على الطاهريين واستولوا على إقليم خراسان، أقر الخليفة العباسي المعتمد، نصر بن أحمد الساماني على إقليم بلاد ما وراء النهر منفصلاً عن خراسان، تقديراً لإخلاصهم للخلافة، وذلك سنة 261هـ = 874م، فاتخذ من مدينة بخارى عاصمة له[245].

حرص السامانيون خلال حياتهم السياسية على التمسك بطاعة الخلافة العباسية وكسب مودتها، والحقيقة أن تطلعاتهم اتجهت نحو التوسع الخارجي متجنبين ما أمكن الدخول في النزاعات الداخلية مع الدول الإسلامية الأخرى، فكانوا بذلك المتممين الطبيعين للمهمة التي بدأها الطاهريون، حماة للأمن والنظام، فمدوا نفوذ العالم الإسلامي فيما وراء الحدود الشرقية، إلى أواسط آسيا، وتركزت فتوحاتهم في التركستان شرقي نهر جيحون.

ونشروا الحضارة الإسلامية في تلك البلاد الوثنية، ودخل على أيديهم عدد كبير من الأتراك الوثنيين في الإسلام، فأمدوا العالم الإسلامي بعنصر جديد سيؤدي في المستقبل دوراً فعالاً في الحياة الإسلامية.

ومن جهتها؛ فقد وجدت الخلافة في السامانيين ولاة مخلصين، إلا أنهم تمتعوا داخل بلادهم بالاستقلال والسيادة التامة. وكانت تعتمد عليهم في إقرار سلطانها في المشرق، فكانوا يدها لضرب الخارجين عليها.

من ذلك، فقد قمع نصر الثاني – الذي وصلت قوة السامانيين في عهده أوجها – حركات وشمكير بن زيار وماكان بن كالي وغيرهما من الخارجين على السلطة، وضم نتيجة انتصاراته عليهم أبهر وقزوين وقم وهمذان ونهاوند والدينور، وبلغ حلوان[246]. لقد اتسمت علاقات السامانيين بجيرانهم المسلمين بالعدائية بفعل عداء هؤلاء للعباسيين، فدخلوا مضطرين في صراع مع الصفاريين وقضوا على دولتهم كما اصطدموا بالطالبيين، فقد قضى إسماعيل بن أحمد الساماني على محمد بن زيد العلوي أمير طبرستان في عام (287هـ = 900م) بعد أن طمع هذا الأمير في بلاد خراسان[247].

والحقيقة أن الدعوة الشيعية لم تنقطع في خراسان، حيث تمتع الطالبيون بعطف كبير من جانب السكان، خاصة بعد قيام دولة الخلافة الفاطمية في المغرب حيث وجد الدعاة الفاطميون طريقهم إلى هذه المنطقة لنشر الدعوة في ربوعها، وتمكنوا من

استقطاب الأمير نصر الثاني بن أحمد، ويبدو أن الأمير تعرض لحركة معارضة لهذا التوجه من جانب قادة الحرس التركي والحاشية، فتآمروا عليه للتخلص منه، إلا أنهم فشلوا في ذلك. ومن جهة أخرى كان التعاطف السامانى مع الاتجاه الإسماعيلي مرحلياً، إذ بعد وفاة نصر قضى ابنه نوح على المذهب الإسماعيلي في ردة فعل عارمة[248]. عمرت الدولة السامانية مئة وثمانية وعشرين عاماً، وكادت أن تعمر أكثر من ذلك لولا أن البيت السامانى تعرض لمشاكل داخلية، وضغوطاً خارجية أدت إلى زواله. فمن حيث المشاكل الداخلية، فقد نشبت الصراعات الأسرية بين أفراد البيت السامانى، أدت إلى اندلاع الفتن والانتفاضات، كما خرج القادة وعمال الأقاليم على حكمهم مستعينين ببني بويه[249]. ومن حيث الضغوط الخارجية، فقد تعرضت الدولة السامانية لضغط متزايد من الديلم، والطالبيين، والبويهيين، وخانات الترك، والغزنويين، مما أدى إلى ضعفها وطمع جيرانها بها، لينقسم ملكها أخيراً بين قوتين ناميتين: قوة الغزنويين، وقوة خانات الترك سنة 389هـ = 999م[250].

ويبقى أن نذكر أن السامانيين أدوا دوراً حضارياً وسياسياً بارزاً، فامتاز عصرهم بنهضة علمية وأدبية رائعة جعلت عاصمتهم بخارى من أهم المراكز العلمية الإسلامية. واتجهوا إلى إحياء الثقافة الفارسية والأدب الفارسي، الذي بدأ ينتعش منذ القرن الثالث الهجري، وظهرت في عهدهم الكتابة باللغة الفارسية إلى جانب اللغة العربية، واشتهرت مكتبة الأمير نوح بن نصر، الذي يقول عنها ابن خلكان أنها كانت «عديمة المثل، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته»[251]. وشهد العصر السامانى نهضة صناعية تجلت في صناعة الخزف والورق والسجاد والمنسوجات الحريرية. ومن الناحية السياسية، فقد دافع السامانيون عن منطقة الثغور الشرقية، ومدوا النفوذ الإسلامي إلى بلاد الترك، ولم يخرجوا يوماً عن تبعية الخلافة العباسية في بغداد، واعتبروا أنفسهم الأداة المطيعة المنفذة لأوامر الخلفاء العباسيين.

وتمثل فترة حكمهم العصر الذهبي لتاريخ آسيا الوسطى الإسلامية.

رابعاً– الدولة الغزنوية 351–582هـ = 962–1163م:

استطاع المسلمون أن يفتحوا شطراً من بلاد الهند، وهو إقليم «البنجاب وحوض السند» في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي والي المشرق في خلافة عبد الملك بن مروان في سنة 92 هـ = 710م، واستمر المد الإسلامي يصبغ هذا الإقليم بالصبغة الإسلامية في الدين والثقافة حتى سنة 351 هـ = 962م، وكان اكتساب إقليم السند الصبغة الإسلامية في هذه الفترة مقدمة لظهور حركة قومية هندية تكتسب الشكل الإسلامي والطابع الإسلامي.

وهذه الحركة الاستقلالية التي تعبر عن تراث الهند وما فيها وقوميتها تتخذ صورة دولة مستقلة هي الدولة الغزنوية التي استمرت نحو قرنين وربع القرن من الزمان من سنة 351-582هـ = 962 – 1186م

أسس الدولة الغزنوية أحد المماليك السامانيين المدعو «البتكين» الذي ولاه السامانيون منطقة خراسان، ثم ولاية «غزنة» الواقعة في بلاد الأفغان فأسس هناك الدولة الغزنوية سنة 351هـ = 962م التابعة اسماً للساماينين.

أما المؤسس الحقيقي فهو مملوكه زوج ابنته المدعو «ناصر الدين سبكتكين»[252] الذي استولى على بعض المواقع الجبلية، ونجح في إخماد الثورات في بلاد ما وراء النهر، فكافأه نوح بن منصور الساماني سنة 384هـ = 994م بتوليته على ما كان بأيدي حميه في بلاد الأفغان الحالية، فأثار بذلك مخاوف ملوك الهند المجاورين ومنهم «جيبال راجا لاهور» في شمال غرب الهند. ودارت الحروب الطويلة بين سبكتكين وبين جيبال انتهت بانتصار الأول وأسره الثاني سنة 369هـ = 979م، ثم أطلق سراحه بعدما تعهد جيبال بدفع الجزية [253].

وصلت الدولة الغزنوية إلى أوجها في عهد ابنه محمود 388-421هـ– 998-1030م، الذي غزا الهند أكثر من اثنتي عشرة مرة بدافع الجهاد الديني والرغبة

في نشر الإسلام، فاستطاع أن يضم إليه إقليم البنجا، وقاعدته مدينة لا هور التي صارت نواة الدولة الباكستانية الإسلامية فيما بعد، ثم طمع محمود الغزنوي بملك السامانيين، فأنزل بهم الهزيمة في مرو سنة 389هـ = 999م، وأزال ملكهم من خراسان[254]، وتلقب بلقب السلطان بعد أن كان يلقب بلقب الأمير، ثم استغل فرصة ضعف الدولة البويهية وضم إليه ما كان بأيدي بني بويه في الري وبلاد الجبل، وامتاز عهده بالجهاد الإسلامي في إقليم الهند، ويقال أن غزواته وصلت إلى حدود هضبة الركن وسط الهند، واعترفت به الخلافة العباسية سلطاناً مستقلاً، ولقبه الخليفة بلقب «يمين الدولة» اعترافاً بأنه كان يرعى الركن الأيمن من المشرق الإسلامي، وأخضع بلاد الغور وبلاد ما وراء النهر، وسدد ضربة قوية لبني بويه عندما استولى على قاعدة ملكهم في أصبهان[255].

شجع الغزنويون الأدب والعلم – وخاصة السلطان محمود – الذي التف حوله كثير من العلماء والأدباء نذكر منهم على سبيل المثال: الأديب أبا القاسم أحمد بن حسن الميمندي، والشاعر أبا الفتح البستي، والشاعر الإيراني الفردوسي الذي نال جائزة محمود الغزنوي على ملحمته «الشهنامة»، والمؤرخ أبا نصر محمد بن عبد الجبار العتبي الذي كتب تاريخ السلطان محمود باللغة العربية. كذلك عاش في كنف الغزنويين العالم المؤرخ أبو الريحان البيروني الخوارزمي، الذي نقل تراث الهند في الفلسفة والرياضيات والإلهيات، كما وضع كتاباً سمّاه «القانون المسعودي» قدمه للسلطان مسعود بن محمود، ويبحث هذا الكتاب في الرياضيات والفلك والفلسفة بالهند، إضافة إلى الأمم والاختلاف في الشهور والسنين. وأخيراً المؤرخ الفارسي أبا الفضل محمد بن حسين البيهقي الذي كتب بالفارسية تاريخاً للسلطان مسعود ووالده محمود عرف بـــ «تاريخ البيهقي».

وبلغت الدولة الغزنوية في أيام محمود الغزنوي أعلى شأن لها بسبب علاقته الحسنة بالدولة العباسية حتى لقبه الخليفة القادر بالله بلقب «يمين الدولة، وأمين الملة»،

وسك النقود باسمه، أما بعد وفاته فقد اضطربت أحوال دولته نتيجة للخلاف بين ولديه مسعود ومودود، لكن حركة الفتوح استمرت طيلة عهود خلفائه إلى أن ضعفت على أيدي السلاجقة الذين ظهروا في خراسان، وتمكنوا من إنزال الهزيمة بالغزنويين في معركة داندانقان سنة 431هـ = 1039م مما جعل النفوذ الغزنوي ينحسر تدريجياً عن خراسان، ثم سقطت نهائياً على أيدي الغوريين الذي أقاموا دولة لأنفسهم ذات طابع هندي خالص، سنة 582هـ = 1163م، وتواصل نشر الإسلام في الهند.

– الدول المستقلة في الشام ومصر:

أولاً– الدولة الحمدانية في الموصل وحلب 293–392هـ = 906–1002م:

ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية الأصل التي أقامت بضواحي الموصل، وقام حمدان بدور هام في الحوادث السياسية التي وقعت في هذه المدينة منذ عام (260هـ = 874م)، واستولى في عام 277هـ = 890م على قلعة ماردين في الجزيرة العليا عن طريق التعاون مع الخوارج، فحاربه الخليفة المعتضد في عام 281هـ = 894م، وتغلّب على قواته. هرب حمدان من الموصل تاركاً المدينة تحت حكم ابنه الحسين، وعلى الرغم من أنه وقع أسيراً في يد الخليفة، فقد عفا عنه بعد أن هزم ابنه الحسين الخوارج [256]، ومنذ ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانيين تظهر على مسرح الأحداث السياسية ففي عام 293هـ = 906م قلد الخليفة المكتفي أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان، أخا الحسين الموصل، كما قلد أخاه إبراهيم ديار ربيعة عام 307هـ = 919م، أناب عبد الله ابنه الحسن في حكم الموصل، وتمكن هذا من بسط سلطانه على الجزيرة بكاملها بالإضافة إلى شمال بلاد الشام، والتجأ إليه الخليفة المتقي بعد أن تعددت هجمات البريدي وإخوته على العراق

فخلع عليه سنة 330هـ = 942م ولقبه ناصر الدولة، وعينه أميراً للأمراء، كما لقب أخاه علياً سيف الدولة [257].

لقد أدرك سيف الدولة أنه يتعذر عليه التمكن لنفسه في العراق بوصفه عامل الخليفة وساعده الأيمن، في ظل صراع الأتراك وطموح البويهيين وتوثبهم، فولى وجهه شطر بلاد الشام، وسيطر على حلب في عام 333هـ = 945م بعد أن انتزعها من أيدي الإخشيديين، وحاول أن يبسط سلطانه على دمشق إلا أنه اصطدم بقوة الإخشيديين بقيادة كافور [258]، ليفرغ بعد ذلك للمشكلة التي كرس جهوده من أجلها أيام حكمه، أي النضال ضد البيزنطيين. وقد دفعه وضع إمارته الجغرافي بوصفها إمارة ثغور إلى سلوك هذا المسلك، وفي ظل الاستفاقة التي شهدتها الإمبراطورية البيزنطية، وأتاح لها القيام بغارات على بلاد الشام. وبعد أن اكتسحت قسماً من أرمينيا وصلت إلى الحدود الممتدة بين جبال طوروس وملطية وبين أرضروم، وكان المسلمون آنذاك قد شغلوا بتراعاتهم الداخلية، فعجزوا عن صد البيزنطيين، عندئذٍ تشجع الأباطرة أمثال نقفور فوكاس ويوحنا زمسكيس، فتجاوزوا آسيا الصغرى وهاجموا الممتلكات الإسلامية في كيليكيه وبلاد الشام وأعالي الرافدين فكان على سيف الدولة وحده أن يتحمل عبء القتال. وعلى الرغم من أنه لم يمتلك قوات عسكرية وفيرة العدد إلا أنه استطاع أن يجدد أمجاد المسلمين الأوائل في صدامهم مع البيزنطيين، ويقاوم بيزنطة طوال عشرين عاماً، وأن يغير على أراضيها في آسية الصغرى في غارات بالغة الجرأة، وبدخول الفاطميين على الخط السياسي، أعلن سيف الدولة طاعته لهم، وأيد محاولاتهم غزو مصر، وبالتالي فإنه اتبع مذهب الشيعة، لكنه احتفظ بسيادته التامة على جميع أرجاء إمارته [259].

إلى جانب جهاده العسكري ونضاله السياسي، اهتم سيف الدولة بالناحية الثقافية اهتماماً بالغاً فرعى الفنون والعلوم والشعر والأدب فازدهر عهده بطائفة من مشاهير العلماء والكتاب والشعراء كأبي الفتح بن جني النحوي، وأبي الطيب المتنبي،

واشتهر كثير من الأمراء الحمدانيين بالشعر كأبي فراس ابن عم سيف الدولة، وكان سيف الدولة نفسه يجيد الشعر [260]. توفي سيف الدولة في حلب في عام (356هـ = 967م)، فخلفه ابنه سعد الدولة ثم حفيده سعيد الدولة اللذان احتفظا بحلب حتى عام 392هـ = 1002م.

ثانياً– الدولة الطولونية (254–292هـ = 868–905م):

أسس الدولة الطولونية أحمد بن طولون، وهو من المماليك الأتراك. تزوجت والدته بعد وفاة والده الأمير بايكباك التركي الذي عينه الخليفة المعتز والياً على مصر في عام (254هـ = 868م)، فأرسل أحمد ليتولى حكمها بالنيابة عنه، وساعدته الظروف السياسية والاقتصادية المتدهورة في تثبيت أقدامه فيها، كما أسند إليه الخليفة المهتدي ولاية الثغور الشامية على أثر وقوع الاضطرابات فيها [261]، وأضحى ابن طولون حاكم مصر من قبل الخليفة مباشرة بعد وفاة كل من بايكباك وخلفه بارجوخ في عام 259هـ = 873م [262].

وشرع ابن طولون في القيام بأعمال عمرانية تعبر عن مدى اهتمامه الشديد بمصر، ومتطلعاً من خلالها إلى إقامة دولة خاصة به منفصلة عن الخلافة، فأسس ضاحية للفسطاط وهي القطائع وجعلها عاصمة له [263]، وبنى فيها مسجده المشهور الذي لا يزال قائماً إلى الآن، وقوى الجبهة الداخلية من خلال تنمية موارد الثروة، ومضاعفة الدخل في ميادين الإنتاج، وأصلح أقنية الري، والسدود الخربة، وحظر على الموظفين قبول الهدايا، ولعل السبب في ذلك هو أنه نال قسطاً وافراً من التربية الإسلامية والدراسات الفقهية في بغداد وطرسوس، وتجمع لابن طولون نتيجة هذه الإصلاحات أموال ضخمة أعانته على إنشاء جيش قوي يدين له بالولاء، ويساعده في تحقيق مشروعاته الانفصالية والدفاع عنها. واتخذ لنفسه سياسة ذكية استهدفت الاستقلال

بمصر كلها ليجعل منها دولة يحكمها هو وأولاده من بعده، على أن تربطها بالخلافة روابط شكلية منها:

- الدعاء للخليفة في خطبة الجمعة.
- نقش اسم الخليفة على السكة- النقود.
- إرسال جزء من الخراج – ضريبة على الأراضي- إلى الخليفة.

لعل المشكلة الكبيرة التي واجهت ابن طولون هي علاقته بأبي أحمد الموفق طلحة شقيق الخليفة المعتمد الذي سيطر على الشؤون العامة في بغداد، وقاد حركة إصلاحية بهدف النهوض بالسلطة المركزية، لذلك سعى جاهداً للقضاء على الدولة الطولونية التي انفصلت عن الإدارة المركزية، وبدأت تتطلع نحو بلاد الشام، لكن محاولاته باءت بالفشل، وحصل ابن طولون على تقليد من الخليفة، بفضل علاقته الحسنة به، بحكم مصر وبلاد الشام بالإضافة إلى ثغورها [264]، وحاول ابن طولون في غمرة هذا الصراع مع الموفق نقل مقر الخلافة إلى مصر مستغلاً الجفاء الذي نشأ بين الخليفة والموفق، إلا أنه فشل في ذلك [265]، ويبدو أن الموفق لم يركن إلى الهدوء، وسعى جاهداً إلى إزاحة خصمه، فعزله عن مصر وبلاد الشام وولى إسحاق بن كنداج على أعماله، فتراجعت نتيجة ذلك قوة ابن طولون، ثم دخل الطرفان في مفاوضات من أجل إحلال الوفاق بينهما، لكن المنية عاجلت ابن طولون قبل أن تنتهي، وذلك في عام 270هـ = 884م، وخلفه ابنه خمارويه الذي ورث مهمة الدفاع عن الإرث الطولوني في مصر والاحتفاظ ببلاد الشام، مع استمرار عداء الخلافة للطولونيين، وفشلت محاولات الموفق في خلعه أو التغلب عليه في ساحة القتال وبخاصة بعد اندحاره أمام القوات الطولونية في معركة الطواحين على نهر أبي فطرس جنوبي فلسطين في عام 271هـ = 884م [266].

وأضحت الدولة الطولونية في عهده قوة تملأ مكانها بجدارة، وعلى الرغم من هذه الانتصارات التي حققها خمارويه، فقد مال إلى السلام، وبادر بطلب الصلح

مفتتحاً بذلك مرحلة جديدة من العلاقات مع الخلافة العباسية، وضمنت المعاهدة التي وقعت بين الجانبين للطولونيين الولاية على مصر وبلاد الشام والثغور طوال ثلاثين سنة مقابل دفع جزية هزيلة، وتدعمت هذه العلاقات الجيدة بالمصاهرة عندما تزوج الخليفة المعتضد ابنة خمارويه قطر الندى [267].

توفي خمارويه في عام 282هـ = 895م مقتولاً على يد بعض غلمانه، فاضطربت الدولة الطولونية بعد وفاته، واستمرت بالانحدار خلال السنين العشر الأخيرة من عمرها، وذلك بسبب تدخل الجند، وتنافس الأمراء، حتى انتهت على يد الخليفة المكتفي الذي دخلت قواته مصر في عام 292هـ = 905م فدمرت مدينة القطائع باستثناء الجامع، وعاد هذا البلد إلى حكم الخلافة المباشر [268].

ثالثاً– الدولة الإخشيدية (323–358هـ = 935–969):

عادت مصر إلى أحضان الخلافة العباسية، لكن هذه الخلافة أصابها الوهن مرة أخرى في عهد المقتدر، وظهر عجزها في المحافظة على سلطتها في ولاياتها ومنها مصر، وصاحب ذلك ظهور حظر خارجي تمثل في محاولات الفاطميين غزو هذا البلد، فتطلب الوضع وجود حاكم قوي يملأ الفراغ، ويتصدى للأخطار، ويجعل من مصر دولة حاضرة أمام الزحف الفاطمي، فولى الخليفة محمد بن طغج بن جف على مصر في عام 323هـ = 935م وكلفه بهذه المهمة [269]. اهتم محمد بن طغج أولاً بتقوية مركزه في الداخل منتهجاً نهج أحمد بن طولون، ونجح في التصدي لحملات الفاطميين التي هاجمت مصر في عام 324هـ = 936م، وحافظ في الوقت نفسه على علاقته الطيبة مع الخلافة العباسية التي أضافت إلى أملاكه بلاد الشام، ولقبه الخليفة بـ«الإخشيد»، ومعنى الإخشيد بلغة أهل فرغانة «ملك الملوك» [270].

كانت الخلافة العباسية آنذاك تشهد تطورات سريعة بفعل الصراع من أجل الحصول على منصب أمير الأمراء، فدخل الإخشيد في دوامة هذا الصراع، فهزم ابن رائق في العريش عام 328هـ = 940م [271]، لكن الإخشيد آثر تقديم المصلحة

العامة على مصلحته الخاصة، فعقد صلحاً مع ابن رائق تنازل له بموجبه عن الأراضي الشامية الواقعة شمالي الرملة، ثم سيطر على كامل بلاد الشام بعد وفاته عام 330هـ = 942م، واعترف الخليفة المتقي بوراثية ولايته على مصر وأقره على بلاد الشام، واصطدم الإخشيد بسيف الدولة الحمداني أثناء توسعه باتجاه الشمال، إلا أنه تراجع على الرغم من انتصاره لأنه أدرك ضرورة وجود قوة إسلامية في شمالي بلاد الشام كقوة الحمدانيين، للتصدي لاعتداءات البيزنطيين، وحاول الإخشيد نقل الخلافة إلى مصر مقتدياً بابن طولون، مستغلاً استبداد الأمراء الأتراك بالخليفة المتقي وإحجام الحمدانيين عن مساعدته، إلا أنه فشل في ذلك أيضاً لأن الخليفة أبى أن يترك عاصمته ثم توفي الإخشيد في عام 334هـ = 945م [272]، فاستولى كافور على زمام السلطة بوصفه وصياً على ولديه الصغيرين أنوجور وعلي، واستطاع خلال مدة وصايته الطويلة أن يحافظ على تماسك الدولة، لكن وفاته في عام 357هـ = 968م واضطراب الأوضاع في مصر نتيجة ذلك، دفعت الفاطميين للإغارة على مصر، ونجحوا في دخولها في العام التالي، وقضوا على الحكم الإخشيدي، عندما أرسل المعز لدين الله الفاطمي قائده جوهر الصقلي فاستولى على مصر سنة 969م [273].

رابعاً– الدولة الفاطمية 297–567 هـ = 910–1171م:

– أصل الفاطميين:

يتطلب البحث التاريخي عن الدولة الفاطمية العودة إلى الجذور، ويقود إلى البدايات الأولى، ونبدأ بيوم السقيفة حيث اتفقت كلمة المسلمين على اختيار أبي بكر الصديق خليفة في اليوم الذي توفي فيه النبي في 12 ربيع الأول 11هـ = 7 حزيران 632م [274]. انتصرت مقولة «الأئمة من قريش» وأقر مبدأ الحكم في الإسلام وقف على قريش ومحصور بها. لم يحضر علي بن أبي طالب وبعض الصحابة عملية الاختيار التي تمت على عجل، إذ كانوا منهمكين بتجهيز النبي صلى الله عليه وسلم، لكن علياً لم يلبث أن بايع أبا بكر، ثم تولى عمر بن الخطاب منصب الخلافة في 13هـ –

634م بعد وفاة أبي بكر وبعهد منه، وتطور في أيامه المبدأ المشار إليه من قريش بعامة وانحصر الحكم في آل عبد مناف بن قصي.

وجرت نقلة نوعية فيما يتعلق بالسلطة حين اختير عثمان بن عفان لتولي منصب الخلافة في 24هـ - 644م، وذلك عندما استقر الأمر لبني أمية ووقف بنو هاشم على رأس المعارضة[275].

وانتخب علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين على أثر مقتل عثمان بن عفان في سنة 35هـ- 656م بأغلبية المسلمين في ظروف مضطربة كانت موضوعاً لنزاع كبير، وأسفر الصراع بعد الفتنة الكبرى ومعارك الحروب الأهلية – الجمل وصفين – عن انتصار معاوية بن أبي سفيان وتأسيس الدولة الأموية في عام 41هـ - 661م. وكان علي بن أبي طالب قد قتل على يد الخوارج في 40هـ - 661م[276].

وبعد وفاة علي بن أبي طالب شعر أتباعه بالحرمان واليأس والمرارة لأنهم لم يعرفوا كيف يساندونه ويدافعون عنه، فنمت فيهم عقدة ذنب عظيمة دفعتهم إلى الالتفاف حول شهيد من آل البيت، واستمرت على امتداد تاريخهم، وعرفوا بالعلوية أو بشيعة علي، ورفضوا مختلف صيغ الحكم وأكدوا أن القرآن والسنة تضمنا النصوص الموجبة لتولي علي وذريته من بعده خلافة النبي الزمنية والروحية، وغدت الإمامة ذات العلم الموروث محور العمل الشيعي، والمعروف أن حركة التشيع بدأت عربية إسلامية، لكن ما لبث أن دخل فيها الكثير من غير العرب وبخاصة الفرس، وجاء هذا الدخول في كثير من المناسبات نوعاً من أنواع المعارضة الأعجمية للعروبة والإسلام[277]، واجتمع الشيعة المعتدلون حول أبناء فاطمة، وراحوا يعملون بحذر بما جاءت به السنة، في حين التفت المتطرفون حول محمد بن علي بن أبي طالب المعروف باسم محمد بن الحنفية، وبدأت منذ ذلك الوقت الانقسامات بين صفوف الشيعة، مما مكن الأمويين من القضاء على الحركات الشيعية الثائرة على حكمهم، وبخاصة ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي التي اتسمت بمحتواها الديني والعقائدي حين نادى بفكرة المهدي المنتظر

في شخص محمد بن الحنفية. ودخلت الحركة الشيعية مع أتباع جعفر الصادق منعرجاً حاسماً في تاريخها تمثل في انقسامها إلى فرقتين بفعل نظرية الحق الوراثي عند الشيعة؛ وهما الإمامية الإثني عشرية، والإسماعيلية أتباع ابنه إسماعيل.

ودخل الفرس على الخط السياسي مستغلين هذا الانقسام ليوجهوا الحركة الإسماعيلية لصالحهم، وتشير أغلب المصادر إلى أن جعفر الصادق عين ابنه إسماعيل خلفاً له وهو الإمام السادس، غير أن إسماعيل توفي في حياة أبيه، فحولت الفرقة الأولى الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم وهو الإمام السابع.

في حين استمرت الفرقة الثانية على موقفها بالقول بإمامة إسماعيل، وتعد البداية الأولى للحركة الإسماعيلية، وانقسمت بدورها إلى طائفتين، أنكرت الأولى وفاة إسماعيل في حياة أبيه واعتقدت بأن أباه أخفاه تقية خوفاً عليه من العباسيين وأكدت أنه الإمام الحقيقي من بعده، وأنه سيعود كمهدي قائم، وعرفت بالإسماعيلية الخالصة والإسماعيلية الواقفة[278].

واعتقدت الثانية بوفاة إسماعيل في حياة أبيه، واعترفت بإمامة ابنه محمد إماماً سابعاً، وحجتها في ذلك عدم جواز نقل الإمامة من أخ إلى أخيه بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين، ولا تكون إلا في الأعقاب[279].

ولحل الإشكال الذي وقع بينهما ابتكرت الطائفة الثانية نظرية الاستقرار والاستيداع، فالإمام المستقر هو الذي يورث الإمامة من بعده لأنها تستقر فيه، فهو إمام حقيقي. أما المستودع فيظل إماماً طيلة حياته ولا يحق له نقل الإمامة إلى أبنائه من بعده. وبناء عليه يكون موسى الكاظم إماماً مستودعاً أما أخوه إسماعيل فهو الإمام المستقر، لقد نشأت الحركة الإسماعيلية كحركة اجتماعية، فلسفية وسياسية معاً. وكان إسماعيل بن جعفر الصادق أوسع نشاطاً من إخوته، وأعظمهم تأثيراً في بناء العمل السياسي للشيعة الإسماعيليين واتبع مبدأ التقية، فعمل في خفاء تام، وأحسن

اختيار دعاته، ووضع أسس المذهب الإسماعيلي، وهو أول من أعطى الإمامة العلوية بعداً سياسياً شبيهاً بالخلافة، ووضع الخطط السرية للوصول إلى الحكم.

وضبط ابنه محمد مذهب الحركة، ونظم الدعوة بفضل مساعدة ميمون القداح الفارسي الأصل وابنه عبد الله بن ميمون، ويبدو أنه تعرض للمضايقة والملاحقه من قبل السلطة العباسية، فعمد إلى التستر والتخفي منذ عام 145هـ = 762م، ولم تنته هذه الحالة إلا في عام 297هـ = 910م بظهور المهدي في إفريقية وقيام الدولة الفاطمية، وتعد هذه المرحلة بنظر المؤرخين، الأشد غموضاً والأكثر إثارة نظراً لما يواجهه من صعاب لإدراك الحقيقة من خلال مصادر غزيرة بقدر ما هي متناقضة، ولعل السبب الأبرز في ذلك هو ندرة المعلومات، لأن غالبية الفرق الشيعية لجأت إلى التقية والعمل السري في العصر العباسي الأول تجنباً لغضب ونقمة العباسيين، وتميزت نهاية هذه المدة بتوقف نشاط الإمامية الاثني عشرية في عام (260هـ = 874م) بفعل اختفاء الإمام الثاني عشر، وتوافق هذا التاريخ مع انطلاق نشاط الدعاة الإسماعيليين الذين أضحوا يتحملون دون سواهم مهمة إذكاء الجذور الحسينية، وتنبؤوا بظهور المهدي في القريب العاجل، ودعوا الناس إلى القتال باسمه وتحت رايته.

إن لقب الفاطميين الذي عُرف به خلفاء عبيد الله المهدي يدل على أنهم من أولاد علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت النبي صلى الله عليه وسلم، على أن نسب الأسرة الفاطمية كان لا يزال موضوعاً لم يتفق المؤرخون عليه، ولكن المصادر الشيعية تؤكد صحة نسب الفاطميين وترجعهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، لكن يكتنفها الغموض ويشوبها الاختلاف، وبخاصة في تسلسل أسماء الأئمةِ، وهكذا طرحت قضية أصل الفاطميين على بساط البحث، وأثارت جدلاً بين المؤرخين لم يحسم إلى الآن[280].

ومن وجهة النظر التاريخية التي تهمنا في هذا البحث عن أصل الفاطميين، نجد أن العباسيين والأمويين في الأندلس ينكرون النسب العلوي للفاطميين علماً بأنهم لم

ينكروا قط شرعية غيرهم من العلويين كأمراء طبرستان في المشرق وأمراء الأدارسة في المغرب، وفي الواقع سواء كان الحكام الفاطميون من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق أم كانوا من نسل ميمون القداح فقد أسسوا دولة مترامية الأطراف، وأنشؤوا حضارة إسلامية زاهية، ولا يمكن أن تُنقص من هذه الحقيقة أن يكون نسبهم موضوعاً للجدل والريب.

– تقسيم تاريخ الدولة الفاطمية:

حكمت الدولة الفاطمية ما يقارب 270عاماً (297-567هـ = 910-1171م)، ابتدأت بعبيد الله المهدي وانتهت في أواخر أيام العاضد، حيث زالت على يد صلاح الدين الأيوبي، ولم تكن هذه المدة الزمنية على نمط واحد من حيث قدرات الدولة وقوة الحكام، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل زمنية:

المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس وقيام الدولة

297-362هـ = 910-973م

أرسل أبو القاسم الحسن بن فرح بن حوشب الكوفي، داعي الإسماعيليين في اليمن، أبا عبد الله الداعي، وهو الحسين بن أحمد إلى بلاد المغرب في عام 288هـ = 901م لنشر الدعوة في هذه البلاد، بعد وفاة داعيا الإسماعيلية فيها وهما: أبو سفيان الحسن بن القاسم وعبد الله بن علي بن أحمد المشهور بالحلواني. نجح أبو عبد الله الداعي في استقطاب جماعة من حجاج كتامة من البربر، وصحبهم إلى بلاد المغرب، حيث بث دعوته بين الناس، وقوي أمره بمن التف حوله من الأتباع، واستولى على القيروان، وأزال الدولة الأغلبية[281]، وبعد أن أضحى في عام 291هـ = 904م صاحب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان أرسل إلى عبيد الله المهدي في سلمية يدعوه للحضور إلى إفريقية لتسلم الأمر، والواقع أن نجاح الداعي أبي عبد الله في نشر الدعوة وسط قبيلة كتامة، وما حققه من نصر على

الأغالبة، أقنعت عبيد الله المهدي بقبول الدعوة، فترك سلمية متنكراً بزي التجار وتوجه إلى إفريقية، ولم يكد يصل إلى مدينة سجلماسة حتى انكشف أمره، فقبض عليه أميرها وسجنه، غير أن أبا عبد الله الداعي أطلقه بالقوة، واصطحبه إلى مدينة رقادة حيث بويع له بالخلافة في (شهر ربيع الآخر عام 297هـ = شهر كانون الثاني عام 910م)، وتلقب بلقب المهدي، واضعاً بذلك الأساس الذي قامت عليه الدولة الفاطمية[282].

والحقيقة أن عبيد الله المهدي لم يجلس على عرش الدولة الفاطمية في رقادة إلا بعد زوال الدولة الأغلبية في إفريقية، والدولة المدرارية في سجلماسة، والدولة الرستمية في تاهرت، وكان هدف الفاطميين احتلال مصر ثم العراق، وتقويض الخلافة العباسية وتوحيد العالم الإسلامي تحت رايتهم، وقد انتشر دعاتهم في مصر، ثم توجهت حملتان لاحتلالها في عهد عبيد الله وعهد خلفه القائم، لكن واليها محمد بن طغج الإخشيدي ردهما عنها، فلم يستطع الفاطميون الاستيلاء عليها إلا بعد أن حل الضعف في حكامها، إثر وفاة كل من الإخشيد وأبي المسك كافور، لا سيما وأن مصر قد أصيبت بأزمات اقتصادية ومجاعات، إضافة إلى تهديد القرامطة، الذين توجهوا بقواتهم إليها يريدون احتلالها، وكان على المصريين أن يختاروا أحد أمور ثلاثة: إما أن يسلموا بأمر مستحيل هو احتلال القرامطة، نظراً لنفرتهم منهم ومن أعمالهم، أو أن يرضوا بما لا يمكن احتماله من بقاء الفوضى، فلم يروا بداً من قبول الحكم الفاطمي لما سمعوا من حرص الفاطميين على إقامة العدل، وعلى الاستقامة في الحكم، وأما الاختلاف المذهبي بين المصريين السنة والفاطميين الشيعة، فيبدو أن حرص هؤلاء على الاعتدال في تشيعهم قد لاقى قبولاً من المصريين، وقد اختار المعز لدين الله الفاطمي أبا الحسن جوهر الصقلي لقيادة جيشه المؤلف من مئة ألف مقاتل، وقطع للمصريين عهداً، من سيده المعز لدين الله، الخليفة الفاطمي الرابع، باتباع العدل والقيام بالحق والقضاء على الظلم، وباحترام حريتهم المذهبية وشعائرهم الدينية احتراماً مطلقاً، فاطمأنوا إلى

الفاطميين وخرج وفد من وجهائهم ومشايخهم لاستقباله[283]، ولما قاومه الإخشيديون دحرهم ودخل العاصمة المصرية 359هـ = 969م، وخطط مدينة جديدة لجنده، وهي القاهرة المعزية، كي لا يختلطوا بسكانها، و لم يلبث المعز أن انتقل عام 362هـ = 972م من عاصمته المغربية المهدية إلى عاصمته الجديدة القاهرة، ودون أن يقيم وزناً لاشتراك الفاطميين والقرامطة في عقيدة المذهب الإسماعيلي، فسرعان ما تصدى لهم عندما هاجموا مصر أكثر من مرة، فأصبحوا خطراً سياسياً يهدد الخلافة الفاطمية، فدحرهم جوهر الصقلي مرة، ثم تقدم الفاطميون في سورية، وأوقعوا هزيمة أخرى بالقرامطة، ووصلوا إلى مشارف حلب فاصطدموا بالحمدانيين، وما زالوا يقاتلون للسيطرة على سورية بكاملها[284] حتى قضوا على بني مرداس، خلفاء الحمدانيين، فبسطوا سلطانهم عليها، كما استولوا على الحجاز، فأصبحت دولتهم في غاية الاتساع ونافست الخلافة العباسية في بغداد.

واتبعت سياسة توسع فيما وراء البحر- حتى قبل احتلالها لمصر- إذ أسست أسطولاً عظيماً أغار به الخليفة محمد القائم على ساحل فرنسه الجنوبي، وبلغ الأسطول أوج قوته في عهد المعز لدين الله، فغزا به سنة 344هـ = 955م سواحل الأندلس العربية، وقد حكم جوهر الصقلي مصر، نيابة عن المعز الفاطمي، مدة أربع سنوات تقريباً (358-362هـ = 969-973م). ولعل أهم إنجازاته تأسيس مدينة القاهرة التي أقام فيها قصر مولاه، والجامع الأزهر [285]، ثم أخذ ينشر المذهب الإسماعيلي بين المصريين متبعاً في ذلك الوسائل السلمية، فألغى الخطبة للخليفة العباسي وأقامها للمعز، وضرب السكة باسمه ومنع لبس السواد شعار العباسيين، وفرض الملابس الخضراء شعار العلويين، وعندما أضحت الظروف مهيأة لاستقبال المعز في القاهرة كتب جوهر إليه للحضور إلى مصر لتولي شؤونها، فوصل إليها في رمضان 362هـ = حزيران 973م [286]، وبانتقال المعز إلى مصر تنتهي المرحلة الأولى من مراحل التاريخ الفاطمي.

المرحلة الثانية: مرحلة القوة والتوسع

362-478هـ = 973-1094م

وقد حكم فيها خمسة خلفاء أشهرهم المعز لدين الله وابنه العزيز نزار والحاكم بأمر الله، وقد حكموا في مصر عدا المعز الذي حكم في المغرب ومصر، فقد اشتهر المعز بعد تسلمه الحكم في مصر بالتقوى والورع، وقام بالعدل بين الناس واستقطب أهل الذمة، فأسند إليهم مناصب الدولة العليا، وعلى الرغم من أنه لم يكن ميالاً إلى حياة الترف إلا أنه يعد أول من استن الفخامة والأبهة في حياة الفاطميين، وتمكن من فرض السيادة على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة وذلك عندما تمكن الزعيم المحلي حسن بن جعفر الحسين من الاستيلاء على مكة ودعا للمعز على منابرها، فبعث إليه المعز تقليداً بالحرم وأعماله وكذلك أقيمت الخطبة للمعز في المدينة، وحذف اسم الخليفة العباسي في كل من المدينتين المقدستين [287]، وتمكن من التخلص من الأخطار الثلاثة التي هددت السلطة الفاطمية في بلاد الشام وهي هجمات القرامطة بقيادة الحسن بن أحمد القرمطي الملقب بالأعصم الذي هدد بقواته القاهرة إلا أنه رد على أعقابه [288]، ورد الخطر القادم من بغداد العباسية بقيادة أفتكين التركي، ولرد هجمات البيزنطيين اهتم المعز بتقوية البحرية الفاطمية، ولا شك أن وضعه في مصر فرض عليه أن يقوم بهذا العمل، فبنى الشواني الضخمة، والسفن الحربية المختلفة، وهو أول من وضع نظام البحرية الفاطمية في مصر، وتوفي المعز في عام 365هـ = 975م [289].

خلف أبو منصور نزار الملقب بالعزيز بالله أباه المعز وهو في الثانية والعشرين من عمره، واتبع السياسة نفسها التي انتهجها آباؤه وأجداده، ويعد عهده عهد يسر

ورخاء، وإرساء دعائم الدولة الفاطمية، وذلك بفضل مساعدة جوهر الصقلي والوزير يعقوب بن كلّس الذي كان متعدد المواهب ذكياً أديباً، يجيد عدة لغات. [290]

ومن حيث السياسة الدينية حاول العزيز جعل المذهب الإسماعيلي مذهباً رسمياً للدولة، حيث حول الجامع الأزهر إلى جامعة تقوم بتدريس الفقه الإسماعيلي، فقرب أتباعه وأبعد مناهضيه. تساهل مع المسيحيين ومنحهم قسطاً من الحرية لم يتمتعوا بها من قبل، وكان الفضل في ذلك لوزيره النصراني عيسى بن نسطور، ولزوجته الروسية، أخت بطريركي الإسكندرية والقدس، وأم ولده الحاكم بأمر الله [291]، واتخذ طبيباً نصرانياً يدعى أبا الفتح منصور بن مقشر المصري، وولى يهودياً ولاية الشام [292].

وأكد السيادة الفاطمية على بلاد الشام عندما سيطر على دمشق سنة 368هـ = 978م وأسر حاكمها أفتكين، واعترف الحمدانيون بالسيادة الفاطمية، وعمل على نشر الدعوة الفاطمية في العراق، فأقيمت له الدعوة في الموصل على يد أميرها أبي الدرداء محمد بن المسيب العقيلي في عام 382هـ = 992م [293].

ودعا العزيز إلى جهاد البيزنطيين وأعد جيشاً ضخماً لمحاربتهم، لكنه توفي قبل أن يحقق هذا الهدف وذلك في 386هـ = 996م.

تولى الحكم بعد العزيز ابنه أبو علي المنصور، تلقب بلقب الحاكم بأمر الله، وله من العمر إحدى عشرة سنة، فتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخادم الصقلبي [294]، الذي استقل بأمور الدولة، وحتى يقوي موقفه استقطب شيخ كتامه المغربي أبا محمد الحسن بن عمار الذي كان في رتبة الوساطة، وهي أشبه بالوزارة لكن دونها رتبة، شعر الحاكم عندما بدأ بدخول مرحلة الشباب أن سلطته مسلوبة مع وجود هذين الشخصين فتخلص منهما مع أعوانهما [295]، وهكذا استعاد الحاكم سلطته المسلوبة من أيدي الطامعين، ودل بتصرفه على أنه يفوق أعداءه دهاءً ومكراً، وقبض على الحكم بيد من حديد، واختط منهجية خاصة في التعامل السياسي تستند على المحافظة على تفرده بالحكم، ونشر الدعوة الفاطمية في أوسع رقعة ممكنة، وتحقيق

الازدهار الاقتصادي، وانقسمت فترة حكمه إلى دورين؛ ثابر في أولهما على خطة والده في تقوية الحكم وتثبيته كما رأينا قبل قليل، لا بل أصلح إساءة والده إلى أهل السنة، إذ وصلهم بالأموال وتقرب من علمائهم، وبنى لهم دار العلم بالقرب من دار الحكمة، وبالغ في اتباع أوامر الدين، إذ منع زرع كرمة العنب كيلا تعتصر منها الخمرة، وحظر على النساء الخروج إلى الشوارع، واتبع سياسة اضطهاد للمسيحيين واليهود، مخالفاً بذلك سياسة أسلافه المتسامحة مع أهل الذمة، إذ أمر بهدم بعض كنائسهم، وحملهم على لبس السواد، وأفرد لهم حمامات خاصة، كيلا يدخلوا الحمامات العامة مع المسلمين.

واتصفت الفترة الثانية من حكمه بالانحراف والشذوذ، إذ بدأ باضطهاد السنة بعد التسامح، واستعمل الشدة أحياناً في حمل الناس على اعتناق المذهب الإسماعيلي، وأمر المؤذنين بإضافة إلى الأذان عبارة: «إن محمداً وعلياً خير البشر» [296]، ولم يراع الحاكم مشاعر أهل السنة، فأمر بسب الصحابة في عام 395هـ = 1005م، وكتابة ذلك على جدران المساجد، والجامع العتيق، وأبواب الحوانيت والدور، وأكره الناس على فعله، وكان الخطباء يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر [297].

وللحصول على أموال وأملاك الكنائس دبر مؤامرة واغتال خاله أرسانيوس بطريك الإسكندرية.

كانت تقوى الحاكم البالغة، وهيامه في عوالم جديدة من الفلسفة الروحية، ونجاحه في تنظيم الدعوة الفاطمية ونشرها، مما جعل أتباعه يغالون في تقديرهم لشخصه، ولم تلبث أن ظهرت آثارها المادية في صورة دعوة جريئة إلى تقديسه، وعدوه فوق مستوى البشر، ووصل الغلو في ذاته إلى حد التأليه، جاء هذا الغلو من جانب بعض الغلاة الإسماعيليين الفرس الذين ظهروا في مصر منذ عام (408هـ = 1016م)، ونادوا بهذه الفكرة التي تقول بألوهية الحاكم، ويبدو أنه لم ينكر عليهم قولهم، والراجح أن موقفه كان تأييداً ورعاية، إذ سره بأن يلتف الناس حوله،

ويتوحدوا حول شخصه من خلال مذهب جديد عُرف باسم التوحيد، وأطلق على أتباعه اسم الموحدين، نذكر من هؤلاء الدعاة المتشددين والذين كان لهم شأن كبير في تلك الحركة: حسن بن حيدره المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين الدرزي، وحمزة بن علي بن أحمد اللباد الزوزني [298].

إن ادعاء الحاكم الألوهية، أثار نفوس الشعب المصري فلاحقوا وزيره درزي يريدون قتله، فاختفى، ثم لاحقوا «حمزة» الداعية الآخر للألوهية، فالتجأ إلى دار الخلافة، الأمر الذي أضر بالإسماعيلية كمذهب، وقد عم الهياج والاضطراب من أعماله، وفي عام (404هـ = 1013م) ازداد تباعداً عن العقيدة الإسماعيلية التي تشترط المبايعة للابن الأكبر كولي للعهد، وتجاوز هذا المبدأ الأساسي حين عين ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدي ولياً للعهد، وهو ابن امرأة نصرانية [299]، وتحسباً من قيام معارضة أخرج جماعة من حظاياه وأمهات أولاده من القصر، ومن بينهن أم ولده أبي الحسن علي، وولده نفسه، مما اضطر أخته ست الملك إلى أخذهما خوفاً عليهما وأسكنتهما بقصرها، ولقد أدت هذه التغييرات الجذرية إلى نشوء حالة ارتباك في الأوساط الإسماعيلية إلى حد أن بعضهم ظن أن الحاكم قد تجاوز الحد، ومما زاد الوضع اضطراباً وقف عقد الاجتماعين الأسبوعيين للتدريس والجباية، عند ذاك اغتيل الحاكم بموافقة شقيقته [300] التي استولت على مقاليد الأمور في الدولة، وكانت فاتحة أعمالها التخلص من كل من كان على علم بمؤامرتها ضد أخيها الحاكم وبخاصة ابن الرواس الكتامي، كما قتلت ولي العهد عبد الرحيم بن إلياس، واستمالت أمراء بلاد الشام وقادة الجند، وقد هدفت إلى نقل السلطة إلى ابن الحاكم وولي عهده الشرعي أبي الحسن، فتولى الحكم في سنة 411هـ = 1021م، وتلقب بلقب الظاهر لإعزاز دين الله، وكان عمره سبعة عشر عاماً، وقامت عمته بإدارة الشؤون العامة حتى وفاتها سنة 413هـ-1023 [301].

كان الظاهر على عكس والده سمحاً عاقلاً لين العريكة متجنباً سياسة العنف حريصاً على أن يصلح ما فسد من الإدارة في عهد والده، اعتنى بتحسين أوضاع البلاد الاقتصادية، وتنعمت البلاد في عهده بالهدوء والطمأنينة، وعمل على تنشيط الدعوة الفاطمية في خارج مصر حتى أنه نجح في نشر الدعوة الفاطمية في شيراز وفارس والأحواز بفضل الداعي الفاطمي المؤيد في الدين الشيرازي [302]، وتوفي سنة 427هـ = 1036م. خلف أبو تميم معد، الذي تلقب بلقب المتنصر بالله، والده الظاهر وهو طفل لم يتجاوز السابعة من عمره، فتولت والدته الوصاية عليه وحكمت باسمه، وشهد عهده أحداثاً جساماً أثرت سلباً على مركز الدولة، وفقدت القاهرة مكانتها كمدينة كانت مهيأة لحكم العالم الإسلامي لمدة طويلة، ويمكن تقسيم عهده الذي دام لفترة طويلة وصلت إلى 60 سنة من 427-487هـ = 1036-1094 إلى فترتين.

- الفترة الأولى: 427-450هـ = 1036-1058م:

تمتاز هذه المرحلة بعظمة الدولة واستقرار أوضاع مصر وتمتعها بالطمأنينة والرخاء وقد وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو في كتابه سفر نامه أوضاع مصر في أوائل حكم المستنصر، فأشاد بثروة البلاط الفاطمي وأبهته، وما كانت تتمتع فيه البلاد من يسر ورخاء، ويبدو أن سبب هذا الرخاء يعود إلى براعة الوزراء الذين تولوا منصب الوزارة وحسن سياستهم.

- الفترة الثانية: 450-487هـ = 1058-1094م:

تمتاز بتدخل العسكر في شؤون الحكم والشؤون العامة، وكثر في هذه المرحلة تنصيب وعزل الوزراء والقضاة مما أدخل البلاد في أزمات إدارية، وترافق ذلك مع ظهور أزمة اقتصادية عُرفت بـ«الشدة العظمى» حين تناقص منسوب النيل، فارتفعت الأسعار، وانتشرت المجاعة، وتفشت الأوبئة، واقترنت بقيام الصراعات الداخلية والحروب الأهلية، وفقد المستنصر السيطرة على الأوضاع وتقلص نفوذه،

فانحصر داخل القصر، و لم تنته هذه الأزمة إلا بعد أن استنجد المستنصر بوالي عكا أمير الجيوش بدر الجمالي الأرميني الأصل في عام 466هـ = 1073م لإدراكه أنه لابد من الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فرض النظام وحماية الدولة [303].

نجح بدر الجمالي، بما اتخذه من تدابير، في وضع حد للفوضى والحروب الأهلية، وأعاد للبلاد وحدتها وأمنها، وللدولة قوتها، وحجر على المستنصر، واستبد بالشؤون العامة، مما عد بداية لظهور نظام جديد في تاريخ الدولة الفاطمية اصطلح على تسميته بـ «عصر نفوذ الوزراء» [304].

غير أن الدولة قد مالت إلى الانحدار السياسي، إذ حاقت بها الأخطار الخارجية حيث تمكن السلاجقة السنة من القضاء على الدولة البويهية الشيعية وأصبحوا القوة الضاربة في الدولة العباسية وأصبح هدفهم طرد الفاطميين من بلاد الشام والقضاء على دولتهم في مصر، واستطاعت الخلافة العباسية استقطاب المعز بن باديس الزيري حاكم إفريقية، فقطع الخطبة للفاطميين في عام 441هـ = 1050م وأقامها للخليفة العباسي [305]، وتمكن السلطان السلجوقي طغرلبك من القضاء على حليف الفاطميين البساسيري والذي كان قد سيطر على بغداد وأقام فيها الخطبة للمستنصر الفاطمي لمدة عام، تم القبض عليه وقتله سنة 451هـ = 1059م، وفقدت الدولة الفاطمية ممتلكاتها في شمال إفريقية، وتمكن القائد السلجوقي أتسز من دخول دمشق في عام 468هـ = 1075م في عهد السلطان ملكشاه الأول وقطع الخطبة للفاطميين منها [306].

وتوفي المستنصر بعد حكم دام ستين عاماً، وكان قد عين الأفضل بن بدر الجمالي وزيراً له بعد وفاة والده، وبوفاة المستنصر تنتهي المرحلة الثانية من مراحل التاريخ الفاطمي.

المرحلة الثالثة: مرحلة الضعف والزوال

487-567هـ = 1094-1171م

طغى في هذه المرحلة، نفوذ الوزراء على حساب صلاحيات الحكام الفاطميين، ونهج الوزير الأفضل بن بدر الجمالي نهج والده، وتدخل بعد وفاة المستنصر في إقصاء ابنه الأكبر وولي عهده نزار عن العرش، ونصب أخاه الصغير أبا القاسم أحمد الـــذي لقب بـــ المستعلي وذلك في 487هـــ = 1095م، وكانت والدة المستعلي هذا ابنة بدر الجمالي وأخت الأفضل.

وقد أدى إقصاء نزار عن الحكم إلى نتيجتين:

الأولى: حدوث اضطرابات داخلية تمثلت بثورة الإسكندرية، بقيادة الوالي أفتكين، على حكم المستعلي، وبايع الخارجون نزاراً، غير أن الأفضل أخمد هذه الثورة، وقتل نزاراً وأفتكين، وقبض على شؤون البلاد بيد من حديد، واستبد بالسلطة دون المستعلي [307].

الثانية: انقسام الدعوة الإسماعيلية إلى قسمين: النزارية، أتباع نزار الذين اعتقدوا بأحقيته بالحكم، وقد تعرضوا لحملة اضطهادات ففروا إلى المشرق وكان على رأسهم الحسن بن الصباح الذي أسس في بلاد فارس ما يعرف بالفرقة النزارية، وغلب على أتباعه اسم الحشيشية أو الباطنية.

والمستعلية وهم أتباع المستعلي، وعندما توفي المستعلي في عام 495هـــ = 1101م أقام الوزير الأفضل الجمالي ابن المستعلي وهو أبو علي المنصور في منصب الخلافة وهو لم يتجاوز الخامسة من عمره ولقبه بـــ الآمر بأحكام الله، فحجر عليه، واستقل بتدبير أمور الدولة[308]، إلا أن الآمر بأحكام الله بن المستعلي (495-525هـــ = 1101-1130م) لم يرق له أن يرى إلى جانبه وزيراً قوياً يتحكم في الأمور، فقتل الملك الأفضل، وراح يحكم حكماً فردياً مطلقاً غير أن سوء إدارته جعله مكروهاً، ولما جاء بعده ابن عمه الحافظ (525-545هـــ = 1130-1150م) تقلص نفوذ الخلافة الفاطمية، بحيث لم يشرف حكمه على الانتهاء، إلا وكانت سلطة

الخلافة عاجزة عن مد نفوذها إلى ما بعد مقرها، الأمر الذي دعا إلى الاستعانة بالوزراء والقواد، فاستوزر الخليفة الفائز (549-556هـ = 1154-1160م) رجلاً أرمني الأصل قوياً كفئاً وهو الملك الصالح طلائع بن رزيك، الذي بذل جهداً كبيراً لمواجهة المشاكل، غير أن مجاعة أخرى قد حلت بالبلاد وحملته على مصادرة الأموال والأرزاق وإرهاق السكان بالضرائب، وزاد الوضع تأزماً بلوغ الصليبيين حدود مصر، ولما تفاقمت منازعات الوزراء لم يجد العاضد، آخر خليفة فاطمي 556-567هـ = 1160-1171م بداً من دعوة الزنكيين إلى نجدته ضد الصليبيين، فأرسلوا الأمير شيركوه الأيوبي فاستوزره ثم استوزر ابن أخيه صلاح الدين، وبعد وفاته تم إنهاء الخلافة الفاطمية وبدأ حكم الأيوبيين.

– الدول المستقلة في شمال إفريقية:

تم فتح شمال إفريقية وتأسيس مدينة القيروان على يد القائد العربي عقبة بن نافع في منتصف القرن الأول الهجري: 50هـ = 670م، فصارت آنذاك مركزاً للعروبة والإسلام، ومنها انتشرت جهود العرب لتعريب شمال إفريقية ومتابعة الفتح، ونشر الإسلام بين البربر، وقد نجح العرب في ذلك، لكن البربر ضاقوا بالحكم العربي الذي لم يسوّ بين المسلمين العرب ومن أسلم من البربر إذ كانت السيادة العربية تمارس على البربر، الأمر الذي جعل هؤلاء يتبرمون ويثيرون الفتن والقلاقل ويتقبلون المذاهب التي تدعو للخروج على الدولة مثل مذهب الخوارج، وقد اختار العلويون شمال إفريقية لنشر مبادئهم مستغلين:

– بعدها عن مركز الخلافة العباسية.

– غضب البربر ونقمتهم على العباسيين.

فأخذوا يروجون مبادئهم بين سكانها من البربر الذين استجابوا لها يحدوهم إلى تقبلها رغبتهم في الاستقلال عن الدولة العباسية، فقامت دول مستقلة عن الخلافة العباسية، كان السبب الرئيس وراء قيامها طمع الولاة، ورغبتهم في الاستقلال، ومن

أهم هذه الدول المستقلة في شمال إفريقية: الدولة المدرارية، الدولة الرستمية، دولة الأغالبة، دولة الأدارسة.

أولاً- الدولة المدرارية أو دولة بني واسول 140-296هـ = 757-908م:

تعد الدولة المدرارية دولة خارجية صفرية - نسبة إلى زياد بن محمد الأصفر - كانت عاصمتها مدينة «سجلماسة» في جنوب المغرب الأقصى، وقد خربت وقام مكانها مدينة «الريساني» في منطقة تافيلات اليوم. و الصفرية والإباضية من أكثر المذاهب الخارجية انتشاراً في المغرب عقب الفتح العربي، وإنها من أكثر مذاهب الخوارج تسامحاً واعتدالاً مع مخالفيهم في الرأي إذا ما قورنوا بفرق الأزراقة والحروريين في المشرق لأن الصفرية والإباضية لم ترض إباحة دماء المسلمين، أو جواز سبي النساء والذرية، وذهبا إلى أبعد من ذلك، إذ لا يريان قتال أحد من الناس سوى جيش السلطان.

أسس هذه الدولة عيسى بن يزيد المكناسي، من موالي العرب[309]، الذي بنى العاصمة سجلماسة وغرس النخيل في أراضيها حيث بقيت منطقة تافيلات من أهم مراكز إنتاج التمور حتى اليوم، والتف حوله أهل تلك الصحراء من مكناسة، وكانوا يدينون بمذهب الخوارج الصفرية، فبايعوه بالإمامة[310]. و لم يمض وقت طويل حتى قامت معارضة قوية ضد عيسى بن يزيد المكناسي لأنه آثر جمع الأموال لنفسه وتزعم هذه المعارضة رجل يدعى أبا الخطاب الصفري وتمكن من قتل عيسى بن يزيد في عام (155هـ = 772م) [311]، وتولى القيادة أبو الخطاب الصفري الذي جعل إدارة الدولة بيد أبي القاسم بن واسول، ولما توفي أبو الخطاب تولى مقاليد الحكم مكانه أبو القاسم بن واسول وتلقب بالمدرار فعرفت الدولة فيما بعد باسم الدولة المدرارية أو دولة بني واسول لأنه المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التي استمر حكمها في يد أبنائه من بعده، و لم يحفل كثيراً بتطبيق المذهب، كما لم يهتم بنشر الصفرية خارج بلاده[312].

حول الصفريون هذه المنطقة إلى منطقة زراعية، فشقوا القنوات، واستكثروا من زراعة النخيل، والشعير، والقمح، وقصب السكر، وتحول السكان من حالة الرعي إلى وضع الاستقرار الزراعي، ونشطت التجارة، وازدهرت الحياة الاقتصادية وأضحت سجلماسة بفعل موقعها سوقاً تجارياً كبيراً، وأضحت مركز دعوة إسلامية ومستقر جماعة دينية على المذهب الصفري الخارجي.

توفي أبو القاسم في عام (168هـ = 784م) وخلفه ابنه إلياس الملقب بالوزير، ويبدو أن الناس لم يرضوا عن حكمه، فخلعوه بعد مرور سنتين و ولوا مكانه أخاه اليسع[313]. اتصف اليسع بالحماس الشديد للمذهب الصفري، كما وسع الدولة، وأقام علاقات حسنة مع الدولة الرستمية في تاهرت، وتوفي عام (208هـ = 823م) وخلفه ابنه مدرار وتلقب بالمنتصر، وبدأ في عهده تدهور الدولة، و لم يتمكن خلفاؤه من المحافظة على مكتسبات الدولة، واشتدت في عهد اليسع بن المنتصر الذي تولى الحكم في عام (270هـ = 883م) رياح الدعوة الفاطمية، فهاجم أبو عبد الله الداعي الفاطمي مدينة سجلماسة في عام (296هـ = 908م) ودخلها، وفر حاكمها اليسع بن مدرار[314].

ثانياً– الدولة الرستمية 144–296هـ = 761–908م:

هذه الدولة إباضية خارجية، أسسها عبد الرحمن بن رستم وهو من أصل فارسي، وكانت قاعدتها مدينة «تاهرت» قرب مدينة تياريت الحديثة في مقاطعة وهران غرب الجزائر. ازدهرت مدينة تاهرت في عهد بني رستم حتى صارت ملتقى للتجار والعلماء والطليعة من جميع أنحاء العالم الإسلامي، مما أكسبها شهرة عالمية لدرجة أنها سميت بالعراق الصغير تشبهاً لها ببلاد العراق التي تضج بمختلف الأجناس والملل.

أحاط بهذه الدولة الأعداء من كل جانب، الأغالبة في القيروان، والأدارسة في فاس، فاضطر الرستميون إلى الاتجاه نحو الأندلس للتحالف مع الأمويين، كما تحالفوا

مع الدولة المدرارية، وثبت هذا التحالف زواج المنتصر بن اليسع بن مدرار بأروى بنت عبد الرحمن الرستمي، وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم سنة 168هـ = 784م ترك الأمر شورى في سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذي مالت الأغلبية إلى مبايعته وسلمت عليه بالخلافة، في الوقت الذي بقي فيه المعارضون لخلافته على موقفهم فسموا بالنكار أو النكرية.

تعاقب على حكم هذه الدولة ستة من أفراد أسرته كان آخرهم اليقظان بن أبي اليقظان بن محمد، وسقطت الدولة الرستمية في عهده في عام 296هـ = 908م على يد أبي عبد الله الداعي، وكان للصراع على منصب الإمامة والخلافات الدامية بين الإباضيين من أبرز الأسباب التي أدت إلى إضعاف الدولة، فوهنت قوة الإباضيين، ولم يستطيعوا الصمود أمام الاندفاع الفاطمي(315).

شهدت تاهرت في عهد الرستميين نهضة علمية، وازدهاراً اقتصادياً كبيراً، فقد كرّس أئمة الدولة حياتهم لنشر العلوم، وشاركوا فعلياً في الحركة العلمية، وكان عبد الرحمن من كبار علماء عصره، كما كان ابنه عبد الوهاب تواقاً للعلم، يشتري الكتب من بغداد، ولا يفتأ ينكب على قراءتها، واشتهرت تاهرت بمكتبتها التي ضمت نحواً من ثلاثمئة ألف مجلد، وتوسع الرستميون في الإنتاج الزراعي بفعل توافر المياه وخصوبة الأرض، واعتمدوا على التجارة البحرية مع الأندلس، والبرية مع السودان وغانة، واجتذبت الحياة المزدهرة الأجانب إلى تاهرت، وجنت الدولة بسبب التجارة مكاسب هائلة.

ثالثاً- الدولة الأغلبية 184-296هـ = 800-909م:

قامت الدولة الأغلبية في المغرب الأدنى أو إفريقية وقسم من المغرب الأوسط، حيث لجأ الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى إقامة وتأييد دولة الأغالبة في تونس لتكون حاجزاً بين الدولة العباسية ودولة الأدارسة، وتأديب البربر وغيرهم من

الخارجين وتأمين مصر، وهي ولايته الكبرى في الغرب، وتحقيقاً لذلك عهد إلى إبراهيم بن الأغلب والي الزاب بولاية إفريقية مقابل شرطين[316]:

– أن يوفر إبراهيم بن الأغلب لبيت المال الإعانة التي كانت ترسلها مصر إلى إفريقية ومقدارها مئة ألف دينار سنوياً.

– أن يرسل إلى الخلافة العباسية إضافة إلى ذلك، أربعين ألف دينار سنوياً، وكانت تجربة جديدة في نظم الحكم في الدولة الإسلامية، وهي تجربة التخلي عن قسم من الدولة لصالح أسرة معينة من أهل الولاء والطاعة لقاء دفع مقدار سنوي معين من المال، وتتفق التجربة في روحها مع الحالة العامة للدولة العباسية، ووفرت الكثير من العناء عليها مع الاحتفاظ بمظاهر السيادة المركزية، وكان من الطبيعي في ظل الظروف التي نشأت فيها الدولة، أن يكون الأمراء الأغالبة عمالاً للعباسيين، فتمتعت الدولة باستقلال اسمي، ولكنها ما لبثت أن استقلت مع مرور الزمن استقلالاً يكاد يكون تاماً، حيث اتخذ إبراهيم بن الأغلب مدينة القيروان مركزاً لولايته، ثم ما لبث أن بنى في سنة 185هـ = 801م عاصمة جديدة له فوق أطلال «القصر القديم» على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من القيروان، وأسماها «العباسية»[317] تعبيراً عن ولائه للعباسيين. ركن المسلمون في شمال إفريقية إلى الدفاع بعد أن كان زمام المبادرة في أيديهم في عهد خلافة الأمويين، لانشغال الولاة العباسيين الأوائل بإخماد الثورات، واستغلال الروم الفرصة لتغزوا أساطيلهم السواحل الإفريقية من قواعد صقلية ومالطا، وما كاد الأغالبه يوطدون نفوذهم في ولاية إفريقية حتى تحولوا من الدفاع إلى الهجوم.

ونجحوا في إنشاء قوة بحرية كبيرة استطاعوا بواسطتها رد هجمات الأساطيل الرومية على الساحل الإفريقي، ثم غزو شواطئ صقلية ومالطا وجنوب إيطاليا حيث أقاموا مراكز دائمة لهم، وتكررت الغزوات في عهد الأمير زيادة الله الأول ابن إبراهيم الأغلب 201-223هـ = 816-838م، فقد أرسل إلى جزيرة صقلية بقيادة القاضي أسد بن الفرات فقيه القيروان[318]، واستمر الغزو إلى صقلية حتى سنة

264هـ = 877م حيث تم فتح تلك الجزيرة التي استمرت تحت حكم المسلمين إلى أن استردها النورمان سنة 485هـ = 1092م[319].

عمل الأغالبة الذين عملوا على إقرار الأمن، والقضاء على الثورات في الداخل، وحماية البلاد ومواصلة حركة الجهاد في الخارج. تعرضت دولتهم للانحلال و لم تعد تقوى على القيام برسالتها. وفي عهد زيادة الله الثالث 290-296هـ = 903-909م آخر أمراء الأغالبة ببلاد المغرب. صار الفاطميون أصحاب السلطان في جميع المناطق الواقعة إلى الغرب من القيروان، وما كاد يسمع زيادة الله الثالث بدخول أبي عبيد الله الشيعي مدينة رقادة وفرار أهلها حتى حمل ثروته وركب فرسه وتقلد سيفه وخرج ومعه أعيان دولته متجهاً إلى طرابلس، فزالت بذلك دولة الأغالبة سنة 296هـ = 909م[320].

عرف عصر الأغالبة ازدهاراً حضارياً، إذ انتعشت الحياة الاقتصادية في إفريقية، بعد أن استقر الأمن في البلاد، وأمن التجار كل أموالهم وبضائعهم وأرواحهم وانتشر العمران، وزرعت مساحات واسعة من الأراضي بالزيتون والنخيل والقمح. وتطورت وازدهرت صناعة النسيج والأسلحة والسفن والزجاج. وفي حقل العمران أضاف الأغالبة على جامع القيروان الذي اختطه عقبة بن نافع سنة 50هـ = 670م إضافات كبيرة كما جعلوا من جامع الزيتونة بتونس الذي أسسه ابن الحبحاب سنة 114هـ = 732م جامعاً عظيماً حتى غدا جامعة إسلامية ضخمة، واهتموا بإنشاء المراجل (وهي خزانات ضخمة يجمعون فيها مياه الأمطار للاستفادة منها عند الحاجة)، واهتموا ببناء القناطر، وبالجملة فقد كان عهد الأغالبة عهد عمران ورخاء في تونس[321].

رابعاً- دولة الأدارسة 172-375هـ = 788-985م:

أثناء دراستنا للدولة العباسية في الفصول السابقة ذكرنا كيف ثار الحسين بن علي بن الحسن في المدينة المنورة سنة 169هـ = 785م في عهد الخليفة العباسي

الهادي، وكيف انتهت هذه الثورة بموقعة فخ التي قتل فيها الحسين وجماعة كبيرة من أهل بيته، في حين فر إدريس بن عبد الله نحو المغرب الأقصى، كما فر أخوه يحيى بن عبد الله إلى الديلم في خراسان[322].

وهكذا نجد أن دولة الأدارسة هي دولة علوية حسنية، أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في المغرب الأقصى في عام 172هـ = 788م، فقد وجد البربر في إدريس بن عبد الله الزعيم الروحي والسياسي الذي يلتفون حوله في ظل الإسلام لمناوأة الخلافة العباسية وتحقيق أمانيهم في الاستقلال من ناحية أخرى، فاستغل إدريس هذه الأوضاع السائدة في المغرب – إضافة إلى بعد تلك المناطق عن الخلافة العباسية – في تأسيس دولة مستقلة وراثية استمرت لفترة طويلة وساعدها على ذلك إحاطتها بدولتين معاديتين للخلافة العباسية وهما الخلافة الأموية في الأندلس والخلافة الفاطمية في شمال إفريقية.

ثم أدرك هارون الرشيد أن الاحتفاظ بإفريقية بالقوة المباشرة لم يعد بالإمكان، فلجأ إلى السياسة، فأقام دولة موالية للخلافة العباسية، تكون حاجزة بين أملاك الدولة العباسية في المغرب الإسلامي وبين هذه الإمارة الناشئة التي أخذت تبدو خطورتها وتهدد بالتهام الشمال الإفريقي كله، لذلك عهد إلى إبراهيم بن الأغلب بولاية تونس التي نجح في الاحتفاظ بها ليقف في وجه الأدارسة إذا أرادوا الإغارة على أملاك الدولة العباسية الواقعة في شرق دولتهم، كما كاد لإدريس من قتله بالسم سنة 177هـ = 793م[323]. على أن مقتل إدريس لم يوقف جهود العلويين في بلاد المغرب، و لم يؤثر في الحركة الاستقلالية فيها، فقد كانت له أمة حامل، فانتظر أتباعه حتى ولدت ذكراً أسموه إدريس الثاني والتفوا حوله، فكان هو المؤسس الحقيقي لدولة الأدراسة، فقد اشتد أمره واتخذ لدولته عاصمة جديدة هي مدينة فاس التي أسسها سنة 192هـ = 808م[324].

وعجز إبراهيم بن الأغلب عن القضاء على الدولة الإدريسية بالقوة في عهد إدريس الثاني، و انتهى الأمر بين الطرفين بأن يكف كل منها عن الآخر من ناحيته، وقد حكم بعد إدريس الثاني ثمانية من الأدارسة كان أعظمهم قوة وأعلاهم قدراً يحيى الرابع بن إدريس بن إدريس بن عمر (292-310هـ = 904 – 922م) الذي امتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى، وفي عهده ظهر الفاطميون بشمال إفريقية ومدوا نفوذهم إلى بلاد الأدارسة، واعترف هؤلاء الأخيرون بنوع من التبعية لهم، لأن الأدارسة وجدوا أنفسهم بين نارين، نار الأمويين في الأندلس، ونار الفاطميين في المغرب الأوسط، فالأمويون أخذوا يتطلعون نحو شمال إفريقية، فمدوا نفوذهم فعلاً إلى تلك الأنحاء في عهد عبد الرحمن الناصر، الأمر الذي جعل الأدارسة ينكمشون إلى الريف، وأكثر من ذلك، اضطروا أخيراً إلى خلع الفاطميين ودخلوا في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي. وبسبب ذلك الموقف الذي وقفه الأدارسة أرسل عبد الله المهدي الجيش الفاطمي لإعادة بسط نفوذه عليهم من جديد، وهكذا زال ملكهم بعد أن حكموا أكثر من قرنين 172-375هـ = 788 – 985م.

امتد حكم الأدارسة ببلاد المغرب من السوس الأقصى إلى وهران، وكانت حاضرتهم مدينة فاس التي بلغت حداً كبيراً من العمران والرقي وأصبحت مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية، وقد أسهم الأدارسة في خدمة العالم الإسلامي في ناحيتهم، فهم الذين ثبتوا البربر على الإسلام، وكان ظهور الأدارسة وحكمهم للمغرب حكماً قومياً مقدمة لظهور المرابطين الذين كان ظهورهم يمثل حركة قومية عظيمة، جذبت عدداً كبيراً من قبائل البربر نحو الاندماج في الأمة الإسلامية، وقد قام الأدارسة بدور كبير جداً في انتشار الإسلام في غرب إفريقية، وينسب إليهم الفضل في القيام بحركة دعوية إسلامية في حوض السنغال استمرت بعد ذلك في عهد المرابطين حتى شملت إفريقية الغربية كلها[325]. كما أن مدينة فاس عاصمة الأدارسة ظهرت ظهوراً ثقافياً واضحاً وأصبحت هي ومدينة القيروان تمثلان نموذجاً للمدارس الإسلامية في المغرب.

الباب الثاني

العصر الأندلسي

(91-897 هـ = 710-1492م)

الفصل الأول

الفتح الإسلامي للأندلس وعهد الولاة الأمويين

91-138هـ = 710-756م

- تمهيد:

- أحوال الأندلس قبل الفتح الإسلامي:

لقد سميت في القديم بـــ«إيبيريا» نسبة إلى نهر إبرو، أو إلى قبائل تحمل الاسم نفسه سكنت حول النهر، ثم عمم اسمها على كل شبه الجزيرة في واقع انتشارها في آرجائها[326]، أما الاسم الآخر فقد أعطته قبائل الوندال الجرمانية، التي استقرت في

السهل الجنوبي لإسبانيا في القرن الخامس الميلادي؛ المنطقة اسمها «فاندلوسيا» وعرّب المسلمون هذا الاسم إلى الأندلس.

لقد كان فتح إسبانيا متصلاً في كثير من جوانبه بسياسة الفتوح في المغرب والأسباب التي دفعت المسلمين إلى عبور المضيق تتصل مباشرة بالظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي عاشتها إسبانيا قبل الفتح، فمن حيث الظروف السياسية كانت إسبانيا تحت حكم القوط الغربيين منذ القرن السادس الميلادي، وعاصمتهم مدينة طليطلة. وشهدت البلاد منذ بداية القرن الثامن الميلادي تدهوراً حاداً بفعل الصراع على العرش بعد وفاة الملك غيطشة في عام (89هـ = 708م) بين ابنه آخيلا ولذريق أحد قادة الجيش الذي تمكن من اعتلاء العرش بمساعدة النبلاء ورجال الدين[327]، الأمر الذي أدى إلى انقسام حاد في البلاد، وفقدان الوحدة السياسية والنظام معاً مما جعلها أرضاً سهلة للفتح. يضاف إلى هذا العامل السياسي، عامل جغرافي يتمثل بالجمع بين شاطئي المضيق من حيث البيئة لأن إسبانيا أكثر انفتاحاً على المغرب.

ومن حيث الظروف الاجتماعية، فقد كانت غاية في السوء بفعل انقسام المجتمع الإسباني إلى طبقات، واستغلال الطبقة الأعلى للطبقة الأدنى منها، وفقد الانسجام بين هذه الطبقات مما أوجد تنافراً بينهما، وفشلت الطبقة الحاكمة في خلق مجتمع متجانس وطني الانتماء.

واستغل رجال الدين مركزهم الديني المتميز فاستمتعوا بقسط وافر من النفوذ والسلطان، وأثقلت الطبقة الوسطى بالضرائب، وارتبطت الطبقة الدنيا من المزارعين والعبيد بالأرض. ووجدت في المجتمع الإسباني طائفة من اليهود عمل أفرادها في الصيرفة والشؤون المالية، إلا أن أفرادها كانوا مكروهين بسبب اختلاف عقيدتهم وتقاضيهم الربا الفاحش.

ومن حيث الظروف الدينية كان الشعب الإسباني، باستثناء اليهود، يدين بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي الذي فرضه رجال الدين، وحرّموا انتشار أي مذهب آخر.

– عمليات الفتح:

كان الفتح الإسلامي لإسبانيا نتيجة خطة موضوعة نوقشت بين الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وقائده على شمال إفريقية موسى بن نصير، وقد أقرها الأول، ويبدو أنه كان لسياسة الدولة الإسلامية وعلاقتها بالبيزنطيين وتأثير الحملة على هذه العلاقات، وبخاصة في المجال البحري والسيطرة على الجزر في الحوض الغربي للبحر المتوسط، تأثير على قرار الخليفة[328]. وبعد نضوج الظروف التي هيأت للمسلمين انتصاراً آخر، أرسل موسى بن نصير أحد ضباطه، ويدعى طريفاً بن مالك المعافري، على رأس قوة عسكرية إلى ساحل إسبانيا الجنوبي في مهمة استطلاعية وذلك في عام (91هـ = 710م)، فنزل طريف في جزر بالوماس – التي سميت باسمه فيما بعد – وأغار على المناطق المجاورة، وأصاب سبياً كثيراً وعاد محملاً بالغنائم[329]، وأقنعته هذه الحملة بضعف وسائل الدفاع الإسباني، وقد شجع نجاح طريف موسى بن نصير فأرسل في (شهر رمضان عام 92هـ = شهر حزيران عام 711م) قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد نائبه على طنجة، حيث عبر طارق المضيق ونزل تجاه الجزيرة الخضراء عند صخرة الأسد، وسيطر على الجبل الذي حمل اسمه منذ ذلك الوقت، ثم تقدم باتجاه الغرب حتى بلغ بحيرة خنده جنوبي غربي إسبانيا، التي يقطعها نهر برباط عبر وادي لكه الشهير، وعسكر هناك، وعلم بواسطة جواسيسه بأنباء الحشود الضخمة التي حشدها لذريق والذي كان يتقدم باتجاه القوات الإسلامية للاصطدام بها، فطلب نجدة من موسى فأمده بخمسة آلاف جندي[330]، والتقى الجيشان عند وادي لكه في (شهر شوال عام 92هـ = شهر جزيران عام 711م)

وجرت معركة ضارية انتهت بانتصار المسلمين وتم القضاء على الجيش القوطي ومعه الملك[331].

استغل المسلمون هذا الانتصار فتوغلوا في البلاد وفتحوا قرطبة وطليطلة في أوائل عام (93هـ = 712م) وشذونة والبيرة وغيرها من المدن. وكتب طارق إلى موسى يخبره عما حققه من انتصارات، وما فتحه من مدن، مما شجعه على العبور هو الآخر في (شهر رمضان عام 93هـ = شهر حزيران في 712م) وفتح مدناً أخرى مثل قرمونة وإشبيلية، وصالحته ماردة، وامتدت فتوحه إلى برشلونة شرقاً وأربونا في الجوف وقادش في الجنوب، وجيليقية في الشمال الغربي ثم اجتمع القائدان المسلمان في مدينة طلبيرة لتقويم ما تم إنجازه من خطة الفتح، وما سيتم فتحه في المستقبل[332]، واشتركا معاً في فتح مدينة سرقسطة في إقليم أراغون، وبرشلونة، واخترق موسى جبال البرينيية الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، فغزا ولاية سبتمانيا، وفتح قرقشونة وناربون، كما غزا وادي نهر الرون في بلاد الفرنجة، ووصل إلى مدينة ليون، في حين اختار طارق وادي الأبرو وغزا جيليقية، وتلقى في هذه الأثناء،كل من موسى وطارق، أمراً من الخليفة يوقف العمليات العسكرية والعودة فوراً إلى دمشق، وعين الأول قبل مغادرته ابنه عبد العزيز حاكماً على الأندلس نيابة عنه[333].

عهد الولاة الأمويين

(95-138هـ = 714-756م)

- المجتمع الأندلسي بعد الفتح الإسلامي:

يعد الفتح الإسلامي لإسبانيا فاتحة عصر جديد في حياتها العامة وفي نظمها الاجتماعية، وحمل الإسلام للعباد العدل والحرية والمساواة في الحقوق والواجبات، وقضى على نفوذ الطبقات العليا، وخفف عن كاهل الطبقات الدنيا ما كانت تنوء به من الأعباء والمغارم، وتمتع أهل البلاد من النصارى واليهود بالحرية الدينية لقاء دفع

الجزية. والواقع أن أوضاع الذميين لم تكن مما يدعو إلى الكثير من الشكوى بالمقارنة مع ما كانت عليه أوضاعهم قبل الفتح، حيث أن النصرانية لا تبيح دم اليهود فقد كانت تعد إذلالهم فضيلة، وبذلك اكتسب التشريع القمعي دعماً لاهوتياً غير أن المجتمع الذي نشأ بعد الفتح حمل في طياته البذرة الجنينية للخلافات الخطيرة التي شهدها هذا العهد، بما انضوى تحته من عناصر ذات أهواء وميول متنافرة. كانت القبائل العربية لا تزال تضطرم بنار العصبية القديمة بين القيسية واليمنية، وهيمنت الروح القبلية على نفوس الذين دخلوا مع موسى بن نصير.

وكان البربر الذين تحملوا العبء الأكبر في فتح إسبانيا، ويشكلون غالبية القوى المسلحة، ينفرون من قاداتهم ورؤوسائهم العرب، وينقمون عليهم لاستئثارهم بالنفوذ والإقطاعات الغنية، وأدى استمرار تدفقهم من شمالي إفريقية إلى بدء شعورهم بقوتهم من عهد مبكر، لذلك لم يكن مستغرباً أن يقوموا بثورات ضد هذا الوضع الذي عدوه شاذاً، و لم يكن المسلمون الإسبان، وهم المولدون، وحديثوا عهد بالإسلام، على نمط واحد من التفكير، فكان فيهم من يشعر دائماً بأنه أدنى اجتماعياً من العرب، ويشكل هؤلاء أقلية ضئيلة العدد، أما معظمهم فكانوا صادقي التعلّق بالإسلام، لكن العرب كانوا يشكون في ولائهم، فأبعدوهم عن تولي المناصب العليا، فأنف المولدون من هذا الوضع، وكانوا يشعرون بمكانتهم، وبما لديهم من القوى المادية لأنهم يؤلفون غالبية السكان، مما أدى إلى قيامهم بثورات في جميع الولايات والمدن الكبرى، والواقع أن السياسة القبلية، التي كان مصدرها غالباً القيروان، تحكمت في أحداث الأندلس، وانعكست على ما كان يجري فيها من تطورات داخلية وخارجية.

– الأوضاع السياسية العامة:

تسلم عبد العزيز حكم الأندلس بتكليف من والده موسى بن نصير، وأقر الخليفة سليمان بن عبد الملك هذا التدبير، كان عبد العزيز حاكماً ناجحاً، رافق والده في معظم حملاته العسكرية، واكتسب منه خبرة في العمل الإداري، وأبدى حين تسلم

الحكم رغبة صادقة في تنظيم الإدارة الجديدة، فأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها لاستقطاب المسلمين من مختلف القبائل، وشجع الزواج بين العرب والإسبان لخلق مجتمع متجانس، فتزوج خوخي إيجلونا امرأة لذريق[334]. وانتعشت في عهده الحياة الزراعية والصناعية والتجارية، بما وفد على الأندلس من المهاجرين من مصر وبلاد الشام والعراق، وعلى الرغم من ذلك فإن عبد العزيز لم يستطع أن يوقف الصراعات بين مختلف القبائل، ولا أن يهدئ من تذمر الجند، واتهم بأنه وقع تحت تأثير زوجته، بحيث أصبحت عادات القوطيين تنعكس على معتقداته ونمط حياته، ودفعته إلى التفكير بالانفصال عن دمشق والاستقلال بالأندلس[335]، وعلى الرغم من أنه ليست لدينا أدلة قاطعة لترعاته الاستقلالية، فإنه يبدو ممكناً في الظروف التي كانت تعيشها إسبانيا آنذاك، واستنكر خصومه تصرفاته هذه ثم تمادوا فقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية في (شهر رجب عام 97هـ = شهر آذار عام 716م). ويبدو أنه وقع ضحية اغتيال أعدته الخلافة في دمشق، ويُفترض أن لهذا الحادث علاقة بموقف الخلافة من أبيه، والقضاء على طموح أسرته في تلك البلاد النائية. كانت حادثة اغتيال عبد العزيز فاتحة عهد مضطرب ومشوش في تاريخ الولاية الأموية على مدى اثنين وأربعين عاماً، أبرز سماته عدم الاستقرار السياسي والتناقضات القبلية والعنصرية بين العرب أنفسهم، ثم بينهم وبين البربر[336]، التي وجدت طريقها إلى الانفجار بعد ذلك.

والواقع أن المشكلة السياسية التي كانت تعاني منها الأندلس آنذاك تتمثل في انقسام المجتمع الأندلسي إلى أحزاب وتكتلات قبلية متعددة الانتماءات لا يجمع بينها سوى التنافس على الحكم، وعلى أثر مقتل عبد العزيز اتفق الزعماء في إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير، الذي حكم البلاد مدة ستة أشهر فقط، حيث عزله محمد بن يزيد والي إفريقية، وعين بدلاً منه الحر بن عبد الرحمن الثقفي، الذي كانت فاتحة أعماله نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة، لأن

موقع الأولى متطرف نحو الغرب، بينما تقع الثانية في قلب الأندلس، مما يسهل عليه ضبط البلاد، ثم انهمك في قمع الفتن والمنازعات التي كانت ناشبة بين العرب والبربر، وإصلاح الجيش، ومطاردة الخوارج، وتنظيم الإدارة، وتوطيد الأمن، قبل أن يتفرغ للفتوح الخارجية، لكن الحر فشل في مهمته. وازدادت النزاعات حدة مما دفع الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عزله في عام (100هـ = 719م) واختار بدلاً منه السمح بن مالك الخولاني، وقرر الخليفة أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية وتابعة للخلافة مباشرة، وذلك بفعل ما أدركه من أهميتها واتساع شؤونها[337]، قدم السمح إلى الأندلس مزوداً بنصائح من الخليفة، تتعلق باتباع العدل والرفق، وإعلاء كلمة الحق وشأن الدين، وكان هذا الوالي ذا خبرة واسعة جديدة ومتطورة، واتصف بالحكمة والتعقل، فقبض على زمام الأمور بحزم، وبادر إلى وضع حد للنزاعات، وإصلاح الإدارة والجيش، وقام بعدة إصلاحات إدارية وعمرانية واقتصادية شكلت نقطة تحول في تاريخ الأندلس، بحيث أعطتها الشخصية العربية المتميزة، واستشهد السمح في معركة مع الفرنجة بالقرب من تولوز في (شهر ذي الحجة عام 102هـ = شهر حزيران عام 721م)[338].

خلف السمح بن مالك وال آخر هو عنبسة بن سحيم الكلبي الذي اختاره بشر بن صفوان الكلبي والي إفريقية، والجدير بالذكر أنه بعد وفاة عمر بن عبد العزيز أعاد خلفه يزيد بن عبد الملك إدارة الأندلس كوحدة تابعة لإفريقية كما كانت من قبل. قدم عنبسة إلى الأندلس وبذل جهداً في تنظيم الإدارة، وضبط النواحي، وإصلاح الجيش لإعداده للغزوات والفتوح، وقتل هذا الوالي أثناء عودته من إحدى غزواته في (شعبان 107هـ = كانون الأول 725م). عمت الأندلس بعد وفاة عنبسة حالة من الاضطراب، وفقدان الاستقرار في ظل تفاقم الخلافات بين القبائل، وتمرد البربر، وتفكك الجيش، استمرت خمسة أعوام، تعاقب على الحكم خلالها ولاة معظمهم فرضته العصبية القبلية، ولم تنته هذه الحالة المضطربة إلا بتعيين عبد الرحمن الغافقي

والياً على الأندلس في (شهر صفر عام 113هـ = شهر نيسان 731م) وكان الجيش على ما يبدو وراء تعيينه[339].

كان الغافقي طرازاً آخر من الولاة الذين تعاقبوا على حكم الأندلس، وبدا أنه قادر على تجميد الصراعات القبلية والحزبية، وتوحيد الجميع تحت رايته، واستخدامهم في مهمات جهادية وراء جبال البرينيية، فنظم شؤون الأقاليم، وعين الحكام من ذوي الكفاءة، وقمع الفتن، والمظالم، وعامل النصارى معاملة سمحة، وعدل الضرائب وفرضها على الجميع بالمساواة والعدل، وقضى صدر ولايته في إصلاح الإدارة، واعتنى بإصلاح الجيش، وأنشأ فرقاً خاصة من فرسان البربر بإشراف نخبة من الضباط العرب، وحصن القواعد والثغور الشمالية، وكان تجرده القبلي أحد أسباب النجاح الذي حققه في تلك المدة، فاحترمه الجميع، والتزموا بالطاعة له. واجتاحت جيوشه وادي الرون إلى عمق فرنسا حتى نهر اللوار قبل أن يسقط شهيداً في معركة بلاط الشهداء أمام القائد الفرنجي شارل مارتل كما سنرى.

كان لمعركة بلاط الشهداء صداها المؤثر في دمشق، وقد أثارت الهزيمة الخليفة هشام بن عبد الملك، فرأى أن يعيد النظر في سياسة الأمويين في الأندلس، فاختار عبد الملك بن قطن الفهري والياً عليها، وأمره بأن يعمل على حماية مكتسبات المسلمين فيها، وتوطيد هيبتهم. عبر عبد الملك إلى الأندلس على رأس جيش من نخبة الجند، وتسلم الحكم، و اتصف هذا الوالي بالتعصب الشديد لقيسيته، كما كان صارماً شديد البطش، فنفرت منه العامة والخاصة، وأدت سياسته إلى اختلال التوازنات القبلية، فظهر الخلاف بين القبائل، وظهرت على السطح بوادر فتنة.

بالإضافة إلى ذلك، فإن عبد الملك بن قطن لم ينجح في إخماد الثورات التي اندلعت في الولايات الشمالية ضد الحكم الإسلامي، مما كان دافعاً إلى عزله في عام 116هـ = 734م.

اختار عبيد الله بن الحجّاب، عامل إفريقية، عقبة بن الحجاج السلولي والياً على الأندلس[340]. عرف عن عقبة جديته في الحكم، وكان على طراز عبد الرحمن الغافقي، جندياً قديراً وحاكماً بارعاً، وإدارياً نشيطاً عادلاً تقياً، حاول استعادة ما فقده المسلمون في جنوب فرنسا وتثبيت أقدامهم في المقاطعات الشمالية، وتوفي عقبة في عام 123هـ = 741م، نصب الأندلسيون بعد وفاة عقبة عبد الملك بن قطن للمرة الثانية، ويحيط الغموض بظروف هذه التولية بحيث تشير الروايات إلى ثورة قام بها هذا الأخير ضد عقبة، وتمكن من أسره وقتله، وانتزع منه ولاية الأندلس[341].

تولى عبد الملك بن قطن حكم الأندلس في المرة الثانية في ظل ثورة خطيرة قام بها البربر في عام (122هـ = 740م) في المغرب الأقصى بسبب استعلاء العنصر العربي وتفرده بالنفوذ والسلطان من جهة، واشتداد الحركات الدينية المعارضة للنظام الأموي كالخوارج من جهة ثانية. كان من الطبيعي أن تتأثر الأندلس بثورة البربر في المغرب الأقصى، نظراً للترابط الإداري والسياسي والتاريخي بين الإقليمين الواقعين على ضفتي المضيق، والتي وجدت تشابهاً بينهما، فاستغل هؤلاء الأوضاع القلقة التي كانت تمر بها البلاد، وثاروا في معظم الأقاليم الشمالية حيث أماكن استقرارهم، وأعلنوا انفصالهم عن قرطبة، واستطاعوا في بادئ الأمر أن يتغلبوا على جميع الحملات التي وجهها إليهم عبد الملك بن قطن لإخضاعهم، ولم يتمكن هذا الوالي من قمع ثورتهم إلا بعد أن استعان بجند الشام المحاصرين في سبته، من قبل بلج بن بشر[342]، وكان قد اشترط عليه أن يعود إلى شمالي إفريقية مع قواته حتى استقرت الأوضاع في الأندلس، لكن بلجاً اغتر بقوته، فثار على عبد الملك وقتله وتولى حكم الأندلس وذلك في سنة 123هـ = 741م، ولكن الأزمة لم تنته، فقد فر أبناء عبد الملك، وهما أمية وقطن، إلى الشمال: الأول إلى سرقسطة، والثاني إلى ماردة، وسعيا إلى استقطاب الأنصار المؤيدين للانتقام من بلج، ووجدا استجابة من كل من عبد الرحمن بن حبيب الفهري، الزعيم الإفريقي المعروف بخصومته الشديدة لبلج، وعبد الرحمن بن علقمة اللخمي أمير

ناربون، بالإضافة إلى البربر الناقمين على الأوضاع السياسية. وسرعان ما ظهر تكتلان كبيران: تكتل الشاميين المتغلبين على الحكم، وتكتل الأندلسيين من العرب والبربر المحليين الذين رأوا في الشاميين دخلاء، والتقى الطرفان على مقربة من قرطبة في عام 124هـ = 742م ودارت بينهما معركة ضارية انتهت بانتصار الشاميين ولكن قتل بلج في المعركة[343]، فاختار الشاميون ثعلبة بن سلامة العاملي حاكماً على الأندلس خلفاً لبلج، وعلى الرغم من أن سياسته اتصفت بالاعتدال إلا أن الأندلسيين استمروا في موقفهم المعادي، في الوقت الذي تضعضعت فيه سلطة الحكومة المركزية، وانقسمت الأندلس إلى مناطق نفوذ، و لم يلبث هؤلاء أن حشدوا قواتهم التي انقضت على قرطبة في محاولة أخرى لاستعادة حكم الإمارة من أيدي الشاميين، ونشبت بينهما معارك عدة انتهت بانتصار الشاميين مرة ثانية، ومني الأندلسيون بهزيمة قاسية في عام (125هـ = 743هـ)، لكن الوضع المأساوي لم يتحسن، ذلك أن قرطبة كانت تعاني من الفوضى والاضطراب، وتورط المسؤولون في حرب استتراف مريرة، وفي غمار ذلك كان لا بد من البحث عن مخرج يعيد الأمور إلى نصابها. وإذ بفريق ثالث لم يتورط في الأحداث، وخشي من عواقب الفتنة، يبعث بوفد إلى حنظلة بن صفوان حاكم القيروان، يطلب منه العمل على إنقاذ الموقف المتردي في الأندلس، ووضع حد للحرب الأهلية، فسارع حنظلة إلى تعيين أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي والياً على الأندلس[344] الذي دخل قرطبة في (شهر رجب عام 125هـ = شهر أيار 743م) دون أن يصادف متاعب تذكر، فتسلم الحكم، وخضع الجميع لحكمه، حيث غلب الرأي المائل إلى السلام. واتبع من جهته سياسة حازمة ومعتدلة، فساوى بين الجميع في المعاملة، ووزع العصبيات المتناحرة على أماكن متباعدة، مما أدى إلى الهدوء والاستقرار، لكن مدة الاستقرار هذه كانت قصيرة وعابرة، حيث تعصب لليمنيين، وقربهم في مجلسه، فجاء رد القيسيين سريعاً، فالتفوا حول الصميل بن حاتم، وسرعان ما نشبت الحروب العصبية على ضفاف الوادي الكبير انتهت بانتصار

القيسيين الذي نصبوا ثوابة بن سلامة الجذامي أميراً على الأندلس خلفاً لأبي الخطار الذي أسر في المعركة في (شهر رجب عام 127هـ = شهر نيسان عام 745م)، ودخل ثوابة قرطبة، وشهدت البلاد هدوءاً نسبياً لم يعكره سوى فرار أبي الخطار من سجنه، فحشد قواته وقصد قرطبة، لكن لم يحدث قتال، بفضل سياسة الصميل الذكية الذي خذّل اليمنيين، فانفضوا من حول أبي الحظار، ثم توفي ثوابة سنة 129هـ = 746م فتجدد التنافس على منصب الولاية، وكان باستطاعة الصميل تولي السلطة، إلا أنه آثر أن يبقى ظاهرياً في الظل ويحكم البلاد فعلياً من خلال والٍ اختاره هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري، أحد زعماء القيسية، وأقنع اليمنية بقبوله مبدياً مهارة سياسية فائقة، فتولى يوسف الإمارة في 129هـ = 747م[345]، وكان من المتفق عليه بين القيسيين واليمنيين أن يتعاقبا على حكم الأندلس لكن القيسيين لم يشاؤوا أن يمكنوا اليمنيين من الرئاسة مما أدى إلى عودة الاصطدامات. وتعاون أبو الخطار زعيم الكلبيين مع يحيى بن حريث زعيم جذام على حرب القيسيين، والتقى الطرفان في شقندة بالقرب من قرطبة في عام (130هـ = 748م) ودارت بينهما رحى معركة قاسية انتهت بانتصار القيسيين وأسر الزعيمان اليمنيان وقتلا على الفور.

كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري آخر الولاة الذين حكموا الأندلس في هذا العهد، حيث سقطت في غضون ذلك الخلافة الأموية في دمشق، وتمكن أحد الأمراء الأمويين، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أن ينجوا من المذابح التي نفذها العباسيون بحق الأمراء الأمويين، ويمم وجهه شطر المغرب ثم الأندلس ليدخلها ويؤسس الدولة الأموية فيها.

– الأوضاع الخارجية:

اقترن تحول إسبانيا كولاية مرتبطة إدارياً بالحكم المركزي في دمشق بعدة محاولات توسعية وراء جبال البرينيية حيث بلاد الفرنجة، وذلك بهدف تحقيق فتوح جديدة وحماية حدود الأندلس الشمالية الشرقية، وتعد محاولة السمح بن مالك

الخولاني في الاندفاع وراء البرينيية منذ عام (100هـ = 718م)، البداية الجدية للحركة التوسعية، فاجتاح مقاطعة سبتمانيا بما فيها المدينة الساحلية ناربون وفتحها، ثم توغلت قواته في إقليم أكويتانيا ووصلت إلى تولوز عاصمة الإقليم، وأغارت على مقاطعة البروفانس، واصطدمت بالدوق أودو حاكم أكويتانيا بالقرب من تولوز الذي انتصر في المعركة، وكان السمح من بين القتلى، فتولى عبد الرحمن الغافقي قيادة الجند، وقاد بنجاح عملية الانسحاب والتراجع إلى ناربون[346]، وتعد محاولة خلفه عنبسة بن سحيم الكلبي من أوسع المحاولات الإسلامية لغزو بلاد الفرنجة، فهاجم في (أواخر عام 105هـ = أوائل عام 724م) إقليم سبتمانيا بعد أن فقد المسلمون كثيراً من معاقله منذ هزيمة تولوز، وفتح قرقشونه ونيم وآوتون، الأمر الذي أتاح له حرية التحرك في وادي الرون، فهاجم إقليم البروفانس وبرجنديا ووصل إلى حوض نهر الرون، واجتاح عدة مدن أهمها ليون وماسون وشالون وسانس التي لا تبعد أكثر من مئة ميل عن باريس، وبفضل هذه الإنجازات التي تحققت في وقت قصير بسط المسلمون نفوذهم على جنوبي فرنسا. لكن جهود عنبسة أصيبت بانتكاسة حين قطع عليه جيش من الفرنجة حظ الرجعة وأحاط بقواته وانتصر عليه واستشهد عنبسة في المعركة[347]، وأدى مقتله إلى تقهقر المسلمين من جديد، ووقف تيار التوسع مدة ستة أعوام تقريباً حتى عام (113هـ = 731م) عندما تولى عبد الرحمن الغافقي زمام الأمور، ويعد الغافقي من ألمع القادة المسلمين الذين تعاقبوا على حكم الأندلس في هذه المرحلة، فقد تمتع بمواهب عسكرية كبيرة فضلاً عن مقدرته كحاكم، ونظرته المتساوية إلى المسلمين من العرب والبربر، وإنصافه النصارى في الأندلس، مما جعله أجل القيادات والفئات الأندلسية في تحقيق الاستقرار الداخلي والتوسع في الخارج. وبعد أن وطّد النظام والأمن في أرجاء البلاد، وحصن الثغور الشمالية، تطلع إلى الخارج، وظهر كقائد محترف استأثرت به نزعة الفتح وراء البرينيية، والواقع أن حملته التي عبر بها هذه الجبال كانت نموذجاً مختلفاً عن الحملات السابقة في الإعداد النفسي

والتجهيز المادي والبعد الاستراتيجي لسياسة الفتح كان الهدف الأول للغافقي القضاء على الدوق آدود أمير أكويتانيا الذي شكل وفقاً لتقديراته العقبة الرئيسية أمام الامتداد الإسلامي في بلاد الفرنجة، وبخاصة يعد تحالفه مع الزعيم البربري منوسة الثائر في الشمال، ثم مع شارل بن ببين حاجب القصر في مملكة الفرنجة، فهوت المدن أمامه ودخلت جيوشه تولوز وبوردو أكبر مدن الإقليم قبل أن يصطدم بالدوق وينتصر عليه في معركة جرت على نهر الدردوني في (أوائل عام 114هـ = ربيع عام 732م)، ثم طارده حتى عاصمته بوردو وفتحها، وفر الدوق مع بعض أتباعه باتجاه الشمال، ملتجئاً إلى البلاط الفرنجي، وسقطت أكويتانيا كلها بيد المسلمين.

نتج عن هذه المعركة أن انتشر المسلمون في مقاطعة أكويتانيا، وتقدموا شمالاً حتى مدينة بواتييه وفتحوها، وانسابت قواتهم في السهل الخصيب الممتد بينها وبين تور، وأضحى جنوبي فرنسا كلها تحت سيطرتهم، كان ذلك آخر امتداد منظم لهم في أوروبا، لأن شارل خشي أن يدخل المسلمون بلاد الفرنجة، نظراً لاقترابهم من حدودها، فيقضون بذلك على دولة الفرنجة والنصارى معاً.

والجدير بالذكر أن هذه المملكة كانت آنذاك أكبر قوة في أوروبا، وعدت نفسها حامية النصارى في الغرب، وبدت في الأفق السياسي بوادر صراع بين الطرفين لا بد أن يكون حاسماً، وأخذ شارل يتجهز استعداداً للقتال في الوقت الذي نجح فيه الغافقي في الاقتراب من حدود مملكة الفرنجة، وحشد شارل مارتل جيشاً ضخماً من الفرنجة ومختلف القبائل الجرمانية وبخاصة اللمبارديين في شمالي إيطاليا بالإضافة إلى المرتزقة، واستولى على بعض أراضي الكنيسة لتسخير مواردها في إعداد وتجهيز الجيش، وبعد أن استكمل استعدادات التجهيز خرج على رأس هذا الجيش نحو الجنوب للتصدي للمسلمين، كان الغافقي آنذاك يعاني من:

- صعوبات تموينية بفعل ابتعاده عن قواعده.

– نقص في العدد نظراً لتخلف بعض الحاميات في المدن المفتوحة عن الاشتراك في الزحف.

– عدم تجانس الجيش الذي تحكمت به العصبيات الأندلسية المتصارعة.

– الإنهاك الشديد الذي بدا على الجند بفعل الغزوات المتواصلة لعدة أشهر.

وفي المقابل، بدا واضحاً أن جيش الفرنجة مؤهل لتحقيق الانتصار بفعل ما توافر له من إمكانات الحرب حيث دقة التنظيم، وشدة التماسك، وكفاءة القيادة، وضخامة الجيش، والشعور بالخطر على المصير، والتصميم على وقف تيار المسلمين الجارف، وعمد شارتل مارتل إلى تنفيذ سياسة عسكرية قائمة على تأخير اللقاء مع المسلمين بهدف الاستمرار في إنهاك قواهم نتيجة انتقالهم السريع من معركة إلى معركة، ومن مكان إلى مكان، وانشغالهم بالغنائم التي لا بد وأن تبطئ تقدمهم، وأخفى قواته عن أعينهم، وفعلاً عجزت عيون للغافقي عن معرفة أي شيء عن سياسته هذه، وبذلك يكون شارل قد حدد زمان ومكان المعركة ليضمن النصر، وحدث اللقاء الحاسم بين الطرفين في (شهر رمضان عام 114هـ = شهر تشرين الأول عام 732م) في السهل الواقع بين تور وبواتييه في المكان المعروف ببلاط الشهداء[348]، ودارت بينهما رحى معركة ضارية استمرت مدة سبعة أيام، هي معركة التحدي بين الغافقي وشارل، وحقق المسلمون خلالها انتصارات أولية، لكن النتيجة الحاسمة أسفرت عن هزيمة قاسية لهم حيث نجح شارل في تحقيق الانتصار على الرغم من استبسال المسلمين في المعركة، وقتل الغافقي بعد قتال بطولي على أثر إصابته بسهم أودى بحياته فتفرقت كلمة المسلمين، واختلف رؤوساء الجند واضطروا إلى الانسحاب إلى قواعدهم في سبتمانيا، وسميت هذه الموقعة في المصادر العربية بمعركة بلاط الشهداء لكثرة ما استشهد فيها من المسلمين، ونسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده هذه المعركة، والبلاط في اللغة العربية هو الطريق المرصوف المبلّط، أما المصادر الأوربية فسمتها موقعة تور أو تور–بواتييه[349].

تعد معركة بلاط الشهداء من المعارك الهامة في التاريخ الوسيط إذ إنها:

- أوقفت المد الإسلامي باتجاه قلب أوروبا.
- قضت على تصميمهم في اجتياح هذه القارة.
- أقنعتهم بالاكتفاء بما حققوه من إنجازات فيما وراء البرينييه.

وفي المقابل:

- بددت مخاوف الأوربيين من اجتياح إسلامي للقارة.
- أنقذت النصرانية في أوروبا الغربية من حكم إسلامي محتمل.

وأضفى هذا النصر على شارل قوة ومكانة، وبدا في نظر العالم الغربي بطل النصرانية الأول الذي حمى غربي أوروبا من الغزو الإسلامي، واستحق عن جدارة لقب المطرقة، وصار يُعرف بـــ شارل مارتل، بعد أن أطلق عليه البابا غريغوري الثالث هذا اللقب، لم يتعقب شارل مارتل فلول الجيش الإسلامي خشية أن يكون انسحابهم تكتيكاً للإيقاع به، بالإضافة إلى أنه مني هو أيضاً بخسائر بالغة جعلته عاجزاً عن تنظيم عملية مطاردة، وتراجع باتجاه الشمال. وإذا كان المؤرخون الغربيون قد اعتادوا أن يبالغوا في قيمة هذا النصر الذي حققه شارل مارتل، فإن تصوراتهم قد تبدو واقعية، ذلك أن الامتداد الإسلامي في عمق القارة قد وصل إلى ذروته في بواتييه، ولم يكن من سبب يدعو المسلمين إلى التوقف عند هذا الحد لو انتصروا في المعركة، فكل الدلالات تشير إلى إصرارهم على المضي في الخطة التوسعية إلى النهاية[350]، والواقع أن المسلمين لم يحاولوا بعد هذه الموقعة فتح بلاد الفرنجة، إذ إن الخسارة جعلتهم أقل جرأة على غزو فرنسا، كما أن الخلافات الداخلية أثرت سلباً على قدراتهم العسكرية، فأخذ الصراع منحى تراجعياً منذ ذلك الحين.

لكن ذلك لم يؤد بالضرورة إلى تجميد الطموح الإسلامي وراء البرينييه، فاستأنف المسلمون نشاطهم الجهادي في العام التالي، وهددوا مدن آرل وآفينيون وغيرهما من المدن وبخاصة إقليم البروفانس، وقرر عقبة بن الحجاج السلولي والي

الأندلس، إحياء الجهاد والفتوح، وتوطيد النفوذ الإسلامي في غاليا، محضن المواقع الإسلامية على ضفاف نهر الرون، واتخذ ثغر ناربون قاعدة انطلاق للغزو والجهاد، وتركزت أهم عملياته العسكرية في أقاليم برغنديا والبروفانس والروفينيه، وغزا في عام (117هـ = 735م) مدينة آرل للمرة الثانية، وفتحها قائده عبد الرحمن بن علقمة اللخمي، لكن هذه الجهود كانت عديمة الفائدة لأن شارل مارتل ضايق المسلمين وأجبرهم على الجلاء عن إقليم البروفانس، والارتداد إلى ما وراء نهر الرون واستولى الفرنجة على معظم سبتمانيا، ولم يبق بيد المسلمين سوى ناربون ورقعة ضيقة من الأرض بين ناربون والبرينييه، وكان هذا آخر عهد المسلمين واصطدامهم بالفرنجة في سهول الرون، ثم أخذوا يتراجعون منذ عام (121هـ = 739م) إلى الأندلس حيث انهمكوا بالمشاكل الداخلية[351].

الفصل الثاني

عهد الإمارة الأموية

(138-300هـ = 756-912)

1- عبد الرحمن الأول (138-172هـ = 756-788م):

- إحياء الدولة الأموية في الأندلس:

كانت الأندلس الولاية الأكثر تأثراً بانتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين فقد كانت تعاني من الصراعات الحزبية والإقليمية خلال مدة غياب السلطة المركزية التي استمرت بين أعوام (124-138هـ = 742-756م).

سقطت في عام (132هـ = 750م) دولة الخلافة الأموية على أيدي العباسيين وأخذ الولاة العباسيون يتعقبون الأمويين ويقتلونهم، إلا أن أميراً أموياً استطاع النجاة من مطاردة هؤلاء هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، فيمم وجهه شطر المغرب، واتصف عبد الرحمن بالطموح، فعزم على

تأسيس دولة له في المغرب، إلا أنه اصطدم بمعارضة والي إفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري، فاتجهت أنظاره نحو الأندلس التي كانت تعاني اضطراباً في أوضاعها الداخلية، حيث وجد فيها الفرصة الأكثر منالاً من المغرب، ونجح خادمه بدر الذي أرسله إلى هناك لدراسة الموقف في تكوين نواة لقاعدة أموية اعتمدت على اليمنيين الذين يرتبطون عضوياً بالأسرة المروانية. وقد رحبوا بتأييد الأمير الأموي، للتحرر من قيود القيسين الثقيلة، والأخذ بثأر قتلاهم في معركة شقندة.

بات أنصار الأمير الأموي يمتلكون من المعطيات ما شجعهم على دعوته، فعبر المضيق في (شهر ربيع الآخر عام 138هـ = شهر أيلول عام 755م) ونزل ضيفاً على أبي عثمان في حصن طرشة [352]، وكان حاكم الأندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهري، لكن السلطة الفعلية كانت في يد الزعيم القيسي الصميل بن حاتم، وقد أدرك الزعيمان مدى الخطر الذي يشكله عبور الأمير الأموي، على أوضاعهما وبخاصة أنه حاز على ثقة فئة كبيرة من المجتمع الأندلسي بفضل قوة شخصيته وجرأته، إذ وجدوا فيه طرازاً جديداً في الزعامة السياسية، لذلك قررا التصدي له لإرغامه إما على العودة أو الخضوع لهما.

واستعد عبد الرحمن من جهته للوقوف في وجههما فغادر حصن طرشة إلى شذونة التي أعلنت تأييدها له، ثم دخل إشبيلية، وبايعه أهلها[353]، وانضمت إليه الفرق العسكرية التي كانت قد جاءت من دمشق وحمص والأردن، ثم غادرها باتجاه قرطبة، والتقى بقوات الصميل والفهري عند المسارة في (شهر ذي الحجة عام 138هـ = أيار عام 756م) وانتصر عليهما، ودخل قرطبة حيث صلى بالناس صلاة الجمعة في مسجدها الكبير وخطب فيهم معلناً قيام دولته الجديدة، واضطر كل من الصميل والفهري إلى الفرار[354]، وهكذا استطاع هذا الأمير الطريد أن يحيي الدولة الأموية في الغرب التي سقطت في الشرق، وأن يجعل من الأندلس دولة مستقلة، وأول ولاية اقتطعت من دولة الخلالة العباسية.

– المشكلات التي واجهت عبد الرحمن الداخل:

ثلاث قضايا كانت على جانب كبير من الخطورة، واجهت عبد الرحمن الداخل، خلال حياته السياسية، تطلبت منه العمل الدائم والدؤوب على التصدي لها، تتمثل الأولى في تنظيم الإدارة المحلية وتوحيد المجتمع الأندلسي بعد أن فرقته الحروب الأهلية، وتتمثل الثانية بقيام حركات ارتدادية من جانب الصميل والفهري، بينما تتمثل الثالثة بمحاولات الخلافة العباسية القضاء على الدولة الناشئة واستعادة سيادتها على الأندلس بعد أن ساءها أن يقتطع الأمويون جزءاً من دولة الخلافة العباسية.

ففيما يتعلق بالقضية الأولى، فقد دخل عبد الرحمن إلى الأندلس وهو لا يمتلك من الأعوان إلا القليل، ومن السلاح غير الطموح والجرأة، فكان عليه أن يبني دولة ويؤمن لها الأجهزة البشرية، وبخاصة الجيش الذي يعد الدعامة الأساسية لتثبيت حكمه، فاختار العناصر المخلصة له، واستقطب الأشخاص الملاحقين من قبل السلطة العباسية في المشرق، الذين تدفقوا على الأندلس، فأسس من الجميع نواة جيش قوي، واتبع سياسة قبلية قائمة على التوازن حتى تلتف حوله كافة الفئات الاجتماعية، فقضى على رواسب التعصب، وانتزع عوامل البغضاء من المجتمع الأندلسي، الذي أراده أن يكون متلاحماً، وأن يكون هو الحاكم لجميع فئاته.

وفيما يتعلق بالقضية الثانية، فقد اجتهد عبد الرحمن أن يتعقب يوسف والصميل، أقوى خصومه، وكان الأول قد فر بعد معركة المسارة إلى طليطلة، وانسحب الثاني إلى جيان معقل قومه، ولم يلبث الرجلان أن تعاونا معاً لغزو قرطبة، وخرج عبد الرحمن لملاقاتهما، ولكن لم يحدث اشتباك بين الطرفين لأن الصميل مال إلى المهادنة لافتقاره إلى التوازن العسكري بينه وبين خصمه القوي، وانتهى الأمر إلى عقد اتفاق بينهما في عام (140هـ = 757م)، وعفا عبد الرحمن عن خصميه واصطحبهما إلى قرطبة ليكونا تحت مراقبته[355]، لكن نزعة السلطة أثارت الفهري، ففر إلى ماردة والتف حوله ما يزيد على عشرين ألفاً من أتباعه، خرج بهم إلى إشبيلية

وحاصرها، فخرج عبد الرحمن للتصدي له بعد أن اعتقل الصميل بتهمة التآمر ضده، ثم حدث أن فك يوسف الفهري الحصار عن إشبيلية وتوجه نحو قرطبة، وانتهى الصراع بهزيمته وفراره، وقتل بعد ذلك بيد أحد أعوانه، أما الصميل فقد تخلص عبد الرحمن منه بأن دس له من خنقه في سجنه[356]، وهكذا قضى عبد الرحمن على أخطر عدوين في الداخل، و لم يجد أدنى صعوبة في القضاء على الثورات الداخلية الأخرى التي كان يقوم بها الفهريون وأنصارهم، كثورة سعيد اليحصبي الملقب بالمطري وثورة لبلة، وعصيان أبي الصباح، وثورة البربر في شنتيرية في إقليم آراغون[357].

أما فيما يتعلق بالقضية الثالثة، فقد استغل الخليفة أبو جعفر المنصور الأوضاع القلقة التي كان يمر بها عبد الرحمن الداخل، فاتصل بأحد الزعماء العرب ويدعى العلاء بن مغيث الجذامي، وحثه على التخلص من خصمه ووعده بإمارة الأندلس[358]. أخذ العلاء يدعو سراً إلى طاعة الخليفة المنصورة واستغل في عام (146هـ = 763م) التقلبات السياسية لحركات الأحزاب، مركزاً على اليمنيين الذين بدؤوا يتململون من حكم عبد الرحمن بعد أن استأثر بالسلطة دونهم. وبعد نحو عام من التحضيرات والاتصالات، أعلن العلاء ثورته على النظام الأموي، لكن عبد الرحمن تمكن من القضاء على حركته وقتله مع عدد من رجاله وبعث برؤوسهم إلى المنصور، وكان فشل هذه المحاولة كافياً لإقناعه بالعدول عن مشروعه و لم يمنعه عداؤه لعبد الرحمن من الإعجاب به ولقبه بـ«صقر قريش»[359]. واستمرت العلاقات السيئة بين الخلافة العباسية في بغداد وبين الإمارة الأموية في الأندلس، إلا أن بعد المسافة حال دون إرسال الجيوش العباسية من أجل تحقيق هذه الغاية، لكن المهدي كان يشجع كل حركة تهدف إلى إضعاف النفوذ الأموي في الأندلس، من ذلك أنه أيد الثورة التي قام بها في عام (157هـ = 774م) الحلف المكون من سليمان بن يقظان والي برشلونة، وحسين الأنصاري والي سرقسطة، وعبد الرحمن الفهري والي إفريقية، لكن المتحالفين

فشلوا في تحقيق غايتهم، وكان ليقظة عبد الرحمن الداخل الفضل في إحباط المشروع[360].

– الأوضاع الخارجية:

شغلت الأحداث الداخلية القلقة معظم أوقات عبد الرحمن الداخل، و لم تدع له الفرصة للاهتمام بالشؤون الخارجية، مما أتاح لأعدائه المجاورين، من بقايا دولة القوط الذين اعتصموا في المناطق الجبلية في الشمال الغربي في إسبانيا، أن يتكتلوا، ويضعوا نواة الفكرة الوطنية لاستعادة الأرض، وطرد المسلمين منها، فإذا بهم قوة تأخذ طريقها إلى النمو في زحمة التطاحن السياسي بين المسلمين.[361]

2– هشام الأول «الرضا» (172–180هـ = 788–796م):

بفعل وصيته الغامضة حول ولاية العهد، ترك عبد الرحمن الأول، بعد وفاته في عام (172هـ = 788م) أزمة في الحكم، مما أدى إلى تنافس أبنائه سليمان وهشام وعبد الله حول اعتلاء العرش الذي فاز به أخيراً هشام، غضب سليمان من تصرف أخيه إذ رأى فيه اغتصاباً لحقه، لأنه أكبر إخوته، ورفض الاعتراف به على الرغم من جهود الأمير الجديد لاستمالته، وقامت الحرب بين الأخوين، وانتهت بهزيمة سليمان، ونفاه أخوه إلى المغرب.

في عام (174هـ = 791م)[362] واجه هشام الأول خلال حياته السياسية ثورتين، نشبت إحداهما في الشمال بزعامة مطروح بن سليمان والي سرقسطة، وقامت الأخرى في طرشه بقيادة سعيد بن الحسين الأنصاري. ويبدو أن هاتين الثورتين، لا تعدان أن تكونا من بين الحركات الاستقلالية، لكن هشاماً نجح في تطويقها وقتل زعمائهما.

كان هشام الأول حاكماً عادلاً متواضعاً، يعود المرضى، ويشهد الجنائز، مقتصداً في طلبه، ورعاً تقياً، شهد عهده تحولاً مذهبياً بشيوع مذهب الإمام مالك في الأندلس، وتخلى الأندلسيون عن مذهب الإمام الأوزاعي الذي هو المذهب الرسمي

حتى ذلك الحين[363]، ويعد عهده انعكاساً لشخصيته المسالمة حيث قدر للأندلس أن تنعم خلال مدة حكمه ببعض الهدوء بعد أن احتوى بطبعه الهادئ كل الزعامات القبلية.

أما على الصعيد الخارجي، فقد اتجه هشام الأول نحو محاربة الإسبان في الشمال مدفوعاً في ذلك بنزعته وحماسه الديني، فحارب في ولاية إستورقه، كما أرسل حملات صيفية ضد ولاية سبتمانيا في جنوب فرنسا التابعة للفرنجة. وتوفي هشام الأول في (شهر صفر عام 180هـ = شهر نيسان عام 896م) وخلفه ابنه الحكم الأول[364].

3- الحكم الأول «الربضي» (180-206هـ = 796-822م):

- الأوضاع الداخلية:

في بداية حياته السياسية واجه الحكم الأول ثورة أعمامه الطامعين بالإمارة منذ عهد أبيه، وحاول عمّاه سليمان وعبد الله انتزاع الملك منه، وكان الأول قد استقر بعد نفيه من قبل أخيه في طنجة، والتجأ الثاني إلى تاهرت في المغرب الأوسط عند بني رستم، فلما علما بموت أخيهما هشام عبر سليمان مع جماعة من البربر إلى الأندلس محاولاً الوصول إلى قرطبة، ولكنه هزم عدة مرات كان آخرها في ماردة، التي أودت بحياته في عام (184هـ = 800م)[365]، ودخل عبد الله بدوره إلى الأندلس، واتخذ طريقه صوب الشمال في المناطق المعادية للحكم الأموي ليمارس نشاطه من سرقسطة وبلنسية، معتقداً أنه سيجد تأييداً فيهما، لكنه فشل في كلتيهما، واضطر إلى عقد صلح مع ابن أخيه الحكم الأول الذي عفا عنه ومنحه إدارة مدينة بلنسية، ومنحه راتباً شهرياً، ومنذ ذلك الوقت أضحى يلقب بـ«البلنسي»، ويبدو أن الثورات الخطيرة التي أقلقت الحكم الأول وكادت تطيح بإمارته هي تلك التي قام بها المولدون في طليطلة وقرطبة. نشبت الثورة في المدينة الأولى في بداية عهد الحكم الأول في عام (181هـ = 797م)، بهدف التحرر من سيادة قرطبة. عالج الحكم الأول هذه القضية بمنتهى الدهاء والذكاء، فاختار أحد المولدين من مدينة وشقه، ويدعى عمروس

بن يوسف، وعينه والياً على المدينة، وكلفه بمهمة إجهاض الثورة. تظاهر عمروس أمام سكان المدينة بكره بني آمية، فاستمالهم إليه، ثم بنى قلعة جديدة خارج المدينة وأقام فيها وليمة دعا إليها جميع أعيان البلد ورؤسائها، وإذ توافد المدعوون زرافات إلى القلعة، لم يدخلوها إلا فرادى، وكان في ساحتها حفرة أقام عمروس على حافتها سيافين يضربون عنق كل داخل، حتى قُتل المدعوون جميعاً، وخضعت المدينة تماماً لسلطة قرطبة، وقد سميت هذه المذبحة بوقعة الحفرة[366].

أما الثورة التي نشبت في المدينة الثانية، فكانت أخطر من الأولى وتعرف بثورة الربض وهي تعني الضاحية، وسببهما الرئيسي يكمن في سوء وضع المولدين بصفة عامة كطبقة اجتماعية كبيرة كانت تتجاذبها تيارات اجتماعية ودينية جديدة، وهي تسكن هذه الضاحية التي امتلأت بصنوف الناس من التجار والحرفيين والعمال، فضلاً عن عدد كبير من الفقهاء المالكيين الذين وجدوا في سياسة الحكم الأول، الرافضة لوصاية رجال الدين، تحطيماً لقوة الفقهاء، وامتيازاتهم، مركزين على الهوة الاقتصادية الفاصلة بين أغنياء السلطة وبين فقراء الربض المعدمين.

واجه الحكم الأول هذه الثورة التي اندلعت في عام (202هـ = 818م) بالشدة، فأشعل النار في الربض، وعندما رأى الثوار النار مشتعلة في مساكنهم ومتاجرهم عادوا مسرعين لإنقاذ ذويهم وأموالهم، وهنا تدخل الجند الذين فتكوا بهم. وعندما انتهت الثورة أمر الحكم الأول بهدم الربض، وحرث أرضه، وزراعتها، كما طرد من تبقى من الربضيين من البلاد[367]، وبسبب هذه القوة التي استعملها الحكم في إخضاع ثورة الربض، جعلت اسمه مقروناً باسم هذه المكان فسمي الحكم الربضي[368].

– الأوضاع الخارجية:

استمرت العلاقات العدائية بين الإمارة الأموية في الأندلس وبين الفرنجة والإسبان في عهد الحكم الأول، وكانت سياسة الفرنجة تقضي بتأمين جنوبي فرنسا

من غزو المسلمين، وذلك بإنشاء إمارة إسبانية في الشمال الشرقي في الأندلس تكون حاجزاً بينهم وبين المسلمين، واستغل الفرنجة انهماك الأمير الأموي بإخضاع الثورات الداخلية، فهاجموا المناطق الحدودية، وتمكن لويس، أحد أبناء شارلمان، من انتزاع برشلونة في عام (185هـ = 801م) مسدداً ضربة خطيرة إلى السيادة الإسلامية في المنطقة، لكنه فشل أمام طرطوشة في عام (191هـ = 807م)، وهاجم الإسبان بقيادة ملكهم ألفونسو الثاني أمير جيليقيه المناطق الحدودية، واتخذت هجماتهم بعداً صليبياً ظاهراً، وتبادل الطرفان الإسلامي والإسباني الهجمات التي لم تسفر عن أي تغيير في وضع الأراضي على الرغم من توغل صائفة عبد الكريم بن مغيث في جيليقيه في أقصى الشمال الغربي[369]. توفي الحكم الأول في (شهر ذي الحجة عام 206هـ = شهر أيار عام 822م) تاركاً لابنه عبد الرحمن دولة متماسكة خاضعة تمام الخضوع لسلطان بني أمية. ويلاحظ أن الحكم الأول امتاز، على الرغم من قسوته، بالعدل والكرم والفصاحة، وندم في أواخر حياته على ما جرى على يديه.

4- عبد الرحمن الثاني أو الأوسط (206-238هـ = 822-852م):

خلف عبد الرحمن الثاني أباه الحكم الأول في ظل أجواء هادئة، وعرف بالأوسط لأنه ثاني ثلاثة سموا بهذا الاسم. وتميز عهده الطويل بأحداث متباينة على جانب كبير في الأهمية. وهو لا يتفق مع أبيه في كثير من الصفات، إنه أقل تمسكاً بنظرية الحكم المطلق، وبالتالي فإن خلفيته الدينية كانت بارزة في البلاط، وانعكست شخصيته المثقفة، والفقهية الواسعة، وما تمتع به من إحساس فني مرهف، وذوق اجتماعي رفيع على حياة الأندلس، ويعد عهده بداية الانتقال الحقيقي إلى الدولة بمظهرها المحدد كمؤسسة إدارية وثقافية وعسكرية متطورة[370].

- الأوضاع الداخلية:

شهد عهد عبد الرحمن الثاني سلسلة من الثورات الداخلية ضد النظام الأموي، تمكن من قمعها، فقد تمرد على حكمه، عمه عبد الله بن عبد الرحمن، فغادر بلنسية إلى

تدمير واتخذها مركزاً لنشاطه تمهيداً للزحف نحو قرطبة والإطاحة بالأمير الحاكم، لكن القدر كان بانتظاره، فأراح عبد الرحمن الثاني من هذا الخصم التقليدي في الأسرة الحاكمة بدون عناء[371]، وتحرك البربر بدورهم، وأعلنوا العصيان في منطقة الجزيرة الخضراء في عام (211هـ = 826م)، وفي ماردة بعد عامين، لكن السلطة قمعت هاتين الثورتين، وثارت مدينة طليطلة بقيادة زعيم شعبي يدعى هاشم الضّراب في عام (214هـ = 829م)، والراجح أن أسباباً اجتماعية دفعته إلى الخروج على الحكم المركزي من أجل تحسين أوضاع الفئات الشعبية، ونجحت السلطة المركزية في القضاء على ثورته[372]. وشهدت السنوات الأخيرة من حكم عبد الرحمن الثاني محاولة إسبان قرطبة القيام بثورة ذات طابع خاص، ذلك أن المستعربين المتطرفين من سلطان العاصمة استغلوا أجواء الاستقرار، والتعايش، والانفتاح، وحرية المعتقد، والتسامح الديني، وقاموا بتحرك ناشط ضد الدولة بزعامة راهب قرطبي يدعى إيلوخيو، وقد أثاره إقبال النصارى الإسبان على الثقافة العربية الإسلامية، وترك اللغة اللاتينية لغة الكتاب المقدس، ويبدو أن هذه الثورة تعد مؤشراً لحركة الانعتاق الإسباني عن السيادة الإسلامية، وكانت الخطة تقضي بمهاجمة المقدسات والشعائر الإسلامية لجر السلطة والعاصمة إلى اضطرابات دموية. وساهمت النساء بدور بارز في هذه الحركة، وبرزت فلورا الفتاة المسلمة وتلميذة إيلوخيو التي تأثرت بأفكار والدتها النصرانية، فتنصرت ولم تتردد في التفوه بما فاه فيه إيلوخيو وجماعته من الرهبان. ولعل الشدة التي استعملتها السلطة في قرطبة ضد المتطرفين رداً على الممارسات الغريبة، كانت مطلباً ملحاً لهؤلاء[373]، وقد أدرك عبد الرحمن خطورة الموقف، ورأى أن يعقد مجمعاً دينياً في قرطبة يضم جميع أساقفة الأندلس لمناقشة تطورات هذه القضية. استنكر المجتمعون مسلك المتشددين باستثناء أسقف قرطبة الذي دافع عنهم، لكن البيان الاستنكاري لم يترك أثراً على إيلوخيو الذي قرر آنذاك الجهر بموقفه،وتوفي عبد الرحمن الثاني دون أن

يتمكن من وضع حد لهذه الحركة الخطيرة. والجدير بالذكر أن بعض المتشددين هاجموا مسجد قرطبة قبل وفاة الأمير بأيام، فكان عقابهم الإعدام.

- الأوضاع الخارجية:

أ- العلاقة مع الممالك الإسبانية في الشمال:

كانت السياسة الخارجية إحدى اهتمامات عبد الرحمن الثاني، وساعدته الظروف الداخلية للقيام بعمليات عسكرية ضد الإستورقيين الإسبان في الشمال، فوجه الصوائف بدءاً من عام (208هـ = 823م)، فتوغلت في إقليم إستورقه. كما شهد إقليم آراغون في الشمال الشرقي تطورات مهمة حين تحالف حاكم تطيلة العربي موسى بن موسى مع البشكنس (الباسك)، فقام عبد الرحمن الثاني بحملة تأديبية ضد حاكم تطيلة وقضى على تمرده، وتابع طريقه شمالاً، فهزم البشكنس حلفاء موسى، واضطرهم إلى عقد الصلح في عام (228هـ = 842م)[374].

ب- العلاقات مع النورمان:

شهد عهد عبد الرحمن الثاني غارات النورمان المنسابين من الشمال والمعروفين باسم الفايكنغ على الشواطئ الغربية للأندلس، وقد استهوت هذه الشواطئ هؤلاء القراصنة الذين سماهم المؤرخون المسلمون باسم المجوس، بفعل عوامل اقتصادية حيث كان ثراء الأندلس يثير جشع أولئك الغزاة، بالإضافة إلى أنها كانت مكشوفة وغير محصنة، وكانت أخطر هذه الهجمات تلك التي حدثت في أواخر عام (229هـ = 844م) فتعرضت مدينة إشبونة (لشبونة الحالية) لهجوم بحري عبر مصب نهر تاجه، لكن مقاومة السكان أحبطت هذه المحاولة، وأجبرت القراصنة على التراجع، فاتجهوا إلى مصب الوادي الكبير إلى الشمال من قادس، ولم يجدوا صعوبة في احتلال هذه

المدينة ونهبها، ثم صعدوا بسفنهم عبر النهر واستولوا على إشبيلية وضواحيها فعاثوا فيها دماراً وتخريباً[375]، أحدثت هذه الغزوة ارتباكاً في الأوساط الحاكمة في قرطبة، لأن معظم الأسطول الأندلسي كان مرابطاً على الساحل الشرقي، واعتمد الأندلسيون في مقاومة هذه الخطر على جيوشهم البرية التي أجبرت المغيرين على التراجع، ولا شك أن هذا الحادث الخطير قد نبه أذهان الحكام إلى ضرورة اتخاذ إجراءات دفاعية، ولهذا قام عبد الرحمن الثاني بعدة أعمال هامة في هذا السبيل منها: أنه أحاط مدينة إشبيلية بأسوار حجرية عالية، كما بنى في مينائها داراً لبناء السفن العسكرية، وأقام قواعد ثغرية على طول الساحل الغربي المطل على المحيط الأطلسي، وهي عبارة عن سلسلة من الحصون الدفاعية على مصبات الأنهار، وزودها بالسفن والرجال والعتاد، وبذلك أمكن تحميد الخطر النورماني.

ج- العلاقة مع البيزنطيين:

نلاحظ أن علاقات الأمويين في الأندلس مع الإمبراطورية البيزنطية في عهد عبد الرحمن الثاني كانت سلمية الطابع، وكان من مصلحة الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل، آنذاك، البحث عن حلفاء يؤازرونه في صراعه مع القوى الإسلامية المختلفة، بعد الضربات التي تلقتها الإمبراطورية من جانب الخلافة العباسية في بغداد على يد المعتصم، وانتزاع جزيرة صقلية من قبل الأغالبة في شمال إفريقية، بالإضافة إلى جزيرة كريث التي انتزعها الأندلسيون الربضيون، كل ذلك جعل الإمبراطور يعتقد أنه لا قبل له بقوة المسلمين المتزايدة في البحر المتوسط، فعزم على أن يلتمس المساعدة من الدول الأخرى، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور الكارولنجي لويس التقي، لكن نتائجها كانت سلبية، فالتفت عندئذٍ إلى الأندلس لاستقطاب عبد الرحمن الثاني وإقناعه بالتعاون معه ضد الخليفة العباسي، وعلى الرغم من أن سياسة قرطبة تجاه بيزنطة كانت آنذاك استمراراً لسياسة الأسلاف في دمشق فإن تبادل السفارات والهدايا بين الجانبين لم يخرج عن إطار الزيارات العادية[376].

– وفاة عبد الرحمن الثاني:

شهد أواخر عهد عبد الرحمن الثاني صراعاً على السلطة بين أولاده، كانت تغذية نساؤه الكثيرات عن طريق تحريض أبنائهن، ويبدو أن الأمير الأموي شعر بهذه المشكلة بدليل أنه لم يوص لأحد من بعده، و لكن كان متداولاً في الأوساط الحاكمة أن المرشح لولاية العهد هو ابنه الأكبر محمد. توفي عبد الرحمن الثاني (شهر ربيع الآخر عام 238هـ = شهر ايلول 852م)[377] وتولى الحكم بعده:

محمد بن عبد الرحمن 238-273هـ = 852-886م

المنذر بن محمد 273-275هـ = 886-888م

عبد الله بن محمد 275-300هـ = 888-912م

– اضطراب الحكومة المركزية:

بعد وفاة عبد الرحمن الثاني، تولى حكم الإمارة أمراء ضعاف، فتمزقت الأندلس وتفجرت الثورات في أنحائها المختلفة، واستقل الثوار بحكم المناطق التي ثاروا فيها، وتقلص نفوذ بني أمية، فاقتصر على قرطبة وضواحيها، وتعد المدة الزمنية بين أعوام (238-300هـ = 852-912م) بمجموعها مضطربة سياسياً وعسكرياً، وتمثل انتكاسة للمنجزات الكبيرة التي تحققت على يد الأمراء الأوائل، وتتصف بأنها موحدة الملامح، متشابهة الظروف، بحيث لا يمكن أن نميز أي عهد منها عن الآخر، بل كانت متلاحمة، أطلق عليها المؤرخون اسم «دويلات الطوائف الأولى». خلف الأمير محمد أباه عبد الرحمن الثاني[378]، وله تجربة سابقة في فن الحكم لأن والده كلفه خلال حياته بمهمات سياسية عسكرية، ولكن ظروف الإمارة لم تساعده على الاستمرار في تحقيق طموحات الأسرة الأموية، ولما توفي خلفه ابناه المنذر وعبد الله على التوالي، والواقع أن الإمارة الأموية عانت خلال عهود الأمراء الثلاثة من المتاعب السياسية والاجتماعية على الرغم من الرخاء الذي عم ربوع البلاد، ذلك أن المجتمع الأندلسي لم يكن في يوم من الأيام متجانساً، وتشكل من شعوب متعددة خضعت

للسيادة الأموية إما طوعاً أو كرهاً، دون أن يجمعها قاسم مشترك، وعاشت في تنافر عنصري وديني، و لم يندمج بعضها ببعض.

شكل السكان الأصليون الغالبية العظمى، واعتنق بعضهم الإسلام، ثم كان هناك العرب، وهم أقلية من حيث العدد، توزعت ولاءاتهم قبلياً بين قيسي ويمني، بالإضافة إلى أقلية من البربر نازعتها مشاعر السيطرة والنفوذ.

تفرقت هذه الأجناس في ولايات متباعدة أو متقاربة دون أن تنصهر في بوتقة المجتمع الأندلسي، وراحت تعمل على تحقق طموحاتها العنصرية والوطنية المختلفة، لكنها كانت تصطدم بالقوة المركزية، فتخبو إلى حين سنوح فرصة أخرى للانفجار، حتى إذا ما ضعفت الحكومة المركزية، انتفضت من جديد، وظهرت أطماعها على شكل استقلال محلي، تساعدها طبيعة أرض الأندلس الجبلية، ولعل أهم الحركات الاستقلالية التي قامت ضد الحكومة المركزية في قرطبة في هذه المرحلة والتي تمثل الأسر الكبيرة هي:

– المولدون: أعلن بنو موسى في شمال شرقي إسبانيا، منطقة الثغر الأعلى ولاية مستقلة عاصمتها مدينة سرقسطة، واستقل بنو مروان بقيادة عبد الرحمن الجيليقي في بطليموس غربي إسبانيا، وامتد نفوذهم حتى جوار إشبيلية، واستقل بنو حفصون في المرتفعات الإسبانية الجنوبية الممتدة بين مالقة شرقاً ورُندة غرباً، وقاعدتهم قلعة ببشتر، وقد جسد عمر بن حفصون التطلعات الوطنية لأكثرية المولدين، وكان قد ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية في محاولة لتصعيد الأزمة مع قرطبة ووضعها في مأزق جديد لاستقطاب القوى النصرانية في الشمال وبخاصة الملك ألفونسو الثالث.

– البربر: سيطر بنو ذي النون على طليطلة، وبنو الملاّخ على جيان.

– العرب: استقل بنو الحجاج بإشبيلية، وسعيد بن جودي السعدي بغرناطة، ولعل الخطأ أن نضع مسؤولية ذلك الانهيار السياسي على عاتق الأمراء محمد وابنيه المنذر وعبد الله، لأنهم تولوا الحكم في ظروف غير عادية، وتحتاج تالياً إلى رجل فذ

وحاكم غير عادي. وأدت التحولات الثقافية والاجتماعية، التي غيرت ملامح الأندلس، دوراً في هذا التمزق السياسي لتدفع البلاد إلى مرحلة جديدة في مسار التاريخ الأندلسي، فلم تعد البلاد منذ ذلك الحين تقبل الخضوع لأقلية عربية، وتطلعت مختلف الفئات إلى المشاركة في الحكم أو الاستئثار به معتمدة إما على تفوقها البشري أو على تراثها القديم[379].

الفصل الثالث

عهد الخلافة الأموية

(300-422هـ = 912-1031م)

1- عبد الرحمن الثالث «الناصر» (300-350هـ = 912-961م):

وقع الاختيار على عبد الرحمن في ظل ظروف صعبة ومعقدة، حيث تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحكم وهو في الحادية والعشرين من عمره، وكان أعمامه أحق منه في تولي الأمر، لكنهم زهدوا فيه بفعل تمزّق البلاد، ويبدو أنهم رأوا أنفسهم عاجزين عن وضع حد لتدهور أوضاع الدولة.

ومن جهة أخرى، كان عبد الرحمن شاباً، يتدفق حيوية ونشاطاً، طموحاً، فتعلقت آمال الجند به، ودفعه أعمامه إلى سدة الحكم، وفضلوه على أنفسهم آملين بأن ينقذ الموقف المتدهور. وهكذا تولى الأمير عبد الرحمن الثالث عرش الإمارة في (شهر ربيع الأول عام 300هـ = تشرين الأول 912م)[380] دون منازع مما أتاح له حرية الحركة للتصدي للمشكلات التي تعاني منها بلاده.

- الأوضاع الداخلية:

أ- إعادة الوحدة السياسية إلى البلاد:

تسلم عبد الرحمن الثالث الحكم والأندلس قد أرهقتها الثورات والانقسامات، فرأى أنه لا بد من القضاء عليها، وإحلال السلام في ربوع البلاد، وقد هدف إلى ضم

كافة فئات المجتمع الأندلسي، وتحويلهم إلى أمة متحدة اتحاداً حقيقياً[381]، واستهل عهده بخطوة مهمة في إطار معالجة الوضع الداخلي، فأصدر برنامجاً عاماً لسياسة جديدة، تجلت فيه دعوة إلى الثائرين في كافة أنحاء البلاد للانفتاح والحوار، والعودة إلى الجماعة والوحدة والطاعة كما تضمن في الوقت نفسه تهديداً ووعيداً بالعقاب، وأعقب ذلك بإرسال ممثلين عنه إلى الأقاليم الثائرة للتحاور[382]، ويبدو أن هذه الخطوة جاءت في الوقت المناسب لأن الناس كانت قد سئمت الحروب الطويلة الكامنة التي أضرت بأمنهم وتجارتهم، وأوقعت البلاد في فوضى حقيقية، كما أن الأمير الجديد لم يكن أسير عقدة خاصة أو اعتبارات ضيقة، بل كان نموذجاً فريداً كرجل دولة يكرس كل طاقاته للعمل دون كلل وملل، واستطاع بما أبداه من حزم وكياسة أن يكتسب ولاء غالبية الثائرين وبخاصة في مقاطعتي جيان والبيرة، بينما تجاهلت أقلية صغيرة مثل بني حفصون نداءه، مفضلة البقاء خارج دائرة النفوذ الأموي وعدم التعاطف معه، فكان على عبد الرحمن الثالث أن يكافح ضد هذه القوى المتمردة لإخضاعها، وقد شهد إقليم ريّة، معقل عمر بن حفصون، فاتحة نشاطه العسكري، ونجح في دخوله والسيطرة عليه، وانكفأ ابن حفصون إلى حصن ببشتر، ثم انتقل الأمير إلى إشبيلية، حيث قضى على استقلال بني الحجاج في عام (301هـ = 914م)[383]، والواقع أن عمر بن حفصون وجد نفسه في موقف حرج بعد فشل كفاحه الطويل مع السلطة المركزية في قرطبة، وما نتج عن ذلك من تدهور اقتصادي حاد، مما أفقد حركته كثيراً من حماسها، فاضطر إلى عقد صلح مع النظام الجديد، فأرسل إلى عبد الرحمن الثالث عهداً بالاعتراف به، والالتزام بالولاء للسلطة المركزية، ثم زار قرطبة في عام (303هـ = 916م) ليقدم خضوعه للأمير الأموي[384]، واضعاً بذلك بداية النهاية لأخطر ثورة شهدها الحكم الأموي في الأندلس، ولم يجد عبد الرحمن أدنى صعوبة في تصفية خلفاء عمر بن حفصون، ودخل معقلهم ببشتر في عام 315هـ = 928م. وكان القضاء على ثورة عمر بن حفصون كافياً لإعطاء

عبد الرحمن الثالث الاطمئنان إلى أوضاعه، بعد أن شعر بأنه اجتاز أصعب المراحل في طريق إعادة الوحدة السياسية.

ب– إحياء الخلافة الأموية:

وهكذا وبعد أن استتب الأمر لعبد الرحمن الثالث، وجد أن اللقب الذي ورثه عن أسلافه، وهو الأمير، لم يعد يتسع لطموحه الكبير، ورأى أنه أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة، وهي دولة الخلافة العباسية في بغداد، ودولة طارئة، هي الدولة الفاطمية في المغرب، فاتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين وأمر في عام (316هـ = 928م)بأن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات عنه في جميع ما يجري ذكره بـ«أمير المؤمنين»، لما استحقه من هذا الاسم، وتلقب بلقب الناصر لدين الله أمير المؤمنين، كما عرف بعبد الرحمن الناصر[385] وهكذا تحول الحكم في الأندلس من إمارة إلى خلافة، واستمر لقب «خليفة» في ذرية عبد الرحمن الثالث حتى سقوط دولة الخلافة الأموية في عام 422هـ = 1031م، ويبدو أن الأمير الأموي كان مدفوعاً بعدة عوامل لعل أهمها[386]:

– ضعف الخلافة العباسية في بغداد كمؤسسة دينية وسياسية، وعجزها عن حماية العالم الإسلامي، وهيمنة الأتراك على مقدراتها وتحكمهم بالخلفاء. وشكل اغتيال الخليفة العباسي المقتدر مؤشراً لاتخاذ مواقف أكثر جرأة في مناهضتها.

– قيام دولة فتية معادية في شمالي إفريقية، هي الدولة الفاطمية التي تطلعت نحو الأندلس لضمه، مما كان باعثاً للقلق الشديد لدى الأمير الأموي، واتخاذه الحيطة لصرف اهتمامها عن بلاده.

– كانت الوحدة السياسية للأندلس قد قطعت شوطاً بعيداً بعد إخضاع القوى الثائرة على الحكم، فكان لا بد، بعد ذلك، من رفع مكانة الأمير السياسية والدينية وإعطاء قرطبة دوراً أكثر مركزية بحيث تشدد قبضتها على الأطراف.

– الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون لهم خليفة.

– الأوضاع الخارجية:

أ– العلاقة مع الفاطميين في شمال إفريقية:

بعد تحقيق الوحدة السياسية، واستقرار الأوضاع الداخلية، التفت عبد الرحمن الناصر إلى الشؤون الخارجية، يساعده في ذلك جيش مدرب اختار معظم عناصره من المماليك الصقالبة المتفانين في خدمته.

ولا شك أن قيام دولتين متجاورتين مختلفتي المذهب كان كافياً ليسبب صداماً بينهما، ونظر الفاطميون إلى الحكم الأموي في الأندلس على أنه امتداد لخلافة دمشق، وبذلك كان لهم أطماع جدية في الأندلس، واضطر عبد الرحمن الناصر أن يقوم بخطوات إيجابية لمحاربة النفوذ الفاطمي ومنع امتداده إلى بلاده، منها:

– تقوية الأسطول الأندلسي، حيث أن البحرية الأندلسية لم تكن متكافئة آنذاك مع احتياجات دولة لها شواطئ ممتدة على مسافات طويلة، بالإضافة إلى تهديد الأسطول الفاطمي القوي في البحر المتوسط الذي هاجم المرية منطلقاً من قواعده في جزيرة صقلية، فأقام المنشآت الصناعية لبناء السفن العسكرية، واهتم بإعداد أسطول بحري قوي، كما فرض حصاراً على مضيق جبل طارق لمنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائر عمر بن حفصون.

– تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب، حتى لا تتعرض لهجوم فاطمي مفاجئ، فأشرف بنفسه على بناء التحصينات الدفاعية في جزيرة طريف والجزيرة الخضراء.

– ضم بعض ثغور ساحل المغرب الأقصى المواجهة لبلاده، مثل مليلة وسبته وطنجة، وحصنها.

– استقطاب رؤوساء الدويلات وزعماء القبائل في المغربين الأوسط والأقصى، مثل دولة الأدارسة، وإمارة منكور أو بني صالح، وقبيلة زناته البربرية، وذلك لتحقيق التوازن، ومواجهة الفاطميين المتحالفين مع قبائل كتامة ومكناسة.

– تأييد الثورات ودعم الحركات المعادية للحكم الفاطمي في شمال إفريقية، مثل ثورة أبي يزيد الخارجي التي شغلت عهد القائم الفاطمي وجزءاً من عهد ابنه إسماعيل المنصور.

– التحالف مع أعداء الدولة الفاطمية في الشرق والغرب، فتحالف مع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع الذي كان يرغب في استعادة جزيرة صقلية من يد الفاطميين، وحرص على توطيد علاقته بالإخشيديين في مصر. كما تحالف مع ملك إيطاليا هودج دي بروفانس الذي كان على عداء مع الفاطميين.

غير أن تحول السياسة الفاطمية من المغرب إلى المشرق، وهو المجال الطبيعي للطموحات الفاطمية، حيث الخلافة العباسية السنية في بغداد، وبخاصة بعد ضم مصر، أنقذ الطرفين من صراع دموي طويل.

ب– العلاقات مع الممالك الإسبانية في الشمال:

عندما اعتلى عبد الرحمن الناصر الحكم في قرطبة وجد نفسه أمام تحالف إسباني قوي ضم سانشو الأول ملك نافارا وآردونيو الثاني ملك ليون وقشتالة، وكلاهما تجسدت فيه آمال الإسبان للتخلص من الحكم الإسلامي، واستغل آردونيو الثاني حالة التفكك التي كانت تمر بها الأندلس واحتل بعض المدن والأراضي الإسلامية، مثل مدينة يابرة الواقعة غربي الأندلس، فخربها وقتل حاكمها مروان بن عبد الملك[387].

ولعل أخطر العمليات العسكرية التي قام بها تلك التي استهدفت مدينة ماردة في عام (305هـ = 917م)، فقد استولى عليها، ودمر الجيش الأموي بقيادة أحمد بن أبي عبيدة، و لم يكن باستطاعة الناصر تجاهل هذا النشاط الإسباني الواسع ضد أراضيه، وتجسد تصميمه على توجيه ضربة انتقامية للملك الليوني في عمق بلاده، وخاض من أجل ذلك حروباً طويلة من عام (308هـ = 920م) وأحرز عدة انتصارات، واستعاد عدداً من المواقع المهمة لاسيما آوسما وتطيلة[388]، غير أن راميرو الثاني خليفة

آردينو الثاني، الذي اتصف بالنزعة الصليبية، أنزل به هزيمة في معركة جرت عند خندق مدينة شمنقة في (327هـ = 939م).

لم تحدث هذه المعركة أي تغيير في وضع الأراضي، كما أن استئناف العمليات العسكرية التقليدية من جانب الخلافة ضد ممالك الشمال في أعقاب الهزيمة، كان كافياً لردع أية محاولة توسعية من جانب الإسبان.

ثم ساد الهدوء هذه الجبهة في أعقاب النزاع الداخلي الذي نشب بعد وفاة راميرو الثاني، بين ولديه آردونيو وسانشو، وقد فاز هذا الأخير بالحكم بمساعدة الخليفة الأندلسي، الذي أضحى آنذاك أقوى شخصيات العصر[389].

ج- العلاقات مع الدول الأوربية:

إن أهم الدول التي أنشأت الخلافة الأموية في الأندلس علاقات معها هي كل من الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الكارولنجية، بفعل الانسجام الذي فرضته تطورات الأحداث والظروف المتشابهة[390]، وما تعرضت له الدولة البيزنطية آنذاك من هجمات المسلمين في الشرق، وما كان من نزاع وتنافس ديني وسياسي بين الأمويين في الأندلس من جهة، وبين الفاطميين والعباسيين من جهة أخرى، أدى إلى التقارب بين قرطبة والقسطنطينية، فتبادل العاملان عبد الرحمن الناصر وقسطنطين السابع السفارات في عام (334هـ = 946م) وفي عام (338هـ = 949م)[391]. ولعل الإمبراطور البيزنطي ابتغى من وراء هذا التقارب الحصول على مساعدة الخليفة الأموي في إعداد حملة كبيرة ضد جزيرة كريت، أو ضمان حياده على الأقل، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان قسطنطين السابع شغوفاً بالعلم والتاريخ والفنون، فانتعشت الحركة العلمية في عهده، ويبدو أن اتصالاته بالخلافة الأموية في الأندلس قد تمت ضمن هذا الإطار الثقافي، وتستوقفنا هديته للخليفة وهي عبارة عن كتابين نفيسين في علم النبات والآخر في السيرة وأخبار الملوك الأقدمين[392]. أما فيما يتعلق بالعلاقات السياسية التي جمعت عبد الرحمن الناصر وأوتو الكبير ملك الدولة

الكارولنجية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، فيبدو أنها جاءت نتيجة للغارات البحرية التي كان يشنها الربابنة الأندلسيون على سواحل بلاده الجنوبية، فحمّل أوتو الكبير عبد الرحمن الناصر مسؤولية هذه الأعمال، وأرسل إليه في عام (339هـ = 950م) رسالة احتجاج رد عليها الناصر برسالة مماثلة، وبعد أعوام قليلة، أي في عام (342هـ = 953م)، أرسل أوتو الكبير رسالة أخرى إلى الناصر حملها إليه الأسقف جان دي جوزر، وعلى الرغم من شدة لهجة الرسالة التي تضمنت تجريحاً بحق النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ورفض الخليفة استلامها، وعصبية الأسقف، فقد أحاطه الخليفة بالتكريم، وأنزله في مقر قريب من إحدى الكنائس. وحتى يتيقن أن مضمون الرسالة يمثل وجهة النظر الرسمية للدولة الكارولنجية، أرسل الخليفة رسولاً إلى فرانكفورت هو المستعرب رثموندو، حيث اجتمع بأوتو الكبير، وبدد بحنكته سوء التفاهم الذي غمر العلاقات بين الدولتين، ولما عاد إلى قرطبة أرسل معه مبعوثاً من قبله، استقبله الخليفة ورحب به. وبناء على تعليمات الإمبراطور تخلى الأسقف عن إصراره على تقديم الرسالة التي يحملها[393].

2- الحكم الثاني «المستنصر بالله» (350-366هـ = 961-977م):

وصل المستنصر إلى الحكم ولديه تجربة في الشؤون الإدارية والعسكرية اكتسبها نتيجة مصاحبة والده، ولكن دوره اقتصر على المحافظة على مكتسبات والده في الداخل، وحمايتها من غارات الإسبان في الخارج، فقد ظهر قوياً حازماً حكيماً، عالماً أديباً، ولكن طغت على شهرته صفاته: عالماً أديباً جماعاً للكتب النفيسة، وكان يقضي الساعات الطوال في المكتبة بين المخطوطات، إلا أنه لم يكن أسير هذا الفهم الثقافي والرغبة في الوصول إلى المعرفة، وإنما كان يجد في الوقت متسعاً للقيام بأعباء الدولة ومعالجة شؤونها.

– الأوضاع الخارجية:

أ– العلاقة مع الممالك الإسبانية في الشمال:

يبدو أن أمراء الممالك الإسبانية في الشمال سئموا من تدخل الناصر في شؤونهم الداخلية، وهيمنته عليهم، كما لم يكونوا مخلصين فيما ارتبطوا به معه من عهود ومواثيق، فساءت العلاقات بينهم وبين المستنصر وخرق سانشو ملك ليون، الذي كان الناصر قد ساعده على استرداد ملكه لقاء تنازله عن بعض الحصون، عقد الهدنة، لكنه لم يذهب أبعد من ذلك في محاربة أعدائه الأمويين لأن الظروف لم تكن في صالحه، ذلك أن منافسه آردونيو المخلوع وفد على قرطبة يلتمس المساعدة لاسترداد عرشه، ويعلن خضوعه للخليفة[394]. ولما علم سانشو بالأمر خشي عاقبة عمله، لذلك أسرع إلى تصحيح موقفه بتنفيذ شروط الاتفاق المذكور، فأرسل وفداً إلى الخليفة الراحل، لكن وفاة آردونيو المفاجئة أوقفت إجراءات التنفيذ، و لم تكن النتيجة في مصلحة السلام والعلاقات الودية لأن الإسبان شعروا بخطورة الوضع، وعقدوا حلفاً لمواجهة المسلمين مؤلفاً من سانشو ملك ليون وخصمه الكونت فرديناند أمير قشتالة، وغرسيه سانشيز ملك نافارا وكونت برشلونة.

ويبدو أن طموح الحلفاء قد تعثر أمام المبادرة السريعة التي اتخذها المستنصر بإعلانه التعبئة العامة، ومهاجمته قشتالة حيث انتصر على أميرها في عام (352هـ = 963م) وأجبره على الرضوخ لشروطه واحترام سلامة الحدود، كما انتصر على قوات كل من نافارا وليون، وانتزع من أميريهما بعض الحصون[395]. وهكذا استطاع المستنصر مداهمة الإسبان في عمليات متلاحقة وسريعة منعتهم من اتخاذ أية مبادرة هجومية ضد مواقع المسلمين.

ب– العلاقة مع البربر في المغرب الأقصى:

تابع المستنصر سياسة أبيه الناصر تجاه بلدان شمالي إفريقية من دون أي تعديل، ورأى، كوالده، أن الوجود الفاطمي على سواحل المغرب الأقصى المقابلة للأندلس لا

يمكن إلا أن يشكل تهديداً لسلامة الخلافة الأموية في الأندلس، فكان يرسل الرسل والجواسيس ينتشرون بين قبائل البربر لاستقطابهم، و لم يجد صعوبة بما بذل من مال في استمالة بني مغراوة من قبائل زناته، واستغل المستنصر ولاء زناته لتحقيق هدفين:

الأول: الاحتفاظ بالمواقع العسكرية التي كانت تحت سيطرة الأمويين على ساحل المغرب الأقصى، مثل طنجة وسبته ومليلة.

الثاني: إضعاف الحكم الفاطمي في هذه المنطقة بتحقيق التوازن في ميزان الصراع القبلي، إلا أن تحولاً سياسياً طرأ على سياسة الفاطميين آنذاك، بالالتفات نحو المشرق، و لم يعد لهم في شمال إفريقية ذلك الطابع العسكري المهدد لكيان الأمويين في الأندلس.

ونتيجة لهذه المتغيرات السياسية اتخذ الصراع في المغرب بعداً داخلياً، فتمركزت قبائل صنهاجة في المغربين الأدنى والأوسط، وأهملت شؤون المغرب الأقصى، مما أتاح لسكانه من الأدارسة والزناتيين فرصة للتحرر من سيطرة الأمويين، وفي المقابل وجد المستنصر في ابتعاد صنهاجة عن المغرب الأقصى فرصة لتأكيد نفوذه في هذا الإقليم، فعمل على التوسع شرقاً انطلاقاً من سبته وطنجة باتجاه مليلة ومناطق أخرى في الداخل، وكان رد الأدارسة والزناتيين عنيفاً، فقد قاموا بثورة في عام (361هـ = 972م) بقيادة الحسن بن كنون، وسيطر الأدارسة على تطوان وطنجة وآصيلا، وهي مواقع مهمة[396]، وشعر المستنصر بخطورة هذه التطورات، فصمم على اتخاذ موقف حازم يقضي على الثورة، ويؤكد نفوذه الدائم هناك، ونجح قائده غالب بن عبد الرحمن في تصفية المقاومة الإدريسية، وإعادة السلطة الأموية المطلقة، واستسلم الزعيم الإدريسي في (شهر جمادى الأخرة عام 363هـ = شهر آذار عام 974م)[397].

توفي الحكم الثاني المستنصر في (3 رمضان 366هـ = 25 نيسان 977م)[398].

أواخر أيام الخلافة الأموية في الأندلس
(366-422هـ = 977-1031م)

1- محمد بن أبي عامر «المنصور»:

- الصراع الداخلي على السلطة:

نشأ بعد وفاة المستنصر صراع خطير على السلطة تمثل في اتجاهين:

الأول: يرفض تعيين الخليفة الطفل هشام بن الحكم، البالغ من العمر عشر سنوات، متذرعاً بصغر سنه، وعجزه عن القيام بمهمام الحكم، وكان والده قد اختاره ولياً لعهده. وتألف هذا الفريق من العسكريين الصقالبة، وعلى رأسهم فائق وجوزر، خادما الخليفة، ورشح أفراده المغيرة بن عبد الرحمن، عم هشام.

الثاني: ساند ترشيح هشام، حيث رأى أفراده في تنصيبه ضماناً لاستمرار مصالحهم في الحكم، وتشكل هذا الفريق من السياسيين أصحاب الطموح وعلى رأسهم الوزير جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر المعافري، وغيرهما من كبار موظفي القصر.

والواقع أن قوة القصر المتمثلة بـــ«صبح» جارية المستنصر ووالدة هشام، وهي من البشكنس، رجحت كفة الفريق الثاني.

وبرز في هذا الصراع محمد بن أبي عامر الذي نجح في التخلص من أعدائه من الفريق الأول، ومن حلفائه في الفريق الثاني، وأضحى القوة الوحيدة في البلاد، فاستلم منصب الحجابة، واستبد بأمور الدولة، وانفرد بها، وحجب هشاماً عن الحياة العامة، وتلقب بـــ«المنصور»، وهذه أهم أعماله:

- اهتمام محمد بن أبي عامر بتقوية الجيش:

بعد أن قضى على منافسيه وجّه اهتمامه إلى تنظيم الجيش، وعهد إلى صديقه جعفر بن علي بن حمدون الملقب بالأندلسي الإشراف على ذلك، فاعتمد على العناصر المغربية المدربة والمحترفة، وترك الخيار للمتطوعين. وحتى يبتعد عن أجواء

العاصمة مع ما يمكن أن يسببه أنصار خصومه وأقاربهم له، بنى مدينة الزاهرة في شرق قرطبة، وبنى فيها القصر الملكي، والمسجد، ودواوين الإدارة، ومراكز الحرس، ومخازن السلاح، وانتقل إليها في عام (370هـ = 980م)، وحلت محل مدينة الزهراء[399].

– العلاقات الخارجية:

أ– العلاقة مع الممالك الإسبانية في الشمال:

اهتم محمد بن أبي عامر بالحركة الجهادية ضد الممالك الإسبانية في الشمال بهدف إخضاعها لسلطان الخلافة، وكانت سياسة الجهاد عنده منسجمة إلى حد كبير مع المراحل التي قطعها لبلوغ قمة السلطة، فاتخذها طريقاً للقضاء على خصومه، واكتساب ثقة الشعب، بالإضافة إلى النزعة التقليدية العامة بحماية الدولة من أعدائها المتربصين بها، واتسمت حركته الجهادية بالطابع الهجومي، وقد كفلت له النصر على أعدائه في كل المعارك التي خاضها ضد ممالك ليون وقشتالة ونافارا، وقد زادت على الخمسين[400]، لكن كفاحه الجهادي لم يغير بشكل جذري الوضع الجغرافي للأراضي، إنما نتج عنه كثرة السبي.

ب– العلاقة مع دول المغرب الأقصى:

تعد سياسة محمد بن أبي عامر في المغرب الأقصى، استمراراً للسياسة الأندلسية العامة، وتمثل في مضمونها صراعاً سياسياً ومذهبياً ضد القوى العلوية من الفاطميين والأدارسة، وقد أصاب نجاحاً في هذه المنطقة بفضل تحالفه مع قبيلة زناتة، وقضى على القوة الزيرية المدعومة من بقايا الأدارسة، بزعامة الحسن بن كنون، والتي دفعها الأمير الفاطمي العزيز لاستعادة نفوذ الفاطميين في المغرب الأقصى[401]، مما أبقى السيادة الأموية على المغرب الأقصى قوية ونافذة حتى أواخر أيام العامريين، وتوفي محمد بن أبي عامر في مدينة سالم أثناء عودته من غزوة لإقليم قشتالة في (شهر رمضان عام 392هـ = شهر تموز عام 1002م)، إلا أن جهوده أفرزت في النهاية حكما وراثياً، فخلفه ابنه الأكبر عبد الملك المظفر، وأصدر الخليفة كتاباً بتوليته الحجابة.

2- عبد الملك بن محمد بن أبي عامر المنصور «المظفر»:

بدأ عبد الملك، الذي تلقب بالمظفر، حكمه بتنفيذ إصلاحات مهمة، وسلك نهج والده بمتابعة الجهاد ضد الإسبان في الشمال، والواقع أنه لم يكن بعيداً عن جو الصدام، كما اكتسب مهارة قيادية عسكرية ومدنية من خلال ملازمته والده لذلك ارتبط عهده بالسياسة الجهادية ضد الإسبان. وكانت فاتحة أعماله العسكرية اصطدامه بحاكم برشلونة، أول الخارجين على الحكم الإسلامي وإجباره على طلب الصلح[402]، ثم كانت الغزوة الثانية في عام (369هـ = 1004م) ضد قشتالة، فاجتاح أراضيها، وأجبر حاكمها سانشو على طلب الصلح، ووفد سانشو إلى قرطبة حيث أجرى مباحثات مع المظفر وتم الاتفاق بينهما على التعاون ضد مملكة ليون وبني قومس. ويبدو أن حادثة برشلونة أدت إلى تفسخ الجبهة الإسبانية، وبخاصة بعد أن دب الخلاف بين حاكمي قشتالة وجيليقية، فاستغل المظفر هذا الخلاف لإضعاف خصومه، والواقع أنه كان يقوم في كل عام بحملة عسكرية إلى ما وراء الحدود الشمالية، فبلغ عدد حملاته سبعاً، وكان انفراط عقد التحالف الإسباني، وتمزق الجبهة السياسية في مملكة ليون زعيمة التكتل الإسباني، بالإضافة إلى براعة المظفر العسكرية، وجديته في القتال، كلها عوامل ساعدت على الاستقرار الداخلي، ونجاح العامريين في حكم الأندلس.

توفي المظفر في (16 صفر 399هـ = 21تشرين الأول 1008م) وهو في الطريق لتنفيذ إحدى غزواته في الشمال، وخلفه أخوه عبد الرحمن بن المنصور[403].

3- عبد الرحمن بن المنصور:

أقام عبد الرحمن المنصور علاقة متينة مع الخليفة الذي منحه لقب المأمون ناصر الدولة، وهو من ألقاب الخلافة، وقد أثار ذلك موجة من الاستياء في قرطبة، ويبدو أنه لم يقنع بأن تكون له السلطة التنفيذية المطلقة، وطمع بالخلافة، ومع ذلك فإن عبد الرحمن كان أضعف من أخيه عبد الملك وأقل جدية منه، مغروراً، يميل إلى الاسترخاء

في أجواء الترف، ولقب بـــ«شنجول» وهو اسم الدلع لأحد أخواله، ذلك أن والدته كانت قشتالية أهديت إلى المنصور في إحدى غزواته للشمال[404]، والواقع أن تجميد صلاحيات الخلافة بالحجر على الخليفة لم يؤد بالضرورة إلى إلغاء الدور السياسي للأمويين الذين احتفظوا بمراكز النفوذ، وقد ساءهم تصرف عبد الرحمن المنصور فحاكوا مؤامرة للقضاء على الأسرة العامرية معتمدين على بعض فئات الجيش، وقد ترأسهم أحد أفراد هذه الأسرة ويدعى محمد بن هشام[405]، فاستغلوا خروج عبد الرحمن المنصور للجهاد وانتفضوا على حكمه، وسرعان ما سيطر محمد بن هشام وأنصاره على مؤسسات الحكم، وأحرقوا مدينة الزاهرة مقر الأسرة العامرية، ولما حاول عبد الرحمن المنصور إنقاذ حكمه قُبض عليه وقتل في (شهر رجب عام 399هـــ = شهر آذار عام 1009م).

– المراحل الأخيرة من عهد دولة الخلافة الأموية:

توج محمد بن هشام نفسه خليفة بعد أن أطاح بسلفه هشام المؤيد وذلك في (18 جمادى الأخرة 399هـــ = 5 شباط 1009م)، وتلقب بلقب المهدي، ويبدو أنه استمد قوته من الفئات الشعبية التي ساندته في ثورته.

وبدا لأول وهلة، وكأنه الشخصية المطلوبة في تلك المرحلة لإنقاذ الخلافة الأموية التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، لكن الخليفة الجديد فشل في تحقيق التوازن القبلي والعنصري في البلاد وهي المشكلة التي عانت منها الأندلس منذ الفتح الإسلامي.

وتلاحقت الأحداث بعد ذلك سريعة ومذهلة، ومرت دولة الأمويين في الأندلس بأجواء عاصفة، ومشحونة بالصراعات الدموية بين عناصر الأسرة الحاكمة، حيث اعتلى منصب الخلافة عدد من الخلفاء الذين لم يكن أحد منهم على مستوى الأحداث.

وكانت قرطبة آنذاك مسرحاً للفوضى، وهدفاً لكل طامع في السلطة. وقتل المهدي في (شهر ذي الحجة عام 400هـ = شهر تموز 1010م) على يد هشام المؤيد، واتفق سكان قرطبة، على تجديد البيعة له، عله يعصمهم من تعديات البربر الذين بايعوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، وتلقب بـ«المستعين»[406]، ونجح المستعين بمساعدة البربر في الاستيلاء على قرطبة في (شهر شوال عام 403هـ = شهر أيار عام 1013م) فقتل الخليفة هشام المؤيد، وتلقب بعد ذلك بـ«الظافر بحول الله»، واستقر في مدينة الزهراء، ثم قتل على يد بني حمود، وهم من سلالة الأدارسة، بعد أن سيطروا على قرطبة في (شهر محرم 407هـ = شهر تموز 1016م)، واعتلى علي بن حمود منصب الخلافة تحت اسم الناصر[407]، وتبادل الحموديون والأمويون منصب الخلافة حتى زالت الأسرتان عن مسرح الحياة السياسية، فانقرضت الأسرة الحمودية بوفاة المستعلي في عام (450هـ = 1051م)، وكان القرطبيون قد قرروا إلغاء الخلافة الأموية في أعقاب خلع الخليفة هشام الثالث بن محمد بن عبد الملك في (شهر ذي العقدة عام 422هـ = تشرين الثاني 1031م) والتخلص من الأمويين، ونودي في الأسواق والأرباض أن لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد، وقد تولى نفيهم أبو الحزم بن جهور[408]، وبذلك انتهت دولة الخلافة الأموية في الأندلس، وحكم البلاد رؤوساء الطوائف وأمراء الثغور، وانقسمت إلى دويلات صغيرة متنازعة، وابتدأ نتيجة ذلك عهد جديد هو عهد دول الطوائف.

الفصل الرابع
عهد دول الطوائف وسقوط غرناطة
422-897هـ = 1031-1492م

أولاً- مرحلة ملوك الطوائف: 422-479هـ = 1031-1086م:

انقسمت الأندلس، بعد زوال الخلافة الأموية، إلى طوائف متنازعة يمكن تصنيفها بثلاث:

الأولى: طائفة أهل الأندلس من سكان البلاد الذين استقروا فيها وانصهروا في البوتقة الأندلسية، وأضحوا أندلسيين بغض النظر عن أصلهم العربي أو المغربي أو الصقلبي أو الإسباني النصراني، وقد عرف هؤلاء بأهل الجماعة، وأشهر زعمائهم بنو عبّاد اللخميون في إشبيلية، وبنو هود الجذاميون في الثغر الأعلى، سرقسطة، وبنو صمادح أو بنو تجيب في المرية، وبنو برزال في قرمونة، والعامريون في بلنسية.

الثانية: طائفة المغاربة أو البربر الذين وفدوا حديثاً إلى الأندلس لا سيما الصنهاجيين الذين استقروا بها في أيام المنصور العامري، ومن زعماء هذه الطائفة بنو زيري في غرناطة، وبنو حمود الأدارسة الذين تحدثنا عنهم من قبل.

الثالثة: طائفة كبار الصقالبة الذين استقروا في شرقي الأندلس، نذكر منهم مجاهد العامري الذي استقل في دانية ثم استولى على الجزر الشرقية (البليار) وغزا جزيرة سردينيا، وسواحل إيطاليا، وسيطرت أساطيله على غرب حوض البحر المتوسط.

وحاولت كل طائفة من هذه الطوائف أن تحيط نفسها بسياج روحي لتستمد منه شرعيتها، وذلك بإقامة خليفة في منطقتها.

اختار بنو عباد، أقوى ملوك الطائفة الأولى، شخصاً شبيهاً بالخليفة الأموي هشام المؤيد ويدعى خلفاً الحصري، ونصبّوه خليفة على أنه هشام نفسه بعد أن شكوا

في وفاته[409]، وأسس بنو حمود خلافة علوية مستندين إلى أصلهم الطالبي، ونصّب الصقالبة خليفة قريشياً من أشراف قرطبة ينتسب إلى الأمويين هو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المعيطي، ولقبوه بـــ«المستنصر بالله».

وليس في هذه الأسر واحدة جديرة بالاهتمام، وتستحق وقفة سريعة، غير بني عباد أصحاب إشبيلية، استطاع القاضي محمد بن عباد أن يدافع عن استقلال إمارته أمام أطماع الحموديين وأن يترك لذريته ملكاً بعد أن تغلب على عدد من صغار الأمراء المجاورين، وبخاصة في الغرب مثل باجه.

وخلفه في عام (433هـ = 1042م) ابنه عبّاد. وفي الوقت الذي كان فيه محمد حريصاً على أن يضفي الصفة الشرعية على حكمه عن طريق اعتراف أموي على يد هشام المؤيد الذي شك في وفاته، لاحظ أن ابنه عباد يُقدم على تلقيب نفسه بلقب المعتضد بالله على طريقة الخلفاء. والواقع أنه قضى على خصومه بأسلوب ذكي، ووصلت إشبيلية في عهده إلى درجة عالية من القوة، ومع ذلك فقد اضطر أن يدفع الجزية إلى فرديناند الأول ملك قشتاله في عام (455هـ = 1063م). وتوفي المعتضد في عام (461هـ = 1069م) تاركاً لابنه محمد، الذي خلفه دولة واسعة نسبياً تكاد تشمل القسم الجنوبي الغربي من الأندلس.

تلقب محمد بعدة ألقاب منها الظاهر، المؤيد بالله، المعتمد على الله، وهو اللقب الذي اشتهر به، ونجح في ضم قرطبة إلى إمارته، وكانت الممالك الإسبانية في الشمال قد استغلت سوء أوضاع الأندلس لتوجيه ضربات إلى المسلمين، وطردهم من إسبانيا، مدفوعين بشعور عدائي للإسلام. وقد بدأت هذه الحرب بدافع الدين، واتخذت في بعض مراحلها طابعاً عنصرياً بما سمي بحرب الاسترداد.

والملفت للنظر أن المسلمين الذين تحملوا الشدة نتيجة ضربات الإسبان لم يهتموا بما يجري حولهم، وظلوا منغمسين في نزاعاتهم يحاربون بعضهم بعضاً، ويتحالفون مع هؤلاء بعضهم ضد بعض، ويؤدون لهم الجزية مقابل الاحتفاظ

بحكمهم. ونشطت حرب الاسترداد على يد الملك القشتالي ألفونسو السادس بن فرديناند الأول، الذي كان يرغب باسترداد كامل شبه الجزيرة الإيبيرية، فاحتل طليطلة عام 478هـ = 1085م، واضطهد المسلمين فيها[410]، وخسر المسلمون معقلاً من أهم معاقلهم في الأندلس، وباتوا في حال من الضياع التام، وبدأ بعضهم بالنزوح من المناطق المتاخمة لسيطرة ألفونسو السادس. أحدث سقوط طليطلة دوياً هائلاً في جميع أرجاء العالم النصراني الغربي، إذ استثار شعور الحماسة لطرد المسلمين من إسبانيا. أما في الجانب الإسلامي، فإن ضياع تلك المدينة، هز المسلمين جميعاً في الشرق والغرب، وجعلهم يفكرون بوسيلة فعالة للقضاء على الخطر النصراني من ناحية، واسترداد ما فقدوه من ناحية أخرى.

وشعر الملك القشتالي بأنه يمتلك من القوى ما يستطيع أن يتحدى دول الطوائف جميعاً والقضاء عليها، فشن الغارات على جميع البلاد، ونجح بالاستيلاء على المدن والقرى الواقعة بين وادي الحجارة إلى طلبيرة، وفحص اللجج، وأعمال سنتمرية، ثم ضغط على الدويلات المجاورة له وبخاصة مملكتي بطليموس وإشبيلية، ووصل في توغله إلى جزيرة طريف في أقصى جنوب الأندلس، وأرسل من هذا المكان رسالة تحدي إلى يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في المغرب[411] نتيجة لهذا التحدي السافر. لم يكن باستطاعة زعماء الأندلس المتفرقين الوقوف في وجه ألفونسو السادس، فاستنجدوا بالمرابطين في المغرب وهم أقرب قوة إسلامية يمكنها أن تدفع خطر الإسبان من مسلمي الأندلس.

ثانياً– مرحلة السيطرة المغربية: 479–612هـ = 1086–1215م:

– الممالك الإسبانية:

عندما قدم المرابطون إلى الأندلس لنجدة دول الطوائف، ورد اعتداءات الإسبان، كانت الممالك الإسبانية تتألف من ثلاث ممالك هي:

– مملكة قشتالة، وهي أكبرها رقعة، وأوفرها موارد، وأكثرها قوة، ويعد ملكها ألفونسو السادس عميد الممالك الإسبانية.

– مملكة أراغون.

– إمارة برشلونة أو قطلونيا، وهي أصغر الممالك.

– وكانت مملكة نافارا قد اختفت مؤقتاً عن مسرح الأحداث، بعد أن اقتسم أراضيها كل من ملكي قشتالة ألفونسو السادس، وأراغون، سانشو راميرو، في عام 1076م.

– المرابطون في الأندلس:

1– حملة المرابطين الأولى– معركة الزلاّقة:

في الوقت الذي كان فيه ألفونسو السادس يجوس خلال الديار الأندلسية، مستغلاً ضعف ملوك الطوائف، شعر المعتمد بن عبّاد أن الخطر يتهدده مباشرة، فاتفق مع صاحبي بطليموس وغرناطة، وهما أقرب جيرانه، على إرسال بعثة إلى يوسف بن تاشفين في المغرب تلتمس منه المساعدة العاجلة.

وافق الزعيم المرابطي على تقديم المساعدة المطلوبة واشترط أن يمنح الجزيرة الخضراء لتكون مركز انطلاق لجيوشه، والواقع أنه حرص على امتلاك بعض ثغور الأندلس كي يسيطر على مضيق جبل طارق ويضمن حرية العبور من وإلى الأندلس. واضطر المعتمد إلى تنفيذ طلبه، وأمر ابنه الراضي بإخلائها[412]، عبر يوسف بن تاشفين بجيوشه مضيق جبل طارق ونزل في الجزيرة الخضراء، فنظم شؤونها وحصنها، ثم تابع تقدمه باتجاه إشبيلية، فأقبل عليه المعتمد والأمراء المجاورون مرحبين بقدومه. كان ألفونسو السادس آنذاك يحاصر مدينة سرقسطة[413]، وحينما علم بأنباء الزحف الإسلامي، رفع الحصار عنها وأسرع بجيوشه نحو جيوش المسلمين: المغاربة والأندلسيين.

فالتقى بهم في شمال شرقي بطليموس عند سهل الزلاّقة، وهناك دارت بين الطرفين رحى معركة طاحنة في (شهر رجب عام 479هـ = شهر تشرين الأول عام 1086م)، هزم فيها ألفونسو السادس هزيمة شنعاء وجرح في المعركة، واضطر إلى التراجع باتجاه الشمال مخلياً إقليم بلنسية[414].

والحقيقة أن انتصار المسلمين في الزلاقة أنقذ العالم الإسلامي في الأندلس من السقوط، كما ثبت أقدام المرابطين فيها، وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب دون أن يستثمر انتصاره، وأوصى زعماء البلاد قبل مغادرته بالاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي استغل تمزقهم، وترك لهم ثلاثة آلاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر[415]، ويبدو أن وفاة ابنه أبي بكر الذي استخلفه على سبته، بالإضافة إلى اضطراب الأوضاع على حدوده الشرقية حيث تحالف بنو حماد الصنهاجيين مع عرب بني هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية، كان وراء هذه العودة.

2- حملة المرابطين الثانية – معركة حصن اللّيط:

عاد الأندلسيون إلى سيرتهم الأولى بعد رحيل يوسف بن تاشفين، فاختلفوا فيما بينهم، وضايقوا القوى المغربية التي بقيت في الأندلس لحملها على مغادرة البلاد. وتجاوز الإسبان بعد عام ذيول هزيمتهم في الزلاقة بفعل النجدات التي وفدت عليهم من فرنسا والبابويه، فاستأنفوا عملياتهم العسكرية، واختاروا المناطق الأكثر ضعفاً في شرق الأندلس وهي: بلنسية ومرسية ولورقة والمرية[416]، وعجزت قوة المرابطين عن صدهم أو الوقوف في وجههم، ونظراً لخطورة الوضع، قرر المعتمد الذهاب بنفسه إلى المغرب لطلب المساعدة من يوسف بن تاشفين، فوافق الزعيم المغربي على العبور مرة ثانية إلى الأندلس لإنقاذها من براثن الخطر الإسباني، والسيطرة على ملوك الطوائف، فعبر المضيق في عام (481هـ = 1088م) واستنفر الأندلسيين للجهاد. وهاجم المسلمون حصن الليّط الذي أقامه ألفونسو السادس، بين مرسية ولورقه، بعد معركة

الزلاقة. غير أن تجدد الخلافات بين الأندلسيين وبخاصة بين المعتمد صاحب إشبيلية، والمعتصم صاحب المرية، حال دون فتحه، وعاق يوسف بن تاشفين كثيراً في هذه الخلافات، ففقد ثقته بالأندلسيين، وعاد إلى المغرب في عام 482هـ = 1089م، وأخذ يستعد لتصفية أمراء الأندلس، وضم هذا البلد إلى المغرب.

3- حملة المرابطين الثالثة – ضم الأندلس إلى المغرب:

عبر يوسف بن تاشفين المضيق للمرة الثالثة في عام (483هـ = 1090م) دون طلب استغاثة، فسار مباشرة إلى طليطلة مجتاحاً أراضي قشتالة، لكنه فشل في اقتحامها، ولم يتقدم أحد من الزعماء الأندلسيين لمساعدته[417]، ثم يمم وجهه شطر غرناطة وبها الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن زيري الصنهاجي، فدخلها بعد حصار واستولى على كورها، كما ضم مالقة[418]، وقاومه المعتمد بن عبّاد، عندئذٍ رأى يوسف أنه من الأفضل تكليف قادته باستكمال ضم الأندلس، في حين يراقب هو الوضع العسكري من المغرب، وبناء على ذلك فوض جميع الأمور السياسية والعسكرية إلى قائده سير بن أبي بكر، وطلب منه ضم إشبيلية وبطليموس، وكلف ثلاثة من قادته الآخرين بمهاجمة قرطبة والمرية ورُندة، ثم عاد إلى المغرب واستقر في سبته ليراقب نتائج أعمال هؤلاء القادة، نجح القادة الأربعة في تحقيق إنجازات مهمة كانت لصالح المرابطين، فسقطت قرطبة بيد أبي عبد الله بن محمد الحاج في عام 484هـ = 1091م، وقتل حاكمها الفتح بن المعتمد، كما استولى المرابطون على كورها وخضعت للقائد سير ابن أبي بكر أكثر حصون المعتمد، وتفرغ بعد ذلك لانتزاع إشبيلية، تجاه هذه المتغيرات السياسية والعسكرية، وجد المعتمد نفسه في موقف حرج، فاستنجد بألفونسو السادس، إذ أضحى الأمل الوحيد له للبقاء في الحكم. والواقع أن الزعيم القشتالي وجدها فرصة سانحة للثأر من المرابطين، لكن المساعدة العسكرية التي دفع بها إلى ميدان القتال لقيت هزيمة قاسية في معركة جرت على مقربة من حصن المدور[419]، وتبخرت آمال المعتمد على المساعدة الإسبانية،

فقرر عندئذٍ الاعتماد على نفسه مع يقينه بأن المعركة خاسرة، وتعّرض في هذا الوقت العصيب لخطة سياسية داخلية تمثلت بثورة العامة داخل إشبيلية، وحاول الثوار فتح باب المدينة للمرابطين، لكن المحاولة فشلت، غير أن هؤلاء تمكنوا من دخول المدينة في (22 رجب عام 484هـ = 13 أيلول عام 1091م) واستسلم لهم المعتمد بن عبّاد[420].

وهكذا سقطت دولة ابن عبّاد، وانطوت تحت سيادة المرابطين، ونقله هؤلاء إلى المغرب حيث أمر يوسف بن تاشفين بسجنه في أغمات[421]. ولم يكن من العسير على المرابطين أن يضموا باقي أجزاء الأندلس بعد سقوط إشبيلية التي كانت أقوى دول الطوائف ولم ينجح بالاحتفاظ باستقلاله سوى المستعين أحمد بن هود صاحب سرقسطة الذي عرف كيف يكسب رضا المرابطين. والواقع أن إمارته كانت بمثابة شوكة في خاصرة الإسبان الشماليين، ويبدو أن يوسف بن تاشفين أدرك مدى أهميتها العسكرية كخط دفاع أول أمام الإسبان، وفي تكوين جبهة قوية للوقوف في وجههم، لذلك بقيت سرقسطة الإمارة الوحيدة التي لم يضمها المرابطون، وعبر يوسف بن تاشفين في عام 496هـ = 1102م إلى الأندلس لتنظيم شؤونها الإدارية، وأضحى هذان البلدان، المغرب والأندلس، يشكلان دولة واحدة عاصمتها مدينة مراكش التي بناها يوسف بن تاشفين. وتوفي يوسف بن تاشفين في (شهر محرم عام 500هـ = شهر أيلول عام 1106م) تاركاً لابنه أبي الحسن علي أقوى دولة عرفها الغرب الإسلامي حتى ذلك الحين.

4- نهاية المرابطين في الأندلس:

يبدو أن التنظيم الداخلي لدولة المرابطين المترامية الأطراف كان مزعزعاً، وشابه الفوضى والاضطراب. ولم يلبث علي أن انصرف إلى القضايا الدينية، وتمتع رجال الدين في عهده بنفوذ واسع، فكانوا شديدي الوطأ على النصارى المعاهدين الذين مثّلوا خطراً حقيقياً على الدولة، إذ كانوا ينتهزون الفرص للاتصال بالإسبان والتنسيق

معهم لحرب المسلمين، ورحبوا بالهجمات المتكررة التي كان يشنها أمراء الشمال، والتي نتج عنها سقوط طليطلة وسرقسطة في أيديهم.

أعطت هذه الانتصارات دفعاً قوياً، جعلت النصارى يواصلون حرب الاسترداد، ويحققون أهدافهم رويداً رويداً، بينما انهمك المسلمون في نزاعات داخلية، وتوالى سقوط ما تبقى من قواعد الثغر الأعلى، وتضاءلت تدريجياً هيبة المرابطين، وفقدوا ما كان لهم من شعبية في أوساط العامة، وانقسمت الأندلس مجدداً إلى دويلات طوائفية متنازعة، كانت عاجزة عن مواجهة الخطر الإسباني المتزايد. وكان الموحدون بزعامة عبد المؤمن بن علي قد ورثوا المرابطين بعد أن قضوا على دولتهم في المغرب، ووجهوا اهتمامهم نحو الأندلس التي عمتها الثورات.

– الموحدون في الأندلس:

قام الثوار في مختلف المدن بالاتصال بالموحدين ودعوهم إلى دخول الأندلس، وفعلاً أرسل الخليفة عبد المؤمن الموحدي جيشاً سيطر على غرب البلاد، وانتزع إشبيلية في (شهر شعبان عام 541هـ = شهر كانون الثاني عام 1147م) وقرطبة في (شهر شعبان عام 543هـ = شهر كانون الأول عام 1148م)، وجيان ومالقة في عام (547هـ = 1152م)، وصمدت غرناطة مدة سبع سنوات قبل أن تسقط في عام (551هـ = 1156م)، كما تمكن من وقف الزحف القشتالي عند قرطبة[422].

توفي الخليفة عبد المؤمن في (20 جمادى الآخرة عام 558هـ = 25أيار عام 1163م) وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف، الذي أتم إخضاع الأندلس، ليُقتل بعدئذٍ أثناء حصار شنترين في معركة ضد الأمير البرتغالي سانشو وذلك في (شهر رجب عام 580هـ = شهر تشرين الأول عام 1184م) وخلفه ابنه يعقوب الذي تلقب بالمنصور[423]، واستغل البرتغاليون انتصارهم في شنترين، فهاجموا غربي الأندلس، فاضطر الخليفة للعبور إلى الأندلس في (شهر ربيع الأول عام 585هـ = شهر نيسان

عام 1189م) وسار إلى شنترين وإشبونه ليثأر لوالده، واجتاح المنطقة، ودمر كثيراً من مدنها وقراها، ثم عاد إلى المغرب، ثم عبر مرة أخرى وانتصر على جيش قشتالي عند حصن الآرك بقيادة ألفونسو الثامن في (شهر شعبان عام 591هـ = شهر تموز عام 1195م)[424]، وهاجم أراضي قشتالة في عام (593هـ = 1197م) وتوغل فيها يدمر القوى ويحرق المزارع لإرهاب العدو، وحاصر طليطلة، ثم عاد إلى قرطبة ومنها إلى إشبيلية، ونظم يعقوب شؤون الأندلس، فعين الولاة، وحصن الثغور والقواعد وشحنها بالحاميات، ووفدت عليه رسل ملك قشتالة طالبين الهدنة، فاستجاب لهم بشروطه وفق شريعة الإسلام وتقررت الهدنة لمدة عشر سنوات. ثم غادر إشبيلية في (شهر جمادى الأولى عام 594هـ = شهر آذار عام 1198م) عائداً إلى مراكش، وتوفي في العام التالي، وخلفه ابنه محمد الناصر، وما لبثت دولة الموحدين، التي دانت لها الأمور في الأندلس وإفريقية حتى حدود مصر، أن أصابها الانحلال في ظل حكام ضعاف، إذ لم يكد محمد الناصر يعتلي سدة الخلافة حتى واجهته الثورات وبخاصة في إفريقية، ومع أنه نجح في القضاء عليها إلا أنه عجز عن الصمود في وجه الإسبان في الأندلس، فقد شن ألفونسو الثامن ملك قشتالة في (شهر صفر عام 609هـ = شهر تموز 1212م) هجوماً على الأراضي الإسلامية ليثأر لهزيمته في الأرك، واجتياح الخليفة المنصور لأراضيه من قبل والعبث فيها، وأنزل بقوات الخليفة هزيمة منكرة عند حصن العقاب، وتكبد المسلمون خسائر فادحة جداً[425]، وكانت نتائجها حاسمة بالنسبة للأندلس التي أخذت بالتداعي لتسقط في أيدي الإسبان تباعاً.

عاد محمد الناصر بعد المعركة إلى إشبيلية، ثم عبر إلى مراكش حيث توفي في عام 610هـ = 1214م، مغموماً بنكبة العقاب، وخلف يوسف المستنصر بالله والده، وهو في السادسة عشرة من عمره، فنظم شؤون الأندلس وعين عليها الولاة، لكن النكبات توالت على هذا البلد بعد معركة العقاب، في ظل تخاذل زعماء البلاد وعجزهم عن رد الاعتداءات الإسبانية، وكان قصر أبي دانس من أهم المواقع التي

سقطت في يد الإسبان بعد معركة فاصلة جرت في عام 614هـ = 1217م[426]، تلا ذلك سقوط قاصرش، شمالي ماردة في يد ملك البرتغال في عام 620هـ = 1223م، وتوفي الخليفة المستنصر في 620هـ = 1224م دون وريث، فبايع الموحدون محمد عبد الواحد ابن الخليفة يوسف المنصور، ولكن نافسه على الزعامة عبد الله بن يعقوب والي مرسيه وأعلن نفسه خليفة وتلقب بلقب العادل، وذلك في (شهر صفر عام 621هـ = شهر آذار عام 1224م)، وبايعه ولاة الأندلس، وكانوا إخوته.[427]

عين العادل أخاه أبا العلاء إدريس والياً على إشبيلية، وسرعان ما نبذ هذا الوالي طاعة أخيه ودعا لنفسه وتلقب بلقب المأمون، ثم ثار الموحدون على العادل وقتلوه، وعينوا مكانه يحيى ابن أخيه محمد الناصر وذلك في عام (624هـ = 1227م)، فلجأ المأمون إلى فرديناند الثالث ملك قشتالة ملتمساً مساعدته لقاء دفع مبلغ كبير من المال. ومنح النصارى امتيازات خاصة، فأمده بقوة عسكرية عبرت معه إلى المغرب، واصطدم بالخليفة يحيى وهزمه ثم توفي في عام (629هـ = 1232م)، فخلفه ابنه عبد الواحد وتلقب بـ الرشيد[428]، نتيجة هذا الصراع الداخلي بين صفوف الموحدين، انهار حكمهم في الأندلس وبرز في هذا الصراع زعيم أندلسي هو محمد بن يوسف بن هود، من أحفاد حكام سرقسطة، فاستغل الأوضاع المتردية وهاجم مدينة مرسية وانتزعها من حاكمها الموحدي أبي العباس، ودخلت في طاعته جيان وقرطبة وماردة وبطليموس وغرناطة، وانضمت إشبيلية إلى حركته وتلقب بلقب المتوكل على الله، وبذلك يكون قد وحد أهم المدن الأندلسية تحت رايته، تصدى محمد بن يوسف بن هود لهجمات الإسبان، لكنه جوبه باتحاد قشتالة مع ليون بعد وفاة ألفونسو الثامن، واستأنف الإسبان هجماتهم على المسلمين، فسقطت ماردة وبطليموس على يد ألفونسو التاسع ملك ليون وجيليقية، وانهزم المتوكل في منطقة فحص شريش أمام فرديناند الثالث ملك قشتالة وسقطت المدينة في عام (631هـ =

1234م)[429]. سار محمد بن يوسف بن هود، بعد انهزامه في فحص شريش، إلى نواحي غرناطة لقتال منافسه محمد بن الأحمر، فاستغل القشتاليون هذه الفرصة وانقضوا على قرطبة التي كانت تعاني من الفوضى والاضطراب، ودخلوها عام 633هـ = 1236م. وتوفي ابن هود بعد ذلك في ثغر المرية عام 635هـ = 1238م، ثم سقطت مرسية في يد فرديناند الثالث في عام 640هـ = 1243م[430]. في هذه الظروف التي كانت فيها المدن المهمة في الأندلس تسقط في أيدي الإسبان، قامت دولة عربية في جنوب الأندلس تولت قيادة الجهاد الإسلامي مدة قرنين ونصف من الزمن، تلك هي مملكة غرناطة.

ثالثاً – مرحلة حكم بني نصر أو بني الأحمر (612–897هـ = 1215–1492م):

في الوقت الذي أخذت فيه مدن الأندلس الكبرى تسقط تباعاً في أيدي الإسبان، وتعرضت البلاد لخطر الزوال، هيأت الظروف الداخلية والخارجية لقيام مملكة إسلامية جديدة في جنوبي الأندلس هي مملكة غرناطة، أسسها محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي، المعروف بابن الأحمر، نظراً لنضارة وجهه واحمرار شعره على الأرجح.

عمرت هذه المملكة مدة قرنين ونصف على الرغم من صغر حجمها الجغرافي وقلة عدد سكانها، وحافظت على ما بقي للمسلمين من سلطان سياسي وترات حضاري، ولا شك بأنه كان لهذا الصمود، طوال تلك المدة، أسباب لعل أهمها:

– بعد مملكة غرناطة عن متناول أيدي الممالك الإسبانية، فهي محصورة في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الإيبيرية فيما وراء نهر الوادي الكبير، آخر الحواجز الطبيعية بين الأندلس والممالك الإسبانية.

– سهل موقع المملكة عليها الاتصال بالمغرب طالبة العون من الدول المغربية كلما اشتد عليها الضغط الإسباني، وكانت الدولة المرينية في المغرب السند الرئيسي لها.

– دربت مملكة غرناطة سكانها على حمل السلاح واستعماله، والاستعداد الدائم لملاقاة العدو[431]، وأضيفت إلى هذه القوة، قوة الوافدين إليها، وهم المسلمون الفارون أمام هجمات الإسبان، والمعروف أن غرناطة كانت ملاذاً لهؤلاء بعد سقوط المدن في أيدي الإسبان، يلتجئون إليها ويحتمون بها، كان بينهم المقاتلة والعلماء وقد صمموا على الصمود والتضحية.

– عامل الجهاد الذي التزم به سكان هذه المملكة إذ إن الالتزام بالإسلام والمعاني الإسلامية التي بقيت في نفوس الناس، وهبت الحياة لهذه المعاني، وهي التي جمعت هذه الطاقات ودفعتها للوقوف مجتمعة والاستعداد للبذل، كما كانت العامل وراء وقوف بني مرين مع إخوانهم، ثم الانتفاع بكل الإمكانات الأخرى ضمن الظروف المتاحة[432].

برز محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الخزرجي، على مسرح الحياة السياسية في غمرة الصراع الإسلامي – الإسباني في الأندلس، وأصل هذه الأسرة من أرغونة، فالتف حوله الأتباع في أرغونة والمناطق المجاورة، ودخلت جيان وبسطة ووادي آش والحصون القريبة في طاعته، وانضم إلى جيشه كثير من المسلمين الذين غادروا المناطق التي استولى عليها الإسبان، فاستطاع تجهيز جيش كبير ساعده على تنفيذ مشاريعه[433]، توجه محمد بن الأحمر بهذا الجيش إلى المناطق الجنوبية البعيدة عن هجمات الإسبان، وضم المناطق التي كانت تحت سيطرة ابن هود، وبعد وفاة هذا الأخير أعلن أشراف غرناطة ولاءهم له، ونبذوا طاعة عتبة بن يحيى المغيلي والي ابن هود، ثم استدعوه إلى مدينتهم، فسار إليها وتسلم حكمها في (شهر رمضان عام 635هـ = شهر نيسان عام 1238م)، فأضحت منذ ذلك الوقت قاعدة لحكمه،

وهكذا قامت مملكة غرناطة، نتيجة الفوضى التي سادت الأندلس في الداخل، واعتداءات الإسبان في الخارج، وأضحى محمد بن الأحمر أمل الأندلسيين في إنقاذ بلادهم من الوضع المتردي الذي وصلت إليه.

عمل محمد بن الأحمر على حماية ما تبقى من الأراضي الأندلسية من اعتداءات الإسبان، إلا أنه اضطر بعد اصطدامات مع فرديناند الثالث ملك قشتالة أن يهادنه، عندما رأى أنه لا طاقة له بالاستمرار في الحرب بفعل تفوق الإسبان عليه، وضحى باستقلاله السياسي لقاء الاحتفاظ بأراضيه. وتم الاتفاق بين العاملين على أن:

- يحكم محمد بن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة.
- يؤدي ضريبة سنوية مقدارها 150 ألف قطعة ذهبية.
- يتنازل عن عدد من الحصون.
- يساعد الملك القشتالي في حربه ضد أعدائه من المسلمين.
- يحضر ابن الأحمر اجتماعات قشتالة النيابية بصفته تابعاً للعرش القشتالي[434].

وتأهب فرديناند عقب توقيع المعاهدة لمهاجمة إشبيلية، وبدأ باحتلال حصونها الأمامية، ثم ضرب الحصار عليها، وأرسل إليه محمد بن الأحمر قوة من الفرسان للمساعدة في عملية الحصار بصفته تابعاً له، دون تبصر بما قد ينتج عن هذه المساعدة، لأن الملك القشتالي لا بد أن يرتد على تابعه ابن الأحمر بعد تصفية جيوب المقاومة الأندلسية، وهكذا دفعت النزاعات الداخلية، وأطماع الأمراء لارتكاب فعل الخيانة، وهذه ظاهرة تفشت في الإمارات الأندلسية بعد سقوط الخلافة الأموية، واستسلمت إشبيلية بعد سنة ونصف من الحصار الشديد، وبعد مقاومة شجاعة، فدخلها فرديناند الثالث في عام (646هـ = 1248م)[435]، وأزال معالمها الإسلامية وحول مسجدها إلى كنيسة، وتفرق سكانها على المدن الإسلامية الأخرى لا سيما غرناطة،

وتلا سقوط إشبيلية، سقوط المناطق المجاورة لها، انتظر الأندلسيون مساعدة المغرب، حيث كانت أنظار الأندلسيين تتطلع دائماً نحو المغرب أثناء الشدائد.

وفعلاً تحرك بنو مرين حكام مراكش بناءً على نداءات الاستغاثة الأندلسية ودفعوا بجيش قوامه ثلاثة آلاف جندي، عدا المتطوعين، بقيادة محمد بن إدريس المريني، وأخيه الفارس عامر، عبر المضيق إلى الأندلس، وعند وصول هذه القوة، خشي ابن الأحمر عاقبة أفعاله، فبدل موقفه، وتحول إلى مهاجم للإسبان، وهزمهم في عام (662هـ = 1264م) بمساعدة القوة المغربية، خشي ألفونسو العاشر ملك قشتالة من هذه القوة الإسلامية، فتحرك على وجه السرعة للاستيلاء على ما تبقى من القواعد الأندلسية، فانتزع مدينة أستجة في عام (662هـ = 1264م)، وهاجم غرناطة نفسها، واضطر محمد بن الأحمر إلى مهادنته، وتنازل له عن بعض الحصون في غربي الأندلس[436].

لم يبق بيد الأندلسيين بعد حروب الاسترداد الإسبانية سوى رقعة ضيقة حول غرناطة، وتوفي محمد بن يوسف في عام (671هـ = 1273م)، وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بـ الفقيه لعلمه. وسعى محمد هذا إلى التخلص من التزاماته الإقطاعية عن طريق التعاون مع بني مرين في مراكش[437]، والواقع أن سلطان المغرب أبا يوسف يعقوب لم يتردد في تلبية نداء الاستغاثة والتدخل في شؤون الأندلس بعد أن تنازل له محمد عن الجزيرة الخضراء وجزيرة طريف، فعبرت جيوشه إلى هذه البلاد أربع مرات، ومع أنه استطاع أن ينتصر على الإسبان، فقد عجز عن إحداث أي تغيير في وضع الأراضي.

وسرعان ما أضحى الجنود المغاربة الذين تكفل بنو الأحمر بالإنفاق عليهم، عبئاً ثقيلاً على البلاد، وأخذ أبو عبد الله محمد بن الأحمر يرتاب بنوايا السلطان المغربي، ومن هنا سعى إلى الاستنجاد بألفونسو العاشر ضد حليفه المريني.

ونتيجة لسياسة التقلبات السريعة التي نفذها بنو الأحمر، استطاعوا أن يعمّروا مئتين وخمسين سنة، بصفتهم آخر سلالة إسلامية في الأندلس، وانحصروا في الإقليم الضيق الممتد من ساحل جبل طارق حتى المرية، إلى سلسلة جبال رندة، وجبال البيرة في الداخل. وسقطت غرناطة، آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس، بيد فرديناند الخامس ملك قشتالة وإيزابيلا ملكة أراغون، بعد اتحادهما في (شهر ربيع الأول عام 897هـ = شهر كانون الثاني 1492م)، في عهد آخر أمرائها محمد بن علي بن سعد أبو عبد الله[438].

وهكذا دخل الإسبان غرناطة وتوجه الأمير مع أهله إلى أندرش، في جبل البشرات المطل على غرناطة، وقد حددت هذه القرية مكاناً لإقامته تحت إشراف القشتاليين، وهو يذرف دموعه حسرة وألماً على المُلك الضائع، فنظرت إليه والدته عائشة الحرة ونهرته وقالت بيتها الشهير:

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وبسقوط غرناطة انتهت دولة المسلمين في الأندلس.

القسم الثاني
التاريخ العباسي والأندلسي الحضاري

الفصل الأول

المؤسسات العلمية

– نشأة المؤسسات العلمية و أنواعها:

1– المساجد:

المسجد اسم للمكان المهيأ والمعد لإقامة الصلاة وأداء العبادة والفرائض المكتوبة، ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه، اشتُق منه اسم المسجد، فقيل مسجد، و لم يقولوا مركع[439].

وأول مسجد وُضع للناس على هذه الأرض هو المسجد الحرام، وهو الذي في مكة المكرمة، قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً}[440]، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه أبو ذرالغفاري رضي الله عنه، قال: « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وُضع على الأرض، فقال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي، قال: المسجد الأقصى»[441].

وأحب البقاع إلى الله تعالى المساجد، فقد ورد ذلك في حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»[442]، ولذلك كان المسجد حياة رسول

الله صلى الله عليه وسلم، فأول عمل بدأ به حين قدم المدينة كان بناءه لمسجد قباء[443].

والمسجد أول مدرسة في الإسلام، ولم تكن مهمته مقصورة على أداء العبادات، بل كان مدرسة كبرى يعلم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه، فيجلس فيه ليعلم الجاهل، ويفتي السائل، ويعبر الرؤيا، ويبين أحكام الشرع، فصار المسجد مدرسة المسلم التي يتعلم فيها كل ما ينفعه من أمور دينه ومصالح دنياه، فارتبطت حياته به، ففيه يتعلم ويتعبد، وبه يلقى إخوانه[444].

ولم يكن المسجد مركزاً للعبادة والتعليم فحسب، بل استخدم لأغراض أخرى مهمة، فمنه خرجت جيوش المسلمين لتفتح مشارق الأرض ومغاربها [445]، كما استُخدم في أثناء المعارك لمعالجة الجرحى، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق في الأكحل، فضرب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد ليعوده من قريب»[446].

وشكّل المسجد في العصور الإسلامية ظاهرة سياسية على جانب كبير من الأهمية، فكان على كل أمير أو عامل من عمال الأقاليم إقامة مسجد جامع يمثل مسجد الدولة الرسمي، وإذا علمنا أن الدعاء للخليفة في خطبة الجمعة في المسجد الجامع يكون شارة من شارات الخلافة، وأنَّ عدم ذكر اسمه يعني خلعه، تبين لنا الدور السياسي إلى جانب الدور الديني والفكري الذي لعبه المسجد[447].

لذلك كان المسجد أول وحدة عمرانية تبنى عند إنشاء المدن في الأمصار الإسلامية، حيث تتفق الروايات التاريخية على ذلك، فأول وحدة عمرانية تأسست في البصرة هي المسجد الجامع حيث اختط عام 14هـ = 635م، وفي الكوفة عُدّ المسجد الجامع أول وحدة طبوغرافية اتخذها سعد بن أبي وقاص، وكذلك فعل عقبة بن نافع في القيروان، وعندما أمر الحجاج بن يوسف الثقفي ببناء مدينة واسط ابتنى

أولاً قصره ثم ابتنى إلى جواره المسجد الجامع، وفعل مثله أبو جعفر المنصور عند بنائه لمدينة بغداد[448].

و ورد في شأن بلاد ما وراء النهر نصٌ يفيد بأنَّ هذه البلاد تشتمل على قرى كبار تشبه المدن حجماً، ولا ينقصها أن تكون مدينة إلا وجود المسجد الجامع[449]. وعند دخول الفاطميين إلى مصر، فإن أول عمل قاموا به هو بناؤهم للجامع الأزهر، فكان قيام هذا الجامع متزامناً مع قيام الدولة الفاطمية في مصر، وإنشاؤه تم غداة قيام عاصمتهم الجديدة القاهرة.

وفي العصر العباسي تنوعت حلقات الدروس بسبب تنوع علوم ذلك العصر، فظهرت حلقات يُدرَّس فيها النحو وأخرى لعلم الكلام، وظهر التناظر في الشعر وما أشبه ذلك[450].

2- المدارس:

لم تُعرف المدرسة الرسمية إلا في قرون متقدمة من التاريخ الإسلامي، وقبل نشأتها انتشرت أماكن كثيرة للتعليم، وبقراءة المصادر والمراجع من الممكن أن نحصي هذه الأمكنة فيما يلي:

- الكتَّاب: انتشر هذا النوع في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام، وكان انتشاره بطيئاً[451]، إلى أن جاء الدين الإسلامي، فاستخدمت الكتاتيب لتعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي، فلما كثرت الفتوحات الإسلامية، وازداد دخول الناس في الإسلام من عرب وعجم كثر الولدان، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ببناء بيوت المكاتب، ورتب الرجال فيها للتعليم والتأديب[452]، وكان المعلم في الكتَّاب يُسمى معلم صبيان أو معلم كتَّاب[453].

ـــ القصور: انتشر التعليم في قصور الخلفاء والعظماء، وهو تعليم أولي ابتدائي يهدف إلى تعليم أبناء هؤلاء ليؤهلوا لتحمل أعباء المستقبل[454]، ولا يُسمى المعلم هنا بمعلم الصبيان أو معلم الكتاب، وإنما يُطلق عليه لفظ مؤدب[455].

ـــ حوانيت الورَّاقين: ويمكن الربط هنا بين أسواق العرب في الجاهلية، وبين دكاكين بيع الكتب في الإسلام، ففي تلك الأسواق كان العرب يجتمعون للقيام ببعض الصفقات التجارية، لكنهم كانوا ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليقوموا بنشاط رائع في الناحية الأدبية، فينشدون الأشعار ويلقون الخطب، ويعقدون المناظرات، وفي ذلك شبه كبير مع دكاكين بيع الكتب، فهي مفتوحة في الأصل لأعمال تجارية، ثم أصبحت مسرحاً للثقافة والحوار العلمي.

وقد ظهرت دكاكين بيع الكتب منذ مطلع الدولة العباسية، ثم انتشرت بسرعة في العواصم والبلدان المختلفة من العالم الإسلامي، ولم يكن بائعو الكتب تجاراً يبتغون الربح فحسب، وإنما كانوا في أغلب الأحيان أدباء ذوي ثقافة يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة، والأهم من ذلك أن هذه الدكاكين كانت تجذب إليها العلماء[456].

ـــ منازل العلماء: كان التعليم في المترل معروفاً منذ عصر الإسلام المبكر وقبل نشأة المسجد[457]، فالرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم لتكون مكاناً تلتقي فيه المجموعة المسلمة، ويدعو فيه الناس إلى الإسلام، يقول محمد بن سعد صاحب الطبقات (ت 230هـ = 844م): «وكانت داره بمكة على الصفا، وهي الدار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يكون فيها في أول الإسلام، وفيها دعا الناس إلى الإسلام، وأسلم فيها قوم كثير»[458].

ـــ الصالات الأدبية: ظهرت في العصر الأموي، وانتشرت بكثرة في العصر العباسي، وهي مجالس الخلفاء ومن يسمح له بحضورها، وهي ليست إلا تطوراً لمجالس الخلفاء الراشدين، يجلسون للناس في المسجد أو خارجه يُفتون ويُبيِّنون[459].

ـــ البادية: تركزت ثقافة العرب في العصر الجاهلي في الأدب العربي من شعر ونثر وخطابة، فكانت اللغة العربية حتى صدر الإسلام فصيحة سليمة، إلا أن اتصال العرب بغيرهم واختلاطهم بالأعاجم أفسد لسانهم، فظهر اللحن في لغتهم، وبينما

كان هذا اللحن يفشو في الحضر، بقيت اللغة سليمة في الصحراء التي لم يدخل إليها العجم، كذلك أصبح البدو هم الذين تؤخذ عنهم اللغة الصحيحة السليمة، فوفد الكثير من البدو إلى القرى والمدن وجلسوا يعلمون الناس، وهاجر بعض الأمراء والعلماء إلى البادية ليتعلموا اللغة من منبعها الأصيل[460]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُرسل في طفولته إلى البادية جرياً على ما كان من عادات العرب، حيث كانوا يرسلون أولادهم إلى البادية ليتعلموا فصاحة الأعراب وخشونة الحياة، ويستنشقوا هواءها وعبيرها[461].

ـ المساجد: تأسست المساجد مع قيام الإسلام، وباتت المركز الديني والعلمي الأول عند المسلمين.

هذه معظم أمكنة التعليم قبل نشأة المدرسة التي مهدت لظهورها، فلم تكن المدرسة الرسمية معروفة في عصر الصحابة والتابعين، وإنما استُحدثت في القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي، وأول من حفظ عنهم أنهم بنوا مدرسة في الإسلام هم أهل نيسابور، حيث بنى الأمير نصر ابن سبكتكين المدرسة البيهقية والمدرسة السعيدية[462].

ويرى بعض المؤرخين أن أول من بنى المدارس في الإسلام واقتدى به الناس بعد ذلك الوزير نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي وزير السلطان السلجوقي ملكشاة ألب أرسلان بن داود، شرع ببناء مدرسته النظامية الكبرى ببغداد عام 457هـ = 1064م، وفي عام 459هـ = 1066م جمع الناس ليدرسوا بها[463].

ويذكر السيوطي أن الحافظ الذهبي أنكر على من زعم أن نظام الملك أول من بنى المدارس، وقال إن المدرسة البيهقية والمدرسة السعيدية بنيسابور كانتا قبل أن يولد نظام الملك[464].

وبالتالي فقد تعددت الآراء في أول مدرسة أُنشئت، ويعود ذلك إلى الخلط بين المدلولات والمصطلحات، فعندما نبحث في تاريخ المدارس الإسلامية يجب أن نتجنب التعبيرات ذات المدلولات العامة غير المحددة، فقد اعتاد بعض الكتاب المعاصرين في كتاباتهم عن تاريخ الإسلام وحضارته أن يطلقوا كلمة المدرسة على كل معهد علمي، وهذا يعني أن فكرة المدرسة ـــ ذات الهدف المعين والنظام المخصوص التي تسير عليه، والتي كان لها في خدمة التعليم الجامعي الإسلامي دور بارز له مميزاته وخصائصه ـــ لم تظهر إلا بعد القرن الرابع الهجري، وهي بالطبع نتيجة لخطوات أخرى سابقة لها كالمساجد ودور العلم والمكتبات والأسواق والمنازل وغيرها[465].

ومع نشأة المدرسة انتقل التعليم من المساجد إلى المدارس، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة، منها رغبة الناس الشديدة منذ ظهور الإسلام بالتوجه نحو الدراسات الإسلامية، ومع مرور السنين ازداد الناس إقبالاً على حلقات العلم، فحفلت الجوامع بعدة حلقات دراسية، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقي الدرس، وأصوات الطلاب يسألون ويناقشون، فيُحدث ذلك ضجيجاً يؤذي المصلين، فاتضحت صعوبة المسجد للصلاة والتدريس معاً[466].

وقد أدرك الخليفة عمر بن الخطاب أن صبيان المسلمين قد كثروا وأن وجودهم في المسجد يؤدي إلى تشويش على المصلين، فلم يعد المسجد المكان المناسب لتعليم الصبيان[467].

كما أنَّ هناك جماعة من الناس انشغلوا بالتعليم معظم وقتهم، محاولين الارتزاق عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى مناسب من العيش، فلم يكن من حلٍ حينئذ إلا بإنشاء المدارس لتضمن لهم أرزاقاً تفي بحاجاتهم[468].

وهذا الكلام لا يعني فقدان المسجد لدوره الفكري، بل ظلَّت حلقات العلم تدار فيه، ومجالس العلم تعقد فيه، و لم تقم المدرسة إلا بحجب لون من ألوان نشاط

المسجد الفكري الكثيرة، حيث استمر يشارك المدرسة في تدريس مختلف أنواع العلوم.

ـ الخوانق:

الخانقاه كلمة فارسية تتألف من لفظين: خانه بمعنى دار، وكاه وهي لاحقة تفيد المكانية[469]، فتأتي بمعنى البيت، وجُعلت لخلوه الصوفية فيها لعبادة الله تعالى، وظهرت في الإسلام في القرن الهجري الخامس تقريباً[470].

وكان صلاح الدين الأيوبي أول من أرسى حجر الأساس للخوانق في مصر، وذلك في النصف الثاني من القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي، وبالتحديد في عام 569هـ = 1173م عندما حول داراً تسمى دار سعيد السعداء إلى خانقاه، فكانت هذه أول خانقاه عرفتها مصر، وسُميت بالخانقاه الصلاحية، وعُرفت أيضاً بدويرة الصوفية، ومنذ افتتاحها أجرى عليها صلاح الدين التنظيمات التي تليق بها[471].

وعلى الرغم من أن مصر قد عرفت التصوف قبل عصر صلاح الدين بكثير، إلا أنه لم يكن فيها وقتئذٍ دور خاصة للصوفية، فيكون صلاح الدين قد بذر حبة في أرض صالحة بإقامته الخانقاه الصوفية الأولى في مصر.

وازداد التصوف نضوجاً وظهر ميل الناس إليه في القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي، ويرجع ذلك إلى ما تميز به هذا القرن من غزو المغول لإيران، فكان ذلك عاملاً من عوامل هجرة كثير من المتصوفة منها إلى أقطار إسلامية لم تشهد الخوانق، فساهمت هذه الهجرة بانتشار الخوانق في كثير من البلاد، فظهرت في الهند، وغُمرت بها بغداد بفضل مشاهير الأساتذة الذين وردوا إليها من إيران وعمَّروا بها الخوانق، التي وصل عددها في أواسط القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي إلى سبع وأربعين خانقاه[472].

أما في العصر الأيوبي فإننا نجد أن الأيوبيين لم يخلفوا إلا خانقاه واحدة؛ هي التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي، وربما يعود السبب في ذلك إلى انشغالهم بالحروب والفتوحات، وإلى انصرافهم إلى تحصين القاهرة تحصيناً محكماً، وتسويرها بسور متين لصد هجمات الصليبيين[473].

وكان عصر المماليك عصر انتشار الخوانق، يشهد على ذلك كثرة الخوانق في كل مكان.

ـ الزوايا:

يُستدل من المدلول اللغوي للزاوية على أنها موضع للانزواء[474]، وقد ظهرت في البداية على شكل تجمعات دينية في المساجد، يتحلق فيها الطلاب أو مريدو العلم حول شيخ من الشيوخ، فهذا الجامع العتيق في مصر كانت فيه عدة زوايا، ووضع لها ابن دقماق عنواناً واضحاً، هو «الزوايا بالجامع العتيق بمصر الفسطاط»[475].

وقد انتشرت الزوايا في جهات العالم الإسلامي في مكة والشام ومراكش والسودان والمغرب وفي آسيا الصغرى[476]، ويظهر أن كثرتها كانت تتعلق بكثرة الطرائق والمشايخ والمعتقدين[477].

ـ الرُبط:

مفرد الربط رباط، والرباط والمرابطة تعني ملازمة ثغر العدو[478]، ويفهم من هذا أن الرباط هو الموضع الذي يرابط فيه الجند بخيلهم وعتادهم للدفاع عن البلاد، واقترن ذلك بالجهاد والذود عن البلاد، فالثغور هي موضع المخافة من العدو الذي يُخشى تسربه منها إلى البلاد[479].

وقد انتشرت الربط في العالم الإسلامي من المحيط الأطلسي إلى صحارى آسيا الوسطى تبعاً لكثرة الفتوح في القرون الإسلامية الأولى، وانتشار العرب في مشارق الأرض ومغاربها[480].

وتشير الوثائق ــ ولاسيما تلك المتعلقة منها بالثغور المصرية ــ إلى مهمة المقيمين في الربط من الناحية العسكرية، حيث كانوا فريقين من المقاتلين يخضعون للأنظمة العسكرية، الفريق الأول مهمته الدفاع عن موضعه فلا يتركه، والفريق الثاني مهمته دفاعية هجومية، أي أنه يتقدم نحو العدو ويوقف تقدمه[481].

ومع مرور الأيام خضع الرباط لقوانين التطور، فتعددت الوظائف والمهمات التي يؤديها، فأصبح مسكناً للصوفية، ومدرسة يتعلمون فيها، ومسجداً يؤدون فيه واجباتهم الدينية.

وقد أشار المقريزي إلى أن الرباط أصبح «بيت الصوفية ومترلهم» وأنه «دار يسكنها أهل طريق الله»[482]، فظهر ما يمكن أن نسميه بالربط السكنية، التي أُلحقت على الأغلب بالخوانق لسكن صوفيتها، ومن الأمثلة عليها رباط الناصر محمد بخانقاه سرياقوس الذي أُعد لسكن صوفية الخانقاه؛ ورباط الأشرف برسباي الذي جُعل لسكن صوفية خانقاه الأشرف[483].

ــ مدارس الطب (البيمارستان):

البيمارستان كلمة فارسية مركبة من كلمتين، الأولى بيمار؛ وتعني المريض أو العليل أو المصاب، والثانية ستان، وتعني مكان، فيعني البيمارستان حينئذٍ دار المرضى، ومع الزمن اختصرت هذه الكلمة إلى مارستان، ثم إن أصل البيمارستان أن يكون مستشفى لجميع الأمراض، ولكن ما إن أصابته الكوارث حتى هجره المرضى، ولم يبق فيه إلا المجانين، فصارت كلمة مارستان تعني مأوى المجانين[484].

ويعد البيمارستان المكان الرئيس لممارسة الطب وتدريسه في ذلك العصر.

ويعد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك أول من بنى بيمارستاناً في الإسلام، وذلك عام 88هـ = 706م [485]، وأما أول بيمارستان بُني في مصر فهو بيمارستان أحمد بن طولون، وبناه عام 259هـ = 872م [486]، وسُمي بعدة أسماء أخرى، فعُرف بالبيمارستان العتيق، وبالبيمارستان الأعلى[487]. ويرى ابن دقماق أنَّ

أول بيمارستان بني في مصر هو ذاك الذي أُنشأ في زقاق القناديل من فسطاط مصر في عصر الدولة الأموية[488].

وتوالى إنشاء البيمارستانات في مصر بعد ذلك، فأنشأ كافور الإخشيدي عام 346هـ = 957م بيمارستان كافور، وبنى الفتح بن خاقان بيمارستان المغافر في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله[489]. وفي العصر الأيوبي ارتبط بناء البيمارستان باسم صلاح الدين الأيوبي، الذي شيَّد ثلاثة بيمارستانات، الأول عام 577هـ = 1181م وعُرف بالبيمارستان العتيق[490]، والثاني بناه بالإسكندرية وحدَّثنا عنه ابن جبير عند زيارته لتلك المدينة[491]، ومن ثم أمر صلاح الدين بفتح بيمارستان مصر القديم[492].

وكتب جرجي زيدان يقول: «لم يكن القرن الثالث الهجري قد انتهى حتى بُنيت في مكة والمدينة وسائر المدن البيمارستانات، وتسابق على بنائها المقتدر العباسي ووزراؤه، وفي بغداد فقط بنيت في فترة قصيرة أربعة بيمارستانات، حتى بنى عضد الدولة البويهي في سنة 368 هـ = 978م في القسم الغربي ببغداد (البيمارستان العضدي) الذي كان فيه أربع وعشرون طبيباً أخصائياً كل واحد منهم في فرع من فروع الطب، وكان هذا المستشفى لما فيه من مزايا على رأس كل البيمارستانات الإسلامية ».

وكانت المستشفيات الإسلامية تدار بترتيب ونظام تام كامل، وكان كل المرضى يعالجون بكل دقة من دون التفات إلى قوميتهم ومذهبهم وشغلهم، وكان لكل مرض أو لعدة أمراض صالون خاص، وكان الطب يُدرس وتُصنع الأدوية في محل مجاور، فكان الطلاب بالإضافة إلى دراستهم العلمية يمارسون دلك عملياً. وكان المسلمون قد شكلوا مستشفيات سيّارة ــ كما اليوم ــ يذهبون بها إلى هنا وهناك، ومنها ما كان في عسكر السلطان محمود السلجوقي إذ كان له مستشفى يحمله أربعون بعيراً.

وكتب غوستاف لوبون يقول: «كانت مستشفيات المسلمين قد بُنيت وفقاً لأصول الصحة، وكانت بالنسبة لزمانها أحسن من مستشفيات أوربا اليوم ! لأنها كانت واسعة جداً وكان جريان الماء والهواء فيها كثيراً جداً. وحينما أمر محمد بن زكريا الرازي أن يختار أحسن نقطة في بغداد من حيث الماء والهواء لبناء البيمارستان، فما أجراه من اختيار يعترف به اليوم الباحثون في الأمراض المعدية، إذ علّق في كل نقطة من جهات المدينة قطعة لحم، وأوعز أن يبنوا المستشفى في النقطة التي كانت آخر نقطة تعفنت فيها قطعة اللحم أي كانت آخرها عفونة وفساداً».

وكان المسلمون ــ كما اليوم ــ قد أسسوا للمجانين مصحات خاصة بالأمراض العقلية، وكان فيها حوانيت لتوزيع الأدوية مجاناً.

وكتب «ماك كاب» يقول: «كان المسلمون قد بنوا في القاهرة مستشفى كبيراً كان فيها حدائق كبرى من الورود والأزهار والرياحين العطرة، وصحون أربعة فيها حياض كبرى فيها فورات أو نافورات المياه. وكانت تستقبل المرضى الفقراء، وبعد العلاج كانوا يرفدون كل واحد منهم بأربع قطع من المسكوكات الذهبية».

«وكان في مدينة قرطبة خمسون مستشفى وتسعمئة حمام وستمئة مسجد جامع». [493]

وبُني في العصر العباسي المتأخر (المملوكي) البيمارستان المنصوري الذي يُعد من أشهر بيمارستانات مصر والإسلام، فذاع صيته واشتهر، وهو الأنموذج المثالي للبيمارستانات الإسلامية، لذلك سنفصل القول فيه.

بنى هذا البيمارستان السلطان المنصور قلاوون الألفي، وذلك في القاهرة بين القصرين[494]، فابتدأ بتشييده في ربيع الأول عام 682هـ - 1283م، وقد قال ابن بطوطة فيه: «وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أُعد فيه من المرافق والأدوية مالا يُحصر، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم»[495]. وقال عنه ابن أبي حجلة: «هو من حسنات الزمان،

وتحتاج إليه الملوك، ويفتقر إليه الغني والصعلوك، فهو عون الفقير وجبر الكسير»[496].

جُعل البيمارستان المنصوري لتقديم الرعاية الصحية لمختلف فئات الشعب، فلم تُقيد خدماته بفئات معينة، بل أفاد منه الرجال والنساء والأغنياء والفقراء، والكبير والصغير، والجندي والأمير والوزير، وأهل القاهرة ومصر وضواحيها، والمقيمون والوافدون، واستُقبل فيه المرضى أياً كانت أمراضهم[497].

وتؤكد هذه الرعاية وثيقة أصدرها الملك المنصور قلاوون عام 684هـ = 1285م بتقليد مدرس في هذا البيمارستان، فذكر فيها: «وأبحنا التداوي فيه لكل شريف ومشروف، ومأمور وأمير، وساوينا في الانتفاع به بين كل صغير وكبير، وعلمنا أن لا نظير لنا في ملكنا، ولا نظير له في إبقائه، فلم نجعل لوقفه وشرطه من نظير»[498].

و لم تحدد مدة الإقامة في هذا البيمارستان، و لم تقتصر الرعاية الصحية فيه على المترددين والمقيمين، وإنما شملت أيضاً الفقراء في بيوتهم، فقدمت لهم الرعاية المناسبة، وصُرف لهم ولغيرهم ما يحتاجونه من الأدوية والأغذية والأشربة[499].

وانقسم أطباء البيمارستان إلى ثلاث فئات:

ـ الطبائعيون: وهم أطباء الأمراض الباطنية.

ـ الجرائحيون: وهم من يقومون بالعمليات الجراحية.

ـ الكحالون: وهم المختصون بمعالجة أمراض العيون[500].

وكانت مهمة هؤلاء الأطباء الإشراف على المرضى مجتمعين أو متناوبين، فتُحدد مواعيد دوامهم بدقة، يداوم الأطباء الكحالون صباح كل يوم كي لا يأتي مريض للعلاج ويُرد، ونجد تعاوناً بين هؤلاء الأطباء في مختلف فروع الطب، فمن الضروري مثلاً أن يراجع الطبيب الكحال الطبيب الطبائعي للنظر في علاج المريض

الذي قد يعود مرض عينه إلى أسباب باطنيـــة، وكـــان علـــى الأطبـــاء الـــدوام في البيمارستان ليلاً مجتمعين أو متناوبين.

وفيما يتعلق بالأمراض المعالجة، فإن البيمارستان مستشفى عام لعـــلاج جميـــع الأمراض، وكان مقسماً إلى قسمين؛ أحدهما للذكور، والآخر للإناث، وقد قُسِّم كل قسم من هذين القسمين إلى القاعات التالية: قاعة الأمراض الباطنية، وقاعة الجراحة، وقاعة أمراض العيون، وقاعة التجبير، وقُسمت قاعة الأمراض الباطنية إلى عدة أقسام صغيرة، فمنها قسم للمصابين بالحمى (المحمومين)، وقسم للممرورين (وهم مرضـــى الجنون)، وقسم للمبرودين (أي المتخومين)، وقسم لمن به إسهال[501].

ووُجد في البيمارستان ما يشبه الصيدلية وتحضير الأدوية، فأُفرد فيه مكان لطبخ الأدوية والأشربة، ومكان لتركيب المعاجين والأكحال والمراهم، ومكان تُفرق فيـــه الأدوية والأشربة[502].

وكان أيضاً ما يماثل وظيفة الصيدلاني والممرض، فقد رُتب فيه رجلان اشترط فيهما الأمانة والديانة، مهمة الأول منهما حفظ الأدوية والعقاقير وصـــرفها بحســـب أوامر الأطباء، ويسلمها للرجل الثاني المسؤول عن توزيعها على المرضى، والتحقق من أن كل مريض قد تناول الدواء الموصوف له، ومن مهماته توصيل الطعام للمرضـــى كلٌ حسب ما وصف له.

وأما أهم صفة لهذا البيمارستان فهي أنه كان جامعة لتدريس الطب، فأشـــبه بذلك كبار المستشفيات في عصرنا من حيث إلحاق كليات الطب بها، فتوافرت فيـــه الدراسة العملية للطب، وممارسته على يد الأساتذة، فجعل فيـــه شـــيخٌ للاشـــتغال بالطب[503]، وخُصص فيه مكانٌ يجلس عليه رئيس الأطبـــاء لإلقـــاء محاضـــراته في الطب[504]، وكان السلطان المملوكي يصدر بنفسه مراســـيم تعـــيين المدرســـين في البيمارستان[505]، ومن هذه المراسيم الدالة على تعليم الطب فيه مرسوم ذكر فيـــه: «وليجمع عنده شمل الطلبة، وليعط كل طالب ما طلبه ... وليشرح لهـــم صـــدره،

وليبذل لهم من عمره شطره، وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره ... وليجعل منهم جماعة طبائعية وطائفة كحالين وجرائحية وقوماً مجبرين ... وآخرين بأسماء الحشائش وقوى الأدوية وأوصافها عالمين ... وليفرد لكل علم من علوم الطب طائفة، ولكل فن من فنونه جماعة لمحاسنه عارفة»[506]. وورد في بعض المراسيم: «ونصبنا لذلك من العلماء والحكماء من اخترناه ورضيناه لما اختبرناه ... وكانت قد سبقت له في هذا المنصب أحسن مباشرة»[507].

ويُفهم من هذه المراسيم أنَّ البيمارستان كان جامعة كبرى لتخريج الأطباء في مختلف فروع الطب، وكذلك لتخريج الصيادلة.

وصدور مرسوم تعيين مدرِّس البيمارستان من السلطان مباشرة تفرضه أهمية مهنة الطب.

3 ــ تطور أماكن التعليم في عصور العباسيين والأندلسيين:

في عصور العباسيين – وهو أطول العصور العربية، وأغناها إذ استمر من سنة 132هـ إلى سنة 656هـ = 749 – 1258م ركز العرب فيها نتاج ثلاث مدنيات؛ هي المدنيات الإغريقية والفارسية والسريانية، وبنى فيها المنصور سنة 754م بغداد، وطلب من إمبراطور الروم أن يبعث إليه بكتب الإغريق، ولما تولى الخلافة هارون الرشيد رغب ورغّب في العلم، وكان يحيط نفسه بسياج من العلماء، وأقام مكتباً بجانب كل جامع، وأسس بعده المأمون دار الحكمة في بغداد، وأخذت تتكون المكتبات وتزخر بمختلف العلوم والفنون. ومما يجدر ذكره أن المكاتب كانت شائعة في هذا العهد، ويذكر لنا ابن النديم اصطلاحاً جديداً هو مكتب العامة، وربما كان هو المكتب الذي يؤمه عامة الطلاب. ولقد ظهرت كلمة المدرسة في النصوص العربية في منتصف القرن الثالث الهجري، وكانت أول مدرسة أُنشئت في الشام، وسُميت بالمدرسة الصادرية سنة 350هـ = 961م، وقد استمر تأسيس المدارس في هذا القرن وأنشأ العباسيون في منتصف القرن الخامس الهجري سلسلة من المدارس وفي

مقدمتها المدرسة النظامية في بغداد سنة 459هـ = 1066م، ثم بوشر بتأسيس المدارس على نطاق واسع بحيث تكاد لا تخلو مدينة من مدن الدولة العباسية من مدرسة نظامية يغدق فيها على طلبة العلم إغداقاً، ويؤمن لهم معاشهم، وقد جذبت المدرسة النظامية في بغداد إليها الطلاب من جميع الأقطار، كما قصدها أكابر أساتذة العالم العربي، فخرّجت الفقهاء والقضاة والعمال وكتاب الدواوين. ولقد استمر تأسيس المدارس في القرن السادس الهجري وبعده، فأقام الخليفة المستنصر بالله سنة 630هـ = 1232م في بغداد مدرسة المستنصرية لتدريس علوم اللغة العربية والطب والصيدلة وعلوم الرياضة، وألحق بها فرعاً للأيتام وآخر للمكفوفين، ومكتبة كبرى ومختبرات وآلات وأدوات، وأُسست فيها دائرة الفلك لرصد الكواكب، وزينت أبوابها بالساعات المبتكرة.

وبُنيت في أحد حيطانها دائرة، وصور فيها صورة الفلك، وجعل فيها طاقات لها أبواب وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ووراءهما بندقتان، فعند مضي كل ساعة ينفتح فم البازين، وتقع منهما البندقتان، وكلما سقطت بندقية انفتح باب من أبواب تلك الطاقات وهو من ذهب، فيصير حينئذ مفضضاً وإذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان إلى موضعهما ثم تطلع أقمار من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية، وتدور مع دورانها وتغيب مع غيابها، فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر، ثم يبتدئ في الدائرة الأخرى إلى انقضاء الليل وطلوع الشمس، فتعلم بذلك أوقات الصلاة.

وشُيدت عدا المدارس: الربط والزوايا والبيمارستان. ويحدثنا ابن جبير الذي زار العراق وسوريا والحجاز ومصر في أواخر القرن السادس الهجري عن وجود هذه المعاهد في كل مدينة من المدن العربية التي مر بها، وأطنب في وصفها، كما وصف لنا حلقات التدريس، و الربط والبيمارستانات [508].

أما عصر الفاطميين: 296ـ 576هـ = 908 – 1180م، فقد نشأت دولتهم في شمال إفريقية في أواخر القرن الثالث الهجري، واستولت على مصر وسورية بُعيد منتصف القرن الرابع الهجري، وكانت أول أعمال الفاطميين العلمية إقامة الجامع الأزهر سنة 361هـ = 971م، وجعله مركزاً علمياً دينياً، وقد بلغ عدد مدارس القاهرة وحدها في زمن الفاطميين عشرين مدرسة، ولم يهتم الفاطميون بالناحية المادية من الحياة الاجتماعية فحسب، بل وجهوا عناية كبيرة إلى رفع مستوى الناحية العلمية فنافسوا العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس، فأسس الخليفة الحاكم بأمر الله داراً للعلم عام 396هـ = 1005م للميلاد بمدينة القاهرة أفاض المقريزي في وصفها قائلاً: إنها جُهزت بأجمل الأثاث وأفخر الرياش، وشحنت بألوف الكتب، ورُتب لها النساخ والحبر والكاغد، وقُدر لها المدرسون والمعيدون، وكانت تُدرس فيها علوم الكلام والعروض والقانون والطب والفلك، وأُلحق بها مكتبة واسعة جداً غنية بالمؤلفات النادرة، وكانت هذه المدرسة كعبة لطلاب العلم في بلاد مصر وفي سائر الأقطار العربية الإسلامية، وكثيراً ما اعتاد الخليفة الحاكم بأمر الله دعوة المدرسين في المدرسة لقصره للمباحثة وللمناقشة بمحضر منه، ولا يصرفهم إلا بعد أن يغدق عليهم العطايا والهبات.

وكانت دار العلم مكتبة عامة للباحثين والعلماء وجامعة علمية للبحث والمناظرة، وقد خُصص للعلماء الرواتب الشهرية حتى يتفرغوا لأبحاثهم. وكانت هذه المؤسسات تؤلف جزءاً أساسياً من معاهد الدولة العلمية، تنفق عليها وتشرف عليها إشرافاً مباشراً، واشتهر أيضاً من بين هذه المعاهد معهد أُحدث في طرابلس أحرقه الصليبيون في أوائل القرن السادس للهجرة، ومعهد آخر أُحدث في بيت المقدس أصبح فيما بعد المدرسة الصلاحية التي أسسها صلاح الدين.

وقد اتخذ الخلفاء قصورهم قاعات للمحاضرات، كما جعلوا من دار العلم والجامع الأزهر قاعات لإلقاء مجالس الحكمة التأويلية، وكانت تعقد أيضاً في جامع

ابن طولون وجامع عمرو بن العاص ومساجد الإسكندرية ودمياط حتى في أسوان حلقات للتدريس والمناظرة. (509)

وفي عصر الأندلسيين؛ كانت الأندلس تضم في أواخر القرن الحادي عشر الهجري سبعين مكتبة عامة، وكان في بعض المدن الرئيسية مدارس كبرى يصح تسميتها بالجامعات، وفي طليعة هذه المدن قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة ومجريط (مدريد)، وكان في بعض هذه الجامعات بيوت للطلبة على النحو المعروف في يومنا هذا باسم المدن الجامعية، وقد شُيدت في كثير من أنحاء البلاد الأندلسية وعلى مقربة من المدن الكبرى ضواح خاصة بدور العلم منها سلمنكة.

وكان بين دوائر التدريس في جامعة قرطبة دوائر للطب والفلك والرياضيات والعلوم الدينية والشرعية، وبلغ عدد الطلاب المنتسبين إليها بضعة آلاف، وأصبحت شهادتها سبيلاً للوصول إلى أسمى المراتب وأرفع المناصب.

وكان النساء شقائق الرجال في اقتحام الحصون العلمية، فاشتهر منهن في الأدب والطب حتى في الفروسية عدد كبير. وقد بلغ عدد المدارس في قرطبة وحدها في خلافة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر ثمانين مدرسة، وأصبحت الأندلس في ختام القرن الحادي عشر الهجري ذات سبعين مكتبة ومدرسة كبرى جامعة في كل مدينة، ومدارس متعددة في كل كورة.

وكان في غرناطة جامعة أسسها يوسف أبو الحجاج (734 ــ 755هـ = 1333- 1354م) سابع سلاطين بني نصر، وقد وُضعت أمام المدخل في بناية هذه الجامعة تماثيل من الحجر كأنها تحرسها، وكان للجامعة معاهد وفروع تدرس فيها علوم الطب والكيمياء والفلك والفلسفة والفقه والدين، وكان يفد للتحصيل في معاهد كلٍ من الجامعات الأندلسية طلاب من جميع الملل والنحل من كل قطر عربي أو غير عربي، وقد جرت العادة أن تقام في الجامعة حفلات عامة وأخرى تذكارية تُتلى فيها الخطب والأشعار المبتكرة، ويلقيها في الغالب أساتذة من الجامعة نفسها،

وهناك قول مألوف كان ينقش غالباً فوق أبواب أكثر هذه المعاهد، وهو: إن العالم يقوم على أربعة أمور: علم الحكماء، وعدل العظماء، ودعاء الصلحاء، وشجاعة الشجعان.

وكان لكل جامعة خزائن عديدة من الكتب، وكان لكثير من مشاهير الرجال والنساء مكتبات جامعة، وقد تفردت قرطبة بأنها كانت في مقدمة أسواق الكتب في الأندلس، وكان اقتناء الكتب سبيل المنافسة بين الناس يتنقلون من مدينة إلى مدينة لانتقائها أو يتهادونها كما تتهادى الجواهر النفيسة.

واشتهر بين ملوك الطوائف أصحاب إشبيلية بنو عباد بتشجيعهم العلوم والآداب والفنون، فنبغ في إشبيلية عدد كبير من رجال العلم والفن.

وتعد ولاية المنصور حافلة بالأبحاث العلمية والعمرانية، ومن آثارها الرائعة في الفن المعماري البرج المعروف بالجيرالدا، وكان منارة ومرصداً بناه المنصور عقب انتقاله إلى إشبيلية واتخاذها عاصمة ملكه سنة 566هـ = 1170م.

واشتهر في دولة بني نصر: محمد بن يوسف بن نصر 222هـ = 836م، وكان يعرف بابن الأحمر، فجعل غرناطة عاصمة ملكه، وكان عدد سكانها يزيد على نصف مليون.

شاد ابن الأحمر الحمراء، كما أوجد إضافة إلى الأعمال العمرانية الاجتماعية التي حققها مشافي وأقنية وحمامات وسوقاً عامة ما زالت قائمة حتى اليوم وتدعى القيصرية، كما أوجد فيها عبد الله الوليد إسماعيل جنة الخليفة التي تعرف اليوم تحريفاً بجنراليف، وهي تحاكي أورع حدائق النبات اليوم.

وارتكبت في غرناطة سنة 905هـ = 1499م جريمة كبرى نحو العالم تحاكي جريمة التتر في بغداد، فقد صادر (كسيمه نه س) الكتب العربية وجمعها أكواماً في ساحات غرناطة وأشعل النار تحتها. وهكذا أفل نجم العرب عن أسبانية

فبهت نور العلم وما لبث أن زال وعم الظلام وفشا الجهل، لقد رحل العرب عن الأندلس بعد أن بصموها ببصمات الفن العربي الخالد. (510)

وازدهرت معاهد العرب العلمية في صقلية، فلقد نشر العرب فيها لواء العدل والحرية والعلم والتسامح، فازدهرت هذه الجزيرة في عهدهم ازدهاراً كبيراً، وكثرت فيها المساجد وحلقات التدريس والمدارس. ملؤوا عاصمتها باليرمو بالمكتبات العامة والمعاهد العلمية وبالقصور الشامخة البديعة والمباني الرائعة، منها الدائرة العلمية التي كان يسميها العرب قصر العزيز، وقد حرف اسمها فصارت عزيزة ــ زيزة ــ، كان عدد سكان بالرمو قبل فتح العرب لها لا يزيد عن (3000) نسمة، وما إن جعلها أمراء المسلمين عاصمتهم وفتحوا فيها المدارس وشيدوا العمران ووطدوا أركان الأمان، حتى أصبحت من أشهر المدن وأكثرها سكاناً، وقد تيسر لابن حوقل أن يزورها سنة 972هـ = 1564 فقال عنها أنها أجمل بلدان العالم العربي الإسلامي وأكثرها رخاء، وما لبث أن زاد عدد سكانها فأصبح (300.000)، وكان فيها من الجوامع (300) جامع تُدرس فيها العلوم، بعضها رائع البناء فيه الأقواس الجميلة والفسيفساء العجيبة والنقش الدقيق وغير ذلك من آثار المدنية والفنون وتقدم العلوم وازدياد العمران. حكم صقلية ثماني عشرة دولة معظمة فكانت دولة العرب أكثرهم عمراناً تركت آثاراً رائعة لاتبيدها عاديات الزمن ولا تمحوها تتابع المحن، تشاهد تلك الآثار في أمكنتها التاريخية العديدة كالقصر الملكي وكان مقراً لأمراء المسلمين، وفي كنائسها العديدة وكان أكثرها جوامع (511).

4ــ المكتبات الإسلامية وعوامل ازدهارها وانتشارها:

ومن أهم المؤسسات العلمية المكتبات، إذ يعد القرن الأول الهجري – السابع الميلادي في التاريخ العربي الإسلامي مرحلة بداية تاريخ المكتبات الإسلامية، ففيه توافرت مواد الكتابة، وفيه كثرت أعداد الكتب وتضاعفت، وفيه ــ وهذا الأهم ــ

وُجد التراث الخالد الذي يحرص المسلمون على جمعه وتناقله والحفاظ عليه متمثلاً بالقرآن الكريم وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبناء عليه يمكننا أن نتلمس النشأة الأولى للمكتبات الإسلامية في القرن الهجري الثاني – الثامن الميلادي، فهو القرن الذي شهد ثلاث ظواهر حضارية كان لها تأثيرها البالغ في عالم الكتب والمكتبات، وتمثلت الظاهرة الأولى في حركة التأليف العربية التي اتضحت معالمها خلاله، والظاهرة الثانية دخول صناعة الورق إلى بغداد في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد بعد أن كان يكتب على البردي والرق، والظاهرة الثالثة ظهور صناعة الوراقة. وأمام هذه الظواهر الثلاثة بدأت تكثر المصنفات وتنشأ المكتبات منذ القرن الثاني للهجرة – الثامن للميلاد، فعرفت الأمة العربية الإسلامية الأنواع العديدة منها، كالمكتبات العامة والمكتبات الخاصة ومكتبات المساجد ومكتبات المدارس[512].

وإضافة إلى ذلك توافر عاملان مهمان كان لهما الأثر الكبير في نمو المكتبة في الإسلام؛ وتمثل العامل الأول ــ وهو عاملٌ موضوعي ــ في تفاعل المسلمين مع الحضارات السابقة لحضارتهم، والثاني وهو عامل ذاتي ــ انبثق عن إيمانهم وإسلامهم، وهو يتجلى بموقف الإسلام من العلم والمعرفة الإنسانية[513].

لقد أقبل العرب على اقتناء الكتب إقبالاً منقطع النظير يشبه إلى حد كبير شغف الناس في عصرنا هذا باقتناء السيارات والثلاجات وأجهزة التلفزيون بعد الدمار الذي أصابهم إبان الحرب العالمية فحرمهم طويلاً من متع الحياة، فأصبحت الكتب هي مطلب كل من يستطيع تحمل نفقات الحصول عليها، وأقبل الناس في البلدان العربية على اقتنائها بلهفة متزايدة لم يعرف لها التاريخ من قبل مثيلاً.

وكما يقاس ثراء الناس اليوم بمدى ما يملكون من عربات فاخرة مثلاً، قدّر الناس ــ في ذلك العصر الممتد من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلاديين ــ الثراء بمدى ما يقتني أحدهم من كتب أو مخطوطات.

ونمت دور الكتب في كل مكان نمو العشب في الأرض الطيبة. ففي عام 278هـ = 981م أحصى مسافر عدد دور الكتب العامة في بغداد بأكثر من مئة. وبدأت كل مدينة تبني لها داراً للكتب يستطيع عمرو أو زيد من الناس استعارة ما يشاء منها، وأن يجلس في قاعات المطالعة ليقرأ ما يريد، كما ويجتمع فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات خُصصت لهم، يتجادلون ويتناقشون كما يحدث اليوم في أرقى الأندية العلمية.

فمكتبة صغيرة كمكتبة النجف في العراق، كانت تحوي في القرن العاشر أربعين ألف مجلد، بينما لم تحو أديرة الغرب سوى اثني عشر كتاباً ربطت بالسلاسل، خشية ضياعها. ويحتاج تصنيف الكتب الموجودة في مدينة الري إلى عشرة فهارس كبيرة. وكان لكل مسجد مكتبته الخاصة، بل إنه كان لكل مستشفى يستقبل زواره، قاعة فسيحة صُفّت على رفوفها الكتب الطبية الحديثة الصدور، تباع لتكون مادة لدراسة الطلاب ومرجعاً للأطباء، يقفون منه على آخر ما وصل إليه العلم الحديث. ولقد جمع نصير الدين الطوسي لمرصده في مراغة 400.000 مخطوطة.

وحذا حذو الخليفة في بغداد كل الأمراء العرب في مختلف أنحاء العالم العربي؛ فأربت مثلاً مكتبة أمير عربي في الجنوب على 100.000 مجلد. وروي أنه لما شفي سلطان بخارى محمد المنصور من مرضه العضال على يد ابن سينا، وكان فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة، كافأه السلطان على ذلك بأن سمح له أن يختار من مكتبة قصره ما يحتاج إليه من الكتب لدارسته، وكانت كتبها تشغل جزءاً كبيراً من القصر وقد رتبت حسب موضوعاتها. ويكتب ابن سينا عن ذلك الحديث فيقول: «وهناك رأيت كتباً لم يسمع أغلب الناس حتى بأسمائها».

و لم يكد ابن سينا يغادر قصر السلطان حتى اشتعلت النيران فيه فقضت على هذه الكنوز العلمية؛ وتهامس أعداؤه وحساده قائلين: «إنه هو الذي أشعل النار فيها

بعد ما قرأها ليدعي، فيما بعد، أن ما عنده من علم إنما هو من أبحاثــه الخاصــة». (514)

ولا يستطيع أحد أن يقارن أحداً بالخليفة العزيز في القاهرة. حتى خليفة قرطبة، الذي بعث رجاله وسماسرته في كل أنحاء الشرق ليجلبوا له الكتــب فيزيــد روائــع مكتبته، أنى له أن يصل إلى ما فعله العزيز؟! لقد حوت مكتبة العزيز 1.600.000 مجلد، فكانت بذلك أجمل وأكمل دار للكتب، و لم يمنع هذا قط ابنه من بعده، حــين اعتلى العرش، من أن يبني مكتبة ضخمة فيها ثماني عشرة قاعة للمطالعــة إلى جــوار المكتبة القديمة.

وكذلك فعل الوزراء ورجال الدولة، فلقد ترك الوزير المهلبي، مثلاً، عند وفاته عام 352هـ = 963مجموعة من 117.000 مجلد، واستطاع زميله الشاب ابن عباد أن يجمع في مكتبته 206.000 كتاب، وجمع أحــد قضــاته 1.050.000 مجلد. ولما كانت هذه الأرقام الضخمة قد حسبت بالتقريب وبولغ في بعضها، فــإن هذه المبالغة نفسها لهي أكبر دليل على مفاخرهم بذلك وسرورهم بكل جهد يبذل في هذا السبيل، وليس أدل على هذا ما نقرأه من أن بعض الوزراء لم يكــن يخــرج إلى رحلة إلا ومعه حمولة ثلاثين جملاً من الكتب تصحب ركبه.

وفتحت اللهفة، على اقتناء الكتب، الباب أمام مئات الألــوف مــن البشــر لكسب عيشهم؛ فأصبح النُساخ والخطاطون فنّانين مهرة في فنهم، ووُظفــت كــل مكتبة أو متجر للكتب، عدداً من هؤلاء، وكان أغلبهم مــن الطلبــة أو أنصــاف المتعلمين الذين أرادوا عن طريق هذه الطريق كسب رزقهم.

وانتشر منتجو الورق بطواحينهم في سمرقند وبغداد ودمشق وطــرابلس، وفي فلسطين والأندلس، وتبعهم المجلدون، يُعدون غلافات رائعة للكتب.

وكم رزم من الأوراق وليترات من الحبر صنعت من السناج والصمغ العــربي استهلكتها الأيدي الدائبة على الكتابة، وكم من جلود أمدتهم بها صــغار الغــزلان

والماعز قد استنفدت في هذا الغرض، وهكذا أصبحت تجارة الكتب، تماماً كالصيدلة، هدية قدمها العرب للبشرية، والواقع: إن تاجر الكتب لم يعرف كوسيط لنقل الثقافة، ومتاجر الكتب كمراكز للثقافة في المدينة، قبل أن يفعل العرب ذلك[515].

وحوالي عام 391 هـ = 1000م يصدر كتاب بعنوان «تبادل الأفكار» يحوي 106 مناقشات دارت بين العلماء بعضها في منزل فيلسوف عربي وبعضها في حوانيت تجار الكتب.

وهنا في هذه الحوانيت استقبل ابن النديم زبائنه وتعرف بهم؛ وكان ابن النديم تاجراً للكتب، وكان هو نفسه عالماً فذاً له شهرته، وهو مؤلف «الفهرست» الذي يحوي أسماء جميع الكتب والترجمات التي ظهرت باللغة العربية حتى ذلك الحين، وقد ذيّل اسم كل كتاب بشيء عن مؤلفه، وكان أغلب ما كتبه عن المؤلفين وليد خبرته ومعرفته الشخصية بهم كتاجر للكتب. ويبدأ ابن النديم كتابه بمقدمة رائعة تنم على فهم عميق لمهمة إخراج الكتب كما يجب أن تراه دور النشر في كل عصر، فيكتب:

«النفوس ــ أطال الله بقاءك ــ تشرئب إلى النتائج دون المقدمات، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات، فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا إذ كانت دالة على ما قصدناه في تأليفه إن شاء الله»[516].

وكان ابن النديم كأغلبية زملائه من تجار الكتب، قد تلقى تربية علمية واسعة، فسمع محاضرات الأعلام من فلاسفة عصره وزار منازلهم، وتعرّف بالأوساط العلمية التي انتشرت على شكل جماعات ومدارس في كل أنحاء العربية خلال القرن العاشر الميلادي؛ وكان ابن النديم صديقاً مقرباً لعلي بن عيسى، أشهر أطباء العيون في العصور الوسطى، ولغيره من أئمة العلماء الذين كان يقضي معهم السهرات الطوال في المناقشات العلمية المثمرة، ولم يكن هذا الرجل المثقف تلك الثقافة العالية إلا نموذجاً للكثيرين من زملائه ناشري العلم والمعرفة في تلك العصور.

وعرف الناس قوماً آخرين سُموا بالدلالين، كانت مهمتهم بيع النـــادر مـــن الكتب وشراءها؛ فكانوا يجوبون المدن ويزورون كل تاجر للبحث عن النادر منـــها وللاطلاع على آخر ما أنتجه الفكر العربي تأليفاً وترجمة. فكانوا بذلك صلة الوصـــل بين تجار الكتب في العالم العربي.

ولقد سافر أحد هؤلاء الدلالين من بغداد إلى القاهرة ليشتري من مصر النادر من الكتب، وكان قد سمع بأخبار طبيبها الشهير إبراهيم بن الصوفان الـــذي كـــان يوظف عدداً من النُساخ ويشرف عليهم، حتى صار له كتر من الكتب الطبية وغيرها، وعن طريق وساطة الأصدقاء استطاع هذا الدلال أن يوطد صـــلته بالطبيـــب بعـــد سهرات طويلة ومناقشات دامت طوال الليل، وقدم التاجر للطبيب عرضـــاً مغريـــاً لشراء عشرة آلاف مجلد من كتبه، وقرر الطبيب الموافقة على ذلك العرض، ولكـــن أخبار تلك الصفقة وصلت إلى آذان الوزير الأفضل، وكان الأفضل من عشاق العلم الذين يقدرون قيمته وقدسيته، فثارت فيه نزعة وطنية لإقليمـــه مصـــر، واســـتدعى إبراهيم وأقنعه بوجهه نظره في ضرورة المحافظة على تلك الكتب لبلده، ودفع الـــوزير من ماله الخاص المبلغ الذي كان التاجر العراقي قد عرضه ثمناً لتلك الكتب، وبـــذلك ضاعت مجهودات التاجر العراقي التي بذلها في سفره واتصالاته، ولذلك يكتب ابن أبي أصيبعة، بعد مئة عام من هذا الحدث: «لذلك وُجدت هناك عدداً من الكتب الطبيـــة والأبحاث القيمة التي تحمل اسم إبراهيم علاوة على اسم الأفضل».

لم يكن ما فعله الأفضل من اهتمامه الزائد بالعلم والكتب والفن بل واشـــتغاله بالفلك وقرضه للشعر في قصائد فيها نزاعاً نشبت بينه وبين أخيه، كل ذلك لم يكن شيئاً نادراً في ذلك العصر، فلقد ألف الناس وجود أمثال تلك المواهـــب، فـــالعلوم والآداب كانت هوايتهم، كما يعشق الناس اليوم لعب الكرة، وكان يُنظـــر لمـــن لا يساهم في تلك النهضة نظرة فيها الكثير من الازدراء.

فرجل مثل الأمير أسامة بن منقذ الذي أطلعنا على نماذج من طب الفرنجة الفظيع، يتقبل بصبر المؤمن ما أصابه على يد الصليبيين الذين سلبوه كل ما يملك، ولكنه يكتب في مذكراته «إن سلامة أولادي وأبناء أصدقائي ونسائنا قد خففت من آلام فقدي لكل ممتلكاتي، ولكن خسارتي لكتبي آلمتني ألماً شديداً، لقد كانت أربعة آلاف مجلد، ولكنها كتب قيمة، وغدا فقدها باعث حزني طوال عمري».

لم يكن الرجل الذي كتب هذا من أئمة العلماء، وإلا لقلنا: وكيف لا وهو عالم يقدر العلم والكتب؟ لقد كان فارساً محارباً ورجل سياسة، ولكن لا عجب في هذا، فقد كان أحد أفراد شعب تربى منذ الطفولة على أن يقرأ ويكتب. (517)

و في العصور العباسية والأندلسية حظي الكتاب بالمنزلة الراقية والمنزلة العظيمة في قلوب أهل العلم بمختلف مشاربهم وميولهم الفكرية، فنال كثيراً من الاهتمام والعناية؛ فلقد نشر ابن النديم، تاجر الكتب في بغداد، فهرساً للعلوم يضم في عشرة مجلدات أسماء جميع الكتب التي صدرت باللغة العربية في الفلسفة والفلك والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والطب حتى ذلك الحين.

وفي الأندلس اجتذبت قرطبة طلاب العلم من كل أنحاء الشرق بل والغرب أيضاً، جذبتهم بمدارسها العليا ومكتبتها العظيمة التي جمع لها الخليفة الحكم الثاني، وهو من أشهر علماء عصره، نصف مليون من الكتب القيمة، جمعها له عشرات من رجاله.

وفي القاهرة رتّب مئات العمال والفنيين في مكتبتي الخليفة مليونين ومئتين من المجلدات، وهو يعادل عشرين ضعفاً ما حوته مكتبة الإسكندرية الوحيدة في عصرها.

«إنه لمن المعلوم تماماً أنه ليس ثمة أحد في رومة له من المعرفة ما يؤهله لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة. وأنى لنا أن نُعلّم الناس ونحن في حاجة لمن يعلمنا، إن فاقد الشيء لا يعطيه»، هذا ما قاله متحسراً من يعرف الحقيقة تمام المعرفة: جربرت فون

أورياك الذي ارتقى كرسي البابوية في رومة عام 999م = 390هـ باسم البابا سلفستر الثاني.[518]

وكتب «لوسترانجر» يقول: «كان لجامعة المستنصرية بناية عظيمة مزينة، في أرض واسعة، وفيها أثاث من النوع الفاخر العالي، لم يكن يُر مثله قبله في العالم الإسلامي. وكان لها أربعة مدارس للحقوق، في كل مدرسة خمس وسبعون طالباً، ولكل مدرسة أستاذ يدرسهم مجاناً، ولهم رواتب شهرية منتظمة، وكان يعطى لكل من الطلاب والأساتذة يومياً كمية معينة من اللحم والخبز. ووفقاً لما قاله ابن الفرات كانت بها مكتبة فيها الكتب القيمة النفيسة والنادرة في مختلف العلوم والفنون في متناول أيدي الطلاب، وكانت الجامعة تعطي الطلاب الأقلام والدفاتر إذا أرادوا أن يستنسخوا شيئاً من الكتب. وكان للجامعة مستشفى وحمامات خاصة، وكان طبيب المستشفى يتعهد الجامعة صباح كل يوم فيكتب للمرضى منهم ما يخصهم. وكانت المدارس مليئة بالمواد الغذائية والمشروبات والأدوية العلاجية وغيرها. ولا ننسى أن كل هذه التوسعة في وسائل تحصيل العلم والمعرفة كانت في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي».

وكتب الدكتور ماكس مايرهوف يقول: «يوجد في اسطنبول أكثر من ثمانين مكتبة في المساجد، فيها عشرات الآلاف من الكتب والنسخ المخطوطة القديمة. وفي القاهرة ودمشق والموصل وبغداد وكذلك في إيران والهند يوجد مكتبات أخرى كبرى تحتوى آثاراً قيمة نفيسة، لم يفهرس لكثير منها، والمطبوع المنشور منها أقل من القليل. وحتى فهرست مكتبة «إسكوريال» في إسبانيا التي تشتمل على شطر كبير من الكتب والرسائل في العلوم الإسلامية ناقص لم يكمل بعد. طبيعي أن الذي كُشف عنه أخيراً يلقي الضوء على التاريخ القديم للعلوم في العالم الإسلامي، ولكن لا يكفي ذلك قطعاً، وسيدرك العالم في المستقبل أهمية العلوم الإسلامية أكثر من ذي قبل».

وكتب غوستاف لوبون يقول: «إن الجدية التي أبداها المسلمون في طلب العلوم مدهشة حقاً، إنهم كانوا إذا افتتحوا مدينة واستولوا عليها كان أول ما يقدمون عليه أن يبنوا فيه مسجداً ومدرسة. أما في المدن العظمى فقد كانت لهم فيها مدارس كثيرة حتى كتب (بنجامن تووك الذي توفي سنة 1173م = 569 هـ) يقول: رأيت في الإسكندرية عشرين مدرسة عامرة، بالإضافة إلى المدارس العامة، التي تأسست في بغداد والقاهرة وقرطبة وغيرها، وكان فيها مختبرات ومراصد ومكاتب كبرى وسائر وسائل التحقيق والتنقيب والدراسة، كما كان في الأندلس سبعون مكتبة عامة. وكان في مكتبة الحاكم الثاني في قرطبة ستمئة كتاب، أربع وأربعون منها فهارس للمكتبة. في حين أن (شارل العاقل) حينما أسس المكتبة الحكومية في باريس بعد ذلك بأربعمئة سنة إنما استطاع بعد تعب كثير أن يجمع تسعمئة كتاب كان ثلثها من الكتب الدينية».

إنّ خدمة المسلمين لم تكن أن تقدموا بالعلم من خلال التحقيق والتنقيب والدراسة والاكتشاف وأنهم نفخوا فيه بروح حديثة جديدة، بل إنهم بتأسيسهم للمدارس وتأليفهم وتصنيفهم وكتابتهم للكتب التي أشاعوها ونشروها في العالم ومنه عالم العلوم والفنون والمعارف في أوربا. «إنهم كانوا لعدة قرون أساتذة أوربا، وبواسطتهم فقط شاعت العلوم والفنون القديمة اليونانية والرومية في أوربا» على حد تعبير لوبون.

إنّ أوربا في القرون الوسطى وقعت في ظلام حالك من الجهل فوقف بها تيار العلم، ونضبت موارد الحكمة، وبقي الناس في جهلهم نحواً من ألف سنة! وإنّ بلاد المسلمين كانت في تلك الفترة ملجأ العلم والحكمة وموطن المدنية والحضارة، فبلغت فيها المعارف والفنون أرفع ما قدّر لها في تلك القرون.

وكتب (جوزيف ماك كاب) بشأن التقدم الثقافي للمسلمين في القرون الأولى يقول:

«وكان المجتمع ـــ وحتى الطبقة السفلى منه ـــ متعطشاً لقراءة الكتب، فكـــان العمّال يقنعون بطعام قليل ولباس حقير ليتمكنوا من شراء الكتب حتى بآخر قطعة من نقودهم، حتى كان لأحد العمال مكتبة كبرى يسرع إليها العلماء باشـــتياق، ونجـــد الموالي المتحررين أو أبناءهم من مشاهير العلماء يومئذ، وكذلك نجد كثيراً من النساء في زمرة مشاهير ذلك العهد».

وكتب جواهر لال نهرو في كتابه «نظرة إلى تاريخ العالم» بشـــأن حضـــارة المسلمين وتقدمهم وحركتهم الثقافية في الأندلس يقول: «كانت قرطبة مدينة كـــبيرة جداً فيها مليون نسمة، وكانت تشبه مدينة حديثة كبرى طولها عشـــرون كيلـــومتراً وحومتها أربعون كيلومتراً. يقال: كان فيها ستون ألف قصراً وداراً كبرى ومئتا ألف دور صغرى، وثمانون ألف حانوت وثلاثة آلاف وثمانمئة مسجد وسبعمئة حمام عـــام ».

كان في هذه المدينة مكاتب كثيرة من أكثرها اعتباراً وأهمها المكتبـــة الملكيـــة للأمير التي كان فيها أربعمئة ألف كتاب. وكانت جامعة قرطبة معروفة في كافة أنحاء أوربا وحتى في آسيا الغربية، وكانت هناك مدارس كثيرة للفقراء بالمجان.

ويقول أحد المؤرخين: «كان كل أحد في إسبانيا يعرف القراءة والكتابـــة، في حين أنه في أوربا المسيحية كان الرجال في الطبقات العليا من المجتمـــع يعيشـــون في جهل كامل عدا رجال الدين».(519)

جاء في طبقات الأمم لصاعد بن أحمد القاضي الطليطلي قوله: انتـــدب عبـــد الرحمن الناصر ابنه الحكم المستنصر بالله إلى العناية بالعلوم وإلى إيثار أهلها، فاستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار الشرق عيون التآليف الجليلة والمصنفات العربية في العلوم القديمة والحديثة، وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه من بعده ما كـــاد يضاهي ما جمعه ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة، وتهيأ له ذلك لفرط محبته للعلم

وبُعد همته في اكتساب الفضائل وسمو نفسه إلى التشبه بأهل الحكمة من الملوك، فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم.

وقد سار الحكم على غرار والده عبد الرحمن الثاني بإيفاد رسله إلى المدن الكبرى لشراء المخطوطات مهما عز الثمن، وأوصاهم باستنساخها إذا لم يتيسر ابتياعها، وكان يكتب بنفسه لمؤلفي زمانه يطلب منهم كتبهم ويجزيهم عليها خير الجزاء. وقد بلغ في أيامه عدد الكتب في مكتبة قرطبة العامة ستمئة ألف كتاب، علّق بنفسه على عدد كبير منها، وكثيراً ما كانت تنتهي إليه المؤلفات قبل أن يقرأها أحد وقبل أن يباشر مؤلفها بنشرها، فلم يكد يبلغه أن أبا الفرج الأصبهاني عالم العراق أنجز كتابه (الأغاني) حتى اقتنى أول نسخة منه، فكان شديد العناية بالعلماء دائباً على تشجيعهم.

أما تزويد البيوت بالمكتبات وولع الأندلسيين بشراء الكتب والمفاخرة بها، فقد بلغ حداً كبيراً كما تشير إلى ذلك الحادثة الآتية:

قال الحضرمي: أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط جيد، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع لي المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي.

قال: فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه، وقلت له: أعزّ الله سيدنا، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده، فقال لي: لا أدري ما فيه، ولكن أقمت خزانة كتب في داري لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته و لم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير.

و لم تكن سوق الكتب لتروج إلى ذلك الحد لولا صناعة الورق المحلية، كانت هذه الصناعة من أجل الخدمات التي أسداها العرب والإسلام إلى أوروبا، ولولاهما لما

تم اختراع آلات الطباعة ذات الحروف المتحركة، وكانت شاطبة مركز صناعة الورق في إسبانية المسلمة، ثم انتقلت صناعة الورق من إسبانية العربية إلى فرنسا، وكان لعبد الرحمن كاتب اعتاد أن ينشئ الرسائل الرسمية في منزله ثم ينفذها إلى ديوان خاص يصير فيه إظهارها على الورق، وهو نوع من الطبع، فتصدر فيه نسخ متعددة توزع على عمّال الدولة. (520)

أما عن انتشار المكتبات والعلوم؛ فقبل الفتح العربي بعدة قرون، كانت مدن بلخ وسمرقند تعد من مراكز الثقافة العقلية المشهورة في إيران الشرقية. ففي تلك المدن المقدسة، كان الرهبان البوذيون ينقلون إلى اللغة الإيرانية فكر الصين والهند. وفي جامعة جنديسابور، المؤسسة في القرن السادس الهجري، كان يجري نقل أعمال بعض الفلاسفة الصينيين من القرن الثامن ق.م. إلى الإيرانية الغربية. ولم تكن سمرقند تملك فقط مكتبة رائعة، بل كانت تملك أيضاً معامل ورق.

ومما يذكر أن الخليفة العباسي الأول كان قد اختار للوزارة برمكياً، متحدراً من أسرة عريقة، كان أجدادها منذ قرون هم دالاي لاما الديانة البوذية. ولقد عرف أولئك البرامكة كيف يوحون للخلفاء وبلاطهم حب الدراسات والكتب، فجعلوا من بغداد مركزاً علمياً تفوق على سمرقند، إذ استقبل الروائع الصينية والسنسكريتية والإيرانية الشرقية والكتب السورية والبيزنطية الغربية. وكان لأول مكتبة إسلامية أقيمت إلى جانب « دار الحكمة» نجاح كبير، لدرجة أن اليعقوبي قد أحصى سنة 278هـ = 891م، أكثر من مئة مكتبة لبيع الكتب في بغداد، وكانت حوانيت بيع الكتب مراكز اجتماعات أدبية وأماكن استنساخ ذات رواج كبير.

ولم تغتن معظم الجوامع بمكتبات في وقت سريع جداً وحسب، بل ذهبت بعض المدن إلى حد إنشاء مكتبات كبرى. فقد كانت الموصل تملك، نحو العام 339هـ = 950م، مكتبة بلدية حيث كان في مستطاع الطلاب التزود بالورق وبالكتب؛ وفي وقت لاحق، كانت النظامية المقامة في بغداد سنة 457هـ =

1064م، تملك بدورها موازنة تعادل مليون ونصف مليون فرنك ذهب مخصصة لشراء كتب ومخطوطات، ففي ذلك العصر، لا يجرؤ أحد أن يكون غنياً دون أن يدعم الآداب والفنون. وعلى هامش الأجهزة الرسمية، كانت المكتبات الخاصة مشابهة كثيراً للأندية الإنكليزية الحالية؛ بمعنى أنها تشكل، مع حوانيت الكتب، أماكن اجتماعات وترفيهات. واعتباراً من القرن العاشر الميلادي، بلغت غنى لا يوصف؛ فمكتبة النجف، وهي مدينة صغيرة في العراق، كانت تملك 40 ألف جزء، وكان في مكتبة أبي الفداء، وهو أمير حماة، ستون ألف كتاب، و كانت مكتبة المؤيد في جنوب الجزيرة العربية تضم مئة ألف، واحتوت مكتبة مراغة على 400 ألف كتاب، وكان لابد من عشر قوائم كبرى لتسجيل الكتب في مكتبة الري، لكن أكملها كانت مكتبة العزيز في القاهرة القديمة، فهناك كانت الكتب موضبة ومصنفة بعناية بالغة مليون وستمئة ألف كتاب، منها 6500 كتاب في الرياضيات و8000 كتاب فلسفة... أما مكتبة بخارى، فقد أعلن ابن سينا أنه رأى فيها كتباً غير موجودة في أي مكان آخر.

وكان عدد المثقفين يعادل تقريباً ثلث السكان، وكان رائجاً عند الأغنياء أن يمتلكوا مجموعة رائعة من الكتب النادرة. ونذكر على سبيل المثال حالة ذلك الطبيب الذي رفض دعوة سلطان بخارى لإقامته في بلاطه؛ إذ كان يلزمه أربعمئة جمل لنقل مكتبته التي كانت تمثل نحو مئة ألف كيلو غرام من الكتب والمخطوطات. وكان الواقدي قد ترك عند وفاته ستمئة صندوق من شتى أصناف الكتب، كان يلزم رجلان لنقل كل صندوق منها. وهناك جمّاعة كتب آخر، هو الصاحب بن عباد الذي كان يملك منذ القرن العاشر الميلادي كتباً أكثر مما كان يمكن إحصاؤه في كل مكتبات أوربا مجتمعة.

يقول جاك ريسلر: «عاش الناس ورأوا ما بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر الميلاديين، ما لم يكونوا قد صادفوه أبداً؛ ففي كل مكان شغف شديد بالكتب،

وألف جامع تسطع ببيان العلماء وبلاغتهم، ومائة بلاط أميري تصدح فيها ألسنة الشعراء أو الفلاسفة، ودروب مكتظة بالجغرافيين والمؤرخين والفقهاء الباحثين عن العلم والمعرفة، إنها أعظم يقظة فكرية في التاريخ الإسلامي». [521]

– أنواع المكتبات ونظامها:

تعددت أنواع المكتبات، فوُجدت المكتبات الملحقة بالمساجد، والمكتبات الملحقة بالمدارس، فاقترنت المكتبة الإسلامية بالمسجد وبالمدرسة؛ لذلك يندر أن نجد مسجداً أو مدرسة ليس فيهما مكتبة، فقد كان في المساجد و المدارس مكتبات تحتوي مادة علمية يطلع عليها الطلاب، ويستكملون بها تعلمهم. واحتوت هذه المكتبات كتباً من مختلف أنواع العلوم والمعارف والفنون[522].

ووُجدت المكتبات الشخصية الخاصة، واشتملت هذه المكتبات على عدد كبير من الكتب في شتى أنواع العلوم والمعارف، ووضعت تحت تصرف طلبة العلم يطلعون على ما فيها وينهلون منها، وارتبطت بنظام خاص يحفظها ويصونها وينظم الاطلاع على محتوياتها وتداولها [523].

وقد ساهم هذا النوع من المكتبات في الحركة الفكرية، لغنى هذه المكتبات بالكتب الكثيرة التي جعلها أصحابها ميراثاً للمدارس وللأصدقاء في أغلب الحالات، ويعد إنشاء المكتبات الخاصة هذه سمة من سمات الشخصية المرموقة اجتماعياً آنذاك.

فكان لخزائن الكتب (وهي المكتبات) العامة والخاصة التي انتشرت في بغداد خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين انتشار واسع وأثر كبير في تيسير العلم والتعليم، وتشجيع الطلاب على الاستمرار في الدراسة والبحث، والمساعدة على نمو الحركة الفكرية في شتى ميادينها.

و لم يكن أحد من علماء بغداد يخلو بيته في الغالب من خزينة كتب (مكتبة) كبيرة، وربما تكون أكثر هذه الكتب في العلم نفسه الذي يبرز فيه صاحبها، فيحيى بن معين عالم بغداد الكبير في علم الجرح والتعديل (ت 233هـ = 847م) خلّف

من الكتب بعد موته ثلاثين قمطراً (الـذي يصـان في الكتـب) وعشـرين حبـاً (الصندوق). وكان في بيت إبراهيم بن إسحق الحربي (ت285هـ = 898م) ـــ وهو أحد كبار الحنابلة في بغداد ـ اثنا عشر ألف جزءاً في اللغة وغريـب الحـديث كتبها بخطه. و بلغت كتب ابن عقدة: أحمد بن محمـد بـن سـعيد الكـوفى (ت 332هـ = 943م) ستمئة حمل، وكان عالماً باللغة والحديث والتاريخ. وحينما أراد أبو بكر أحمد بن محمد البرقاني الخوارزمي (ت 425هـ = 1033م) أن ينتقل من محل الكرخ ببغداد إلى قرب باب الشعير، حُملت كتبه في ثلاثـة وسـتين سـفطاً وصندوقين. وحُملت كتب الواقدي المؤرخ المشهور (ت 207هـ = 822م) حينما أراد أن يتحول من الجانب الغربي من بغداد في عشرين ومئة وقر. وقيل: كان له ستمئة قمطر كتباً. ويذكر الخطيب البغدادي أن الأديب والمؤرخ الكبير أبا بكـر الصولي (ت 335هـ = 946م) كان يمتلك بيتاً كبيراً ملأه بالكتـب، وكانـت كلها من سماعه، وقد رتّبها صفوفاً بحسب لون جلودها، كل صف من الكتب لون، فصف أحمر، وآخر أخضر، وآخر أصفر، وغير ذلك. والأمثلة كثيرة في هذا البـاب [524].

ومن تلك المكتبات مكتبة إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد بن سعد الله بـن جماعة (ت 790هـ - 1388م)، حيث «اقتنى من الكتـب النفيسـة بخطـوط مصنفيها وغيرهم ما لم يتهيأ لغيره»[525]. وكان محمـد بـن شـاكر الكـتبي (ت 764هـ - 1362م) يتكسب من تجارة الكتب، فرزق منها مالاً طائلاً، وخلّـف منها جملة كبيرة[526].

وذكر ابن منظور محمد بن مكرم بن علـي الأنصـاري (ت 711هـ - 1311م) ـ كاتب الإنشاء بمصر ـ أنّ والده مات وترك له بخطـه خمـس مئـة مجلد[527]. ووقف الطبيب المشهور ابن النفيس (ت 687هـ - 1288م) كتبـه على البيمارستان المنصوري[528].

وقد تمتع الوزراء والأمراء والوجهاء باقتناء مكتبات ضخمة في بيوتهم حوت آلاف الكتب والمجلدات، فالوزير الأديب الصاحب بن عباد (ت385هـ = 995م) كان عنده من الكتب ما إذا احتاج إلى نقلها لحملت على أربعمئة جمل، وكان أستاذه أبو الفضل بن العميد (ت360هـ = 970م) يمتلك مكتبة فيها من كل علم، ويبلغ كل نوع من أنواع الحكم والآداب مئة وقر وزيادة، وقد نجت هذه الكتب عندما نهب قوم من الخراسانية منزله عام 355هـ = 965م. وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل والمقتول معه في سامراء سنة 244هـ = 958م محباً للكتب، ويمتلك منها خزانة لم ير أعظم منها كثرة وحسناً، وقد عهد بجمعها إلى رجل من خيرة رجال العصر، وهو علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم (ت 275هـ = 988م)، ويقول ابن النديم «إن ابن المنجم اتصل بالفتح بن خاقان وعمل له خزانة حكمة نقل إليها من مكتبته ومما استكتبه الفتح أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط».

ومن المكتبات العامة التي أُنشئت لتيسير المطالعة على الراغبين في تحصيل العلم: دار علم سابور، وهي الدار التي أسسها سابور بن أرديشر (ت 416هـ = 1025م) ــ وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي ــ في محلة (بين السورين) ببغداد، سنة381هـ = 991م، احتوت على كتب العلم من كل فن، وبلغت عدد مجلداتها عشرة آلاف مجلد، وقد وصفها ياقوت في معجم الأدباء بقوله: «لم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولها المحررة».

وهذه الدار كانت على درجة كبيرة من الأهمية في نشر الثقافة بما كانت تحتويه من مؤلفات نادرة، ولأنها كانت بمثابة كعبة ثقافية يحج إليها كل من لديه الرغبة في تحصيل العلم والمعرفة، فضلاً عن نشاطها التعليمي. ويمكن الاستدلال على الأهمية العلمية لدار علم سابور من ثلاثة أوجه:

الأول: أنها كانت تستقبل أوقافاً من مؤلفات العلماء البارزين مثل جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع الطبيب (ت 396 هـ = 1005م) الذي أوقف على هذه الدار كتابه المسمى الكناش الكبير، ويلقب بالكافي في الطب، ويقع في خمس مجلدات ألّفه للصاحب بن عباد.

والثاني: كان من أهل العلم من يرسل مؤلفه إلى هذه الدار لتقييمه علمياً، حيث إن قبوله فيها يعد اعترافاً بقيمته العلمية.

والثالث: أن هذه الدار استهوت كبار رجال العلم والأدب، فأقبلوا عليها للدرس والبحث والمناظر والإقامة، ومن هؤلاء الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري (ت 449 هـ = 1057م) الذي رحل إلى بغداد سنة 398هـ = 1007م، وأقام بها سنة وستة أشهر، وكان يقول: «آثرت الإقامة بدار العلم، فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن بإقامتي فيه». (529)

والأمر الحضاري الراقي الذي أود أن أتحدث عنه قبل إن أُقفل ملف المكتبات؛ هو أنها سارت وفق نظام محدد، لكونها تمثل جزءاً مهماً من الأداة التعليمية (530)، فكانت خزانة الكتب تُقسم إلى رفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، وكان فيها إطارات كبيرة وصغيرة مصنوعة من الخشب، واحتوت كل خزانة مجموعة من الكتب لُصق عليها ورقة مترجمة ملصقة على كل باب منها، وكانت المصاحف الكبيرة توضع في خزانة خاصة جانب المحراب في المدرسة، وأُثبتت الكتب في سجل على هيئة كتاب يتضمّن قوائم الكتب مرتبة بعناية بحسب الموضوعات أو أسماء المؤلفين(531).

وكان يشرف على المكتبة موظف خاص يُسمى «خازن الكتب»(532)، وحدد تاج الدين السبكي مهمته بقوله: «وحق عليه الاحتفاظ بها، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك، والضنة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج إليها»(533).

وحدد الواقفون نظام الاطلاع والاستعارة بدقة تامة بغية الحفاظ على الكتب من الضياع، فمن الواقفين من منع الاطلاع على الكتب لمن عُرف بتفريطه بها، واشترط بعضهم الآخر كتابة اسم المستعير على أن يُمحى بعد الإعادة زيادة في الحرص، ونص بعض الواقفين على ضرورة عزل خازن الكتب إذا بدا منه أيّ تقصير[534]، وحرَّم بعضهم خروج الكتب من المكتبة نهائياً. و في حال سُمح بإخراج الكتاب من المدرسة، فكثيراً ما كان يشترط الواقف ألاّ يتم ذلك إلا برهن[535]، والأولى في الإعارة أن تكون للمحتاجين إلى الكتب والعارفين لقيمتها[536]. وحُدد موعد فتح المكتبة في الأوقات المتوافقة مع الدروس المخصصة[537].

- مكتبة بيت الحكمة أنموذجاً:

مكتبة عامة أنشأها الخليفة هارون الرشيد في بداية خلافته، وأوكل أمرها إلى ابنه المأمون، وقد جلب لهذه المكتبة الكثير من أمهات الكتب اليونانية والفارسية والهندية، وكان وجودها هو مبعث أمل للعلماء العرب للدخول في مجالات البحث والدراسة في علوم الأوائل.

ويعد الخليفة هارون الرشيد أول الخلفاء الذين اعتنوا بجمع ونسخ وترجمة الكتب من لغاتها إلى اللغة العربية، وقد أوكل على إدارة هذه المكتبة الطبيب يحيى بن ماسويه، وقيل إن الرشيد قلّده رئاسة هذه الدار، لترجمة الكتب الطبية التي أُحضرت من أنقرة وعمورية وبلاد الروم.

وكانت الكتب تحفظ بلغاتها الأصلية: السريانية ــ اليونانية ــ اللاتينية ــ الفارسية ــ الهندية ــ وإلى جانبها ترجماتها باللغة العربية.

وكان الباحثون والدارسون يلتقون في هذه المكتبة العامرة بالعلماء والمترجمين يطالعون ويدرسون ويبحثون، وكثيراً ما يقوم أحد العلماء بشرح بعض الكتب للدارسين، أو إلقاء محاضرات وندوات علمية يجتمع إليها الناس.[538]

كان فيها ــ كما يقول القلقشندي ــ من الكتب ما لا يحصى كثرة، ولا يقوم عليه نفاسة، و لم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب، ودهيت معالمها وأعفيت آثارها.

وبيت الحكمة كانت أول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الإسلامي، بل إنها كانت أول جامعة إسلامية اجتمع فيها العلماء والباحثون، ولجأ إليها الطلاب، فكانت بذلك أول مركز علمي يحقق للطلاب زاداً علمياً وفيراً، ويخرج لهم من جهد القائمين عليها ثقافة مختلفة الاتجاه تشمل الطب والفلسفة والحكمة وغيرها.

و لم تكن مهمة هذه الدار العتيقة – التي وصل نشاطها العلمي إلى ذروته في عهد المأمون العباسي منذ دخوله إلى حين وفاته(سنة 218هـ = 833م) – تقتصر على ترجمة كتب اليونان والفرس والهنود، بل كانت تقوم بدور التعليم والبحث العلمي، وكان بها طائفة من كبار العلماء في القرنين الثالث والرابع الهجريين، لا سيما من كان ذا حظ وافر في معرفة لغة أو أكثر من اللغات الأجنبية، كالسريانية واليونانية والفارسية والهندية وغيرها. ونذكر منهم على سبيل المثال: محمد بن موسى الخوارزمي (ت 236 هـ = 850م) والكندي (ت252 هـ = 866م) وحنين بن إسحاق العبادي (ت 260هـ = 873م) ويوحنا بن ماسويه (ت 243هـ = 857م)، وأبا سهل الفضل بن نوبخت، وأبو بشر متى بن يونس (ت 339هـ = 950م)، وسهل بن هارون(ت 215هـ = 830م) وأحمد ومحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر، وغيرهم ممن يطول المقام بذكرهم.

وقد كان العمل الذي يقوم به هؤلاء العلماء في بيت الحكمة هو الإشراف عليها وإدارتها واستنساخ الكتب القديمة أو نقلها من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية والتعليق عليها أو شرحها إلى جانب إفادة الطلاب وراغبي العلم من أهل بغداد أو الوافدين إليها.

وليس من المغالاة إذا قلنا: إن كل ــ أو جل ــ ما تُرجم في دار الحكمة من كتب في الطب و الصيدلة والفلك والرياضيات والمنطق والفلسفة، وكذلك الكتب التي ألّفها علماء هذه المؤسسة العلمية ــ أو غيرهم من علماء بغداد ــ للتعليق على التراث القديم أو شرحه أو نقده أو تطويره، انتقل إلى الحواضر الإسلامية في بلاد خراسان وما وراء النهر والشام ومصر والمغرب والأندلس، وأثمرت بها نهضة علمية في تلك الميادين. كما أن كثيراً من المكتبات العامة التي أُنشئت في الأقاليم المذكورة ــ مثل مكتبة الزهراء التي كوّنها الحكم المستنصر (350- 366هـ = 961 – 976م) بقرطبة ودار العلم التي أنشأها الحاكم بأمر الله بالقاهرة سنة 359هـ، ودار كتب عضد الدولة البويهي (ت 372هـ = 982م) في شيراز ــ كانت عامرة بكثير من الإنتاج العلمي الذي خرج من دار الحكمة ببغداد. (539)

وفي خلافة المأمون (198 ــ 218هـ = 813 – 833م) تطورت هذه المكتبة حين سميت بيت الحكمة أو دار الحكمة، فأصبحت تضم جامعة يقصدها طلاب العلم من كل مكان، وقد تألفت من: مركز للبحوث ــ مراصد فلكية ــ مكتبة عامة ــ قسم للترجمة ــ قسم للنسخ ــ قاعات فسيحة للمطالعة، وقاعات للمحاضرات.

و لم يمض عام 210هـ = 825م حتى أصبح في كل عاصمة أو مدينة من المدن العربية والإسلامية مركز علمي يماثل ما هو موجود في العاصمة «بغداد»، يحضر طلاب العلم إلى المكتبة، ويحصل على ما يريد من الكتب، يقرأ ما يريد، ويستقبل من يشاء من المؤلفين والمترجمين.

وقد تعاقب على إدارة بيت الحكمة كل من سهل بن هارون، فكان يترجم الكتب عن الفارسية، وسلم الخازن المسؤول عن الترجمات من اللغة السريانية والفارسية.

وفي هذا العام نفسه كان سلم الخازن على رأس مجموعة من العلماء: البطريق الحجاج بن مصر، حنين بن اسحق؛ يقومون بجولة في البلاد الإسلامية، يتعرفون على المراكز العلمية والمدارس ويزودونها بما تحتاجه من الكتب وينقلون منها الكتب التي لم يتم ترجمتها بعد وقبل، لقد عاد سلم وصحبه ومعهم العديد من الكتب العلمية في مختلف العلوم والفنون التي أُدخلت إلى بيت الحكمة وبدأ المترجمون أعمالهم.

وقد زارت أديبة ذلك الزمن السكسونية هورتسويزا قرطبة فوصفتها بأنها جوهرة العالم. فكانت قرطبة في ذلك الحين مثار إعجاب الناس، وكان الرحالة القادمون من الشمال يتسامعون بين الخشوع والتقدير أخبار المدينة. وكان يفد إليها الطلاب من كل جانب ومن جميع الملل والنحل ومن كل قطر عربي وغير عربي، وممن اشتهرت دراستهم في جامعتها ومدارسها من عظماء الرجال البابا سيلفستر الثاني، وفرانسيس لمبريه.

أما تزويد البيوت بمكتبات وولع الأندلسيين بشراء الكتب والمفاخرة بها فقد بلغ حداً كبيراً.(540)

كتب «ويل ديورانت» يقول: «إن المأمون الخليفة العباسي أحدث في سنة 215هـ = 830م في بغداد: بيت الحكمة، وكان فيه مرصد ومكتبة عامة، وصرف لهذا العمل مئتي دينار، والذي كان يساوي ذلك اليوم ثروة كبيرة، وجمع إليه جمعاً من المترجمين الذين كانت لهم معرفة تامة باللغات الأجنبية والعلوم المختلفة من أمثال: إسحاق بن حنين وبختيشوع وابن بطريق وابن المقفع وحجاج بن مطر وسرجيس الراسي، وقرر لهم رواتب من بيت المال».

ونقل فريد وجدي في كتابه «دائرة معارف القرن العشرين» عن العلامة «درابر» الأستاذ بجامعة نيويورك الأمريكية في كتابه: «المنازعات بين العلم والدين» من النسخة الفرنسية في طبعتها العاشرة التي ظهرت سنة1900م ما ترجمته:

«وبعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم تُرجمت إلى العربية أهم المؤلفات اليونانية... ولكن عصر العلم الزاهر في القارة الآسيوية لم يشرق إلا في خلافة المأمون... فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى، وجمع إليها كتباً لا تحصى، وقرّب إليه العلماء وبالغ في الحفاوة بهم... ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن يتوصلوا إلى تكوين المكتبات، وقد قيل: إن المأمون نقل إلى بغداد مئة حمل بعير من الكتب».

في حين لم يكن يوجد في كافة أنحاء أوروبا مركز ثقافي واحد؛ كان للمسلمين في بلادهم مراكز علمية وثقافية كثيرة، وكان لهم في مختلف فنون العلم أفراد أخصائيون خبراء ومهرة، وأثناء الحروب الصليبية فاضت هذه الأمواج الإسلامية الفكرية المشرقة إلى خارج حدود بلاد الإسلام حتى ارتوت أوربا من ينابيع علوم المسلمين. و كتب غوستاف لوبون في ذلك يقول:

«في ذلك العهد الذي لم يكن للكتاب والمكتبة أيّة قيمة أو معنى لدى الناس في أوربا، و لم يكن يوجد في جميع الصوامع وعند جميع القسس في أوربا أكثر من خمسمئة كتاب ديني، كان للدول الإسلامية ما يكفي من الكتب والمكاتب، ففي مكتبة بيت الحكمة ببغداد أربعة ملايين كتاب، وفي مكتبة الملوك بالقاهرة مليون كتاباً، وفي مكتبة طرابلس في الشام ثلاثة ملايين كتاب، وفي إسبانيا كان يصدر سنوياً ما يقرب من سبعين إلى ثمانين ألف كتاب».(541)

الفصل الثاني

مؤسسة الترجمة

أولاً– حركة الترجمة الإسلامية:

بزغ فجر الترجمة عند العرب بعد الإسلام فأشرقت شمس نهارها فأنارت العالم كله، رأى العرب في الترجمة رسول الفكر إلى الفكر تتخطى المكان وتتحدى مرور الزمن لأنها سلك يربط بني الإنسان بعضهم ببعض على اختلاف مللهم وألوانهم ونحلهم، فشجّعوا حركتها وأسسوا المدارس لها، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من حث على تعلم الألسنة والاضطلاع بالترجمة، فقد روى محمد بن عمر المدائني في كتاب القلم والدواة قول الرسول لزيد بن ثابت: أتحسن السريانية؟ قال: لا، قال: تعلمها، فتعلمها زيد. (542)

لقد واجه العرب الأوائل الثقافات اليونانية التي كان الإغريق يفرضها على العالم القديم من خلال المراكز العلمية والأديرة المنتشرة التي كانت تعنى بالكتب والترجمات لعلوم الأوائل، فكانوا يحصلون على ترجمات لبعض الكتب باللغة العربية، حيث قام فريق من العلماء السريانيين على ترجمة كثير من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية إلى لغتهم ثم إلى اللغة العربية، وترجموا للخلفاء المسلمين بعض الكتب التي تعنى بالطب والتاريخ والنظم السياسية.

وعندما امتدت حدود الدولة الإسلامية من المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود الصين شرقاً، ومن البلاد التركية والرومية شمالاً حتى المحيط الهندي جنوباً، كان يعيش في هذه البلدان شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة، وبعد انتشار الإسلام أصبح الشخص هندياً أو فارسياً أو رومياً بحكم الولاء عربياً.

لقد كانت المواجهة مع هذه الثقافات المختلفة أمر بالغ الخطورة ليس في بلاد اليونان أو في القارة الأسيوية أو غيرها، بل في البلدان العربية التي كان يحكمها اليونانيون والإغريق مثل الشام ومصر والعراق، وقد تأثرت شعوبها إلى حد كبير بالثقافات المختلفة، وحتى اللغات، فكان هذا بحق امتحاناً للغة العربية.

لكن الإسلام بتعاليمه السمحة أحدث امتزاجاً بين هذه الشعوب المختلفة في الثقافة واللغة، وبفضل من الله ثم بشيء من الحكمة والصبر والأناة تمكن الجميع أن يقهروا هذه المصاعب بالتقارب والألفة والمحبة. (543)

وعندما فتح العرب، في القرن السابع الميلادي، العراق وسوريا ومصر، كانت العلوم والفلسفة اليونانية سائدة في مختلف المراكز العلمية هناك، قبل ذلك كانت مدرسة الإسكندرية الشهيرة قد انتقلت إلى سوريا، وبعد ذلك، حوالي عام 287 هـ = 900م، انتقلت إلى بغداد، حيث كان ممثلو هذه المدرسة – رغم كونهم من المسيحيين – يشاركون في المناقشات الفلسفية.

وفي حرّان كانت هناك مدرسة شبه فلسفية لطائفة الصابئة، اقتدى ممثلوها ببغداد. ولكن المدرسة السريانية في مدينة جنديسابور كانت أهم المراكز العلمية، وقد اشتهرت هذه المدرسة في مضمار تدريس الطب بوجه خاص، منها تخرج الطبيب الخاص لهارون الرشيد، ومنها أيضاً تخرج، خلال ما يقارب المئة عام، أخلافه ممن كانوا يزاولون مهنة الطب في البلاط، بفضل هذه الاتصالات أصبح الخلفاء، وغيرهم من الزعماء المسلمين، يدركون مدى إمكانية الاستفادة من العلوم اليونانية، فنظموا عملية نقل أهم مؤلفاتها إلى اللغة العربية من اللغة السريانية (التي كانت لغة التدريس في جنديسابور وغيرها من المراكز العلمية).

وتجدر الإشارة إلى أن بعض التراجم بدأت تظهر منذ القرن الثامن الميلادي، بيد أن حركة الترجمة الفعلية لم تبدأ إلا في عهد المأمون، الذي أسس، لهذا الغرض، هيئة خاصة عُرفت بـ «بيت الحكمة».

ومنذ ذلك الوقت بدأ يتدفق سيل عارم من التراجم، استمر طوال القرن التاسع والجزء الأعظم من القرن العاشر، حتى أنجزت ترجمة كل المؤلفات اليونانية، التي حظيت باهتمام العرب. جرت الترجمات الأولى من اللغة السريانية، حيث إن عدداً كبيراً من المؤلفات اليونانية كان قد ترجم إلى هذه اللغة، كذلك كان من الأسهل

العثور على أناس يعرفون اللغتين العربية والسريانية، نظراً لسعة انتشار هذه الأخيرة في العراق، بينما كانت معرفة اليونانية أمراً نادراً. ولكن بمرور الأيام بدأت عملية النقل المباشر من اليونانية إلى العربية، ويربط معظم المؤرخين هذا الانتقال باسم مسيحي نسطوري، وهو حنين بن إسحق. (544)

وكان العديد من المؤلفات اليونانية الأساسية قد تُرجم إلى اللغة العربية قبل عام 800م، وخلال فترة من الزمن كان الاشتغال بالعلوم اليونانية ينحصر، بصورة أساسية، في المدارس الطبية اليونانية، لكن المسلمين بدؤوا في القرن العاشر بوضع مؤلفاتهم الخاصة التي تبحث في هذه المواضيع نفسها. (545)

وكان من السهل الارتحال من إسبانيا إلى مراكز النشاط العلمي كالمدينة ودمشق وبغداد، وقد كانت المؤلفات العلمية العربية الهامة تصل إلى إسبانيا خلال سنوات معدودة من ظهورها في المشرق، وفضلاً عن ذلك، ساهم علماء الأندلس وكتّابها مساهمة ملحوظة في تطوير الأدب والعلوم العربية، تلك هي الموجة الحضارية التي غمرت إسبانيا مع الفتح العربي في مطلع القرن الثامن. (546)

ثانياً– أهم مراكز الترجمة:

إن أهم المراكز العلمية القديمة (أو المدارس) التي كانت في مجموعها ذات أثر فعال ومباشر في ازدهار حركة الترجمة ونقل تراث الأوائل إلى اللغة العربية في علوم الفلسفة والطب والصيدلة والفلك والرياضيات وعلوم الطبيعة والحياة، هي: الإسكندرية وأنطاكية وحران ونصيبين والرها وجنديسابور. (547)

فلقد كانت هذه المدارس بمثابة جسور عبرت فوقها العلوم من حضارات مختلفة، فامتزجت فيها رياضيات وفلك بابل وهندسة مصر وعلومها الطبية وعلوم اليونان والهنود والفرس، ثم شكّلت – ومنذ الفتح الإسلامي – قوساً جغرافياً يبدأ بالإسكندرية، ويمر عبر البحر المتوسط بأنطاكية ونصيبين وحران وجنديساور، لتنتهي المسيرة العلمية في خطوتها الأخيرة ببغداد، تلك المدينة التي قُدّر لها أن تكون عاصمة

الدنيا عدة قرون، ومركزاً حضارياً جامعاً تلاقت فيه الحكمة القديمة من يونانية ورومانية وفارسية وهندية لتتعانق مع إبداعات المسلمين الحضارية.

ولقد أدت مدرسة الإسكندرية – بوجه خاص – دوراً مباشراً في إيقاظ الحركة العلمية في العصر الأموي في مجالات الفلسفة والطب والرياضيات، والسبب الرئيسي في ذلك هو أنّ هذه المدرسة انقضت تماماً منذ القرن الأول الهجري عن متابعة رسالتها الثقافية بعد أن انتقل رجال الفكر منها زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى أنطاكية بالشام، وإلى حران وجنديسابور والرها وقنسرين ورأس العين، وتفرق علمهم في البلاد، الأمر الذي جعل خلفاء بني العباس وغيرهم من المهتمين بحركة الترجمة وإحياء علوم الأوائل أن يعتمدوا على مدارس جديدة أصبحت أكثر أهمية وأكثر قرباً من مدرسة الإسكندرية. وتأتي مدرستا حران وجنديسابور في مقدمة المدارس الجديدة، حيث كانت كل منهما تموج بالعلماء وتزخر بالأطباء، وأمدتا حركة الترجمة بجزء كبير من مادتها العلمية، ومنهما جاء أبرز النقلة الذين ساهموا في ازدهار هذه الحركة، وكان أشهر الأطباء في بغداد من نتاج هاتين المدرستين.

وكانت تلك المدارس مجتمعة السبب المباشر وراء قيام أعظم مركز علمي للترجمة والتأليف والنشر أنشئ في تاريخ الإسلام الحضاري والثقافي على مدى خمسة قرون، ألا وهو بيت الحكمة البغدادي الذي اجتمع فيه من أجلّ العلماء من الفلاسفة والأطباء والفلكيين والرياضيين وأصحاب الصناعات لترجمة الكتب التي تبحث في شتى العلوم والفنون والمعارف والصنائع.

ثالثاً ــ الأدوار التي مرت بها حركة الترجمة:

مرت الترجمة في المشرق الإسلامي – وعبر أربعة قرون من تاريخها – بمراحل مختلفة من التطور، ابتداء من القرن الأول الهجري حتى وصلت إلى قمتها في بغداد في منتصف القرن الرابع الهجري.

والتقسيم الذي يعبر عن الواقع الفعلي لتاريخ هذه الحركة يتمثل في أربعة أطوار رئيسية، هي:

الطور الأول: الترجمة في القرن الأول الهجري (العصر الأموي).

الطور الثاني: الترجمة في القرن الثاني الهجري (العصر العباسي). وينقسم إلى دورين:

الأول: زمن أبي جعفر المنصور.

الثاني: زمن هارون الرشيد.

الطور الثالث: الترجمة في القرن الثالث الهجري (العصر العباسي: عصر المأمون والمتوكل).

الطور الرابع: الترجمة في القرن الرابع الهجري (العصر العباسي).

وهذا التقسيم لا يعني أن هناك حدوداً فاصلة تضع البداية والنهاية لكل دور؛ فالظواهر الفنية والتيارات الأدبية والعلمية متداخلة، وفضلاً عن ذلك فإن الكثيرين ممن قاموا بالترجمة والنقل قد عاصروا أكثر من دور من تلك لأدوار، مثل يوحنا بن ماسويه (ت 234هـ = 848م) الذي خدم الأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل [548].

1- الترجمة في القرن الهجري الأول (العصر الأموي):

لم يؤدّ الأمويون دوراً كبيراً في حركة الترجمة، بل كان دورهم ثانوياً إبان الفتوحات الإسلامية؛ لأنهم كانوا حريصين على حماية الثغور وفتح البلدان وتأمين الدولة الجديدة، ما عدا الدور الذي أدّاه خالد بن يزيد الذي ترك الإمارة والحكم وكرّس جهده للطب وترجمة كتب الكيمياء والطب إلى العربية، وظهر في هذا العصر الطبيب ما سرجويه، وكان ينقل من السريانية إلى العربية، ودارت في هذا العصر

مناقشات وجدال حول الإمامة والجبر والاختيار كانت إرهاصًا بظهور الفرق الإسلامية فيما بعد. (549)

ويمثل العصر الأموي أول دور من أدوار حركة الترجمة، و كانت الترجمة في هذا العصر ترجمة بدائية وضعيفة المستوى، إلا أن هذا العصر كان حجر الأساس لبناء هذه الحركة عموماً، كما أنه كان المنطلق الأول لها في أنحاء العالم الإسلامي مشرقة ومغربه.

فلقد عني الأمويون بنقل العلوم القديمة، أخص بالذكر منها علوم اليونان إلى اللغة العربية بواسطة العلماء السريان، وقد اشتهر من هؤلاء في العصر الأموي يعقوب الزهاوي، ويؤثر عنه أنه أفتى رجال الدين النصارى بتعليم أولاد المسلمين التعليم الراقي؛ إن لهذه الفتوى في زمنها شأناً كبيراً فقد كانت العلوم وقفاً على الكهان لا يبوحون بها إلا لمن اتبع دينهم وسلك سبيلهم، وقد نتج من امتزاج الأمويين بغيرهم من الأمم ولا سيما السريان واعتمادهم عليهم أن تشعبت في المملكة العربية الإسلامية المعرفة، وتزاوجت العقول المختلفة كما تزاوجت الأجناس المختلفة، فنتج من هذا التزاوج الثقافة العربية.

لقد خدم السريانيون العلوم بما ترجموا وما ألفوا وظهر في هذا العصر كثير من العلماء وكان أكثرهم فلاسفة وأطباء معاً لأن دراستهم الطبية لم تكن منفصلة عن دراستهم الفلسفية. وهكذا طرأ على الأدب والعلوم في العصر الأموي تبدل سببه استفادة العرب من فتوحهم، ووقوفهم على آثار المدنيات لأمم ذات حظ من العلوم غير قليل، ولقد كان لكتاب الله، المعجز بآياته وسحر بلاغته، أثره في فتق أذهانهم وصقل عباراتهم وتوحيد لهجاتهم كما كان للحديث الشريف وتحريضه على طلب العلم أثره البالغ فيهم. ولقد تمت أول ترجمة من اليونانية إلى العربية في عهد الخليفة الأموي مروان بن الحكم بين سنتي 64 و65هـ = 683 – 684م فترجم بأمره ماسرجويه الطبيب البصري السرياني الموسوعة الطبية التي من تأليف القس أهرون بن

أعين الإسكندراني، وهي كناش في ثلاثين مقالة أضاف إليها ماسرجيس – ما سرجويه – مقالتين.

وكان في الإسكندرية فيلسوف مسيحي أسمه أدفر، كان شغوفاً يعلم الكيمياء، وتتلمذ عليه شاب روماني اسمه مورينوس وتعلم منه صناعة الكيمياء ثم أخذ الأمير خالد بن يزيد (ت 85هـ = 704م) علم الكيمياء عن مورينوس المذكور وألف الأمير فيها كتباً ورسائل.

وأما دواوين الأموال فإنها كانت بعد ظهور الإسلام بمصر والشام والعراق على ما كانت عليه قبل الإسلام، فنُقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية في إمارة عبد العزيز بن مروان على مصر، كما نُقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية في سنة إحدى وثمانين من الهجرة، وأما ديوان العراق فنقله صالح بن عبد الرحمن في زمن الحجاج.(550)

وقد كانت الترجمة في تلك الفترة مقصورة على بعض العلوم الطبيعية كالكيمياء والطب، دون أن يتعدى ذلك إلى العلوم العقلية كالمنطق وعلم النفس وما وراء الطبيعة، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن اهتمام الناس كان موجهاً بكليته إلى العلوم الدينية الإسلامية، وكانوا ينظرون إلى العلوم التي تدرس في المراكز الثقافية (القديمة) على أنها علوم غير المسلمين، مما أدى إلى انصرافهم عنها، وظلت العناية بها قاصرة على النصارى والصابئة واليهود على اختلاف مذاهبهم ونحلهم.

ولعل الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي هو أول شخصية في الإسلام يرعى ترجمة كتب الطب والكيمياء والفلك إلى اللغة العربية، كما أنه أول عربي يبحث في العلوم العقلية ويظفر منها بمركز جدير بالنظر والاعتبار.

وكان خالد بن يزيد بن معاوية موصوفاً بالعلم حكيماً شاعراً، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما وله رسائل دالة على معرفته وبراعته، ومما نسبوا إليه من التصانيف في الكيمياء: السر البديع في فلك الرمز

المنيع، وكتاب الفردوس ورسائل أخرى. ولما توفي خالد بن يزيد سنة تسعين وقيل سنة خمس وثمانين وشهد له الوليد بن عبد الملك وقال: ليلق بنو أمية الأردية على خالد فلن يتحسروا على مثله أبداً.

وقد دفعه تحمسه للعلم والمعرفة إلى الحصول على مصنفات الإغريق والسريان، حيث أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان يتزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية، وطلب إليهم ترجمة العلوم وبالأخص كتب الكيمياء من اللغتين اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية، وهذا أول نقل في الكتب في الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.[551] كما ونُسب إليه ترجمة كتب النجوم والطب وغيرها. [552]

ومن المصنفات التي ترجمت من السريانية إلى العربية في هذا القرن كتاب (كناش) في الطب، من تأليف أهرون بن أعين القس، قام بترجمته أشهر نقلة هذا القرن الطبيب البصري ماسرجويه (اليهودي المذهب السرياني اللغة) ويسمى أيضاً ماسرجيس، ترجمه في أيام الخليفة مروان بن الحكم (ت65هـ = 684م)، ثم حفظ في خزائن كتب الأمويين إلى أن أخرجه عمر بن عبد العزيز (99- 101هـ = 717 – 719م) ونشره بين الناس للانتفاع به. [553]

2- الترجمة في القرن الهجري الثاني (العصر العباسي):

عني العباسيون بالعلوم عناية بالغة، فقد مال عدد من الخلفاء في العصور العباسية إلى العلوم فاندفع الناس إلى تحصليها واقتناء كتبها، اقتبس العباسيون العلوم عن الفرس والهنود ولا سيما عن اليونان بواسطة تراجمة كثيرين معظمهم من السريان وبعضهم من الهنود، وكان عصر هارون الرشيد عصر العرب الذهبي، فأصبحت بغداد عاصمة العالم في الثقافة والسياسة والاقتصاد. [554]

بدأت الترجمة في هذا العصر في خلافة المنصور ونشطت حركة الترجمة من اليونانية إلى السريانية وظهرت أسماء بعض المترجمين في هذا العصر أمثال سرجيوس الرأس عيني أو الرسعني الذي ترجم آثار جالينوس في الطب والأخلاق وآثار أرسطو المنطقية إلى السريانية، وعبد الله بن المقفع الذي ترجم من الفارسية إلى العربية حكايات كليلة ودمنة، وقيل إنه ترجم بعض كتب أرسطو في المنطق، وازدهرت حركة الترجمة في عصر المأمون إذ إنه أسس في بغداد مدرسة الحكمة أو بيت الحكمة سنة 217هـ = 832م، وائتمن يحيى بن ماسويه عليه، وخلف يحيى تلميذه الشهير حنين بن إسحق في الفترة الواقعة بين سنة 194-260هـ = 809 – 873م، وكان حنين أشهر مترجم للمؤلفات اليونانية إلى السريانية والعربية دون منازع، وكذلك كان ابنه إسحاق بن حنين وابن أخيه حبيش بن الحسن، ومن الأسماء التي لمعت في فن الترجمة يحيى بن البطريق (مطلع القرن التاسع الميلادي) وعبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي (النصف الأول من القرن التاسع)، وهو الذي كان مساعدًا للفيلسوف الكندي وقد ترجم لأرسطو، وإليه يرجع الفضل في ترجمة كتاب الربوبية (إثولوجيا) المنسوب إلى أرسطو، وكان قد وضعه أفلوطين الإسكندري، وكذلك لمع اسم قسطا بن لوقا البعلبكي، وقد كان طبيبًا وفيلسوفًا وفيزيائيًا معروفاً، ترجم شروح الإسكندر الأفروديسي ويوحنا فيلويون على كتاب الطبيعة لأرسطو، وله شروح جزئية للكون والفساد لأرسطو، وله رسالة في الفرق بين الروح والعقل، وله بحوث في الشفاء شبيهة بعلم النفس المعاصر، وفي القرن العاشر الميلادي، ظهرت أسماء مثل أبي بشر متى القنائي (ت 329هـ = 940م) والفيلسوف النصراني يحيى بن عدي صاحب تهذيب الأخلاق (ت 364هـ = 974م) وتلميذه أبي الخير بن الخمار (ولد 331هـ = 942م). وقد ظهرت في هذا العصر مدرسة الرّها وكانت تضم صابئة حران الذين كانوا يدينون بالمعتقدات الكلدانية القديمة ويهتمون بالدراسات الرياضية والفلكية والروحية بالإضافة إلى الأفلاطونية الفيثاغورثية المحدثة،

ومن أشهر المترجمين في مدرسة الرها: ثابت بن قرة، وقد ترجم العديد من المؤلفات الرياضية والفلكية[555].

و لقد وجدت مدارس تخصصت بالترجمة في العهد العباسي رعى عدداً منها الأفراد، وأشرفت على بعضها الدولة إشرافا مباشراً، وعهدت بإدارة إحداها إلى حنين بن إسحاق. وكان من أبرز رجال العصر الذين اقتدوا بالخلفاء في تشجيع النقل في مدارسهم الخاصة الأبناء الثلاثة لموسى بن شاكر.

ولقد اشتهر من التراجمة: آل بختيشوع، عمر بن فرخان الطبري، أيوب الزهاوي الأبرشي، الحجاج يوسف بن مطر، هلال الحمصي، آل ماسيويه، حنين بن إسحق العبادي، أبو زكريا يحيى بن البطريق، قسطا بن لوقا البعلبكي، أبو زكريا يحيى بن عدي، أبو علي عيسى بن زرعة.

ولقد أنشأ الخليفة المأمون سنة 315هـ = 927م مدرسة للترجمة وعهد إلى حنين بإدارتها. ونُعرف بهذا الرجل وأمثاله لدورهم البارز في هذا المضمار، فالعبادي: نسبة إلى قبيلة عباد العربية، ولد حنين سنة 194 هـ = 809م في الحيرة بالعراق، وقد تتلمذ حنين في بادئ الأمر على يوحنا بن ماسويه، ثم تركه لكي يدرس لعدة سنوات اللغة اليونانية حتى حذقها تماماً، وعندما حقق أمنيته قصد البصرة كعبة اللغة العربية حينذاك، فأتقن فيها لغة الضاد، وبذلك أصبح متقناً أربع لغات هي: العربية لغته والسريانية ثم الفارسية واليونانية. رحل بأمر المأمون إلى كثير من البلاد في العراق وسورية وفلسطين ومصر للحصول على نوادر المخطوطات التي تيسر له أن يحسن ضبط الترجمات التي تولاها فيها.

كان حنين من أئمة الترجمة في الإسلام، اختير للترجمة وائتمن عليها ووُضع له كُتّاب عددهم أربعون، عالمون بالترجمة، كانوا يترجمون ويتصفح حنين ما ترجموا، مثل أسطيفن – اصطفن بن بسيل – وحبيش، وموسى بن أبي خالد الترجمان، ويحيى بن هارون. [556] وكان يجيد اللغتين السريانية والعربية، فإنه أتقن الإغريقية عندما

عاود الظهور في بغداد، وفضّل العمل مستقلاً، كما فعل بنو موسى، فترجم أعمالاً في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والسحر، كذلك أشرف على ترجمات ابنه إسحق، وابن أخته حبيش بن الحسن وحواريين آخرين، ولما كان حنين هو الوحيد بين شركائه الذي أتقن الإغريقية، فإنه كان يقوم عادة بترجمة أولية إلى السريانية أو إلى العربية في بعض الأحيان. وكان إسحق وحبيش يعرضان عملهما على حنين لمراجعته وتصويبه، وقد أحكم حنين المراقبة على مريديه طوال حياته، إلا أن عملهم لم يقابل إلا بتقدير بخس. من ناحية أخرى، كان حبيش مترجماً جيداً للمواد الطبية، لكنه تحمل مع آخرين مسؤولية كاملة لترجمة المواد الفلسفية والرياضية التي تتضمن كل مؤلفات أرسطو تقريباً. جمع حنين قائمة أعمال جالينوس التي كانت متوافرة في عصره، وحدد منها حوالي مئة عمل ترجمها بنفسه إلى السريانية أو العربية، وبالإضافة إلى هذه الترجمات، شمل إنتاجه الضخم ترجمات لأبقراط وأطباء آخرين، كذلك صنف أعمالاً أخرى من بينها كتب في طب العيون، وطبيعة الضوء، والخيمياء.

إلى جانب دوره الحاسم كمترجم وعالم ومعلم، قدم حنين أهم إسهام في تقدم الثقافة العربية بجهوده الناجحة في ابتكار معجم تقني للمفردات العربية والسريانية، واعترافاً منه بالحاجة الضرورية إلى نصوص جيدة، فإنه عمل مع زملائه على مقارنة النصوص الحرجة والمقابلة بينها، مع أخذ القراءات المختلفة في الاعتبار، قبل البدء في الترجمة، وقام حنين بتنقيح ترجماته، بعد أن ظهر اختلاف في المعاني، وبهذه الطريقة أُسست منهجية يقاس عليها للترجمات التالية. (557)

واشتهر معه ابنه إسحق بن حنين (ت 298هـ = 910م)، وقد لحق بأبيه في النقل وكان يحاكيه في إتقان الترجمة وفي معرفة اللغات وفصاحته فيها إلا أن نقله للكتب الطبية قليل جداً.

واشتهر أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني (ت 288هـ = 900م) سكن مدينة بغداد وكان الغالب عليه علم الفلسفة دون الطب، وكان في دولة المعتضد، وله

كتب كثيرة في فنون من العلوم كالمنطق والحساب والهندسة والتنجيم والهيئة، وكان من مشاهير نقله العلوم في الإسلام.[558]

لم يعمل ثابت بن قرة مستقلاً، ولكنه أسس مدرسة للرياضيات والتنجيم، تابعها من بعده ابنه، واثنان من أحفاده، وواحد من أبناء أحفاده، وكان من بين ترجماتهم أعمال أرشميدس وأبولونيوس البرجي، وهي أعمال قيّمة في الهندسة الرياضية والميكانيكا، فضلاً عما تتضمنه من معلومات خاصة بخبرات هندسية. وكان ثابت على دراية تامة بنظرية العدد الفيثاغورثية الجديدة التي طورها الأفلاطوني الحديث نيقوماخوس الجرشي، ووضع النسخة العربية لكتاب نيقوماخوس «المدخل إلى علم العدد»، وأصبح ثابت منجماً للخليفة المعتضد بعد أن ترك الخدمة عند بني موسى، وتضمنت ترجماته عن الإغريقية والسريانية نسخاً منقحة من كتاب بطليموس «المجسطي» وكتاب إقليدس «الأصول»، كما شرح كتاب «الفيزيقا» لأرسطو، وصنف كتاباً في «طبائع النجوم (الكواكب) وتأثيراتها» لبيان الأسس المفاهيمية لفنون التنجيم.

واشتهر من بين المترجمين قسطا بن لوقا، وهو مسيحي من مدينة بعلبك في لبنان، عمل في بغداد لبعض الوقت طبيباً وعالماً ومترجماً، وذاعت شهرته عالياً مثل حنين، توفي في أرمينيا عام 300هـ = 912م، ولا تزال بعض ترجماته موجودة، مثل ترجماته لبعض مؤلفات ديافنطوس وثيودوسيوس وأوتوليكس وهايبكلس وأرستارخوس وهيرون. كما ألّف عدداً من الأعمال الأصيلة معظمها في موضوعات طبية، لكنها شملت أيضاً عدة رسائل فلكية، وكتابين في شرح «أصول» إقليدس، ورسالة في الجبر، وكتاباً يفسر فيه مقالات ديافنطوس في الجبر، وكتباً في ميزان القبان والموازين والمقاييس والمرايا المحرقة. وقد أجمع المترجمون وكتاب السير على مدحه، والثناء على مهارته في ترجمة الأعمال الإغريقية إلى العربية. ويبدو، في ضوء الترجمات الموجودة، أنهم أنصفوه تماماً وقدروه حق قدره.[559]

واشتهر حبيش بن الحسن الدمشقي المعروف بحبيش بن الأعسم: هو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه، وقد اشتهر بالطب والترجمة من اليوناني والسرياني وهو ناقل جيد النقل.

واشتهر اصطفان بن بسيل: وهو مترجم من مدرسة حنين بن إسحاق، يحمل اسمه بأنه كان من اليونان.

و أبو عثمان يعقوب بن سعيد الدمشقي: ترجم كثيراً من كتب الرياضيين اليونان ومن ذلك الجزء العاشر من أصول إقليدس، كان طبيباً مشهوراً، ولما أسس الوزير على بن عيسى بيمارستاناً جديداً ببغداد سنة 302هـ = 914م، لم يقتصر على توليته رئيساً له، بل جعله أيضاً رئيساً على جميع بيمارستانات بغداد ومكة والمدينة.

واشتهر إبراهيم بن كبس: طبيب كان يدرس الطب في البيمارستان العضدي ببغداد سنة 360هـ = 970م، ترجم كتباً كثيرة إلى العربية وكان نقله مرغوباً به. (560)

وقد ساهم عدد من الخلفاء في رعاية الترجمة، ونبين دورهم فيما يلي:

– أبو جعفر المنصور:

لقد كان لرعاية الخلفاء العباسيين للترجمة الأثر المباشر في ازدهارها؛ ويعد أبو جعفر المنصور أول خليفة عباسي يقوم بهذه المهمة ويعمل على تشجيعها وتنشيطها بمختلف الوسائل والسبل، فترجمت في عهده مؤلفات مختلفة من مصادر عدة يونانية وفارسية وهندية، وذلك لما عرف عنه من محبته للعلم وتقريبه للعلماء وخوضه في بحوث مختلفة من العلوم والمعارف.

وفي زمن المنصور تُرجمت بعض كتب الفلك، ومن بين هذه الكتب: الكتاب الهندي في النجوم المعروف «بالسند هند»، كما أنه أول خليفة تُرجمت له كتب أرسطوطاليس في الفلسفة والمنطق كما يقول المسعودي، ومن المؤلفات التي تُرجمت في عهده أيضاً: كتاب «المجسطي» في الفلك لبطليموس، وكتاب «أصول الهندسة» لأوقليدس، وغير ذلك.

ويعد الأديب و الكاتب عبد الله بن المقفع (ت 142هـ = 759م) من أشهر النقلة في عصر المنصور، ومن أوائل المترجمين الجيدين، وهو الذي نقل إلى العربية ما كانت الفرس نقلته في القديم من كتب الطب والمنطق إلى اللغة الفارسية، يقول صاعد الأندلسي في (طبقات الأمم): «إن أول علم اعتنُي به من علوم الفلسفة: علم المنطق، وأول من اشتهر في هذه الدولة (العباسية) عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي... فإنه ترجم كتب أرسطوطاليس المنطقية الثلاثة، وهي: كتاب «قاطاغورياس» (ومعناه المقولات)، وكتاب «باري أرمنياس» (ومعناه العبارة) وكتاب «أنالوطقيا» (ومعناه تحليل القياس)... وعبّر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكليلة ودمنة، وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية».

ويضاف إلى ما نقله ابن المقفع عن الثقافة الفارسية: كتاب «خداينامة» (في تاريخ ملوك الفرس) وكتاب «آيين نامه» في مراسم الملك، وكتاب «التاريخ في سيرة أنوشروان» وكتاب «سيرة مزدك»، وكتاب «اليتيمة في طاعة السلطان»، وغير ذلك من الكتب.

ومن النقلة الذين كان لهم دور إيجابي في ازدهار حركة الترجمة ببغداد في أيام المنصور: أبو يحيى البطريق، وقال عنه ابن أبي أصيبعة: «أمره (المنصور) بنقل أشياء من الكتب القديمة، وله نقل كثير، وقد وُجدت بنقله كتب كثيرة في الطب؛ ككتب أبقراط و جالينوس».

و منهم أيضاً النسطوري جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور، وهو الذي ساهم في نقل الكتب الطبية من اليونانية إلى العربية، وكان المنصور قد استدعاه إلى بغداد سنة 148هـ = 765م، فبقى بها إلى سنة 152هـ = 769م.

وجملة القول فإن المنصور هو أول من ازدهرت في عهده حركة الترجمة من خلفاء بني العباس، و أمدها بكل ما احتاجت إليه، الأمر الذي ترتب عليه فيما بعد إيجاد نهضة علمية زاهرة في بغداد كان قيامها نتيجة حتمية لما تمت ترجمته من مؤلفات في شتى العلوم التجريبية والعقلية من اللغات والسريانية والسنسكريتية (الهندية القديمة) إلى اللغة العربية.

- عصر هارون الرشيد:

لم تلق حركة الترجمة الاهتمام ذاته من لدن الخليفتين المهدي (158-169هـ = 774 – 785م) والهادي (169-170هـ = 785 – 786م)، الأمر الذي أدى إلى ركود ذلك النشاط الذي حفل به عهد المنصور، ولكن لم يدم ذلك طويلاً، إذ سرعان ما بزغ عصر جديد بلغت فيه الترجمة مبلغاً جاوز في حده كل ما سبق في هذا الباب، ذلك هو عصر هارون الرشيد (170-193هـ = 786 – 808م).

كان للرشيد شغف عظيم بالعلم والأدب أكثر من أي واحد من أسلافه، وكان للرعاية التي أولاها لحركة الترجمة وتشجيعه المادي لها أهم الأسباب التي حدت بها أن تبلغ ما بلغته في هذا الوقت، ولذلك عُد عصره من أزهى العصور التي مرت بها الترجمة قبل الخليفة المأمون.

ومن مظاهر عناية الرشيد بالترجمة أنه كان يولى العلماء الذين يدرسون كتب العلوم اليونانية ويترجمونها بمساعدات مجزية، كما أنه أنفذ الرسل إلى إمبراطورية الروم

لجلب المخطوطات اليونانية، وهي سياسة سخية جاءت إلى بغداد بكثير من المؤلفات الهامة.[561]

وهنا – ونحن نتكلم عن دور الرشيد في حركة الترجمة – يجب ألا نغفل عن دور آخر لا يقل أهمية، بل كان له الأثر الفعال في ازدهار الترجمة في هذا العصر، وهو دور البرامكة الذين رعوا هذه الحركة بصفة عامة، و الترجمة الفارسية إلى العربية بصفة خاصة. كان البرامكة عائلة غير عربية ذات نفوذ عظيم في بلاط العباسيين الأوائل، واشتهر من بينهم خالد بن برمك وزير المنصور، الذي تسلسل من رعاة معبد بوذي في بلخ، وأصبح زرادشتياً قبيل الفتح الإسلامي. وكان البرامكة، كالمسلمين، وزراء وقادة وحكاماً، ووصلوا إلى أوج نفوذهم في عهد هارون الرشيد قبل نكبتهم في عام 188هـ = 803م. وكانت لعائلة البرامكة معرفة واسعة بالثقافة الإغريقية، كما كان لهم تأثير مهم في بدايات حركة الترجمة تحت حكم العباسيين الأوائل، وقرب نهاية القرن الثامن الميلادي كانت هناك معايير موضوعية وأساليب لغوية تحكم عملية الترجمة.

ويأتي يحيى بن خالد بن برمك (وزير الرشيد ت 187هـ = 802م) في مقدمة البرامكة الذين شغفوا بعلوم الأوائل والحرص على تعريبها. وبهذا الخصوص يقول شوقي ضيف في سياق حديثه عن البرامكة: «لقد كان للبرامكة فضل عظيم في إذكاء الترجمة: فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية و الرومية و اليونانية والفارسية والهندية... وكانوا مما عنوا به إعادة ترجمة بعض الكتب اليونانية التي ترجمت قبل عصرهم بحيث تكون أكثر دقة وإتقاناً على نحو ما صنع خالد بكتاب المجسطى »، وهو الكتاب الذي صنفه بطليموس.

وقد عني البرامكة عناية خاصة وواسعة بترجمة التراث الفارسي، ونرى جيلاً كبيراً ينهض في عصرهم و العصر الذي تلاهم بهذه الترجمة، أمثال آل نوبخت، وفي

مقدمتهم أبو سهل الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك، وقد ذكره ابن النديم.

واهتم البرامكة أيضاً بالتراث الهندي و ترجمته، فقد اجتلب يحيى بن خالد البرمكي إلى بغداد أطباء الهند؛ مثل منكه و بازيكر و قلبرقل وسندباد، وفتح لهم بيمامارستاناً (مستشفى)، وسرعان ما استعربوا وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند في نقل الكنوز الهندية، وخاصة في الطب والعقاقير.

وسّع الخليفة هارون الرشيد من نشاط الترجمة على أساس أكثر منهجية وتنظيماً، وقد حصل على مجموعات كبيرة من المخطوطات اليونانية موجودة في عمورية وأنقرة، كما حصل على كتب إغريقية أخرى في العلوم الفيزيائية بطلب دبلوماسي من الإمبراطور البيزنطي، وأصبحت «خزانة الحكمة» وسيلة مرجعية للفلكيين والفيزيائيين، وكانت من الضخامة بحيث احتاجت إلى أمين يقوم على إدارتها، فعين هارون الرشيد لهذا المنصب مترجماً للأعمال الفارسية هو الفضل بن نوبخت الذي استعان به جده في تأسيس بغداد.(562)

3- الترجمة في القرن الثالث الهجري:

كانت النتائج الهامة التي تمخض عنها الدور الذي قام به كل من المنصور والرشيد في حركة الترجمة بمثابة الطريق المعبد الذي مهد للمأمون(198-218هـ = 813 – 833م) للسير في الاتجاه ذاته.

وتبدأ عناية المأمون بالترجمة بعد دخوله بغداد مع مطلع القرن الثالث الهجري الذي يعد نقطة تحول في تاريخ الترجمة، لما آلت إليه من التطور والانتشار السريع في امتدادها إلى ضروب العلوم المختلفة التي خضعت لها، وبلوغها آخر مراحل نضجها لم تبلغه طيلة تاريخها؛ الأمر الذي يمكن معه أن يطلق على هذا القرن اسم «قرن الترجمة»، وذلك بسبب التحولات الجذرية التي شهدها هذا الميدان بصفة خاصة، وما رافق ذلك نتائج بصفة عامة.

في هذا الدور تقاطر إلى بغداد المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس، وفيهم النساطرة واليعاقبة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية واللاتينية و الهندية، وكثر في بغداد الورّاقون وباعة الكتب، وتعددت مجالس العلم والمناظرة، وأصبح همّ الناس البحث والدرس، وظلت تلك النهضة بعد المأمون حتى نُقلت أهم كتب القدماء إلى اللغة العربية.

ولعل أهم ما يميز تلك المرحلة من تاريخ الترجمة أن الحصول على كتب الأوائل بأنواعها أصبح مطلباً ثقافية عاماً، وأن البحث عنها في بلاد الروم واستدعاء المترجمين لها، وإجزال العطاء لهم لم يكن عملاً ملكياً فقط (كما كان المأمون يفعل)، ولكن كان الأفراد الأغنياء يتولون ذلك أيضاً، ويقوم به المترجمون أنفسهم. وبهذا الخصوص يقول ابن النديم – مثلاً – عن محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم: – وكان أفراد هذه الأسرة من مشاهير علماء بغداد في علوم الرياضيات والفلك – «وهؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة، وبذلوا فيها الرغائب، وأتعبوا فيها نفوسهم، وأنفذوا إلى بلد الروم من أخرجها إليهم، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني، فأظهروا عجائب الحكمة». ويذكر القفطي ما يفهم منه أن الطبيب والفيلسوف حنين بن إسحق العبادي (ت 260هـ = 873م) – وكان من كبار النقلة في بغداد – بحث عن الكتب لحسابه، وأنه «دخل بلاد الروم لأجل تحصيل كتب الحكمة، وتوصل في تحصيلها غاية إمكانه، وأحكم اليونانية عند دخوله إلى تلك الجهات، وحصّل نفائس هذا العلم، وعاد يلازم بني موسى بن شاكر، ورغبوه في النقل من اللسان اليوناني إلى العربي». ويذكر القفطي أيضاً أن محمد بن إسماعيل التنوخي المنجم بلغ من شدة بحثه عن هذه العلوم أنه رحل في طلبها إلى الآفاق، ودخل الهند، وأخذ عنها غرائب في علم النجوم والفلك.

وكما كان المأمون وغيره من الخلفاء في القرن الثالث الهجري ينفقون على الترجمة من أموالهم كان الناس بدورهم يبذلون من غناهم، فيذكر ابن أبي أصيبعة أنه

كان لدى حنين بن إسحق العبادي كاتب يعرف بالأزرق ينسخ له كتب بخط مولد كوفي « وهي حروف كبار بخط غليظ في أسطر متفرقة، وورقها كل ورقة منها بغلظ ما يكون من هذه الأوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات أو أربع ... وكان قصد حنين بن إسحق بذلك تعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه لأجل ما يقابل به من وزنه دراهم». ويروي حنين نفسه في رسالة كتبها أنه حين برز اسمه واغتنى صار يقضي الحوائج لسائر الناس، وينقل (يترجم) لهم الكتب بغير عوض ولا جزاء.

وفي دار بني موسى بن شاكر ببغداد كان يعمل – دون إبطاء – فريق كبير من المترجمين من أنحاء البلاد، وقد عرف هؤلاء الأخوة الثلاثة (محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر) بالبذل في سبيل التعريب والترجمة بقصد تشجيعها وتنشيطها، حيث كانوا يغدقون على النقلة كل ما يحتاجون إليه من مال لنقل العلوم والمعارف، وفي ذلك يقول ابن أبي أصيبعة: «إن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة – منهم حنين بن إسحق وحبيش بن الحسن الأعسم وثابت بن قرة الصابئ وغيرهم – في الشهر نحو خمسمئة دينار للنقل والملازمة».(563)

وكان بنو موسى بن شاكر الثلاثة، محمد وأحمد والحسن، بترتيب أعمارهم بدءاً من الأكبر، أصحاب دور رئيسي في رعاية العلم والتقنية أيام حكم المأمون ومن خلفوه مباشرة، وكان أبوهم موسى بن شاكر فلكياً بارزاً ومرافقاً للمأمون وقت أن كان مقيماً في خراسان قبل توليه الخلافة، وعندما توفي موسى أصبح الإخوة الثلاثة تحت وصاية المأمون الذي أرسلهم إلى بيت الحكمة لاستكمال تعليمهم، وبعد أن تركوا بيت الحكمة، عهد إليهم المأمون ومن جاؤوا بعده بمشاريع مختلفة شملت أعمال المساحة الجيوديسية، كما أصبحوا مقاولين لمشاريع عامة. وربما كان هذا، إلى جانب مباشرتهم أنشطة أخرى، سبباً في ثرائهم وقوة تأثيرهم، وأصبح محمد في أواخر أيامه ضمن حكماء القصر، حين انتقلت السلطة الحقيقية من الخلفاء إلى قادة جيوشهم الأتراك.

إنّ الأعمال الفكرية لبني موسى بن شاكر تمثل إسهامهم الرئيسي في نشأة العلم العربي، وقد خصصوا معظم ثروتهم وكرسوا جهدهم للبحث عن أعمال الكتّاب القدامى، وأرسلوا بعثات إلى بيزنطة لجلب مثل هذه المؤلفات إلى بغداد. ويقال إن محمداً قام شخصياً برحلة إلى بيزنطة، ورافق المترجم المشهور ثابت بن قرة محمداً عند عودته إلى بغداد، وبدأ عمله في منزل محمد.

واعتاد الإخوة الثلاثة أن يدفعوا حوالي 500 دينار شهرياً لمجموعة المترجمين الذين عملوا في بيت عالية، والأرجح أنهم كانوا أكثر العوامل المستقلة الفاعلة في تشجيع استيعاب الأعمال الأجنبية وتمثيلها بالعربية، لكنهم أبدعوا أيضاً بأنفسهم أعمالاً ابتكارية مهمة، وتذكر المصادر أنهم صنّفوا حوالي عشرين كتاباً شملت رسائل في الرياضيات والفلك والميكانيكا، لم يبق منها سوى ثلاثة كتب، أحدها في الأغلب لأحمد، وهو كتاب قيم في الميكانيكا والآلات البارعة بعنوان «كتاب الحيل».[564]

ويعد يوحنا بن ماسويه الطبيب البارز (ت 243هـ = 857م) أحد رعاة حركة الترجمة الذين ساعدوا على ازدهاره في القرن الثالث الهجري، وذلك بتدعيمها مادياً وعن طريق تشجيع النقلة المعاصرين له، فتُرجمت باسمة الكثير من الكتب، وبخاصة الطبية منها، بالإضافة إلى دوره كمترجم لعدد من مؤلفات اليونانية. ومن جهة أخرى كان ابن ماسويه أحد الذين ساهموا في نقل المخطوطات اليونانية من القسطنطينية عن طريق البعثات التي كان الخليفة المأمون يبعث بها إلى هناك لانتقاء أهم ما خلّفه اليونان من تراث في مختلف العلوم والعودة بها إلى بغداد، ثم العمل على ترجمتها إلى العربية على يد يوحنا نفسه، أو على يد غيره من النقلة الأكفاء.[565]

ونعطي مثالاً عن أشهر النقلة في القرن الثالث الهجري: حنين بن إسحق عميد المترجمين، الذي ملماً بجميع علوم عصره، وخاصة الطب، عمل طبيباً في بلاط المتوكل، كما كان يدرس الطب في بغداد، وكان على معرفة جيدة باليونانية، قام برحلة طويلة في أرجاء الإمبراطورية البيزنطية، جمع خلالها المخطوطات العلمية

والفلسفية، وعلى هذا النحو، كان حنين مهيئاً، بصورة ممتازة، لممارسة عملية التنظيم اللاحق للترجمة، وتدريجياً، تجمّع حوله حلقة من المترجمين، كان في عدادها ابنه إسحق، وابن أخته حبيش، وغيرهما من العلماء الشباب.

ومن بين التراجم التي تُنسب إلى حنين، هناك عدد كبير من مؤلفات أبقراط وجالينوس الطبية، وكذلك مؤلفات أفلاطون - «الجمهورية» و«النواميس» و«طيماوس»، وأعمال أرسطو في المنطق، وأبحاث أرخميدس وإقليدس الرياضية، وغيرها، ومن المحتمل جداً، أن ترجمة بعض هذه الأعمال كانت جهداً مشتركاً لمجموعة بكاملها، لا لحنين وحده، وبفضل أعمال هذه المجموعة بلغت التراجم مستوى عالياً، لأن حنين كان يدرك أهمية تمحيص النصوص قبل ترجمتها.(566)

واستطاع حنين أن ينقل إلى اللغتين السريانية والعربية أهم تراث اليونان في الطب والفلسفة، وإن نظرة سريعة على أسماء المصنفات التي ترجمها تبين لنا ذلك العمل الذي أنجزه في هذا المجال، الأمر الذي استحق معه أن يحمل لقب «حامل لواء الترجمة» أو «عميد المترجمين» أو «شيخ المترجمين» إلى غير ذلك من ألقاب أطلقها الباحثون عليه. بل ووصف بأنه «أعظم شخصية علمية أنجبتها الحضارة الإسلامية في المئة الثالثة للهجرة»، ويقول عنه القفطي: «لم يزل أمره يقوى وعلمه بتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير (أي الشروح) حتى صار ينبوعاً للعلم ومعدناً للفضائل». وقد أتقن حنين العبادي أربع لغات، هي: السريانية واليونانية والفارسية والعربية، وكان بها ناقلاً مجيداً إلى أقصى درجات الدقة والجودة. وترجم وحده - كما يقول هو نفسه - إلى اللغة السريانية مئة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته، وترجم إلى اللغة العربية تسعاً وثلاثين رسالة أخرى، وبفضل ترجماته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء.

وبالرغم من أن القرن الثالث الهجري - عصر الترجمة الحقيقي - كان قد استوفى أهم أغراضه في هذا الميدان؛ حيث أدخل إلى اللغة العربية أهم ما في تراث

الأوائل من أمهات المصادر في مختلف فروع العلم التجريبي وبعض جوانب فروع الأدب والتاريخ – بالرغم من ذلك فإن المد التعريبي لم ينقطع بعد ذلك، ولكن استمر قائماً حتى أواسط القرن الرابع الهجري تقريباً[567].

4– الترجمة في القرن الرابع الهجري:

يعد النصف الأول من القرن الرابع الهجري هو المكمل المباشر لنظيره النصف الأول من القرن الثالث في مجال الترجمة، وعلى الرغم مما قيل في هذا القرن الجديد من حيث ازدهار حركة الترجمة فيه فإن القرن السابق عليه – الثالث الهجري – كان أفضل في هذه الناحية من وجوه عديدة؛ أهمها أن القرن الثالث قد شهد رعاة كثيرين لحركة الترجمة هذه وعلى مختلف المستويات، سواء كان ذلك من جانب الخلفاء أو من جانب بعض الشخصيات العلمية البارزة في الدولة ممن عضدوا هذه الحركة وآزروها. ومن جهة ثانية فإن القرن الثالث الهجري كان قد شهد نشاطاً غير محدود في هذا الميدان أسفر عن قيام حركة ثقافية في التدوين والتأليف، ولكنها كانت أقل اتساعاً من حركة الترجمة ذاتها. في حين انبثقت في القرن الرابع حركة واسعة في التدوين والتأليف على حساب حركة الترجمة وكنتيجة مباشرة لها. وفي هذا السياق يقول الدكتور محمد جمال سرور: «شغل علماء بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية في القرنين الثاني والثالث الهجري بنقل وترجمة العلوم الأجنبية إلى العربية، ولكنهم في القرن الرابع انصرفوا إلى الإنتاج الشخصي»، وهذا يعني – كما يقول أحد الباحثين – أن القرن الرابع ما كاد يستهل حتى أخذت الحركة العلمية (ببغداد – المشرق) في النضج، وغدت الترجمات مردفة بالتعليقات والشروح، وبدأت المؤلفات تظهر أولاً بصورة دراسات قصيرة في موضوعات محدودة، ثم بشكل مؤلفات جامعة فيها اقتباس واجتهاد وتحليل ونقد، وتنظيم وتبويب واستنباط.

ومع أن القرن الرابع الهجري يتميز بهذه الخصوصية فإنه كان قريب الشبه بالقرن السابق عليه من حيث كثرة عدة النقلة الذين قدموا للعلم والحضارة خدمات

جليلة، ومن أشهرهم: الطبيب البارز سنان بن ثابت بن قرة الحراني (ت 332هـ = 943 م) وأبو بشر متى بن يونس (ت 339هـ = 950م) ويحيى بن عدي التكريتي البغدادي (ت 364هـ = 974م) وعيسى بن إسحاق بن زرعة (ت398هـ = 1007م) وغيرهم.[568]

ولا بد أن نشير من جهة ثانية عناية رجال الأندلس – من خلفاء وأمراء وعلماء وذوي وجاهة وثروة – بتشجيع حركة النقل والترجمة والتأليف، فترجموا كتباً جديدة وأصلحوا الترجمة التي قام بها الأمويون والعباسيون.

ولقد تكوّن من الأندلسيين الخبيرين باللغة اللطينية (اللاتينية) ومن الراهب نقولا ومن علّمهم اللغة اليونانية ومن بعض علماء ذلك العصر مدرسة للترجمة شابهت زميلتها في بغداد، دار السلام.

كان للأندلس العربية أثر رائع في تاريخ العلم والفن والطب بما في ذلك العمران، فقد حملت تراث العلوم والفنون القديمة فحافظت عليه ونفحته بإضافات عظيمة الشأن كبيرة الأثر، وقد بلغت الأندلس قمة المجد في عهد الأمويين ما بين سنة 139 وسنة 422هـ = 756 – 1030م.

ازدهر العلم في قرطبة في عهد الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني؛ وكان كل منهما محباً للعلوم والآداب والفنون، مشجعاً للعلماء والأدباء ورجال الفن، وقد أرسل عبد الرحمن أحد علماء قرطبة عباس بن ناصح إلى العراق لشراء المؤلفات العربية واليوناينة والفارسية أو استنساخها إذا تعذر ابتياعها. وقد أصبحت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث مركزاً ثقافياً ومصراً معموراً لا تحاكيه بعظمته إلا بغداد ودمشق.

وقد سار الحكم على غرار والده عبد الرحمن الثاني بإيفاد رسله إلى المدن الكبرى لشراء المخطوطات مهما عزّ الثمن، وأوصاهم باستنساخها إذا لم يتيسر ابتياعها. وقد بلغ في أيامه عدد الكتب في مكتبة قرطبة العامة ستمئة ألف كتاب،

علّق بنفسه على عدد كبير منها، وكثيراً ما كانت تنتهي إليه المؤلفات قبل أن يقرأها أحد وقبل أن يباشر مؤلفها بنشرها.[569]

وبالإمكان ذكر بعض طبقات النقلة الذين عرفوا في أواخر العصر الأموي وحتى العصر العباسي غير الذين ذكرناهم أو من ذكرناهم ولكن نوردهم هنا ضمن طبقاتهم:

– فقد كان هناك أفراد منذ العصر الأموي نقلوا الكتب ابتداء من أنفسهم أو بطلب من غيرهم، من هؤلاء اصطفن القديم وهو اصطفن الإسكندراني ثم عبد الله بن المقفع.

– آل ماسرجويه: أولهم ماسرجويه الطبيب، وكان يهودي الدين سرياني اللغة بصري الدار. ويقال إنه بدأ بالنقل منذ أيام الدولة الأموية قبل خلافة عصر بن عبد العزيز (101هـ = 719م)، وعمّر ماسرجويه حتى أدرك أبا نواس، وقد نقل كتاب القس أهرون بن أعين الإسكندراني، ولماسرجويه أيضاً كناش (مجموع) في الغذاء، وكتاب في العين.

– آل بختيشوع: وهم نصارى نساطرة كانت لغتهم السريانية؛ وقد اشتهر منهم في صناعة الطب ستة أجيال، فمنهم:

أ– جورجيس بن بختيشوع: كان جورجيس طبيباً ماهراً، وكان رئيساً للأطباء في مارستان جنديسابور، استقدمه المنصور سنة 148هـ = 765م إلى بغداد ليداويه، ثم جعله طبيبه الخاص. وكان جورجيس ناقلاً من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية، ويقال إن له كناشاً مشهوراً (مجموعاً في الطب) نقله حنين بن إسحق إلى العربية.

ب – جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس: كان طبيباً كأبيه، خدم هارون الرشيد ثلاثاً وعشرين سنة ثم خدم الأمين والمأمون، وله كتب منها: رسالة في المطعم والمشرب، رسالة مختصرة في الطب، كتاب في صنعة البخور.

ثم توالى نفر من آل بختيشوع اشتغلوا بالطب وبالنقل، منهم: بختيشوع جبرائيل (ت256هـ = 869م)، جبرائيل بن عبيد الله (ت396هـ = 1005م)، عبد الله بن جبرائيل (ت بعيد 450هـ = 1058م).

- آل ماسويه: كان ماسويه تلميذاً (يعني متمرناً) في مارستان جنديسابور، فغضب عليه جبرائيل بن بختيشوع وأخرجه منه، فجاء ماسويه إلى بغداد واختص بالتكحيل (تطبيب العيون) ولقي توفيقاً عظيماً، وكان مسيحياً سريانياً. (570)

وجاء بعد ماسويه ابنه أبو زكريا يوحنا بن ماسويه، وكان فاضلاً خبيراً بصناعة الطب، ولّاه الرشيد ترجمة كتب يونانية وجدها في أنقرة وعمورية، وقد توفي يوحنا بن ماسويه في سامراء (243هـ = 857م)، ولابن ماسويه تصانيف منها: كتاب البرهان، كتاب الحميات، كتاب الأغذية والأشربة، كتاب في الجذام، وهذا لم يسبقه أحد إليه، كتاب الأدوية المسهلة، كتاب السموم وعلاجها، كتاب تدبير الأصحاء، كتاب تركيب خلق الإنسان (التشريح)، كتاب الحيلة للبرء.

وكان ميخائيل بن ماسويه (أخو يوحنا) طبيباً مقتدراً معتداً بنفسه لا يقيم وزناً لغيره من الأطباء، ولكنه كان يصيب التطبيب.

وهنالك عدد من النقلة أكثر شهرة من أصحاب تلك الطبقات كآل حنين وآل ثابت بن قرة وآل موسى المنجم، وقد تحدثنا عنهم (571).

رابعاً- الملامح العامة لحركة الترجمة والنتائج التي تمخضت عنها:

1- كانت حركة الترجمة إلى اللغة العربية واسعة النطاق، وشملت أكثر ما أنتجه الأقدمون في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك والكيمياء والنبات وغيرها، حتى لنكاد نظن أنه لم يبق شيء من هذا التراث لم ينقل إلى العربية. ولم تمض مئة

عام تقريباً على تأسيس بغداد حتى كان العرب والمسلمون يقرؤون بلغتهم معظم ما كتبه اليونان والفرس والهنود.

2- لقد قام النقلة بالترجمة عن اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية (السنكسريتية) بالدرجة الأولى، كما ترجموا أحيانا عن النبطية واللاتينية وعن القبطية (في مطلع أيام التعريب). وهذه هي تقريباً كل اللغات الحضارية التي كانت موجودة في القرون الأولى من العهد الإسلامي، وكتبت بها مختلف علوم الأوائل. غير أن أكثر ما نقل إلى العربية في تلك النهضة هي الكتب اليونانية (سواء المكتوبة باليونانية أو السريانية)، وأكثرها في ميادين الفلسفة والطب والرياضيات والفلك وفروع العلم الطبيعي. وبهذا الخصوص يقول كراتشكوفسكي: «ويبدو جليا أن شمول التراث الهلنستي واتساع مداه واستيعابه المنظم لدى العرب هو الطابع المميز في تاريخ نفوذ العلم اليوناني إلى العرب لدى مقارنته بالهندى والإيراني (الفارسي). ففيما يتعلق بالتراث الهندي والإيراني نلتقي بمصنفات منفردة تدين بظهورها لمجهودات فردية، وذلك بعكس التراث اليوناني الذي بدأ العمل فيه بطريقة منظمة. وفي زمن قصير انتشرت بين العرب مؤلفات أبقراط وجالينوس وأقليدس وأرخميدس (أرشميدس) ومينلاوس وأبولونيوس ومارينوس، وهي تمثل في مجموعها القاعدة الأساسية للعلم اليوناني».

3- شملت عملية التعريب كل ما كان بين الأيدي من تراث الأوائل - لا سيما التراث اليوناني كما ذكرنا - إلا في ميدان الأدب والتاريخ، فقد كانت عملية التعريب في هذا الباب انتقائية؛ أي أن الحضارة العربية الإسلامية اختارت ما يتفق وحاجاتها. ومع كثرة ما نقل عن اليونان أهملت تماما ترجمة كتبهم التاريخية والأدبية إلا في القليل النادر، بينما نقل ما يقابلها عند الفرس والهنود، حيث ترجمت جملة صالحة من تواريخ الفرس وأخبار ملوكهم وسيرهم وبعض كتب السياسة والقصص؛ وترجمت عن الهنود بعض كتب السحر والطلسمات.

4- أما عن عدد الكتب التي نقلت فهي بضع مئات، فمجموع كتب الطب - مثلاً - التي ترجمت عن اليونانية وحدها يبلغ حوالي تسعين كتاباً على الأقل. وقد قام جرجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) بعمل حصر للكتب المترجمة التي كان عليها معول علماء العرب والمسلمين فيما صنّفوه، وعلى كثرة ما ذكر الباحث من أسماء هذه الكتب موزعة على فروع العلم المختلفة فإن عمله هذا كان محدداً، «لتشتت أخبارها وضياع كثير منها» كما يقول.

وعلى الرغم من هذه الكثرة فقد بذلت في الترجمة جهود مضاعفة في كثير من الأحيان جعلت العديد من الكتب تترجم مرتين، أو ترجمت - أحياناً - ثلاثاً أو أربعاً، أو تصحح مرة بعد مرة. ومن هنا كان من أعمال التعريب خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ما نقرؤه في تراجم كثير من كبار النقلة من أنهم «صححوا» ترجمات غيرهم، وعن ترجمة الكتاب الواحد أكثر من مرة. وقد يتعاون بعض التراجمة على كتاب واحد معاً، أو قد ينقلونه إلى السريانية أو الفارسية أولاً تمهيدا لنقله إلى العربية في عملية من الترجمة المزدوجة. ولا يمكن أن ينظر إلى هذه الأعمال إلا على أنها مراحل متتالية من الجهد المنظم المتعمد للوصول لا إلى النصوص الصحيحة الأصلية فقط، ولكن إلى أمرين آخرين في وقت واحد: الاتصال المباشر بعلوم الأوائل في لباب العمليات الفكرية التي أبدعها من جهة، والوصول باللغة العربية - بالمقابل - إلى مستوى التعبير العلمي اللازم لاستيعاب تلك العمليات الفكرية والتفاعل معها وتجاوزها.

ومن ناحية أخرى لم يكن عامة المترجمين آلة للنقل في مترجماتهم لمصنفات الأمم الأخرى إلى اللغة العربية، وإنما كانوا متخصصين في العلوم التي يقومون بترجمتها، وكثيراً ما كانوا يقومون بعمل ملخصات وتفاسير وشروح لعدد من الكتب المترجمة، بالإضافة إلى تآليفهم العديدة في مختلف العلوم العقلية والتجريبية التي عرفوها

من خلال ترجماتهم، أو ما كان موجوداً منها قبل ذلك، أو ما أوجده البعض منهم بالفعل و لم يكن معروفاً من قبل.[572]

5- وعادة ما كان يقوم بالترجمة جماعات من المترجمين، يشرف على كل منها رئيس يراجع أعمالهم، ويصحح أخطاءهم، ويقف وراء حركتهم الخلفاء والأمراء وأهل اليسار من محبي العلم، يغذونها بالمال، ويتعهدون أهلها بالرعاية والتقدير، بقطع النظر عن مللهم أو نحلهم أو أنسابهم.

ولعل من نتائج هذا أن أضحت الترجمة حرفة أو صنعة من صناعات الراغبين في خدمة البلاط العباسي وقصور الكبراء ونشدان الثروة والجاه، أو كانت على الأقل باب رزق لهم. و لحقها ما لحق الأمور الأخرى ضمن النظام العباسي؛ فكما صارت الوزارة والكتابة والحجابة أعمالاً وراثية كذلك صارت الترجمة عملاً وراثياً يتوالى عليه من الأسرة الواحدة أكثر من جيل، ويكفى أن نتذكر في هذا الصدد آل بختيشوع، وآل حنين بن إسحق، وآل البطريق، وآل قرة، وغيرهم».

6- ومن الملاحظ أن المترجمين كانوا - في كثرتهم الساحقة - من غير العرب، ووجود بضعة أسماء معدودة عربية لا يمنع من تعميم هذه الظاهرة. وكان أكثر العاملين بالترجمة نساطرة من المسيحيين، ثم يأتي من بعدهم في الكثرة اليعاقبة، وكلا الفريقين ظل على دينه إلا القليل. وقد اختص هؤلاء جميعاً بالتراث الإغريقي. وأما التراث الفارسي فالفرس الذين تحولوا إلى الإسلام خاصة هم الذين عملوا على نقله إلى العربية. وأما ما نقل عن الهند فالهنود بدورهم هم الذين نقلوه.

وقد يقال: إن جمهرة المترجمين كانوا من الأجانب غير المسلمين، بل ومن غير العرب، فإذا صح أن يكون لأحد فضل في حركة نقل العلوم فإلى هؤلاء يرجع الفضل. والرد على هذه المقولة يتلخص في أن الفضل مشترك، والسبب الذي من أجله كانت غالبية المترجمين من غير العرب هو أن الترجمة تحتاج إلى معرفة عدد من اللغات، و لم يكن هذا متوافراً للعرب، ولكن ذلك لا يكفي، فلا بد - لكي يقوم

هؤلاء النقلة من غير المسلمين والعرب بمهمتهم – من وجود من يحرص على إتمام هذه المهمة ويتكفل بنفقاتها، وقد كان قادة العرب على استعداد للبذل وحرص على تحقيق النهضة العلمية التي يرجع إليهم – لا إلى سواهم – فضل بدئها والاستمرار فيها ونجاحها.

7– وقد انحصرت عملية التعريب كلها – بعد غياب دمشق في القرن الأول الهجري – في العراق، وفي بغداد منها بالذات، فإليها كان يهرع المترجمون – على اختلاف جنسياتهم وأديانهم – من حران وجنديسابور والرها وأنطاكية وغيرها من المدن. ولا نكاد نسمع عن تعريب في الشام أو مصر أو فارس في بداية العصر العباسي. وبالرغم من أننا لا نشك في أن هذه الأقطار لم تكن بعيدة عما يحدث في بغداد من بناء للحضارة إلا أننا لا نشك في الوقت نفسه أن بغداد كانت المركز الأكثر حيوية وحركة وإنتاجاً، وأن هذا التمركز خدم عملية التعريب، وسمح لها على الأقل أن تلتقي في بؤرة واحدة، وأن تتبادل الخبرات، وأن ينطلق منها العلماء لنشر الحضارة والمدنية في ربوع الدولة الإسلامية كلها.

لقد تقاطر العلماء النقلة من الأنحاء المختلفة إلى بغداد من أجل تجسيد هدف واحد، ألا وهو خدمة العلم عن طريق المسلمين بنقل ما خلفته أمم اليونان والفرس والهند من تراث إلى اللغة العربية. وعلى الرغم من اختلاف أهميتهم وقدرهم في هذا السبيل فإنهم هم الذين يقفون وراء ما وصل إليه العرب والمسلمين من تقدم وازدهار في شتى مجالات الحضارة. (573)

خامساً– لمحة عن أهم الكتب المترجمة:

1– كتاب «السند هند»:

إن الذي دعا الخليفة المنصور إلى ترجمة هذا الكتاب – كما يذكر الرواة – أن رجلاً هندياً حضر إلى بغداد سنة 154هـ = 770م (وفي رواية سنة 156هـ = 772م) في جملة وفد من السند، وهذا الرجل يُدعى (مانكا Manka) أو (كانكا

Kanka)، وكان عالماً بالفلك على مذهب علماء الهند، وقد اصطحب معه إلى بغداد كتاباً في الفلك باللغة السنسكريتية (الهندية القديمة) يسمى «السد هنتا» أو «السدهانت» (Siddhanta)، ومؤلفه هو الفلكي والرياضي «برهمكبت» أو «براهما غبتا» (Brahmgupta).

ولفظ «السد هانتا» تحول – أو حُرّف – في الوسط العربي تحت تأثير الاختصار أو الاشتقاق إلى لفظ «السند هند» الذي تنعكس فيه التسمية العربية لشطري الهند: أي الهند والسند، ومعنى «السد هانتا» في الأصل: المعرفة والعلم والمذهب، ثم لم يلبث أن أُطلق اصطلاحاً على كل مصنف في الفلك على طريقة الهند. ويحتوى الكتاب على مقدمة وجيزة أُرفق بها عدد من الجداول الفلكية في تحركات الأجرام السماوية وطلوع ومغيب البروج، وقد حسبت هذه الحركات على أساس دورات زمنية تضم آلاف السنين، وهي ما تسمى بالكالبا (Kalpa).

وقد كلّف المنصور العالم الهندي الذي نزل بغداد بإملاء مختصر لذلك الكتاب المذكور، ثم أمر بترجمته إلى العربية، وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب، والذي تولى الترجمة هو: محمد بن إبراهيم بن حبيب الفزاري، وقد سمّى العمل الذي قام به كتاب «السند هند الكبير»، واستخرج منه زيجاً عرف بزيج الفزاري، وهذا الزنج نقل عنه البيروني في مواضع شتى من كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة...) وبيّن أنه مستنبط مما أملاه الحكيم الهندي في حركات الكواكب على مذهب السند هند.

ومن الملاحظ أن ابن النديم والقفطي يسميان زيج الفزاري باسم «كتاب الزيج على سني العرب»، وهذا يعني أن الفزاري حوّل سني الأدوار الهندية (وهي سنون نجومية) إلى سنين هلالية؛ أي بالتاريخ العربي.

ولم ينفرد الفزاري بالاشتغال بالسند هند ونشر تعاليمه في زمن أبي جعفر المنصور ومن بعده؛ فقد كان هناك عالم آخر عني أيضاً بالمذهب الهندي، وهو يعقوب

بن طارق الذي قال عنه صاحب الفهرست: «من أفضل المنجمين»، وقال القفطي: «كان مشهوراً بين أهل هذه الصناعة، مذكوراً من أفاضلهم وله تصانيف جياد في هذا النوع»، ومن بين مؤلفاته في الفلك كتاب: «الزيج محلول في السند هند» – أي مستخرج منه.

ويبرز من بين كتبه أيضاً كتاب «تركيب الفلك» جمع بين دفتيه المعلومات التي استقاها من العلماء الهنود أعضاء السفارة الثانية إلى بلاد العباسين ببغداد عام 161هـ، أي بعد خلافة المنصور. واعتمادا على بعض المعلومات التي ذكرها البيروني يمكن أن نفترض – كما يقول نلينو – أن المعين الذي استقى منه يعقوب بن طارق مادة كتابة كان أوسع، ولم يقتصر على رسالة «براهماغوبتا» – السند هند – وحدها، وإنما شمل عدداً من الآثار الأخرى، مما يدل على أنه كان أوسع من الفزاري معرفة بكتب الهند وأكثر اطلاعاً على أخبارهم.

ومع أن كتباً هندية أخرى في علم الفلك تُرجمت في بغداد في مطلع العصر العباسي مثل كتاب «الأركند» Arkand (وهو عبارة عن زيج صغير)، وكتاب «الأرجبهر»، فإنها لم تنل عند العرب شهرة مثلما ناله كتاب «السند هند» الذي عني به الفزاري، فلم يزل أساس لأزياج العرب والعمل به، وبقي سائداً سيادة مطلقة حوالي الخمسين عاماً إلى ابتداء عصر المأمون (198 – 218هـ = 813 – 833م)، حيث بدأ المذهب اليوناني يزاحمه بترجمة كتاب «المجسطي لبطليموس».

غير أنه لا يمكن القول بأنه قد اختفى العمل بالسند هند مرة واحدة بأجمعه – أي بعد ترجمة كتب اليونان – وإنما اتبع مذهبه عدد من علماء الفلك في بغداد، وعنوا بإصلاحه وتهذيبه والإضافة إليه، ففي أيام المأمون وضع محمد بن موسى الخوارزمي (القائم على خزانة بيت الحكمة في بغداد) «زيجه» المسمى (السند هند الصغير)، وقد اعتمد فيه على النظام الهندي، إلا أنه غيّر بعض المسائل لتتفق مع مذاهب الفرس واليونان، وأضاف إليه أبواباً حسنة. (574)

2ـ كتاب المجسطي لبطليموس:

وكان أهم كتاب اعتمد عليه العرب والمسلمون في بداية نهضتهم العلمية في علم الفلك هو كتاب «المجسطي» لبطليموس القلوذي، بل ربما كان هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذي دارت من حوله جميع البحوث الفلكية، واستقى منه كل الفلكيين في العصور الوسطى.

وهذا الكتاب هو أهم ما خلّفته حضارة الإغريق في علم الفلك، ذلك أن مؤلفه انتهت إليه علم حركات النجوم ومعرفة أسرار الفلك، وعنده اجتمع ما كان متفرقاً من هذه الصناعة بأيدي اليونانيين والروم وغيرهم، وبه انتظم شتاتها وتجلى غامضها. ولا يعرف كتاب أُلف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب: أحدها كتاب المجسطي في علم هيئة الفلك وحركات النجوم. والثاني: كتاب أرسطوطاليس في علم صناعة المنطق. والثالث: كتاب سيبويه البصري في علم النحو العربي.

وقد ترجم «المجسطي» إلى العربية عدة مرات، يقول ابن النديم: «وأول من عني بتفسيره وإخراجه إلى العربية: يحيى بن خالد بن برمك (ت 191هـ = 806م)، ففسره له جماعة فلم يتقنوه و لم يرض ذلك، فندب لتفسيره أبا حسان وسلم صاحب بيت الحكمة – ببغداد – فأتقناه، واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين، فاختبرا نقلهم، وأخذا بأفصحه وأصحه».

و لم يقف الجهد عند هذا الحد؛ فقد شارك في ترجمة المجسطي عميد المترجمين في بغداد: حنين بن إسحق العبادي (ت 260هـ = 873م)، وقام بمراجعة هذه الترجمة عالم الفلك الشهير في عصره: ثابت بن قرة الحراني (ت 288هـ = 900م). (575)

3– كتاب أوقليدس في علم الهندسة:

واسمه باليونانية «الاسطروشيا» (Stroicheia). وترجمته بالعربية «الأصول الهندسية»، أو «الأركان الهندسية». وهذا الكتاب أهم الكتب المترجمة عن اليونان في علم الرياضيات، وصفه القفطي بقوله: «كتاب جليل القدر، عظيم النفع، أصل في هذا النوع، لم يكن لليونان قبله كتاب جامع في هذا الشأن، ولا جاء بعده إلى من دار حوله وقال قوله. وقد عني به جماعة من رياضيّ يونان والروم والإسلام، فمن بين شارح له، ومشكل عليه، ومخرج لفوائده. وما في القوم إلا من سلّم إلى فضله، وشهد بغزير نبله».

ويحتوى كتاب أوقليدس على قرابة (465) نظرية تقع في خمس عشرة مقالة، وقد نُقل إلى اللغة العربية عدة مرات. وكان أشهر المترجمين له:

أ - الحجاج بن يوسف بن مطر الكوفي نزيل بغداد (ت في حدود عام 220هـ = 835م)، ترجمه مرتين، الأولى في عصر هارون الرشيد، وتسمى «الهاروني»، والثانية في عصر المأمون، وتسمى «المأموني». والترجمة الثانية هي التي كانت معتمدة كما يقول ابن النديم.

ب - شيخ المترجمين في بغداد: حنين بن إسحق العبادي (ت 260هـ = 873م) والنسخة التي ترجمها هذا العالم قام بمراجعتها تلميذه ثابت بن قرة الحراني (ت 288هـ = 900م) وهو أحد كبار المترجمين في بيت الحكمة ببغداد.

4- كتاب «المخروطات»:

هو في علم أحوال الخطوط المنحنية ليست بمستقيمة ولا مقوسة، من تأليف «أبولونيوس» (Appollonius). ويتكون من ثماني مقالات، وتعد المقالة الثامنة خلاصة ما في المقالات السبع وزيادة، وقد تُرجم هذا الكتاب في عهد المأمون العباسي. تُرجمت المقالات الأربعة الأولى بقلم هلال بن هلال الحمصي، وترجمها في

بغداد تحت إشراف أحمد بن محمد بن شاكر (وهو أحد الإخوة الثلاثة أولاد موسى بن شاكر المنجم المذكور من قبل)، وأما المقالات الثلاث الأواخر فقد ترجمها ثابت بن قرة الحراني البغدادي وهو أحد المعنيين بكتاب أوقليدس المتقدم ذكره.

5- ترجمة كتب التراث اليوناني في النبات والفلاحة والحيوان:

وفي بغداد اطّلع علماء المسلمين على ما حصلوا عليه من كتب التراث الإغريقي في النبات و الفلاحة، ونقلوها إلى اللغة العربية، مثل كتاب «الفلاحة» لديموقريطس Democrite وثلاثة كتب لأرسطو: «الفلاحة» في عشر مقالات، وكتاب «الإبانة عن علل النبات» الذي أشار إليه اليعقوبي في كتابه «البلدان»، والثالث: كتاب «النبات» الذي ترجمه ثابت بن قرة الحراني البغدادي (ت 288هـ = 900م) بعنوان «تفسير كتاب أرسطو في النبات»، وقام إسحق بن حنين (ت 298هـ) بمراجعته وتنقيحه، وكتاب «ثاوفرسطس» Theophreacte - أحد تلاميذ أرسطو - الذي ترجمه إبراهيم بن بكوس (في القرن الثاني الهجري) تحت عنوان «أسباب النبات»، إلى جانب أهم كتاب اعتمد عليه العلماء المسلمون في مجال النبات والأدوية، وهو كتاب «الحشائش» لديسقوريدس.

ونقل علماء بغداد أيضاً بعض مؤلفات جالينوس في علم النبات، أهمها كتاب «النبات»، ومقالة في استخراج مياه الحشائش أو «خواص الحشائش ومنافع الحيوان»، وترجموا كذلك كتاب «الفلاحة» لأبولونيوس (Apollonios)، وكتاب «الفلاحة» لأناطوليوس (Anatolios)، وترجم كل من قسطا بن لوقا ويحيى بن عدي المنطقي (تلميذ الفارابي) واصطفن بن بسيل وسرجس بن هلبا الرومي ترجموا إلى العربية كتاب «الفلاحة الرومية» لمؤلفه قسطوس بن أسكور الرومي.(576)

ومن كتب النبات: كتاب النبات، وكتاب الحيوان، لأرسطوطاليس، وهذان الكتابان وصلا إلى الأندلس، وقام أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجه (ت 533هـ = 1138م) بدراستهما والتعليق على بعض فصولهما.(577)

يضاف إلى ذلك كله كتب مفردات الأدوية المترجمة عن الهنـــود واليونـــانيين وهي تحتوي على أسماء عدد هائل من النباتات وخواصها الطبية.

والمقصود أن علماء العرب والمسلمين ترجموا ما ورثوه من إنتاج حضـــارات الأوائل في علم النبات. ولكن – وعلى عادة علماء العرب والمسلمين في مثل هـــذه العلوم – لم تقتصر جهودهم على ترجمة كتب التراث القديم فحسب، وإنما تجاوزوها إلى مرحلة الدراسة والتأليف، وأضافوا إلى هذا العلم الكثير من الدراسات العلمية التي اعتمدت على التجربة والملاحظة والدراسة الميدانية، ونبغ من العرب والمسلمين عدد من النباتيين، ليس فقط في مشرق الدولة الإسلامية (ومركزها بغداد)، ولكن أيضاً في مغربها (الأندلس وشمال إفريقية). (578)

وقد كان الإغريق على دراية بعلم الحيوان، وصنفوا فيه كثيراً من المصـــنفات ترجمت جميعها تقريباً إلى اللغة العربية في إطار حركة الترجمة التي شهدتها بغداد خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، ومن أشهر هذه الكتب: (كتاب الحيوان) لديوقريطس (تلميذ أرسطو) الذي يعد أول من حاول تصنيف الحيوانات حسب أنواعهـــا، مـــع الإشارة إلى طبائعها ومنافعها. ومؤلفات أرسطو العديدة في علم الحيوان، مثل: كتاب «أعمار الحيوان»، وكتاب «حركات الحيوان المكانية على الأرض»، وكتاب «اتخاذ الحيوانات ما يتخذ من المواضع ليأوي إليها»، و«كتاب تناسل الحيـــوان»، وكتـــاب «الحيوان»، وهذا الكتاب الأخير أهم كتاب له في هذا العلم، نقله عـــن الســـريانية يوحنا بن البطريق، ويقع في تسع عشرة مقالة. وقد عني به علماء بغداد غاية العناية، دراسة وشرحاً واختصاراً واقتباساً. (579)

6- مصنفات حكماء الهند في الطب التي نُقلت إلى العربية:

نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجـــوم والرياضيات والحساب والتواريخ. (580)

وذكر صاحب كتاب: (معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف) كثيراً من الكتب الهندية التي نُقلت إلى العربية، ومنها: كتاب سرد، عشر مقالات، أمر يحيى بن خالد البرمكي بتفسيره لمنكه الهندي في البيمارستان ويجري مجرى الكناش، وكتاب استانكر الجامع بتفسير ابن دهن، وكتاب سيرك، فسّره عبد الله بن علي من الفارسي إلى العربي، لأنه نقل أولاً من الهندي إلى الفارسي، وكتاب سندستاق، ومعناه كتاب صفوة النجاح، فسّره ابن دهن صاحب البيمارستان، وكتاب مختصر العقاقير، وكتاب علاجات الحبالى، وكتاب توقشتل، وفيه مئة داء ومئة دواء، وكتاب روسا الهندية في علاجات النساء، وكتاب السكر للهند، وكتاب أسماء عقاقير الهند، وفسره منكه لإسحاق بن سليمان، وكتاب رائي الهندي في أجناس الحيات وسمومها، وكتاب التوهم في الأمراض والعلل لتوقشتل الهندي.

وذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء طائفة من أطباء الهند، مثل كنكه وضجهل وشاناق ومنكه وصالح بن بهله، وترجمهم في كتابه وذكر قوماً آخرين بغير ترجمة مثل باكهرراجه، صكه، داه، أنكر ذنكل جبره، أندي، جاري، وقال: كل هؤلاء أصحاب تصانيف، وقد نقل كثير منها إلى العربية. وممن نقل عن كتب الهند: الرازي، فلقد نقل في كتابه الحاوي وفي غيره عن كتب جماعة من الهند، مثل كتاب شرك الهندي، وهذا الكتاب فسره عبد الله بن علي من الفارسي إلى العربي، لأنه أولاً نقل من الهندي إلى الفارسي، وعن كتاب سرد، وفيه علامات الأدواء، ومعرفة علاجها، وأدويتها، وهو عشر مقالات أمر يحيى بن خالد بتفسيره، وكتاب بدان في علامات أربعمئة وأربعة أدواء ومعرفتها بغير علاج، وكتاب سندهشان، وتفسيره كتاب صورة النجح، وكتاب فيما اختلف فيه الهند والروم في الحار والبارد، وقوى الأدوية، وتفضيل السنة، وكتاب تفسير أسماء العقار بأسماء عشرة، وكتاب لسانكر الجامع، وكتاب علاجات الحبالى للهند، وكتاب مختصر في العقاقير للهند، وكتاب توقشتل وفيه مئة داء ومئة دواء، وكتاب أوسي الهندية في علاجات النساء، وكتاب

السكر للهند، وكتاب رائي الهندي في أجناس الحيات وسمومها، وكتاب التـــوهم في الأمراض والعلل لأبي قبيل الهندي، ثم ذكر ابن أبي أصبيعة في ترجمة ســـاناق أن لـــه كتاب السموم في خمس مقالات، فسره من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي منكه الهندي، وكان المتولي لنقله بالخط الفارسي رجل يعرف بأبي حاتم البلخي فسره ليحيى بن خالد بن يرمك، ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه، وذكر ابن أبي أصبيعة في ترجمة جودر أن له من الكتب كتاب المواليد و قد نقل إلى العربية. (581)

ومن المصادر الهندية التي استفاد منها علماء المسلمين في بداية عصر النهضـــة الإسلامية ببغداد في مجال الأدوية والعقاقير: كتاب «أيورافيدا» Ayurvedas (أو ما يعرف بعلم الحياة) وكتاب «سوسروتا» Susruta الذي يحتوي على معلومات هامة عن الجراحة والتشريح وما يقرب من سبعمئة عقار نباتي. وكتاب «الســـموم» تأليف شانان الهندي، ونقله «صنكه» الهندي من اللغة الهندية إلى الفارسية، ثم نقلـــه إلى العربية العباس بن سعيد الجوهر مولى المأمون بأمر من الخليفة، وكان يتولى قراءته عليه. (582)

سادساً – ترجمة الغرب للكتب العربية:

شهد القرن الحادي عشر الميلادي في أوروبا انتعاشاً في الحياة الثقافية، ومع نمو حركة التجارة والتصنيع بدأت أيضاً الطبقة المتوسطة المقيمة في المـــدن في الظهـــور، وأبدت اهتماماً متزايداً بالقضايا العلمانية والمادية.

كما أن النمو الاقتصادي المواكب لظهور طبقة متوسطة أكثر غنى قد أثـــرى موارد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ونشأ عن ازدياد الموارد المالية تحـــت مركزيـــة السلطة الملكية إنشاء شبكات نقل واتصالات أفضل واقتصاد أكثر إنتاجيـــة، وقـــد استخدمت هذه الوسائل، مع غيرها، لتحسين التعليم.

كانت الكنيسة هي الراعية الوحيدة للمعرفة والتعليم في أوروبا القروسطية، وكان هدف المدارس الكاتدرائية محدوداً في إعداد الكهنة والقسيسين، ومستوى تعليم العلوم في هذه المدارس كان منخفضاً لا يتجاوز العمليات الحسابية الأساسية، وفروض إقليدس (من دون براهين)، ومعارف فلكية معظمها من فولكلور القبائل الجرمانية، وهندسة أولية، وكيمياء قائمة أساساً على التعدين وصباغة الملابس، ومع ذلك، فإن هذه المدارس الكاتدرائية هي التي قامت عليها الجامعات، ودخلت المعرفة الإسلامية إلى الغرب من خلال تلك المدارس والجامعات.

كان القرن الثاني عشر الميلادي وأوائل القرن الثالث عشر أعظم فترة انتشر خلالها العلم الإسلامي في الغرب. وقد أعطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي الدفع الضروري لنمو العلم الأوروبي، سواء كانت تلك الترجمات من أعمال إغريقية أو إسلامية. إلا أنه قبل القرن الثاني عشر الميلادي كان هناك بعض الحالات المنفردة لانتشار المعرفة الإسلامية في أوروبا، أشهرها يتعلق باثنين هما جربرت الأوريلاكي – الذي عرف فيما بعد باسم البابا سلفستر الثاني – وقسطنطين الأفريقي. أما جربرت الذي توفي عام 1003م = 394هـ بعد أن قضى فترة قصيرة في البابوية؛ فقد درس لسنوات عدة في إسبانيا المسيحية وأصبح ملماً بالتراث العربي الذي ربما قرأه عن طريق الترجمات اللاتينية للمخطوطات العربية. ويبدو أنه تابع بدايات انتشار المعرفة بالإسطرلاب إلى أوروبا، إلى جانب اهتمامه بالرياضيات. وكان «لوبيه» أو لوبيتوس وزملاؤه في دير ريبول في قطلونية قد نشروا في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلاديين مؤلفات لاتينية عن آلة الأسطرلاب، مستوحاة بكل تأكيد من مصادر عربية.

حصل جربرت على هذه المؤلفات أثناء زيارته للدير في عام 967م = 357هـ، وربما حمل معه نسخاً منها إلى فرنسا، كانت هذه المؤلفات أولية وتحتوي على أخطاء عديدة، فضلاً عن أنها لم تعرض إلا لأبسط المسائل، وكانت مليئة

بكلمات عربية غير مفهومة المعنى، وأحياناً بعبارات مشوهة لا تؤدي المعنى، و لم تظهر أعمال أوروبية ذات قيمة حقيقية عن الإسطرلاب حتى القرن الثاني عشر الميلادي.

وأما قسطنطين الأفريقي، الذي توفي عام 1087م = 480هـ، فإنه سافر إلى بلاد كثيرة في شمال إفريقية والشرق الأوسط، حيث اطلع على خبرات علماء المسلمين، لكنه، لسبب ما، أصبح شخصاً غير مقبول في بلده تونس، ولجأ إلى ساليرنو في إيطاليا، وترجم مؤلفات حنين وابنه اسحق لكنه نسبها إلى نفسه من دون أن يشير إلى مصادره، وكانت ترجماته محل نقد لاذع بسبب تصرفه الزائد في تفسير المخطوطات، وقام ستيفن الأنطاكي بتصويبها حوالي عام1127م = 521هـ. وكان ستيفن ينتمي إلى نوع جديد من المترجمين الذين اعتزوا بأمانتهم في دقة نقل النصوص العربية إلى اللاتينية وتسجيل المصادر الحقيقية عند الضرورة. (583)

والواقع أن العديد من الترجمات مرت أولاً بمرحلة الترجمة من العربية إلى العبرية قبل أن تنتقل إلى اللاتينية، تماماً مثلما كانت الترجمات التي تمت قبل ذلك بقرون في بغداد تمر أحياناً من الإغريقية إلى العربية عبر السريانية كلغة وسيطة.

وفي حقيقة الأمر، أصبحت الكتب العربية واسعة الانتشار في أوروبا في أواخر العصور الوسطى لدرجة أن العديد من الأسماء العربية اصطبغت باللاتينية، فأصبح ابن سينا «أفيسنا»، وابن رشد «أفيروس»، وابن الهيثم «الهازن»، والبتاني «البـاتينيس»، وغيرهم كثير جداً. وكان دانتي، في عمله «الجحيم» الذي كتبه في العقد الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، قد وضع ابن سينا وابن رشد بين الوثنيين الفضلاء. (584)

وكان أيضاً من بين أشهر هؤلاء المترجمين الأبطال جيرارد من كريمونا، وإسكتلندي يعمل في صقلية هو ميشيل سكوتوس، وقد قدّموا هم ومعاصروهم وأتباعهم ترجمات للأعمال الإغريقية الكبرى لإقليدس وهيبوقراط وحتى بطليموس وجالينوس وآخرين، وكانت هذه الأعمال قد رُوجعت وشُرحت بواسطة مفكرين مسلمين من أمثال الرازي والبتاني وابن سينا والخوارزمي.

كان جيرارد بالذات غزير الإنتاج، فتمكن من ترجمة أكثر من مئة مرجع، وكانت تراجمه شاملة، احتوت على الطب والعلم الطبيعي، والأرصاد الجوية، والجيولوجيا، والرياضيات، والفيزياء. وألهم هذا التراث الذي أثراه المسلمون جيرارد و الباحثين الأوروبيين لشد انتباههم إلى العالم المحيط بهم.

وقد حظيت العلوم الفيزيائية والطب بعناية خاصة، حيث كانت أول فيض الترجمات، الأمر الذي عكس التأكيد المتجدد على الاحتياجات العملية، وقد تم ترجمة المراجع العلمية لأرسطو بالكامل قبل أن تترجم بعض أكثر أعماله الفلسفية إيجازاً.

تضمنت أعمال الترجمة على هذا المستوى الكبير العديد من المضايقات والأخطار وقلة الإمكانات. وقد مثّلت اللغة العربية لمترجمي العصور الوسطى (الذين كانت معرفتهم باللغة الإغريقية الأصلية عموماً في أدنى مستوى) عقبة حقيقة، حيث كانت اللغة العربية حافلة بتركيبات لغوية غريبة ومصطلحات تستعصي على الترجمة، لذا كان لابد أن تنقل حرفياً كما هي.

كان انتقاء وتحديد الأعمال المطلوب ترجمتها يمثل صعوبة بالغة، حيث لم تكن الكثير من المخطوطات العربية عبارة عن أعمال مترجمة فقط، بل كانت لمؤلفين مختلفين غير معروفين، وكان من الصعب في بعض الأحيان التفرقة بين الأعمال ذات الأصل الإغريقي والتعقيبات التي توالت عليها من آخرين، وبالإضافة إلى ذلك، فقد وجد الكثير من المترجمين أن اللغة العربية أسهل في التعامل من اللغة الإغريقية الكلاسيكية، مما أدى إلى تجاوز أو حتى إهمال عدد من الأعمال الإغريقية الأصلية كلياً.

وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهت الترجمة، وأحياناً الاختيار الغريب للأعمال التي تترجم، فإن الغالبية العظمة من المراجع القديمة أصبحت متاحة للقراء الأوروبيين باللغة اللاتينية مع حلول القرن الرابع عشر الميلادي، وسرعان ما جعلت

وسائل النشر هذه الثروة متاحة على نطاق غير مسبوق، بعد أن قام يوهان جوتنبرج في سنة 1445م = 849هـ بطباعة أول كتاب بحروف متحركة.

وبعد أن أصبح العالم الغربي مدعماً بروح إنسانية جديدة ومسلحاً بتراث كلاسيكي غير مسبوق؛ فإنه ركّز اهتمامه بأموره الداخلية، وسرعان ما فقد الكثير من اهتمامه بالإسلام وتناسى ما قدمه المسلمون من إنجازات ومساهمات في ثقافته، ومع نهاية العصور الوسطى بدأت تسود علاقة جديدة بين الغرب والإسلام كانت تفتقر إلى الثقة.

ويختم هوارد تيرنر: كان التأثير الثقافي للحضارة الإسلامية بادياً على كل شيء في العالم المسيحي الغربي بدءاً من العمارة وحتى البحث في علم الحيوان. وقد يبدو أن تأثير العلوم الإسلامية أقل من تأثير الفنون الإسلامية، لكن لم يكن من الممكن لأي من المناهج العلمية التي تحولت إلى الغرب في نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة أن تتطور كما حدث لها دون الإيضاح والابتكار وقوة الدفع التي حظيت بها من إنجازات العلماء المسلمين. (585)

وهنا نقدم مؤلفات الخوارزمي كنموذج للمؤلفات المترجمة للغرب؛ فلقد أثرت أعمال محمد بن موسى الخوارزمي بعمق في تطور الفكر الرياضي في الغرب القروسطي، وقد ترجم العديد منه إلى اللاتينية في إسبانيا خلال القرن الثاني عشر الميلادي، فقام روبرت الشستري بترجمة كتابه في الجبر جزئياً بعنوان: Liber algebras et almucabala، وبعد ذلك بفترة قصيرة وضع جيرار الكريموني نسخة ثانية منه بعنوان Dejebra et almucabala. وبهذه الطريقة دخل علم جديد إلى أوروبا، وتطورت معه المصطلحات إلى الحد الذي تطلب فقط إحلال الكلمات بالرموز ليسهل التعرف عليها كما هي في علم الجبر الحديث، وقد استخدم المصطلحان (الجبر والمقابلة) اللذان ظهرا في عناوين الترجمات الأولى حتى عصر

كاناتشي (القرن الرابع عشر الميلادي) الذي بدأ في استخدام المصطلح الأول فقط، وبعد قرنين من الزمان هجر مصطلح (المقابلة) تماماً.

وفي الوقت نفسه تقريباً الذي ترجم فيه كتاب «الجبر» نشر يوحنا الإشبيلي ترجمة لاتينية لكتاب «الحساب» عن أصل عربي مفقود للخوارزمي، وجعل عنوانه:

.Liber algoarismi de practica arithmetice

ويصف هذا الكتاب العمليات الحسابية التي يمكن إجراؤها لتسعة أو عشرة أعداد، باستخدام نظام رتبة العدد الذي كان معروفاً بالفعل في إسبانيا في القرن العاشر الميلادي، كما يشرح هذا الكتاب، مع كتب أخرى مماثلة، عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة، ويوضح طرق استخدام الكسور العشرية والكسور الستينية، بالإضافة إلى الكسور المصرية، أي تلك التي يكون البسط فيها الوحدة ويتم الحصول منه على الكسور الأخرى بالإضافة.

دخل هذا النظام إلى أوروبا من خلال نسخ إسبانية مختلفة شملت مؤلفات فيبوناتشي (نحو 1170-1240م)، وكان العمل بالكسور الستينية ضرورياً للحسابات الفلكية، ثم سرعان ما أُدخلت في مقررات التعليم بالجامعات. (586)

الفصل الثالث

العلوم النظرية

وهي كثيرة، والإنتاج فيها كان غزيراً في العصرين العباسي والأندلسي، فهما العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية.

أولاً– علم القراءات:

وهو علم من علوم القرآن الكريم، و تُعرَّف القراءات بأنها علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو النقلة[587]، وتُعرف كذلك بأنها اختلاف ألفاظ الوحي المترل على النبي صلى الله عليه وسلم في كتابة الحروف، أو في كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما[588]، وهكذا فهي مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القرَّاء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم، مع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها[589].

وتبرز أهمية علم القراءات في أن المعول عليه في القرآن الكريم إنما هو التلقي والأخذ ثقة عن ثقة وإماماً عن إمام إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والمصاحف لم تكن ولن تكون العمدة في هذا الباب، وإنما هي مرجع جامع للمسلمين على كتاب ربهم، والمصاحف لم تكن منقوطة ولا مشكولة، فصورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة، فلا غرو أن كان التعويل على الرواية والتلقي هو العمدة في باب القراءة والقرآن.

ثم إنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه حين بعث المصاحف إلى الآفاق أرسل مع كل مصحف ما يوافق قراءته في الأكثر الأغلب، وهذه القراءة قد تخالف الذائع الشائع في القطر الآخر عن طريق المبعوث الآخر بالمصحف الآخر، وقد اختلف أخذ الصحابة الكرام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد[590]، ومنهم من أخذ عنه بحرفين، ومنهم من زاد، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم، وأخذ تابعي التابعين عن التابعين، وهكذا حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القرَّاء

المشهورين[591] الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويعنون بها وينشرونها[592].

وقد يسر الله عز وجل لمصر أحد القرَّاء الكبار، وهو عثمان بن سعيد المصري (ت 197هـ = 812م) المعروف بورش لشدة بياضه، الذي رحل إلى المدينة المنورة فقرأ على نافع بن عبد الرحمن ختمات في عام 155هـ = 772م، ثم رجع إلى مصر حيث انتهت إليه رئاسة الإقراء فيها[593].

ومن الخدمات المستجدة والمهمة على علم القراءات ظهور المنظومة الشاطبية التي نظمها القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي (ت 590هـ = 1193م) نسبة لمولده بشاطبة من بلاد الأندلس عام 538هـ = 1143م، الذي ارتحل في طلب العلم ولاسيما علوم القراءات التي أتقنها حتى صار رأساً فيها[594]. وسمى قصيدته الشاطبية بـ «حرز الأماني ووجه التهاني» وقد لاقت من القبول والشهرة مالا نعلمه لغيرها في هذا الفن حتى صارت في جميع بلاد الإسلام، وقد بدأها بقوله:

بدأت بـ باسم الله في النظم أولاً ... تبارك رحمانـاً رحيمـاً وموئلا
وثنيت صلى الله ربي على الرضا ... محمد المُهدى إلى الناس مرسلا
وعترته ثم الصحابة ثم من ... تلاهم على الإحسان بالخير

وقد شهد على أهميتها كبار علماء الإسلام، حيث يقوله الحافظ الذهبي: «حفظها خلق لا يحصون، وخضع لها فحول الشعراء، وكبار البلغاء، وحُذّاق القرَّاء، فلقد أبدع وأوجز وسهَّل الصعب»[596].

وقال ابن خلكان أيضاً: «ولقد أبدع فيها كل الإبداع، وهي عمدة قرَّاء هذا الزمان في نقلهم، فقلَّ من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة، وإشارات خفيَّة لطيفة، وما أظنه سُبق إلى أسلوبها»[597].

يمكن لنا أن نوزع اتجاهات التأليف في هذا العلم في العصر العباسي على فترتين:

الفترة الأولى: القرن الثالث الهجري. وفي هذا القرن برز اتجاهان في التأليف:

الاتجاه الأول: التأليف في القراءات المنفردة، وهي التي تتناول قراءة مقرئ واحد، ومن هذه المؤلفات التي تسير في هذا الاتجاه:

1- كتاب «قراءة الكسائي» (ت 189هـ = 804م وهو كوفي نزل بغداد) تأليف المغيرة بن شعيب المازني البغدادي، أحد تلاميذ الكسائي. وكتاب آخر في «قراءة الكسائي» لأحد تلامذته أيضاً، وهو أبو مسلم عبد الرحمن بن وافد الختلي البغدادي.

2- كتاب «قراءة أبي عمرو بن العلاء» (بصري توفي 154هـ = 770م) من تأليف يحيى بن المبارك اليزيدي (ت 202هـ = 817م)، وهو بصري سكن بغداد.

الاتجاه الثاني: التأليف في القراءات الجامعة، وهي الكتب التي تجمع أكثر من قراءة، ولكنها لا تشير إلى عدد معين من القراء، بل تحمل عنواناً مطلقاً هو «القراءات». وأشهر مؤلفات القرن الثالث التي تسير في هذا الاتجاه:

1- كتاب «القراءات» لأبي عبيد القاسم بن سلام الجمحي البغدادي (ت 224هـ = 838م).

2- كتاب «القراءات» لإسماعيل بن إسحق الأزدي القاضي المالكي البغدادي (ت 282هـ = 892م)، قال عنه الخطيب البغدادي: «كتاب جليل القدر عظيم الخطر» جمع فيه قراءة عشرين إماماً، وروى عنه عدد من كبار القراء ببغداد[598].

أما في القراءات السبع؛ فأول من سار في هذا الاتجاه القارئ البغدادي ابن مجاهد، واسمه أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد (ت 324هـ = 935م)، حيث صنّف كتاب «السبعة في القراءات». وقد اشتهر ابن مجاهد بأنه «مصنّف السبعة»، ونعته ابن الجزري بقوله: «شيخ الصنعة ومسبع السبعة». وكان لهذا العالم مكانة كبيرة في علم القراءات، «وانتهت إليه الرياسة بمدينة السلام في عصره» كما يقول

ابن النديم، وقال الخطيب البغدادي: «شيخ القراء في وقته، والمقدم منهم على أهل عصره». وقد تتلمذ عليه عدد كبير من أهل بغداد وغيرهم حتى قال ابن الجزري: «لا أعلم أحداً من شيوخ القراءات أكثر تلاميذ منه، ولا بلغنا ازدحام الطلبة على أحد كازدحامهم عليه».

وكتاب ابن مجاهد: نال شهرة واسعة، مع أنه مسبوق بعدد من كتب القراءات لأئمة مشهود لهم بالرسوخ في هذا العلم.

ومن السابقين في القراءات محمد بن يزيد المعروف بالمبرد (ت 285هـ = 898م) له كتاب «احتجاج القراءة». ومحمد بن السري بن سهل أبو بكر النحوي البغدادي المعروف بابن السراج (ت 316هـ = 928م) له كتاب «احتجاج القراء». وصنّف ابن درستويه عبد الله ابن جعفر بن محمد البغدادي (ت 347هـ = 958م) كتاب «الاحتجاج للقراء». ولأبي بكر النقاش محمد بن الحسن بن محمد الموصلي نزيل بغداد (ت 351هـ = 962م) كتاب «السبعة بعللها»[599].

القراءات في الأندلس:

إن علم القراءات دخل الأندلس في وقت مبكر وأول قراءة أدخلها الأندلسيون بلادهم سماعاً على مقرئها هي قراءة نافع بن أبي نعيم المدني (توفي 169هـ = 785م) ثم تلميذه المصري المعروف بـ «ورش» (توفي 197هـ = 812م). وحينما نشطت حركة التأليف في علم القراءات ببغداد عمل أهل الأندلس على جلب هذه المؤلفات على اختلاف اتجاهاتها، فبعضها في القراءة المفردة، وبعضها جامعة للقراءات من غير إشارة إلى عدد معين، والبعض الآخر في القراءات السبع أو الثمان أو العشر أو الإحدى عشرة أو في القراءات العشرين. بالإضافة إلى كتب تعليل القراءات أو الاحتجاج لها ومعرفة شواذها. وكل هذه الأنواع وجدت طريقها إلى الأندلس، لا سيما في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي،

وكان لبغداد الدور الأكبر في إمداد الغرب الإسلامي بقدر كبير من مصادر هذا العلم.

تلقى الأندلسيون علم القراءات عن المشارقة واستوعبوا مصادره الواردة من بغداد ومصر، وأولوها عنايتهم واهتمامهم، وأدخلوها في برامجهم التعليمية وانتقلوا إلى الجمع والتصنيف، وظهرت لهم مؤلفات مهمة ومتميزة، وأثمر ذلك كله بالأندلس حركة عملية نشطة في هذا الفن.

والناظر في تراث المدرسة الأندلسية في علم القراءات يرى اهتماما بالغاً وتراثاً خالداً وعلماء أفذاذاً هم في المقدمة أئمة القراءة، وتبوأت مصنفاتهم مكانة الصدارة حتى إن ابن الجزري (توفي 833هـ = 1429م) عدد المصنفات التي اعتمد عليها في كتابه «النشر في القراءات العشر» فجعل في مقدمتها نحو عشرة من كتب الأندلسيين.

والمتتبع لحركة التأليف الأندلسية في علم القراءات يجد أنها بدأت في وقت مبكر تزامنت مع حركة نقل هذا العلم من المشرق. فقد صنف عبد الرحمن بن موسى الهواري الأستجي (توفي 226هـ = 840م) كتاباً في «القراءات»، وهو من تلامذة الإمام مالك، رحل إليه في إمارة عبد الرحمن الداخل (توفي 172هـ = 788م) وكان كثيراً ما يترل قرطبة.

وصنف أبو عبد الله محمد بن عمر بن خيرون المعافري الأندلسي نزيل القيروان (توفي 306هـ = 918م) في علم الوقف والابتداء كتاباً بعنوان «الابتداء والتمام»، ولعله أول كتاب أندلسي يصنف في هذا العلم. وصنف أيضاً كتاب «الألفات» وكتاب «اللامات». ويعد ابن خيرون أول من أدخل قراءة نافع إلى القيروان وكان الغالب على أهلها قراءة حمزة.

وأما الإضافات الحقيقية التي تنسب إلى أهل الأندلس في ميدان التأليف القرائي فقد بدأت مع أوائل القرن الخامس الهجري، وظهر في هذا القرن مجموعة من القراء

الكبار قادوا المسيرة في هذا الاتجاه، ويأتي في مقدمتهم الإمام المقرئ المحدث أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري الطلمنكي نزيل قرطبة (توفي 340هـ = 951م)، وهو حبر في علوم القرآن، قراءاته وتفسيره وأحكامه وإعرابه وناسخه ومنسوخه، وتتلمذ في المشرق على عدد من القراء البغداديين والمصريين، وصنف في القراءات كتاب «الروضة».

وقد عاصره عالم آخر من طرسوس أخذ القراءات أيضاً عن جماعة من البغداديين والمصريين، وهو أبو القاسم عبد الجبار بن أحمد بن عمر الطرسوسي المعروف بالطويل (توفي 420هـ = 1029م) وله في هذا العلم كتاب كبير سماه «المجتبى الجامع لقراءات الأئمة»[600].

وأبرز العلماء الذين تأسس علم القراءات بالأندلس على أيديهم هم: مكي بن أبي طالب، وأبو عمرو الداني، ومحمد بن شريح الرعيني.

الأول: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي: القيرواني (الأصل) نزيل قرطبة (توفي 437هـ = 1045م). وصفه ابن الجزري بأنه «إمام علامة محقق عارف أستاذ القراء المجودين»، نزل قرطبة سنة 393هـ = 1002م، ومات بها. وكان متبحراً في علوم القرآن، مكثراً من التأليف فيها، ومؤلفاته تنيف عن الثمانين، وأكثرها صنفه في قرطبة سنة 395هـ = 1004م، وكثير منها في علم القراءات، ففي هذا العلم صنف: «التبصرة» في خمسة أجزاء، و«التذكرة في القراءات السبع» و«الهداية في القراءات» و«الإبانة عن معاني القراءات» في جزء. وكتاب «الكشف عن وجوه القراءات السبع وحججها وعللها ومقاييس النحو فيها» في عشرين جزءاً، وكتاب «الموجز في القراءات». وكتاب «مختصر كتاب الحجة في علل القراءات» لأبي علي الفارسي البغدادي (توفي 377هـ = 1084م). وكتاب «الانتصاف في الرد على أبي بكر الأدفوي فيما زعم من تغليطه في كتاب الإبانة» في ثلاثة أجزاء. وكتاب «التنبيه في أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه» في جزأين.

والثاني: أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي القرطبي المعروف بابن الصيرفي (371- 444هـ = 981- 1052م)، وهو – كما يقول ابن الجزري – «أستاذ الأستاذين وشيخ مشايخ المقرئين». وأضاف: «لم يكن في عصره ولا بعد عصره بمدد أحد يضاهيه في حفظه وتحقيقه... ومن نظر في كتبه علم مقدار الرجل وما وهبه الله تعالى». وقال عنه ابن بشكوال وغيره: «كان أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه، وجمع في ذلك تواليف حساناً يطول تعدادها، ويطول إيرادها». وقد بلغت هذه المؤلفات كما يقول الذهبي مئة وعشرين كتاباً.

ومن كتبه في علم القراءات: كتاب «جامع البيان في القراءات السبع وطرقها المشهورة والغريبة»، وهذا الكتاب هو أهم كتبه في هذا العلم، ويقع في ثلاثة أسفار، نسج فيه على منوال كتاب «القراءات» للدارقطني البغدادي (توفي 385هـ = 995م). وصنف أيضاً كتاب «التيسير في القراءات السبع»، وهذا الكتاب كان عليه المعول في دراسة القراءات بالأندلس ومصر والمغرب وغيرها، وأدخله الأندلسيون في برامج التعليم حتى فترة متأخرة من تاريخ الأندلس. وقد صنف أيضاً في القراءات السبع كتاب «الاقتصاد» في مجلد واحد. وكتاب «التهذيب لانفراد أئمة القراء السبعة». وفي القراءات الشواذ نصف كتاب «المحتوى» في مجلد واحد.

وصنف في القراءات المفردة كتاب «إيجاد البيان في قراءة ورش» في مجلد. وكتاب «التلخيص في قراءة ورش»، وكتاب «التمهيد لاختلاف قراءة نافع» في عشرين جزءاً. وكتاب «التلخيص في أصول قراءة نافع».

وثالث الثلاثة الذين قامت مدرسة القراءات بالأندلس على أيديهم: هو أبو عبد الله الرعيني: محمد بن شريح بن أحمد الإشبيلي (388- 998 = 476- 1083م). كان رأساً في القراءات، بصيراً بالنحو والصرف، فقيها حجة ثقة. ووصفه ابن بشكوال بأنه من جلة المقرئين وخيارهم. وقد صنف في هذا العلم

مجموعة من الكتب المعتمدة، منها في القراءات السبع كتابان، هما: كتاب «الكافي» وكتاب «التذكير». وجمع اثنين وعشرين رواية في القراءات عن بعض الأئمة القراء (في مجلد). كما أنه صنف كتاباً في قراءة يعقوب بن إسحق الحضرمي، واختصر كتاب «الحجة في علل القراءات» لأبي علي الفارسي البغدادي (توفي 377هـ = 987م) [601].

ثانياً – علم التفسير:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه أكثر مما عرفه العلماء اللاحقون؛ ولكن معارفهم لم تصنف ضمن فنون مدونة، ولم تجمع في كتب مؤلَّفة، لأنه لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف، وفي عهد عثمان رضي الله عنه بدأ التمهيد لتدوين علوم القرآن، بعد أن اتسعت رقعة الإسلام واختلط العرب الفاتحون بالأمم التي لا تعرف العربية، وخاف المسلمون أن يختلف الناس في القرآن إن لم يجتمعوا على مصحف واحد، ولهذا أمر عثمان بجمع القرآن في مصحف إمام، وأن تنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام، وأن يحرق الناس كل ما عداها وألاّ يعتمدوا سواها، وبهذا العمل وضع عثمان الأساس لما نسميه (علم رسم القرآن) أو (علم الرسم العثماني)، ثم جاء علي رضي الله عنه فلاحظ أن العجمة تحيف على اللغة العربية، فأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع بعض القواعد لحماية لغة القرآن، وبذلك نستطيع أن نعد علياً رضي الله عنه واضع الأساس لما نسميه (علم النحو)، ويتبعه علم إعراب القرآن.

ثم جاء عصر بني أمية، حيث وضع مشاهير الصحابة والتابعين الأساس لما يسمى (علم التفسير) و(علم أسباب النزول)، و(علم الناسخ والمنسوخ) و(علم غريب القرآن) ونحو ذلك، ثم جاء عصر التدوين بعد ذلك، فأُلفت كتب في أنواع علوم القرآن، مع التركيز على التفسير لأنه أم العلوم القرآنية، إلى أن جاء ابن جرير الطبري (ت 310هـ = 922م) الذي وضع تفسيراً يُعدُّ من أجل التفاسير وأعظمها،

وبقيت العناية بالتفسير قائمة في العصور التالية، وظهر التفسير بالمنقول والتفسير بالمأثور، وتفسير القرآن كله، وتفسير جزء، وتفسير سورة، وتفسير آية، وتفسير آيات الأحكام، إلى غير ذلك، وظهرت مؤلفات في كل نوع من علوم القرآن، سواء في ذلك أقسام القرآن، وأمثال القرآن، وحجج القرآن، وبدائع القرآن، ورسم القرآن، وما أشبه ذلك[602].

ونختار من كتب التفسير بالمأثور المنسوبة إلى البغداديين:

(أ) في القرن الثالث:

1- كتاب «التفسير» لأبي الحارث سريح بن يونس بن إبراهيم البغدادي الحافظ (ت 235هـ = 849م) روى عنه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

2- كتاب «التفسير» لأبي بكر بن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن إبراهيم الكوفي نزيل بغداد (ت 235هـ = 849م) كان يجلس في مسجد الرصافة ببغداد للتعليم فيجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً. ولأخيه عثمان كتاب في التفسير أيضاً.

3- كتاب «التفسير» للإمام أحمد بن حنبل الشيباني البغدادي (ت 241هـ = 855م) وهو تفسير كبير يضم مئة وعشرين ألف حديث وأثر.

(ب) في القرن الرابع الهجري:

1- كتاب «شفاء الصدور في التفسير» لأبي بكر النقاش محمد بن الحسن بن محمد البغدادي (ت 351هـ = 962م). وهو إمام في التفسير والقراءات، وكتابه يقع في اثني عشر ألف ورقة كما يقول ابن النديم الذي سماه «التفسير الكبير». غير أن الكتاب لم يحظ بقبول العلماء المعاصرين لمؤلفه، فقد سأل الخطيب البغدادي شيخه أبا بكر البرقاني عن هذا التفسير فقال: «كل حديثه منكر... ليس فيه حديث صحيح»، وقال السبكي في «طبقات الشافعية»: «فيه موضوعات كثيرة».

2- «التفسير الكبير» لعمر بن أحمد بن عثمان البغدادي المعروف بابن شاهين (ت 385هـ = 995م) ويقع في ألف جزء كما يقول الخطيب البغدادي (أي من

الأجزاء الصغيرة). وقد رآه الذهبي (ت 748هـ = 1347م) صاحب «سير أعلام النبلاء».[603]

تلك بعض الأمثلة أوردناها كنماذج لعدد من المفسرين البغداديين، غير أن أعظم هؤلاء المفسرين في القرنين المذكورين هو محمد بن جرير الطبري، وفيمايلي نبذة مختصرة عنه وثناء العلماء على تفسيره.

هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير أبو جعفر الطبري. ولد سنة (224هـ = 838م) في مدينة آمل أكبر مدن طبرستان، وطلب العلم بعد سنة 240هـ = 854م، وأكثر من الترحال، واستقر في أواخر أمره ببغداد. وقد تبوأ مكانة علمية رفيعة وشهرة واسعة في العالم الإسلامي في عصره، جمع بين الكثير من العلوم الإسلامية، وله فيها مناقشات في تصانيف تدل على إحاطته وتمكنه.

ويعد تفسيره «جامع البيان في تفسير القرآن» من أجل كتب التفسير وأجمعها وأقومها وأغزرها مادة، أملاه من حفظه من سنة (283هـ = 896م) إلى سنة (290هـ = 902م)، أي أنه استغرق في تأليفه سبع سنين. والقارئ لهذا الكتاب يجد نفسه أمام ثروة هائلة من العلوم المختلفة التي انتظمتها مباحثه، بحيث «لو ادعى عالم أن يصنّف منه عشرة كتب، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل» على حد تعبير الفرغاني صاحب كتاب «الصلة على تاريخ الطبري». ويقول الفرغاني أيضاً معدداً مزايا هذا التفسير: «تم من كتب محمد بن جرير كتاب تفسير القرآن، فجوّده، وبيّن فيه أحكامه وناسخه ومنسوخه، ومشكله وغريبه، ومعانيه واختلاف أهل التأويل والعلماء في أحكامه وتأويله، والصحيح لديه من ذلك، وإعراب حروفه، والكلام على الملحدين فيه، والقصص وأخبار الأم والقيامة، وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب، كلمة كلمة، وآية آية». وقال البغدادي (ت 355هـ = 965م): «اشتهر الكتاب وارتفع ذكره... وقرأه كل من كان في وقته من العلماء».

أما طريقة الطبري ومنهجه الذي التزمه في تفسيره، تُختصر بالقول: بأن ما جمعه من أقوال المفسرين الذين تقدموا عليه وما نقله لنا عن مدرسة ابن عباس ومدرسة ابن مسعود ومدرسة علي بن أبي طالب ومدرسة أبي بن كعب، وما استفاده مما جمعه أئمة المفسرين من قبله جعلت هذا الكتاب أعظم الكتب المؤلفة في التفسير بالمأثور. كما أن ما جاء فيه من إعراب وتوجيهات لغوية واستنباطات في نواح متعددة، وترجيح لبعض الأقوال على بعض كان نقطة التحول في التفسير، ونواة لما وجد بعد من التفسير بالرأي – أي الرأي المقبول – ويصح أن نعد تفسير الطبري تحولاً في منهج التفسير، وأثراً بعيداً قطع به هذا العلم ما كان يربطه إلى علم الحديث من تبعه كاملة[604].

أما التفسير بالرأي؛ فإن أكثر التفاسير من هذا النوع تنسب إلى المعتزلة والشيعة، ويمكن تسميته بالتفسير المذهبي، ويعني ـــ في عبارة مختصرة ـــ أن كل فرقة تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها، وتفسره بما يتلائم مع مذهبها.

ولعل أقدم تفسير ينسب إلى المعتزلة هو تفسير واصل بن عطاء البصري المعتزلي (ت 181هـ = 797م)، وهو أول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين (أحد أصول المعتزلة)، واسم كتابه معاني القرآن.

وفي القرن الثالث الهجري: صنّف عبد الرحمن بن كيسان بن الأصم أبو بكر المعتزلي (ت240هـ = 854م) تفسيراً، ذكره ابن النديم في «الفهرست»، وذكره القاضي عبد الجبار المعتزلي في «طبقات المعتزلة» وقال عنه: (تفسير عجيب).

وأهم تفاسير المعتزلة في القرن الرابع الهجري هو «تفسير» أبي على الجبائي (ت 303هـ = 915م) محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن يزيد ابن أبي السكن البصري، أحد أكابر شيوخ المعتزلة، كانت له شهرة واسعة في الفلسفة وعلم الفلسفة وعلم الكلام. وتفسيره هذا ذكره ابن النديم والسيوطي وغيرهما. وقال فيه ابن كثير: «تفسير حافل مطول، له فيه اختيارات غريبة في التفسير». ثم ذكر ابن كثير عن هذا

التفسير أنه لأبي الحسن الأشعري (وكان قبل رجوعه عن الاعتزال تلميذاً للجبائي) رداً عليه[605].

وقد وجه علماء بغداد عنايتهم إلى دراسة جوانب أخرى عديدة من جوانب القرآن الكريم، أهمها «المحكم والمتشابه من القرآن» و«مشكل القرآن» و«والناسخ والمنسوخ» و«أسباب النزول»، وغير ذلك من الجوانب التي أصبحت علوماً ولها مؤلفات.

وأول من صنّف في علم «متشابه القرآن» هو مقاتل بن سليمان بن كثير الأزدي الخراساني البلخي نزيل بغداد (ت 150هـ = 767م).

ولدينا من علماء بغداد من صنّفوا في علم «مشكل القرآن»، ومنهم: يحيى بن زياد بن عبد الله، أبو زكريا الفراء الكوفي النحوي نزيل بغداد (ت 207هـ = 822م)، له كتابان في «مشكل القرآن» كبير وصغير.

ومن مصنّفات البغداديين في «علم الناسخ والمنسوخ»؛ كتاب «الناسخ والمنسوخ في الكتاب العزيز» لأبي عبيد القاسم بن سلام الجمحي البغدادي (ت 223هـ = 858م)، قسّمه على أبواب الفقه، وامتاز بمزايا عدة من حيث جودة التصنيف وحسن التبويب والأمانة العلمية ودقة المناقشة والنقد البنّاء.

وفي «أسباب النزول»: لا نكاد نعثر على كتاب واحد فيه لعالم بغدادي غير كتاب «أسباب النزول» لأبي جعفر علي بن عبد الله بن جعفر البغدادي المعروف بابن المديني (ت 234هـ = 848م) وهو من شيوخ البخاري.

(هـ) وفي «إعجاز القرآن»: صنّف كل من محمد بن عمر بن سعيد الباهلي البصري (ت 300هـ = 912م) من كبار المعتزلة، وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني البغدادي المعتزلي (ت 384هـ = 994م)، وأبو بكر الباقلائي محمد بن الطيب البغدادي (ت 403هـ = 1012م) وكتابه مشهور[606].

التفسير وعلومه في الأندلس:

إن نشأة علم التفسير في الأندلس تختلف عن نشأته في المشـــرق؛ فنشـــأته في المشرق نشأة ولادة وتكوين، وأما في الأندلس فهي نشأة تلقي وإضـــافة. بمعـــنى أن الأندلسين تلقوا علم التفسير ومادته ومناهجه عن المشارقة، وجلبوا مصـــادره علـــى اختلاف اتجاهاتها إلى بلادهم، وأدخلوها في برامجهم التعليمية، وأضافوا إليها، ودونوا تفاسير زائدة للقرآن الكريم، كان لها مكانة كبيرة، وانكشف لهم فيها مـــن المعـــاني والمعارف ما لم يظهر لغيرهم.

و لم يكن أعلام مدرسة الأندلس في التفسير بالكثرة التي كانت عليها المدرســـة البغدادية = المشرقية، وليسوا أيضاً بالقلة: فقد وردت في كتب التراجم والطبقـــات أسماء كثير من المفسرين الأندلسيين، إلا أن مؤلفاتهم ضاعت أو أحرقت كغيرها مـــن العلوم عند سقوط الأندلس.

اعتمد رجال المدرسة الأندلسية التفسير بالمأثور، وأنزلوه منزلته، وعرفوا أهميته، إلا أن اعتمادهم هذا لم يكن عملا آلياً يخلو من النظر والتفكر والموازنة والتـــرجيح. وقد جعلوا القرآن نفسه العمدة في تفسير آياته وتحديد مقاصده، وبيـــان أغراضـــه، ورجعوا إليه في بيان الأحكام الشرعية والقضايا العقدية. وأدركت هـــذه المدرســـة مكانة الأحاديث النبوية التي تبين المحكم من القرآن وتشرح المبهم وتفســـر المشـــكل وتحدد الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد وما شابه ذلك. وهذا هـــو أحـــد قواعـــد التفسير بالمأثور.

وأول إضافة تنسبها المصادر إليهم كتاب «التفسير» لعبد الرحمن بن موســـى الهواري الأستجي (توفي 228هـــ = 842م) من أهل أستجة، وكان يترل قرطبـــة كثيراً، وله رحلة إلى المشرق لقي فيها الإمام مالكاً وسفيان بن عيينة. وقال عنه ابـــن الفرضي: «له كتاب في تفسير القرآن، رأيت بعضه، وكان يرويه عنه محمد بن أحمـــد العتبي». صاحب «العتبية» المشهورة بالمستخرجة، ومسيب بن ســـليمان الأســـتجي

وعن طريقهما انتشر هذا التفسير بالأندلس، فرواه عن العتبي: أبو عبد الله محمد بن لبابة القرطبي (توفي 314هـ = 926م)، ورواه عن المسيب: ميكائيل بن هارون الأستجي.

ومن أوائل الذين صنفوا تفسيراً للقرآن قبل أن ينتهي النصف الأول من القرن الثالث الهجري: أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي (توفي 238هـ = 852م)، ويقع تفسيره في ستين جزءاً كما يقول القاضي عياض في ترتيب المدارك. وابن حبيب معدود في كبار علماء الأندلس، وهو من المكثرين من التأليف في فنون كثيرة، كالفقه والحديث والتاريخ وعلوم القرآن.

وفي الفترة نفسها صنف أبو إسحق إبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتنيل القرطبي (توفي 247هـ = 861م) تفسيراً رواه عنه الأندلسيون. وقد كانت له رحلة إلى المشرق لقي فيها ابن هشام صاحب «السيرة».

وأهم تفسير للقرآن ظهر في الأندلس قبل انتهاء القرن الثالث والذي يعد مفخرة للأندلسيين هو «تفسير» بقي بن مخلد بن يزيد، أبي عبد الرحمن القرطبي (توفي 276هـ = 889م). وقد كان ابن حزم المؤرخ والفقيه القرطبي المشهور (توفي 456هـ = 1063م) يفضل هذا التفسير على «تفسير» محمد بن جرير الطبري البغدادي (توفي 310هـ = 922م)، فيقول في معرض حديثه عن فضل علماء الأندلس في مجالات العلوم المختلفة: «وفي تفسير القرآن: كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد، فهو الكتاب الذي أقطع قطعا لا أستثنى فيه أنه لم يولف في الإسلام تفسير مثله، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره»[607].

ومن علماء التفسير أبو بكر بن العربي: محمد بن عبد الله بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري الإشبيلي (توفي 543هـ = 1148م) قال عنه تلميذه ابن بشكوال: «الإمام الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها» وقال أيضاً: «كان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها متقدماً في

المعارف كلها متكلماً في أنواعها نافذاً في جميعها حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها. وكانت له رحلة إلى المشرق، ودخل الشام وبغداد ومصر «وعاد بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق». وكتب مؤلفات عديدة في علوم القرآن والفقه وأصوله والحديث وأصول الدين واللغة والنحو والتاريخ والرقائق. صنف في التفسير كتاب «أحكام القرآن» ومختصراً له، وكتاب «أنوار الفجر المنير في التفسير»، وهو أعظم كتاب له، وكان كثيراً ما يفتخر به ويشيد بأهميته في مختلف كتبه، ذكر أنه ألفه في مدة عشرين عاماً وأن به ثمانين ألف ورقة، ولم يصل إلينا شيء منه فيما نعلم، وقد أشار ابن فرحون إلى أنه يقع في ثمانين مجلداً، وذكر له كتاباً آخر في التفسير بعنوان «القانون في تفسير القرآن العزيز»[608].

ثالثاً– علم الحديث:

تدل بعض الروايات على تدوين أخبار عديدة في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ومن ذلك ما كتبه إلى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشي وغيرهم، كما تدل بعض الروايات على كتابة الحديث وتدوينه في عصر الصحابة وفي عصر التابعين، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلَّ جلُّ الصحابة يكتفون بالاعتماد على الذاكرة، وهذا ما صعَّب حصر ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله في ثلاثة وعشرين عاماً من بدء الوحي حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى[609].

وبذلك استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وتضاعف ذلك إثر الفتوحات الإسلامية حين دخل الإسلامَ عددٌ كثير من أمم البلاد المفتوحة، فروَّعت هذه الأحاديث الموضوعة العلماء والمختصين، فنهضوا لتنقية الحديث مما ألمَّ به، وتمييز صحيحه من موضوعه، وسلكوا في ذلك جملة مسالك، وهي ما يطلق عليه اسم علوم الحديث[610]، فأمسى لزاماً أن يشيع التدوين وينتشر في عصر التابعين، وتميز ذلك التدوين بأن الحديث كان ممزوجاً غالباً بفتاوى الصحابة والتابعين، كما في موطأ مالك إمام المدينة[611].

وعلى رأس المئتين حدثت خطوة جديدة أخرى على طريق تدوين الحديث في عصر أتباع التابعين، بإفراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فتاوى الصحابة والتابعين، وسُمي ذلك بالمسانيد، وهي طريقة تخالف طريقة التأليف على الأبواب (باب الطهارة، باب الصلاة إلخ) بأن ترتب الأحاديث بحسب الرواة من الصحابة، وكان أوفى المسانيد وأوسعها مسند الإمام أحمد بن حنبل[612].

وفي القرن الثالث للهجرة = التاسع للميلاد في عصر أتباع أتباع التابعين، نشطت حركة الجمع والنقد وتمييز الصحيح من الضعيف، ومعرفة الرجال والحكم لهم أو عليهم، وفي هذا العصر أُلفت الكتب الصحيحة المشهورة[613]. وكما قال ابن خلدون؛ فإن هذه الكتب الصحيحة هي المسانيد المشهورة في الملة، وهي أمهات كتب الحديث في السنة، ويأتي في مقدمتها الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ = 869م)، ثم جاء مسلم بن حجاج القشيري (ت 261هـ = 874م) فألف كتباً كثيرة أهمها صحيحه، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت 275هـ = 888م) الذي ألف كتابه السنن، وأبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت 279هـ = 892م) الذي ألف الجامع الصحيح، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت 303هـ = 915م) صاحب السنن[614].

ويُستفاد من هذا الكلام أن العمل في الحديث كان على مراحل طويلة خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى حتى وصلنا كما نراه مضبوطاً، وبما أنَّ قواعد علم الحديث قد وضعت في هذه القرون الثلاثة، والحديث من العلوم النقلية، فقد انصرف العلماء في العصور التالية ومنها عصر المماليك إلى التوجه نحو تصحيح الأمهات المكتوبة وشرح الأحاديث وضبط الروايات، وهذا ما دعا ابن خلدون إلى القول: «وإنما تنصرف العناية لهذا العهد إلى تصحيح الأمهات المكتوبة، وضبطها بالرواية عن مصنفيها، والنظر في أسانيدها إلى مؤلفها، وعرض ذلك على ما تقرر في علم الحديث

من الشروط والأحكام لتتصل الأسانيد محكمة إلى منتهاها، و لم يزيدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمس إلا في القليل»[615].

وقد شاع التدوين في منتصف القرن الثاني الهجري – في الطبقة التي تلي طبقة الزهري وأبي بكر بن حزم – فكانت هناك محاولات شخصية قام بها بعض العلماء من أمصار وأقطار مختلفة كالبصرة والكوفة وواسط ومكة والمدينة واليمن والشام وخراسان وغيرها. ولعل السبب في زيادة الإقبال على تدوين الحديث النبوي في الفترة المذكورة عما كانت عليه من قبل يعود إلى بعد الناس عن هدي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، وانتشار الوضع في الحديث ونشوء علم الفقه وتطور المجتمع، ومن ثم أصبحت الحاجة ماسة إلى المزيد من الأحكام والأقوال المأثورة، ومن هنا تميز جمع الحديث النبوي باختلاطه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين.

ومن أشهر كتب الحديث المؤلفة في المئة الثانية كتاب «الموطأ» للإمام مالك (ت179هـ = 795م) و«المصنّف» لشعبة بن الحجاج البصري (ت160هـ = 776م)، ومثله لحماد بن سلمة البصري (ت 167هـ = 783م)، ومثله لسفيان بن عيينة الكوفي (ت 198هـ = 813م)، ومثله لوكيع بن لجراح الكوفي (ت197هـ = 812م)، وعبد الرازق الصنعاني (ت 211هـ = 826م). وهذه المؤلفات المجموعة في هذه الفترة المبكرة انتقلت إلى بلاد الأندلس، وكان يغلب عليها طابع الجمع دون العناية بتمييز الصحيح من غيره، وبعبارة أخرى: لم تكن هذه الكتب ذات مناهج في الاختيار والبحث والجمع والتدوين.

أما طرق تصنيف الحديث وجمعه؛ فقد سلك علماء الحديث في جمعه وتدوينه خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين طرقاً مختلفة ومتنوعة، ويمكن أن نقسّم الكتب الجامعة للأحاديث النبوية إلى الأنواع التالية:

1- التأليف على المسانيد.

2- التأليف على الأبواب الفقهية.

3- طرق أخرى لجمع الحديث غير طريقتي المسانيد والأبواب[616].

فمن كتب التأليف على المسانيد مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ = 855م) الذي يعد أعلى المسانيد وأشهرها وأوفاها، وهو موسوعة حديثية ضخمة وديوان عظيم من دواوين السنة النبوية، ويضم بين دفتيه نحواً من ثلاثين ألف حديث انتقاها الإمام أحمد من محفوظاته في الحديث التي بلغت سبعمئة ألف حديث وخمسين ألفاً. وروى فيه مرويات أكثر من ثمانمئة صحابي سوى ما فيه ممن لم ترد تسميتهم، ولم يرو إلا عمن ثبتت عنده عدالته وديانته دون من طعن في أمانته. وقد قضى الإمام أحمد حياته كلها في جمعه، وكان يكتبه في أوراق متفرقة كالمسودات، ولم تتجه همته إلى ترتيبه وتنظيمه، فلما توفي قام ابنه عبد الله بترتيبه وتنقيحه وزاد عليه زيادات من مسموعاته، وابتدأ بأحاديث العشرة المبشرين بالجنة ثم مسند أبي هريرة، ثم مسند أبي سعيد الخدري، ثم جابر بن عبد الله، ثم عبد الله بن عمر، ثم عبد الله بن عباس، ثم عبد الله بن عمرو بن العاص، ثم عمد إلى غيرهم من الصحابة الذين تجمعهم نسبة واحدة، فجعل أحاديثهم في موضع واحد تحت عنوان واحد، كمسند الأنصار ومسند الكوفيين ومسند البصريين ومسند الشاميين... إلخ، وختم الكتاب بمسند النساء.

ومن كتب التأليف على الأبواب؛ كتب الصحاح: وهي الكتب التي تقيد أصحابها برواية الصحيح من الأحاديث. وأهم هذه الكتب:

1- «الجامع الصحيح المسند المختصر من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه» للإمام محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت 256هـ = 869م)، نزل بغداد ثماني مرات واشتهر فيها كتابه. ويعد البخاري أول من صنّف في الحديث المجرد، واتفق جمهور العلماء على أن كتابه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى. وروى عن البخاري قوله: «لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً، وما تركت من الصحيح أكثر» وقال أيضاً: «ما أدخلت في كتاب الجامع إلا ما صح وتركت من الصحيح حتى لا يطول». وقد جمع البخاري «صحيحه» في ست عشرة سنة،

وانتقاه – كما يقول هو – من ستمئة ألف حديث، ولما انتهى منه عرضه على أئمة الحديث ببغداد كالإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ = 855م) ويحيى بن معين (ت 233هـ = 847م) وعلى ابن المديني (ت 234هـ 848م) وغيرهم فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة. وعدّد أحاديثه بالمكرر – بما فيه من معلقات ومتابعات واختلاف الروايات – (9082) حديثاً. وعدد الأحاديث الموصولة بلا تكرار (2602) حديثاً.

2- «الجامع الصحيح» للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261هـ = 874م). عدد أحاديثه (كما يقول أحد تلاميذ المؤلف) اثنا عشر ألف حديث – أي بالمكرر – وانتقاه مسلم من ثلاثمئة ألف حديث، واستغرق في تأليفه خمس عشرة سنة[617].

أما كتب الطرق الأخرى لجمع الحديث النبوي غير طريقتي المسانيد والأبواب؛ فمنها:

(أ) الأجزاء: والمقصود بالجزء الحديثي في اصطلاح علماء الحديث: «الكتاب الصغير الذي يشتمل على الأحاديث المروية عن رجل واحد من الصحابة أو من بعدهم».

ومن الأجزاء الحديثية التي صنّفها العراقيون في القرنين المذكورين: «جزء» أبي عام الضحاك بن مخلد الشيباني البصري (ت 212هـ = 827م)، وهو من شيوخ البخاري، و«جزء» أبي علي الحسن بن عرفة البغدادي (ت 257هـ = 870م).

(ب) الأحاديث المسلسلة: والحديث المسلسل هو «الذي تتابع رجال إسناده على صفة أو حالة أو كيفية»، وبعبارة أخرى «هو الحديث المسند المتصل الخالي من التدليس الذي تكرر في وصف روايته عبارات أو أفعال متماثلة ينقلها كل راو عمن فوقه في السند».

ومثال هذا النوع من التصنيف لدي العراقيين «مسلسلات» أبي بكر أحمد بن إبراهيم بن الحسين بن شاذان البغدادي البزار (ت 383هـ = 993م)[618].

– علوم الحديث النبوي في الأندلس:

إن دراسة الحديث النبوي في الأندلس بدأت منذ عهد مبكر على يد جماعة من الشاميين والكوفيين الذين أقاموا في قرطبة، مثل معاوية بن صالح ابن حُدَيْر الحمصي (توفي 172هـ = 788م)، وصَعْصعة بن سلام الشامي (توفي 192هـ = 807م) وأحمد بن الحسن بن الحارث النخعي الكوفي، إضافة إلى عدد من الرواد الأندلسيين الذين رحلوا إلى (بغداد = المشرق) في القرن الثالث الهجري، وكانت لهم مشاركة جيدة في نقل الحديث النبوي إلى قرطبة، مثل محمد بن عيسى المعافري القرطبي (توفي 221هـ = 835م) وغيره.

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري شهدت الأندلس حركة نشطة ونقلة كبيرة في تقدم دراسة الحديث النبوي، اعتماداً على المدرسة (البغدادية = المشرقية)، وأبرز الشخصيات العلمية الذين كان لهم دور بارز في خلال تلك الفترة هي بقيّ بن مَخْلَد القرطبي (ت276هـ = 889م) ومحمد بن وضَّاح القرطبي (ت287هـ = 900م) ومحمد بن عبد السلام الخُشَني القرطبي (ت286هـ = 899م)، ثم تلا هؤلاء طبقة أخرى ساهموا بجهود كبيرة ساعدت على تأسيس هذا العلم وتطوره بالأندلس، منهم: قاسم بن أصبغ البَّياني القرطبي (ت340هـ = 952م)، ومحمد بن عبد الملك بن أيمن القرطبي (ت330هـ = 941م) ومحمد بن قاسم بن محمد القرطبي (ت328هـ = 939م) وغيرهم. وهؤلاء جميعاً – وأجيال جاءت بعدهم – كان لهم شرف الرحلة إلى المشرق الإسلامي لطلب الحديث النبوي من منابعه والاطلاع على مناهجه، والعودة بمروياته ودواوينه ومصادره.

وقد أقبل الأندلسيون إقبالاً لا نظير له على دراسة كتب الحديث المشرقية التي وصلت إليهم، وتوسّعت لديهم دائرة التأثر بمناهجها، وسلكوا مسلكها في التصنيف

والتبويب، وتناولوا عدداً منها بالشرح والتعليق. وهم – وإن كانوا لا يضاهون المشارقة في كثرة التصنيف في هذا العلم – لكنهم لم يتركوا نوعاً إلا وقد شاركوا فيه بكتاب أو عدد من الكتب، لا سيما علم الجرح والتعديل وتاريخ رواة الحديث وعلم العلل، وربما فاقوا المشارقة في بعض الجوانب، وكانت لهم الريادة في جوانب أخرى.

ونؤكد هنا على حقيقة مهمة، هي أن المادة الحديثية التي شكل منها الأندلسيون كتبهم في علم الحديث هي في أغلبها مادة مشرقية أعادوا صياغتها وترتيبها، وأضافوا إليها الكثير من بنات أفكارهم، وليس ذلك خاصاً بهذا العلم فقط، وإنما كان هذا هو الشأن مع بقية العلوم كالتفسير والفقه والنحو واللغة والأدب وعلوم الطب والصيدلة والنبات والفلك والرياضيات.

وقد اتجهت دراسة الحديث بالأندلس – كما في (بغداد = المشرق) – اتجاهين أساسين حسبما هو مصطلح عليه لدى المعنيين بهذا العلم، ويتناول الاتجاه الأول منهما سلسلة الرواة الذين حملوا نص الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والأخذ بمعايير الجرح والتعديل للتأكد من صحة الإسناد، وهو ما يعرف عند علماء الحديث بدراسة الحديث رواية. ولم يكن اهتمام الأندلسيين بدراسة الرجال (الرواة) بأقل منه بدراسة نص الحديث نفسه من عدة جواب للتأكد من صحته بعد ثبوت سنده، وهو ما يعرف بعلم الحديث دراية [619].

وتناولت اتجاهات الأندلسيين في مجال الحديث مايلي:

أ– التأليف على المسانيد:

وأهم الكتب في ذلك مسند ابن مخلد القرطبي (ت 226 هـ = 889م)، والذي يقول عنه ابن حزم الأندلسي – «رتبه على أسماء الصحابة رضي الله عنهم، فروى فيه عن ثلاثمئة وألف صاحب ونيف، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام، فهو مصنف ومسند».

وهذه الطريقة في التأليف الحديثي جديدة ومبتكرة وتضاف إلى رصيد الأندلسيين في إطار السعي إلى الخصوصية والتميز، فقد جمع بين أسلوبين في نسق واحد، وذكره ابن حزم ضمن المؤلفات التي أوردها في (رسالته عن فضائل الأندلس)، والتي تعد من مفاخر الأندلسيين، وقال عنه: «وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله فيه بالحديث وجودة شيوخه».

وقد حاز هذا «المسند» إعجاب المشارقة أيضاً وأثنوا عليه، فيروي ابن الفرضي أن طاهر بن عبد العزيز الرعيني القرطبي (توفي 305هـ = 917م) حمل معه في رحلته إلى المشرق جزءاً من الكتاب المذكور، وأراه محمد بن إسماعيل الصائغ البغدادي (توفي 276هـ = 889م) فقال هذا الأخير: «ما اغترف هذا إلا من بحر علم»[620].

(ب) التأليف على الأبواب:

(1) كتب السنن:

ومن الكتب التي تعد عنواناً على تأثر علماء الأندلس بمناهج العراقيين في تصنيف الحديث النبوي: «كتب السنن». وأهم كتابين للأندلسيين في «السنن» هما لقاسم بن أصبغ البياني القرطبي (توفي 340هـ = 951م) ومحمد بن عبد الملك بن أيمن القرطبي (توفي 330هـ = 941م)، وهما من كبار حفاظ الحديث بالأندلس. ويذكر الرواة أن سبب تأليف هذين الكتابين أن هذين الصاحبين لما دخلا بغداد سنة 276هـ = 889م وجدا أبا داود السجستاني «صاحب كتاب السنن»، قد مات قبل وصولهما بوقت يسير، فلما فاتهما الرواية عنه عمل كل واحد منهما مصنفاً في «السنن» على أبواب كتاب أبي داود، وخرجا الأحاديث من روايتهما عن شيوخهما. قال ابن خير: «وهما مصنفان جليلان». وقال ابن حزم عن كتاب عبد الملك بن أيمن: «مصنف رفيع احتوى من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات».

ووضع قاسم بن أصبغ كتاباً آخر في السنن، اقتفى فيه أثر كتاب «المنتقى في السنن المسندة» لأبي محمد عبد الله بن الجارود النيسابوري نزيل مكة (توفي 307هـ = 919م)[621].

(2) كتاب الصحاح:

واقتفى علماء الأندلس طريقة المشارقة في جمع الأحاديث الصحيحة دون غيرها في كتب يطلق عليها كتب «الصحاح»، وممن صنف «صحيحاً» من الأندلسيين: قاسم بن أصبغ البياني القرطبي المذكور آنفاً، جعله على هيئة «صحيح» مسلم بن الحجاج تلميذ الإمام البخاري.

(3) المصنفات:

وأهم «مصنف» في التراث الأندلسي هو «مصنف» بقي بن مخلد القرطبي (توفي 276هـ = 889م)، خصصه لأقوال الصحابة والتابعين وفتاويهم، وتفوق به على بعض «المصنفات» المشرقية على جلالتها، كمصنف أبي بكر بن أبي شيبة البغدادي (ت235هـ = 849م)، ومصنف سعيد بن منصور البلخي (ت227هـ = 841م)، وهذه المصنفات كلها شاركت في تقدم علم الحديث وتطوره بالأندلس.

وقد ألف أبو علي بن النعمة الأندلسي كتاب في شرح مصنف بقي بن مخلد، سماه «الإمعان في شرح مصنف أبي عبد الرحمن»[622].

وقد استأثر كل من صحيحي البخاري ومسلم بعناية علماء الأندلس، فمنهم من جمعها في شرح واحد، كابن العربي المالكي الإشبيلي (توفي 543هـ = 1148م) وسماه كتاب «النيرين في شرح الصحيحين». ومنهم من شرحهما بعد اختصارهما، كأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري القرطبي المعروف بابن المزين (توفي 626هـ = 1228م).

ومنهم من أفرد أحد الصحيحين بالشرح مع اختصار أصل الكتاب أو بدونه. وأشهر الأندلسيين الذين شرحوا صحيح البخاري: أبو الحسن علي بن خلف بن

بطال القرطبي (توفي 444هـ = 1052م)، شرحه في عدة مجلدات ورواه الناس عنه. وأبو عبد الله محمد بن علي ابن علي بن إبراهيم الطليطلي المعروف بابن قرديال (توفي 479هـ = 1086م). وأبو عبد الله محمد بن خلف بن سعيد بن وهب (من أهل المرية) – المعروف بابن المرابط (توفي 485هـ = 1092م). واختصره أبو القاسم المهلب بن أحمد بن أبي صفرة الأسدي – من أهل المرية (توفي 436هـ = 1044م) وسماه «النصيح في اختيار الصحيح» ثم علق عليه تعليقاً حسناً.

وقد شرح أبو بكر بن العربي الإشبيلي (توفي 543هـ = 1148م) سنن الترمذي وسماه «عارضة الأحوذي في شرح الترمذي» في ثلاثة عشر مجلداً. ولأبي الحسن علي بن عبد الله بن نعمة الأنصاري الأندلسي (توفي 567هـ = 1171م) شرح لسنن ابن ماجه.

والكتاب الذي حظي بقدر كبير من دراسة الأندلسيين سواء من الناحية الحديثية أو الفقهية هو كتاب «الموطأ» للإمام مالك لما كان يمثله من قيمة كبيرة بالنسبة لهم[623].

وأهم ما ينسب للأندلسيين في الجرح والتعديل كتابان: الأول: كتاب «تاريخ الرجال» لأبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم الصدفي القرطبي (توفي 350هـ = 961م). وهو كتاب كبير جمع فيه مؤلفه جميع ما حصل عليه من أقوال العلماء في جرح وتعديل الرواة «وبلغ فيه الغاية» كما يقول ابن الفرضي. ويقع في خمسة وثمانين جزءاً. وجعله ابن حزم الأندلسي من مفاخر الأندلسيين، وقال: «ما وضع في الرجال أحد مثله إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي» (توفي 323هـ = 934م). وقد سمعه منه كثير من الطلبة ونشروه في ربوع الأندلس. واختصره ابن عبد البر القرطبي (توفي 463هـ = 1070م).

والثاني: كتاب «التعديل والتجريح لمن روى عنه البخاري في الصحيح»: لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (توفي 474هـ = 1081م).

ومن أكمل الكتب المشرقية في جرح الرواة التي اعتمد عليها الأندلسيون في هذا الفن: كتاب «الكامل في ضعفاء الرجال» لعبد الله بن عدي الجرجاني نزيل بغداد (توفي 365هـ = 1975م)، وهذا الكتاب ذيّل عليه العالم الأندلسي أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الإشبيلي المعروف بابن الرومية (توفي 637هـ = 1239م) وسماه «الحافل في تكملة الكامل»[624].

رابعاً– الفقه:

يعرَّف الفقه بأنه علم يبحث في الأحكام الشرعية الفرعية العملية من حيث استنباطها من الأدلة التفصيلية، ومباديه مسائل أصول الفقه، وهو يتعين بسائر العلوم الشرعية والعربية، وفائدته حصول العمل به على الوجه المشروع، والغرض منه تحصيل ملكة الاقتدار على الأحكام الشرعية [625].

ويُعرَّف أصول الفقه بأنه علم يُتعرف منه استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها الإجمالية اليقينية[626].

لقد تعرض القرآن الكريم لجميع ما يصدر عن الإنسان من أعمال العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، والأمور المدنية كالبيع والإجارة والربا، والأمور الجنائية، كما تعرض لنظام الأسرة، والشؤون الدولية، والقرآن في هذا كله لا يتعرض للتفاصيل الجزئية، وإنما يتعرض غالباً للأمور الكلية، فهو عندما يشير مثلاً إلى الصلاة فإنه لا يتعرض لأوقاتها وهيئاتها، وهكذا باقي الأحكام، بل ترك ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يبينه بقوله وفعله[627]، فيكون لدينا نوع آخر من التشريع كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو التشريع بالسنة، فأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كانت شارحة للقرآن الكريم تبين مجمله وتقيد مطلقه وتؤول مشكله[628].

ثم كان اجتهاد الصحابة فيما لم يرد فيه نص، مسترشدين بما ورد في الكتاب والسنة من قواعد كلية، وحرية الفقهاء هنا محدودة في دائرة فهم نصوص القرآن والسنة، وفيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة صحيحة[629]. فتكون مصادر الأحكام في عصر الصحابة بذلك أربعة: الكتاب والسنة والقياس (أو الرأي) والإجماع، وبالضرورة لابد أن يكونوا في إجماعهم مستندين إلى نص من كتاب أو سنة أو قياس[630].

وجاء عصر بني أمية (40هـ ـ 132هـ = 660م ـ 749م)، فدخلت في مملكة الإسلام أمم من غير العرب، وظهر الامتزاج مع الأمم المفتوحة، فكان من أثر ذلك أن وضعت تحت أعين المسلمين أنواع من المدنيات والديانات والأنظمة المختلفة، وهذا ما جعل المسلمين وغيرهم يتساءلون ما حكم الإسلام فيها؟ فتحمل الفقهاء هذا الموقف، وفي هذا العصر انتهى عصر الصحابة وخلف بعدهم التابعون الذين ورثوا علمهم، وأبرز ما ظهر في عصرهم الاختلاف بين المفتين بوجوه كثيرة، منها وجوه الاختلاف العارض من جهة الحقيقة والمجاز، ووجوه الاختلاف العارض من جهة الرواية وما شابه ذلك، وكانت هذه الاختلافات سبباً في ظهور بواعث النهضة الأولى لانتشار العلوم العربية، وتدوين الحديث والتفسير على أنها أدوات لاستنباط الأحكام الشرعية من دلائلها، وأدوات للاجتهاد بالرأي الذي هو أصل من أصول الشرع[631].

وفي صدر العصر العباسي استقرت أصول الفقه وتمكن الاستنباط ونشأ التأليف، وانقسم الفقهاء إلى فريقين: أصحاب الرأي والقياس وأصحاب الحديث. أما أصحاب الرأي والقياس فكانوا أهل العراق الذين استكثروا من القياس ومهروا فيه، وكان أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (ت 150هـ = 769م) أول من دون علم هذه الشريعة، ولم يسبقه أحد في ذلك ممن قبله، لأن الصحابة والتابعين لم يجعلوا الشريعة أبواباً مبوبة ولا كتباً مرتبة، وإنما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم، ثم جاء

الأئمة من بعده فاقتدوا به. وأما أهل الحديث فهم أهل الحجاز، وإمامهم مالك بن أنس الأصبحي المدني (ت 179هـ = 796م) فكانت طريقتهم في الأسانيد أمتن وأعلى، لاشتراطهم في شروط النقل شروطاً شديدة، وأكبر آثار مالك: «الموطأ»، وهو من أوائل الكتب التي أُلفت في الحديث والفقه[632].

ثم ظهر الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت 204 هـ = 819م) وكان قد درس المذهبين ولاحظ ما فيهما من نقص بدا له أن يكمله، فكان أول من وجه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية، وكان أيضاً أول من وضع مصنفاً في العلوم الدينية الإسلامية على منهج علمي بتصنيفه في أصول الفقه، ثم جاء بعده أحمد بن حنبل الشيباني (ت 241 هـ = 855م) الذي كان يكره أن يُكتب كلامه، وعلى الرغم من ذلك فقد كُتب من كلامه وفتاويه أكثر من ثلاثين سفراً[633].

وبعد ظهور الأئمة الأربعة ظهرت الكتب الفقهية وتنوعت وانتشرت في جميع الأمصار، كما ظهر بين المسلمين التقيد بمذهب واحد من المذاهب الفقهية.

ولذلك؛ يعد العصر العباسي أزهى عصور الفقه الإسلامي، ففيه تهيأ لهذا العلم النشاط والقوة والنضج الفكري والتوسع والشمول والبحث العميق والمنافسة الجادة والاجتهاد المطلق في النظر والاستنباط.

و لم تكن هذه النهضة مقصورة على الفقه وحده، بل كانت شاملة لعلوم كثيرة ومتنوعة مثل علوم القرآن والحديث النبوي واللغة وسائر العلوم التجريبية، وأصبح لكل علم رجاله الذين نبغوا فيه ورفعوا شأنه. وكانت مدينة بغداد في ذروة المدن الإسلامية التي شهدت هذه النهضة العلمية الواسعة خلال تلك الفترة.

وكان من أهم العوامل التي أدت إلى نهضة الفقه الإسلامي في هذا العصر وظهرت كأقوى ما تكون في بغداد عاصمة الخلافة العباسية هي: اتساع حركة التدوين للعلوم الإسلامية الأصلية (وفي مقدمتها الحديث النبوي)، وشيوع الجدل العلمي والمناظرات بين الفقهاء في جو من الحرية الواسعة، وكثرة الوقائع وتنوعها وما

تبع ذلك من رحلات علمية واستنهاض همم الفقهاء. ويضاف إلى ذلك إجلال الخلفاء وكبار رجال الدولة للفقهاء ولأهل العلم عامة، وحثهم على وضع الأنظمة القانونية لشؤون الدولة كما فعل هارون الرشيد حينما طلب من أبي يوسف (صاحب أبي حنيفة) أن يكتب له كتاباً في السياسة المالية، فكتب له كتاب «الخراج». وقد كان لهذه العناية أوضح الأثر في نشاط التشريع ونموه وكماله.

ونتيجة للاجتهاد الفقهي ظهرت كثير من الاتجاهات والآراء الفقهية المختلفة، وتكونت منها مدارس فقهية، ثم تبلورت تلك المدارس فصارت مذاهب اعترف لها الجمهور بالريادة والقيادة، وأخذت كل جماعة من المسلمين تتبع مذهباً منها، وتترسم خطى مؤسسها وتعمل بمقتضى آرائه، فظهر أكثر من ثلاثة عشر مجتهداً دُونت مذاهبهم وقُلدت آراؤهم، وكان لها وجود قوي في بغداد؛ فسفيان بن عيينة الكوفي (ت 198هـ = 813م) في مكة، ومالك بن أنس (ت 179هـ = 795م) في المدينة النبوية ثم في مصر وبغداد. وسفيان الثوري (ت 161هـ = 777م) في الكوفة. وأبو حنيفة (ت 150هـ = 767م) في الكوفة وبغداد. والأوزاعي (ت 157هـ = 773م) في الشام. والليث بن سعد (ت 175هـ = 791م) في مصر. والشافعي (توفي 204هـ = 819م) في بغداد ثم مصر. وأحمد بن حنبل (توفي 241هـ = 855م) في بغداد. وأبو ثور (ت 240هـ = 854م) وداود بن علي الظاهري (ت 270هـ = 883م) وابن جرير الطبري (ت 310هـ = 922م) في بغداد أيضاً.

غير أن كثيراً من هذه المذاهب قد اندثرت و لم تدم طويلاً في ساحة الحركة العلمية، وقد يكون من عوامل هذا الاندثار عدم وجود التلاميذ النجباء الذين ينشرون المذهب وينصرونه، أو عدم تأييد السلطة الحاكمة، أو عوامل أخرى تتعلق بأصول المذهب وجوهره[634].

– الفقه في الأندلس:

كان المذهب المالكي من بين المذاهب الفقهية الأخرى هو المذهب المهيمن على بلاد الأندلس، وهو أساس الفكر التشريعي في الحياة العامة، التعليمية والاجتماعية والسياسية... و لم يكن لغيره من المذاهب حظ كبير من الذيوع والانتشار.

إن ذلك يعني أن جهود العلماء الأندلسيين في مجال التشريع (الفقه) اتجهت كلها أو جلها إلى دراسة المذهب المالكي ومصادره الكبرى وخاصة «موطأ» الإمام مالك و«المدونة» وغيرهما.

وقد استمرت خدمتهم لهذا المذهب حتى نهاية الدولة الإسلامية بالأندلس بحيث يمكن القول: إنهم كانوا أحرص عليه من علماء أي إقليم آخر، وبرز منهم عدد جم من الفقهاء ألفوا كتباً كثيرة جداً في الفقه المالكي تأصيلاً وتفريعاً.

وفي السطور التالية نقتصر على ذكر المصادر الرئيسية التي تعد بمثابة الأصول للمذهب المالكي، وأهم ما كتب حولها من دراسات، ونبدأ بالموطأ.

(1) شروح الموطأ:

حظي الموطأ باهتمام واسع من عناية الأندلسيين، وكتبوا عليه شروحاً كثيرة ما بين مختصرة ومطولة، بحيث إنهم لم يعتنوا بكتاب من كتب الحديث عنايتهم بالموطأ، سواء من الناحية الفقهية أو الحديثية.

وأهم هذه الشروح من الناحية الفقهية في القرن الثالث الهجري: كتاب «تفسير الموطأ» لأبي زكريا يحيى بن إبراهيم بن مزين القرطبي (توفي 259هـ = 872م). وهذا الشرح كان له شهرة في الأندلس وتدارسه عدد من الفقهاء المالكية، لما كان يتمتع به مؤلفه من مكانة علمية مرموقة وإحاطة بفقه أهل المدينة من أصحاب الإمام مالك. وله عدة دراسات حول الموطأ من الناحية الحديثية. وفي القرن الرابع صنف أبو محمد الأصيلي عبد الله بن إبراهيم (توفي 392هـ = 1001م) كتاب «الدلائل» شرح به الموطأ، وذكر فيه خلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة. وإلى هذا

العالم انتهت الرئاسة بالأندلس في الفقه المالكي، ووصفه عالمها الدارقطني البغدادي بقوله: «لم أر مثله»، وكان قد دخل بغداد وتفقه بها.

وهذا الشرح اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين الإلبيري شيخ قرطبة (توفي 399هـ = 1008م) وكان من كبار الفقهاء والمحدثين والراسخين في العلم.

وقد تتابعت شروح الموطأ وكثرت في القرون التالية، فشرحه كل من ابن العربي المالكي الإشبيلي (توفي 543هـ = 1148م) وابن السيد البطليوسي النحوي (توفي 521هـ = 1127م) وعلي ابن أحمد بن محمد الغساني (توفي 609هـ = 1212) وغيرهم[635].

(2) شروح المدونة:

وتعد «المدونة الكبرى» التي تنسب إلى سحنون بن سعيد التنوخي (توفي 240هـ) الأصل الذي جمع فقه الإمام مالك، بعد «الموطأ» بواسطة تلميذه ابن القاسم، وتلتها كتب أخرى للفقهاء الأندلسيين مثل «العتبية» المسماه «بالمستخرجة»، و«الواضحة» لكن لم تكن في درجتها. ويكفي في معرفة مكانتها عند الفقهاء المالكية ما قاله ابن رشد الأندلسي المالكي (توفي 520هـ = 1126م): «ما بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك، ولا بعد الموطأ ديوان في الفقه من المدونة. والمدونة عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو، وككتاب أوقليدس عند أهل الحساب، وموضعها من الفقه موضع أم القرآن من الصلاة تجزئ عن غيرها ولا يجزئ عنها غيرها».

وقول ابن رشد هذا مراده بيان القيمة الفقهية للموطأ والمدونة عند علماء المذهب المالكي، وهو حق من هذا الوجه، لأن المدونة أكبر ديوان احتوى على مسائل الإمام مالك وآرائه وآراء أصحابه وتخريج ابن القاسم على أصول مالك. أما

إن أراد بقوله هذا بيان قيمتها على سائر المؤلفات الفقهية في جميع المذاهب فتلك مبالغة لا سبيل إلى قبولها.

ونظر للأهمية الكبرى التي تتمتع بها «المدونة» بين كتب الفقه المالكي وما تحتوي عليه من أصول المذهب وفروعه فقد تبارى ثلة من العلماء في شرحها واختصارها وتهذيبها والتعليق عليها والجمع بينها وبين بعض دواوين الفقه المالكي الأخرى كالمستخرجة، فضلاً عن حفظها وتدريسها ونشرها في ربوع الأندلس كلها.

وممن شرحها أو علق عليها أو احتذى حذوها في التأليف من علماء الأندلس: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين (توفي 399هـ = 1008م) اختصرها وشرح غريبها ومشكلها وعلق على بعض مسائلها. وصنف أبو عبد الله محمد بن يحيى بن لبابة الملقب بالبرجون (توفي 336هـ = 947م) كتاب المنتخب في الفقه، قال ابن فرحون: «هو على مقاصد الشرح لمسائل المدونة» وللفقيه البلنسي المعروف بخلف البربلي (توفي 443هـ = 1051م) كتاب في شرح المدونة واختصارها سماه «التقريب» وصفه ابن بشكوال بأنه «كتاب حسن كثير الفائدة جمع فيه أقوال أصحاب مالك»، وقد عول فيه على ابن أبي زمنين وأخذ عليه فيه أوهاماً في النقل، واستحسنه علماء عصره، وأقبل الطلبة على دراسته. وصنف أبو الوليد الباجي (توفي 474هـ = 1081م) شرحاً كبيراً على المدونة، ثم اختصره في كتاب سماه «المهذب»، ثم صنف «مختصر المختصر في مسائل المدونة».

ومن أهم شروح المدونة الشرح الذي ألفه القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المالكي القرطبي (توفي 520هـ = 1126م) وسماه «المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته المدونة من الأحكام وحل المشكلات». وشرحها أيضاً تلميذه: عامر بن محمد ابن عامر ابن خلف الأنصاري من أهل مرسية (توفي 569هـ = 1173م)

تحت عنوان «الجامع البسيط وبغية الطالب النشيط». حشد فيها أقوال الفقهاء ورجح بعضها على بعض واحتج لها، وتوفي قبل إكماله[636].

ومن أمهات الكتب التي صنفها الأندلسيون في الفقه المالكي وعكفوا على دراستها:

الواضحة: كتاب كبير في الفقه والسنن جمعه عالم الأندلس: عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي الإلبيري (توفي 238هـ = 852م) وقد حاز هذا الكتاب إعجاب علماء الأندلس، للمكانة العلمية التي عرفت عن مؤلفه فوصفه ابن الفرضي بأنه كتاب لم يؤلف مثله. ثم نقل عن العتبي (توفي 245هـ = 859م) قوله: «رحم الله عبد الملك، ما أعلم أحدا ألف على مذهب أهل المدينة تأليفه، ولا لطالب أنفع من كتبه ولا أحسن من اختياره».

وقد أقبل علماء الأندلس على «الواضحة» بالتدريس، وتناقلوها بالرواية، واختصرها فضل بن سلمة بن جرير الجهني الإلبيري (توفي 319هـ = 931م). وكتب عبد الملك بن سيانح البجاني دراسة جمع فيها المسائل التي ذكرها ابن حبيب في «الواضحة» ولا توجد في المدونة ولا في المستخرجة.

المستخرجة «العتبية»: مؤلفها: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عتبة القرطبي (توفي 245هـ = 859م). وهو من تلاميذ عبد الملك بن حبيب صاحب «الواضحة» وسحنون بن سعيد صاحب «المدونة». وقد أكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة، وكان يؤتى المسألة الغريبة، فإذا سمعها قال: أدخلوها في المستخرجة. ولذا كان الفقيه محمد بن وضاح القرطبي (توفي 287هـ = 900م) يقول: «المستخرجة فيها خطأ كثير». وعلى الرغم من هذه المطاعن التي وجهت إلى المستخرجة فإنها كما يقول المقري: «وقع عليها الاعتماد من أعلام المالكية». وكان لها في إفريقية والقيروان «القدر العالي والطيران الحثيث». كما يقول ابن حزم. وأبرز من كتب عليها شرحاً من فقهاء الأندلس هو العلامة أبو اليد

ابن رشد (الجد) (توفي 520هـ = 1126م) سماه «البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل»، ويقع في ما يزيد عن عشرين مجلداً. واختصرها يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي – من أهل جيان – (توفي 289هـ = 901م) وعبد الله بن فتوح الفهري (توفي 462هـ = 1069م). وأعاد ترتيبها وبوبها كل من محمد بن عبد الله بن سيد البجاني (توفي 363هـ = 983م). وعبد الله ابن محمد بن أبي الوليد الأعرج القرطبي (توفي 310هـ = 922م). وهذا الأخير بوبها على تبويب «المدونة».

المبسوطة: وهي عبارة عن مجموعة كتب في اختلاف أصحاب مالك وأقواله. صنفها يحيى بن إسحق بن يحيى الليثي القرطبي (توفي 303هـ = 915م). وقد اختصرها الأخوان (محمد) وعبد الله ابني عيسى بن محمد بن عبد الرحمن بن دينار، بأمر من الخليفة الحكم المستنصر (توفي 350- 366هـ = 961- 976م). ثم جاء الفقيه أبو الوليد ابن رشد قاضي الجماعة بقرطبة (توفي 520هـ = 1126م) فاختصر «المختصر»[637].

تلك هي أهم المصادر الرئيسية للفقه المالكي وأهم الدراسات التي كتبت حولها. و لم تقتصر مؤلفات الأندلسيين في الفقه المالكي على شرح الكتب الأمهات أو اختصارها، وإنما تعددت كتاباتهم الفقهية وتنوعت أهدافها وأحجامها وتناولت أصول المذهب وفروعه، ويمكن حصر صور التأليف الأندلسي في فقه الإمام مالك – غير ما ذكرنا – فيما يلي:

(أ) المجاميع الفقهية: مثل كتاب أبي سلمة فضل بن سلمة الجهني البجائي الإلبيري (توفي 319هـ = 931م). جمع فيه مسائل (المدونة) أو (المستخرجة) و(المجموعة).

(ب) المختصرات الفقهية: مثل «مختصر» أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيشون الطليطلي (توفي 341هـ = 952م). و«مختصر» أبي الحسن علي بن عبيد

التجيبي الطليطلي، وهذا المختصر تلقاه الناس بالقبول واعتمدوا عليه في تدريس الفقه المالكي، وقال عنه بعض الفقهاء: «من حفظه فهو فقيه قرية». و«مختصر» أبي مروان عبيد الله بن محمد بن مالك القرطبي (توفي 460هـ = 1067م) حكم له فيه بالبراعة.

(ج) الأجزاء الفقهية ذات الموضوع الواحد، وهي كثيرة جداً ويطول ذكرها ونسبة كل منها إلى مؤلفها، فقد صنفوا كتبا مفردة في موضوعات، منها «أحكام الصلاة» و«الصيام» والطهارة «والجبائر» و«مناسك الحج» و«الزكاة» و«الربا» و«النكاح» و«أحكام النساء» و«البيوع» و«الأضاحي» و«الأيمان» و«الحدود» و«العقود» و«الأوقاف» و«المزارعة» و«الحضانات والنفقات» وغير ذلك من الموضوعات الفقهية(638).

(د) التأليف في علم الفرائض (المواريث):

واهتم الأندلسيون بالتأليف في علم «الفرائض» أو «المواريث». وهو قسم كبير من الفقه الإسلامي، وقد كان لهذا الفن أصحابه من الأندلسيين العارفين بأحكامه، المتميزين به عن غيره، وشغل كثير منهم «خطة المواريث» وهي من الوظائف الدينية التابعة للقضاء. وتمتلئ المصادر بأسمائهم، ولدينا تراجم كثيرة لهؤلاء ابتداء من القرن الثالث الهجري وأكثرهم من المصنفين في هذا العلم، منهم: عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي (توفي 238هـ = 852م) له كتاب في الفرائض، وابن الطنيزي أحمد بن محمد بن أحمد الفرضي القرطبي (توفي 416هـ = 1025م) وله تأليف حسن في الفرائض والحجب على قول زيد بن ثابت (الصحابي) ومالك ابن أنس. وصنف ابن عبد البر القرطبي (توفي 463هـ = 1070م) كتاب «الإشراف على ما في أصول فرائض المواريث من الإجماع والاختلاف».

وقد كثر التأليف في هذا العالم خلال القرن الثامن الهجري، ونذكر من فقهاء هذا القرن قاضي إشبيلية: أبا عمرو عثمان بن محمد بن يحيى القيسي المعروف بابن

منظور (توفي 735هـ = 1334م)، قال عنه ابن فرحون: «له تقييد حسن في الفرائض سماه: «بغية المباحث في معرفة مقدمات المواريث»[639].

(هـ) التأليف في علم أصول الفقه:

لم يصل إلى الأندلس من كتب «أصول الفقه» المشرقية سوى عدد قليل، ففي أصول المذهب الشافعي اطلع الأندلسيون على كتاب «الرسالة» للشافعي (توفي 204هـ = 819م) وكتاب «المستصفى» لأبي حامد الغزالي الشافعي (توفي 505هـ = 1111م) وكتاب «البرهان» في أصول الفقه لأبي المعالي الجويني الشافعي (توفي 478هـ = 1085م) وكتاب «المعالم في أصول الفقه» لفخر الدين الرازي الشافعي (توفي 606هـ = 1209م). وفي أصول الفقه المالكي وصل إلى الأندلس كتابا «الأصول» و«الملخص» للقاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي (توفي 422هـ = 1030م).

و لم نعثر للأندلسيين على دراسات حول هذه المؤلفات، سوى اسم كتاب لابن رشد الحفيد: محمد بن أحمد بن محمد القرطبي (توفي 595هـ = 1198م)، اختصر به كتاب «المستصفى» للغزالي، إضافة إلى دراسة لأحمد بن عبد الله بن عميرة الأندلسي (توفي 658هـ = 1259م) رد فيها على كتاب «المعالم في أصول الفقه» لفخر الدين الرازي.

وأول كتاب للأندلسيين يمس جانباً من علم أصول الفقه هو كتاب «الرد على المقلدين» لقاسم بن محمد بن سيار القرطبي (توفي 276هـ = 890م)، أنكر فيه على الفقهاء تقليدهم لما كان عليه شيوخهم وقد أثنى ابن الفرضي على هذا الكتاب فقال: «كتاب نبيل يدل على علم». ويعد قاسم بن محمد أحد العلماء الذين عنوا بنشر المذهب الشافعي بالأندلس.

وأكثر الذين صنفوا في أصول الفقه بالأندلس هم من الفقهاء المالكية، وذلك لسيادة المذهب المالكي على غيره من المذاهب، وقد تفوقوا في هذا الفن على الفقهاء

المالكيين المشارقة من حيث كثرة الإنتاج وجودته. ويبدو أن التصنيف في أصول المذهب المالكي بالأندلس تأخر قليلاً عما كان عليه في المشرق، وأول كتاب يذكر للفقهاء المالكية بالأندلس كتاب «الأصول إلى معرفة الأصول» لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي القرطبي (توفي 429هـ = 1037م). وهو من كبار العلماء، وغلب عليه علم القراءات والتفسير.

وأبرز عالم أندلسي مالكي في القرن الخامس الهجري صنف في أصول الفقه هو أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (توفي 474هـ = 1081م)، كان من المكثرين في التصنيف في هذا العلم، فألف كتاب «إحكام الفصول في أحكام الفصول»، كتاب «الحدود في أصول الفقه»، وموضوعه التعريف بالمصطلحات التي يستخدمها علماء أصول الفقه، وكتاب «رفع الالتباس في صحة التعبد» وكتاب «الإشارة في أصول الفقه». وهذا الكتاب الأخير شرحه أحد علماء القرن الثامن الهجري، وهو أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الجياني الأندلسي (توفي 780هـ = 1378م) صاحب كتاب «صلة الصلة».

وقد تفقه على أبي الوليد الباجي ولده أحمد، وخلفه في حلقته، وتتبع كتبه في الأصول، (وتوفي سنة 493هـ = 1099م)، وصنف في هذا العلم كتاب «معيار النظر» وكتاب «سر النظر» وكانت له رحلة إلى بغداد، أقام بها سنتين[640].

خامساً – النحو واللغة:

النحو يعني معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها، ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية[641].

وقد اختُلف في واضع هذا العلم؛ فمنهم من قال إنَّ أبا الأسود الدؤلي (ت 69هـ = 688م) هو أول من وضع علم النحو بعد أن استشاره أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[642]، في حين يرى آخرون أنَّ أول من وضع هذا العلم

وأسس قواعده وحدَّ حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي ذلك[643].

يقول ابن خلدون: «أول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي بإشارة من علي رضي الله عنه، فضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة، ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد، فهذَّبها وكمَّل أبوابها، وأخذها عنه سيبويه فكمَّل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها، ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماماً لكل ما كُتب فيها من بعده ... وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيراً مع استيعابهم لجميع ما نُقل»[644].

وكان سبب وضع هذا العلم فساد ألسنة العرب بعد أن كثر اختلاطهم بالفرس والروم وسائر أخلاط العجم، ويتضح السبب أكثر في رواية أبي الأسود الدؤلي حين قال: «دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء ــ يعني العجم ــ فأردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه، ثم ألقى إليَّ الرقعة ... وقال لي: انح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك»[645].

وأما الصرف، فهو تتبع اعتبارات الواضع في وضعه من جهة المناسبات والأقيسة[646].

ولم يكن علم الصرف متميزاً أو مستقلاً عن النحو، فكانت الدراسات النحوية تضم النحو والصرف معاً، ولكن بعد أن بلغ علماء البصرة شأواً عظيماً في تقعيد القواعد النحوية، ونضجت فيها اللغة العربية، وبعد نحو قرن من نشأة المدرسة النحوية البصرية، ظهر بعض علماء الكوفة واشتغلوا بالنحو، وكان من بينهم معاذ بن

مسلم الهراء[647]، (ت 187هـ = 804م) الذي كان اتجاهه صرفياً، فاشتغل في الكوفة بالنحو والصرف حتى عدَّه المؤرخون واضع علم الصرف[648].

لقد نهضت علوم اللغة والنحو في بغدد على أيدي علماء البصرة والكوفة، وقد نبغ في هذين المصرين (لا سيما في البصرة) جماعة كبيرة من علماء العربية أخذوا على عاتقهم جمع اللغة وروايتها وتدوينها وتقعيدها، وتميزوا بالتتبع الدقيق والتقصي والتوسع في الإحصاء والضبط والتحليل والتفسير والتصنيف.

ومنذ أن أُنشئت بغداد نزح عدد كبير من اللغويين والنحاة الكوفيين والبصريين إليها، وهؤلاء نشروا بها علوم العربية، وانتقلت معهم مؤلفاتهم في اللغة والنحو والأدب، وتتلمذ على أيديهم جماعة من البغداديين اشتركوا إلى جانب أساتذتهم في النهوض بالدراسات اللغوية والنحوية حتى نمت أصولها واكتملت عناصرها.

وعلى الرغم من أن الدراسات اللغوية والنحوية تأخر ظهورها في الكوفة فإن هذه الدراسات تسربت إلى بغداد عن طريق الكوفيين أولاً؛ إذ كانوا أسبق في التروح إلى الحاضرة العباسية من البصريين، وأصبح علماء الكوفة حاشية الخلافة العباسية ومؤدبي أولاد الخلفاء ومستشاريهم في علوم العربية إلى أن زاحمهم البصريون فيما بعد.

وكان علي بن حمزة الكسائي (ت 189هـ = 804م) - مؤسس المدرسة الكوفية - أبرز من أدخل الدراسات النحوية واللغوية إلى عاصمة الخلافة، وأول نحوي لغوي يستدعيه الخليفة المهدي ليؤدب ولده هارون الرشيد، ثم لازمه ملازمة كاملة، مما شجعه على أن يواصل بحثه وتدريسه، فذاع صيته في بغداد، وأشاع النحو الكوفي بين الدارسين فيها، وصنّف فيه كتابين هما: «مختصر النحو» و«الحدود».

وأعقبه على مجالس الدرس اللغوي والنحوي في بغداد تلميذه يحيى بن زياد الفراء الكوفي (ت 207هـ = 822م) الذي تعلم على يد الكسائي ولازمه في بغداد، وتصدر مجلس الدرس فيها بعد وفاته.

وقد تنبه العلماء البغداديون إلى جهود كل من الكسائي والفراء في نشر علوم اللغة العربية والنهوض بها في بغداد، فيقول اللغوي المفسر أبو بكر بن الأنباري البغدادي (ت 328هـ = 939م): «لو لم يكن لأهل بغدد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بها الافتخار على جميع الناس؛ إذ انتهت العلوم إليهما».

ويقول ثعلب - وهو أحد رؤوس المدرسة الكوفية في بغداد – (ت291هـ = 903م): «لولا الفراء لما كانت عربية لأنه خلصها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية، لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد».

وتشير المراجع إلى أن الفراء أملى كتبه في بغداد، وأهمها كتاب «معاني القرآن»، وكتاب «الحدود» في النحو، ألّفه في سنتين بأمر من الخليفة المأمون، وكتاب «اللغات»، وكتاب «مشكل اللغة»، وكتاب «النوادر» و «المقصور والممدود» و «المذكر والمؤنث» وغيرها.

لقد كان للحظوة التي نالها الكسائي الكوفي- والفراء من بعده - لدى العباسيين العامل القوي في التفاف العلماء والطلاب حوله، وكان هذا مما أثار حفيظة نحاة البصرة ولغوييها، ودعا واحداً مثل الأخفش سعيد بن مسعدة البصري (ت 215هـ = 830م) تلميذ سيبويه وأكبر أئمة النحو البصريين من بعده أن يشد الرحال إلى بغداد، ويقوم بدور نشر النحو البصري منافساً للنحو الكوفي، وأذاع فيها كتاب سيبويه، فأخذه عنه تلاميذه من البصريين كالجرمي والمازني، وسمعه منه علماء الكوفة أنفسهم وعلى رأسهم الكسائي. وصنّف الأخفش كتباً نشرها في بغداد، منها

كتاب «الأوسط» وكتاب «المقاييس» -وكلاهما في النحو- وكتاب «الاشتقاق» و« القوافي» و«العروض» و«الأصوات» و«معاني الشعر» وغيرها.

ومن البصريين الذين انتقلوا إلى بغداد وعملوا على نشر العربية فيها: عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت261هـ = 831م)، كان بحراً في اللغة لا يعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية، وكان الرشيد قد استدعاه إلى بغداد، فأقام بها مدة، وانتشرت فيها كتبه وحملها الناس عنه، وكان تلميذه وراويته أبو عمران موسى بن سلمة البغدادي يتولى إملاءها في بغداد.

وقدم إلى بغداد أيضاً من البصريين: أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت210هـ = 825م)، وكان معاصراً ومنافساً للأصمعي، وحدثت بينهما مناظرات ومساجلات في اللغة مشهورة في حضرة هارون الرشيد، وقام تلميذه أبو الحسن الأثرم علي بن المغيرة (ت232هـ = 846م) بنسخ كتبه وإذاعتها في الحاضرة العباسية، ومنها «مجاز القرآن»و «اللغات» و« الأمثال» وغيرها. وتتلمذ عليه العالم اللغوي البغدادي الشهير: أبو عبيد القاسم بن سلام الجمحي (ت224هـ = 838م).

هذه نماذج لبعض الأعلام من اللغويين والنحويين الممثلين للمدرست

ن الكوفية والبصرية ببغداد في حدود فترة وجيزة تمتد من أواخر القرن الثاني الهجري إلى مطلع القرن الثالث. و لم يقف عطاء البصرة والكوفة لبغداد في ميدان الدراسات اللغوية والنحوية عند هذا التاريخ، وإنما ظل هذا العطاء متصلاً طيلة القرن الثالث والقرن الذي يليه بانتقال أعلام المصريين إليها، وكانت ثمرة ذلك أن شهدت بغداد نهضة كبيرة في علوم العربية خلال القرنين المذكورين، وأصبحت محط أنظار العالم الإسلامي كله لدراسة هذه العلوم وغيرها من العلوم الإسلامية الأصيلة(649).

كان مما يميز الدراسات النحوية في بغداد شيوع المذهب الكوفي بمنهجه وأصوله على يدي الكسائي ثم الفراء كما ذكرنا من قبل، وإلى الفراء يعود الفضل في الوصول بالنحو الكوفي ومصطلحاته إلى الوضع النهائي. ثم سار على خطى هذين الشيخين

تلميذهما أبو العباس أحمد بن يحيى الكوفي المعروف بثعلب (ت 291هـ = 903م) الذي بقي في بغداد زمناً يدرس منهج شيخه، معتمداً في علمه على حفظه لآرائهما النحوية، ومحتجاً عليه بمحفوظه الواسع من اللغة والشعر، يقول الزبيدي: «كان ثعلب من الحفظ والعلم وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم ومعرفة النحو على مذهب الكوفيين ما ليس عليه أحد، وكان يدرس كتب الكسائي والفراء درساً». ومع اطلاعه على كتب النحو البصري – مثل كتاب سيبويه وكتاب «المسائل» للأخفش سعيد بن مسعدة – فإنه كما يقول الزبيدي «لم يكن يعلم مذهب البصريين، ولا مستخرجاً للقياس ولا مطالباً له، وكان يقول: قال الفراء وقال الكسائي، فإذا سئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يغرق في النظر». وصنّف في بغداد كتباً في النحو، مثل «المصون» وكتاب «اختلاف النحويين»، وفي الصرف كتاب «التصغير».

عاش ثعلب في بغداد في ظل ذوي الجاه والثراء الذين كانوا يدعونه لتعليم أولادهم، وأصبح شيخ الدرس النحوي الكوفي في حاضرة الخلافة بعد وفاة الفراء (207هـ = 822م)، ولم تكن بغداد تعرف أحداً غيره وشيخيه. أما النحاة البصريون فلم يستطيعوا مقاومة تمركز الكوفيين فيها وتعصب الوزراء ومن حولهم من الحاشية لهم، ولم يتمكنوا من تثبيت أقدامهم لنشر المنهج البصري، إلى أن جاء أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر البصري المعروف بالمبرد (ت 285هـ = 898م) الذي كان في العلم بنحو البصريين فرداً، وكان شيخ أهل النحو وحافظ علم العربية كما يقول الخطيب البغدادي. وله من المؤلفات النحوية والصرفية: «المقتضب» و«المدخل» و«الرد على سيبويه» و«إعراب القرآن» و«الاشتقاق»، إضافة إلى كتبه في الأدب واللغة.

وقد استطاع المبرد بما عرف به من سعة اطلاع على مسائل النحو وتضلع فيها وحفظ لشواهدها وتمرس بأساليب الحجاج والتعليل والقياس والتأويل أن يفسح

لنفسه مكاناً بين النحاة الكوفيين وأصحابهم في بغـــداد، وأن يـــنفض عـــن أذهـــان الدارسين منهم ما أصابها من ركود وجمود لاعتماد ثعلب (إمام الكوفيين) على الحفظ والرواية في تدريسه ونقل ما يحفظه من أقوال الكسائي والفراء، تاركاً الاعتماد علـــى القياس والتنظير والبحث عن العلل واستنباط الأحكام، ومن ثم كان للمنهج الجديـــد الذي طرأ على الدرس النحوي واللغوي على يد المبرد في بغـــداد الأثـــر البعيـــد في اجتذاب الدارسين إليه، لكي يطلعوا عليه ويستطيعوا المقارنة بين المنهجين(650).

– المعاجم اللغوية:

بعد أن فسدت ملكة اللسان في الحركات استنبط العلماء قوانين لضبطها فمـــا أغنت، بل تطرق الفساد إلى مدلولات الألفاظ واستعمالها، فتوجه العلمـــاء ـــ بغيـــة حفظها ـــ إلى الكتابة والتدوين، وبدأ ذلك بعض أئمة العربية فأملوا كتباً صـــغيرة في الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان أو الخيل أو النبات، فلما جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 174هـــ = 791م) مهد الطريق إلى ضبط اللغة وتدوينـــها بوضـــعه كتـــاب «العين» وجعله معجماً مرتباً على مخارج الحروف، ثم مضى على معجم الخليل هـــذا أكثر من قرن لم يدون في اللغة غيره، حتى جاء أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت 321هـــ = 933م) فاستمد منه فكرة كتاب «الجمهرة» ورتبـــه علـــى حـــروف المعجم، ثم تتالى تأليف المعاجم كمعجم «تهذيب اللغة» للأزهري، ومعجم الجوهري «الصحاح»، وتلك هي أصول المعجمات وأسسها(651).

كان المعجم اللغوي أهم ما جد في التأليف اللغـــوي لـــدى العـــراقيين، و إن الدراسات اللغوية المتنوعة توجت باكتشاف الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري (ت 175هـــ = 791م) فكرة المعجم ومحاولة تحقيقها في كتابه «العين».

وهذا الكتاب يعد أول معجم شامل لمواد اللغة العربية محصورة حصراً دقيقـــاً. وقد قام مؤلفه بترتيب المفردات اللغوية فيه على أساس صوتي بحسب مخارج الحروف،

معتمداً على حرف الكلمة الأسبق مخرجاً، مراعياً الأبنية وتقاليب الكلمة، وبدأ بحرف العين الذي سمى الكتاب به.

وقد بعث هذا المعجم نشاطاً ملحوظاً في حركة التأليف اللغوي؛ إذ ألفت عليه كتب ودراسات بلغت خمسة عشر كتاباً، ونذكر من مؤلفات العراقيين على كتاب «العين»: كتاب «ما أغفله الخليل في كتاب العين» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الكرماني الوراق نزيل بغداد (ت 329هـ = 940م)، وكتاب «فائت العين» لأبي عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد البغدادي المعروف بغلام ثعلب (ت 345هـ = 956م)، وكتاب «الرد على الخليل وإصلاح ما في كتاب العين من الغلط والمحال والتصحيف» للمفضل بن سلمة الكوفي (ت 308هـ = 920م). وصنّف كل من العالمين البغداديين: نفطويه (ت 323هـ = 934م) وابن درستويه (ت 347هـ = 958م) كتاباً في الرد على المفضل بن سلمة في نقضه على الخليل.

ولقد سار على نهج الخليل في تأليف المعجم العربي اثنان من علماء اللغة في العراق:

الأول: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت 370هـ = 980م) أصله من هراة ورحل إلى بغداد، وله كتاب «تهذيب اللغة»، اتبع فيه المنهج الذي وضعه الخليل بحذافيره، ويرمي فيه إلى تنقية اللغة من الشوائب التي تسربت إليها على يد سابقيه ومعاصريه.

الثاني: أبو القاسم الصاحب إسماعيل بن عباد الوزير (ت 385هـ = 995م) في كتابه «المحيط»، أتى فيه بكثير من الألفاظ والمعاني التي لم يذكرها من قبله، مع الميل إلى الاختصار[652].

– البلاغة:

ترتبط البلاغة العربية في الأذهان عند ذكرها بعلومها الثلاثة المعروفة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع[653]. وتُعرَّف البلاغة بأنها ما يوصف بها الكلام

والمتكلم، والبلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته[654]. وعلم المعاني: هو علم يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال[655]. وعلم البيان: هو علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه[656]. وعلم البديع: هو علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[657].

وقد يتبادر إلى الذهن أنَّ هذه العلوم البلاغية الثلاثة قد نشأ كل واحد منها مستقلاً عن الآخر بمباحثه ونظرياته، ولكن الواقع غير ذلك، فالبلاغة العربية مرَّت بتاريخ طويل من التطور حتى انتهت إلى ما انتهت إليه، وكانت مباحث علومها مختلطةً بعضها ببعض منذ نشأة الكلام عنها في كتب المتقدمين من علماء العربية، وكانوا يطلقون عليها البيان.

وقد نشأ هذا العلم منذ العصر الجاهلي، ثم مضى يرتقي بعد ظهور الإسلام لأسباب شتى، منها تحضُّر العرب ونهضتهم العقلية، ثم الجدل الشديد الذي قام بين الفرق الدينية المختلفة في شؤون العقيدة والسياسة، وعند انتقالنا إلى العصر العباسي نجد محاولات أولية لتدوين الملاحظات البلاغية وتسجيلها، وأبرز ما في هذا المجال كتب الجاحظ، ولاسيما كتاب «البيان والتبيين»، فقد جمع الجاحظ في كتبه الأساليب البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وحقيقة ومجاز، وهذا ما شكَّل نقلة نوعية في تاريخ تطور هذا العلم. ثم جاءت كتب أخرى مشابهة لكتب الجاحظ ضمت أساليب بلاغية متنوعة.

وظلَّ الأمر كذلك حتى ظهر عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ = 1078م) في القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي، فاقتطف ثمار هذه الجهود واتخذ منها مادة استعان بها في وضع نظرية علم البيان والبلاغة، واشتهر بكتابيه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز»، وهو لهذا يعدُّ واضع أسس البلاغة

العربية والمشيد لأركانها والموضح لمشكلاتها، وعلى نهجه سار المؤلفون من بعده[658].

لقد ظلت العلوم القرآنية واللغوية والأدبية تمارس تأثيرها على البلاغة لفترة طويلة تجاوزت مرحلة النشأة إلى مرحلة النمو، حيث لم تستطع البلاغة في مرحلتها الجديدة أن تتحرر تماماً من أسر تلك العلوم التي نشأت على هامشها ونمت في كنفها، لكن ملامح هذا العلم أخذت تتبلور وتتحدد حيث بدأت هذه الملاحظات البلاغية العابرة وتلك الآراء والأفكار المتناثرة في مؤلفات اللغويين والأدباء والمفسرين تنمو وتنضج لتصبح أبواباً وفصولاً متكاملة تتجاور مع الفصول والأبواب المخصصة لقضايا العلوم الأخرى ومباحثها في مؤلفات المرحلة الجديدة.

ومن المؤلفات التي تمثل مرحلة النمو في الدراسات البلاغية:

(1) «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري البغدادي (ت 276هـ = 889م)، صنّفه للرد على الملاحدة وأشباههم الذين يطعنون على القرآن الكريم ويقولون إن به تناقضاً وفساداً في النظم واضطرابا في الإعراب، وهو طعن مرده إلى الجهل بأساليب العربية.

وفي هذا الكتاب يزداد البحث البلاغي والبحث اللغوي كلاهما تبلوراً ونضجاً، مع احتفاظ كل منهما بملامحه الخاصة، الأمر الذي كان تمهيداً لأن تستقل البلاغة كلية في المرحلة التالية عن العلوم اللغوية وعن كل العلوم الأخرى التي نشأت في كنفها.

(2) كتاب «نقد الشعر» لأبي الفرج قدامة بن جعفر (ت 337هـ = 948م). وهذا الكتاب من أهم الكتب التي حولت كلاً من البلاغة العربية والنقد العربي إلى علم، حيث حاول فيه مؤلفه أن يضع لهما الأساس النظري الدقيق بعد أن كانا قبله مجرد ملاحظات انطباعية، وبعبارة أخرى بنى فيه أسساً نقدية وبلاغية متكاملة، وغاص على أمور دقيقة في المعاني، وآمن بأن النقد يقوم على نظرية محددة.

ويكتسب الكتاب أهميته أيضاً في أنه من أوضح نماذج تأثير الثقافة اليونانية على النقد والبلاغة العربيين بعد أن كانت نشأتهما نشأة عربية خالصة، كما أن مؤلفه اكتشف فيه مجموعة من الفنون البلاغية التي لم يسبق أحد إلى اكتشافها.

(3) كتاب «النكت في إعجاز القرآن» لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني البغدادي المعتزلي (ت 384هـ = 994م). ويعد واحداً من الكتب الرائدة حول قضية الإعجاز القرآني، وهو في الوقت ذاته واحداً من المصادر الأساسية الأولى في البلاغة العربية، فالجانب البلاغي فيه طاغ على علم الكلام.

وعلى الرغم من صغر حجم الكتاب فإنه ترك أثراً بارزاً في مسار التأليف البلاغي، وتأثر به كثير من البلاغيين والنقاد والمتكلمين الذين جاؤوا بعد الرماني، كالباقلاني (ت 403هـ = 1012م) في كتابه «إعجاز القرآن» وأبي هلال العسكري (ت 395هـ = 1004م) الذي نقل في كتابه «الصناعتين الكتابة والشعر» فصلاً كاملاً عن التشبيه من كتاب الرماني.

وتوجد كتب أخرى من تأليف العراقيين تمثل المرحلة الجديدة (مرحل النمو) ولا تقل أهمية عن الكتب الثلاثة المذكورة في كونها احتوت على فصول ومباحث بلاغية ساعدت على استقلال هذا الفن فيما بعد، رغم أنها تعنى أساساً بالنقد الأدبي، مثل كتاب «الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري» للحسن بن بشر الآمدي (الأصل) البصري (المنشأ) نزيل بغداد (ت 371هـ = 981م)، وكتاب «عيار الشعر» لأبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا (ت 322هـ = 933م) (659).

وقبل أن تنتهي المرحلة التي شهدت نمو البلاغة العربية والدراسات النقدية ممتزجة بالعلوم الأخرى – ولا سيما العلوم اللغوية والأدبية – ظهرت أولى المحاولات نحو استقلال البلاغة واستقرارها على يد الخليفة الشاعر الناقد عبد الله بن المعتز العباسي (ت 296هـ = 908م) في كتابه «البديع» الذي يعد أول كتاب في تاريخ البلاغة العربية وصل إلينا يرصد بأكمله للقضايا والمباحث البلاغية، كما أنه يعد ذا

أهمية بالغة في النقد العربي وتطوره وتجميع الفنون الأسلوبية التي اعتاد الشعراء والبلغاء استخدامها. ويرى الدكتور شوقي ضيف في سياق تحليله لكتاب «البديع»: أن ابن المعتز أول من صنّف في البديع ورسم فنونه وكشف عن أجناسها وحدودها بالدلالات البينة والشواهد الناطقة، بحيث أصبح إماماً لكل من صنّفوا في البديع بعده، ونبراساً يهديهم الطريق.

وقد عثرنا على اسم كتاب يحمل عنوان «تهذيب البلاغة» لأبي علي المازيار أحمد بن نصر بن الحسين (ت 352هـ = 963م) كان نديم سيف الدولة الحمداني بالموصل، ونزل بغداد وخدم الخليفة العباسي المعتضد. وقد يكون هذا الكتاب يمثل خطوة أخرى نحو استقلال البلاغة.

وعلى الرغم من أن بداية استقلال البلاغة العربية تعود إلى وقت مبكر كانت المرحلة الثانية فيه لا تزال في عنفوانها (أواخر القرن الثالث الهجري تاريخ تأليف كتاب «البديع» لابن المعتز) فإنها احتاجت إلى قرنين من الزمان لتبلغ قمة نضجها وازدهارها على يد عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ = 1078م) في كتابيه «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، ثم إلى أكثر من قرن ونصف قرن بعد ذلك لكي تستقر نهائيا أو تتجمد على صورتها الأخيرة على يد السكاكي (ت 626هـ = 1228م) في كتابه «مفتاح العلوم»[660].

– النثر والشعر:

يقول ابن خلدون عن الأدب: «هذا العلم لا موضوع له يُنظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة، وسجع متساوٍ في الإجادة، ومسائل في اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك»[661].

فالأدب يشمل الفنَّين الكتابة والشعر، والنثر الذي يصطلح عليه بالكتابة، وهما مما اشتهر بهما العرب والمسلمون، وتميزوا بفضلهما من سائر الأمم، ولهذا حظي الأدب باهتمام كبير على مر العصور العربية والإسلامية، بدءاً من العصر الجاهلي ووصولاً إلى عصرنا الحالي.

في ظل الحياة الجديدة والتنافس بين القديم والجديد في الشعر العربي ظهرت في بغداد عدة اتجاهات شعرية، حاول بعض دارسي تاريخ الأدب العربي جمعها وحصرها في ثلاثة اتجاهات كبرى، لها سماتها وخصائصها الواضحة، وقد تعاصر الأول والثاني منها في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، وبدأ الأخير في الظهور مع مطلع القرن الثالث، وامتد إلى ما بعد ذلك. وفيما يلي حديث موجز عن خصائص هذه الاتجاهات وأبرز من يمثلها من الشعراء في مدينة السلام.

الاتجاه الأول: التجديدي المحدث:

وأهم خصائص هذا الاتجاه: التحلل من وقار الشعر وبعض قيمه الاجتماعية والتحول من الأسلوب القديم إلى أسلوب الحياة الجديدة ولغتها، والجنوح إلى السهولة والبساطة، إلى جانب التحول بالقصيدة من نظامها القديم في تعدد موضوعاتها إلى محاولة جعلها واحدة الموضوع في الغالب.

وأبرز الشعراء الذين يمثلون الاتجاه التجديدي المحدث في بغداد: بشار بن برد (ت 167هـ = 783م) وأبو نواس الحسن بن هانئ (ت 198هـ = 813م)، وأبو العتاهية (ت 213هـ = 828م) ومسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني (ت 208هـ = 823م) والحسين بن الضحاك (ت 250هـ = 864م) المعروف بحسين الخليع. وكان بعض أفراد هذه الطائفة يدينون بعقائد غريبة، ويتهمون بالزندقة والمجون، ويتحدثون في شعرهم عن حياة اللهو والتبذل حديثاً صريحاً.

الاتجاه الثاني: الاتجاه المحافظ:

ويجري أصحاب هذا الاتجاه على جادة القدماء في نهج القصيدة وموضوعها وديباجتها وأسلوبها الذي يتألف في الأعم الأغلب من لغة تستوحي الذاكرة والتراث أكثر مما تستوحي العصر والواقع، وهم أكثر اشتغالاً بما كان السابقون أكثر به اشتغالاً: من مدح للملوك وفخر وحماسة وما إلى ذلك.

ومن هؤلاء مثلاً – «ناهض بن ثومة» الذي يقول عنه صاحب كتاب «الأغاني»: «شاعر بدوي فصيح من شعراء الدولة العباسية، وكان يقدم البصرة فيكتب عنه شعره، وتؤخذ عنه اللغة». ومنهم عمارة بن عقيل الذي كان يقدم على الخليفة المأمون وينشده شعراً مليئاً بالغريب. وأبو العميثل الذي كان المأمون يقدمه ويقول فيه: «هو أشعر عندي من جرير». وهناك آخرون ذكرهم ابن النديم في «الفهرست»، وجلهم يجري شعرهم على السنن الجاهلي القديم.

الاتجاه الثالث: المحافظ الجديد:

ويطلق عليه أيضاً «التعميق والإثراء الفني للجديد المحدث وللقديم الموروث»، ويسميه الدكتور شوقي ضيف «اتجاه الصنعة والتصنيع»، أي إثراء الصناعة الفنية بالزخرف اللفظي والعمق العقلي.

وقد كان الشاعر البغدادي الكبير أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت 228هـ = 842م) من أوائل من ساروا في هذا الاتجاه، وتبعه بعد ذلك البحتري «الوليد بن عبيد بن يحيى» (ت 284هـ = 897م) وابن الرومي (ت 283هـ = 896م) وآخرون مما عاصروهم أو جاؤوا بعدهم حتى وصل هذا الاتجاه إلى غايته بعد ذلك مع أبي الطيب المتنبي (ت 354هـ = 965م) الذي يعد بحق «قمة التأصيل للقيم الفنية في الشعر العربي حديثه وموروثه»، والذي أعاد للقصيدة العربية روحها البدوي من غير انفصال عن روح العصر الجديد بما يحمله من ثقافات عقلية، فحقق بهذا مزاوجة عبقرية بين بساطة البداوة وصفائها وفطريتها بين ثقافات عصره العقلية بقضاياها المعقدة [662].

– اللغة العربية في الأندلس:

إن أمهات الكتب المشرقية في علم النحو امتدت إلى الأندلس منذ أواخر القرن الثاني الهجري، و أول مدرسة نحوية تعرف عليها الأندلسيون هي المدرسة الكوفية ممثلة بكتاب الكسائي المؤسس الأول لهذه المدرسة. وهذا الكتاب أدخله قرطبة (رواية عن مؤلفه): جودي بن عثمان الموروري القرطبي (توفي 198هـ = 813م). وبعد مدة يسيرة من دخول النحو الكوفي إلى الأندلس دخلها النحو البصري عن طريق محمد بن موسى القرطبي المعروف بالأفشتين (توفي 309هـ = 921م) وغيره ممن أدخلوا «كتاب» سيبويه، وكتاب «الأوسط» للأخفش تلميذ سيبويه. ثم نقلت كتب النحو البغدادي إلى قرطبة ممثلة في كتاب «الجمل» للزجاجي وكتب أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني، ووصل إلى قرطبة عدد آخر كبير من كتب الكوفيين والبصريين والبغداديين، كالفراء والمبرد وابن السراج وابن درستويه والسيرافي وغيرهم.

وقد أولى الأندلسيون هذه الكتب الوافدة اهتماما واسعاً، وعكفوا على دراستها وحفظها وشرحها، ونشروها في ربوع الأندلس. وإذا تتبعنا التراث الأندلسي في علم النحو نجد أن أكثر المؤلفات التي وضعها الأندلسيون ليست إلا شروحاً لكتب المشارقة، ولا يكاد يمر عصر من عصور الأندلس أو فترة دون أن يكون لعالم من علماء النحو شرح لكتاب نحوي أو أكثر من كتب المشارقة. أما الإنتاج الأندلسي الخالص في هذا المجال فهو قليل إذا قورن بكتب الشروح، ويدور في فلك المنهاج التي أرسى دعائمها علماء المدارس النحوية في المشرق. وقد كان المدرسة الأندلسية في النحو عبارة عن خليط من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين، مع الميل في اتجاه المدرسة البغدادية وكثرة التعليلات والنفوذ إلى بعض الآراء الجديدة التي تقوم على الاختيار والترجيح.

– الشروح الأندلسية لكتب النحو المشرقية:

أبرز الكتب النحوية التي حظيت بعناية الأندلسيين وكتبوا عليها مجموعة من الشروح والتعليقات هي «كتاب» الكسائي و«كتاب» سيبويه وكتاب «الجمل» للزجاجي. إضافة إلى عدد آخر من كتب النحو للأخفش والمبرد وأبي علي الفارسي وابن جني وابن النحاس.

أما كتاب الكسائي: وهو من أوائل كتب النحو التي وصلت الأندلس فقد شرحه كثيرون، منهم: أبو الحسن مفرج بن مالك النحوي القرطبي المعروف بالبغل. كان نحوياً لغوياً، وتعلم على يديه أكثر أهل زمانه، وعداده في الطبقة الرابعة من نحاة الأندلس ولغوييها.

وذكر ابن الأبار في «التكملة» أن محمد بن أصبغ النحوي القرطبي شرح كتاب الكسائي في ستة أجزاء. وشرحه أيضاً (الجرفي) أحد النحاة الأندلسيين المشهورين، وهذا الشرح عده ابن حزم من المفاخر الأندلسية.

وأما كتاب سيبويه: فقد كانت عناية الأندلسيين به أوسع، وشروحهم ودراستهم عليه أكثر، نذكر منها على سبيل المثال: «شرح كتاب سيبويه» لأبي محمد عبد الله ابن حمود الزبيدي الإشبيلي نزيل قرطبة (توفي 372هـ = 982م) كانت له رحلة إلى بغداد وهو ابن عم أبي بكر الزبيدي الإشبيلي القرطبي (توفي 379هـ = 989م). وهذا الأخير من كبار علماء اللغة والنحو والأدب في الأندلس، وله دراسة في «أبنية كتاب سيبويه».

ولأبي الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي المعروف بالباذش (توفي 525هـ = 1130م) شرح على كتاب سيبويه. وهذا العالم كان ذا معرفة واسعة بعلم العربية، وصنف عدداً من الشروح على كتب مختلفة في النحو للبصريين والبغداديين[663].

المؤلفات النحوية المستقلة عن كتب المشارقة:

وأول نحاة الأندلس الذين صنفوا في النحو كتباً مستقلة عن المصادر المشـــرقية هو جودي بن عثمان المورووري نزيل قرطبة (توفي 198هـــ = 813م) وهو الـــذي أدخل كتاب الكسائي. ثم وضع أبو بكر بن خطاب (أو خاطب) المكفوف القـــرطبي تأليفاً في النحو كانت له شهرة في موطنه. وصنف أبو بكر الزبيدي الإشبيلي نزيـــل قرطبة (توفي 379هـــ = 989م) كتاب «الواضح في النحو». وهو الذي اختصـــر كتاب «العين» للخليل بن أحمد.

وفي القرن السادس صنف أبو بكر محمد بن عبد الملك النحـــوي الأندلســـي (كان حياً 531هـــ = 1136م) كتاب «تنبيه الألباب على فضائل الإعـــراب» في جزء واحد. وصنف ابن السيد البطليوسي (توفي 521هـــــ = 1127م) كتـــاب «المسائل والأجوبة».

أما الكتب التي تبرز جانباً من الخصوصية الأندلسية في هذا العلم، والتي تعـــد بمثابة الثورة على النحو والنحاة فهي لأبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بـــن مضـــاء اللخمي القرطبي (توفي 592هـــ = 1195م). كان حجـــة في الفقـــه الظـــاهري والحديث النبوي وفي التفسير. وكان له موقف قوي في نصرة المـــذهب الظـــاهري والحمل على أتباع المذاهب الفقهية الأخرى، وخصوصاً المالكية. وقد استلهم منهجه الفقهي في حمله على النحاة، «إذ وجد مادة العربية تتضخم بتقـــديرات وتـــأويلات وتعليلات وأقيسة وشعب وفروع وآراء لا حصر لها ولا غناء حقيقي في تتبعهـــا أو على الأقل في تتبع كثير منها، فمضى يهاجمها في ثلاثة كتـــب، هـــي «المشـــرق في النحو»، و«تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان» و«كتاب الرد على النحاة». والكتاب الأخير هو – وحده – الذي بقي من آثاره. وفيه يهاجم نظرية (العامل) التي عقدت النحو وأكثرت فيه من التقديرات والمباحث التي لا طائل وراءها في رأيه».

وقد صنف أبو علي عمر بن محمد المعروف بالشلوبين (تـــوفي 645هـــــ = 1247م) كتاباً في النحو سماه «التوطئة»، وكتاباً آخر بعنوان «القـــوانين». وهـــذا

العالم كان إمام عصره في العربية غير مدافع، وترك تلميذاً نجيباً حمل من بعده لواء العربية بالأندلس، وصنف في النحو والصرف مصنفات مختلفة منها «المقرب» في النحو، و«الممتع» في التصريف، وهذا العالم هو أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن عصفور الحضرمي الإشبيلي (توفي 663هـ = 1264م).

وأهم المؤلفات الأندلسية في علم النحو هي مؤلفات ابن مالك: جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني (توفي بدمشق 672هـ = 1273م). وهو إمام النحاة واللغويين في عصره، وأشهر مؤلفاته منظومته «الألفية»، و«الكافية الشافية» في ثلاثة آلاف بيت و«التسهيل» و«شرحه» و«الفوائد» وغيرها[664].

– التراث الأندلسي في ميدان اللغة:

إذا تتبعنا التراث الأندلسي في ميدان اللغة فسنجد أنه لن يخرج – في أغلبه – عن هذه الصور المشرقية. بمعنى أن الأندلسيين ساروا في تأليف اللغة وترتيبها ومعالجتها على وفق ما عرفوه من مناهج المشارقة في التصنيف والجمع والتبويب والترتيب، مع بروز قدر من الخصوصية الأندلسية في بعض الجوانب. ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن المادة اللغوية التي صنفها الأندلسيون هي مادة مشرقية أعادوا ترتيبها من جديد، وأضافوا إليها من بنات أفكارهم. وفيما يلي نذكر أمثلة من التراث الأندلسي في اللغة:

فمن الرسائل اللغوية ذات الموضوع الواحد: كتاب «النبات» لأبي عبيد البكري (توفي 487هـ = 1094م)، وله أيضاً كتاب في «الأمثال». وصنف ابن السيد البطليوسي (توفي 521هـ = 1127م) كتاباً في «الفرق بين الحروف الخمسة: الظاء والضاد والذال والصاد والسين».

وفي «الأنواء» صنف كل من: عبد الله بن حسين بن إبراهيم القرطبي المعروف بابن القربالي (توفي 403هـ = 1012م)، تلميذ أبي على القالي. وعريب بن سعد القرطبي (توفي 331هـ = 942م).

وأهم كتاب في «النوادر» محسوب من التراث الأندلسي هو كتاب أبي علي القالي البغدادي نزيل قرطبة (توفي 356هـ = 967م). وهذا العالم وإن كان بغدادي البلد والثقافة إلا أنه ألف أغلب كتبه في قرطبة إن لم يكن كلها.

وفي صيغ الأبنية (أبنية الأفعال والأسماء) صنف عدد من الأندلسيين: ويعد كتاب «فعلت وأفعلت» لأبي علي القالي من أقدم الكتب في أبنية الأفعال، وهو يعني خاصة بصيغتين من صيغ الأفعال وهما: (فعل) و(أفعل) اللتان تردان بمعنى مختلف أو متفق. ومن المحتمل أن يكون محمد بن عبد العزيز القرطبي المعروف بابن القوطية (توفي 367هـ = 977م) تلميذ القالي ومعاصره قد استفاد منه في كتابه الذي سماه «الأفعال».

وهذا الكتاب الأخير مخالف لكتاب القالي في كونه يعتني بسائر الصيغ المعروفة للأفعال، «وهو أول مصنف في ذلك» كما يقول ياقوت. وعده ابن حزم من مفاخر الأندلسيين(665).

– معاجم أندلسية على طريقة الخليل:

ومن الكتب التي تدخل في عداد التراث الأندلسي في مجال الدراسات المعجمية والتي سارت على طريقة الخليل في «العين» وكان لها صدى كبير في البيئة الثقافية بالأندلس: كتاب «البارع» لأبي علي القالي (توفي 356هـ = 966م). صنفه في قرطبة، ويستوعب اللغات كلها. قال عنه ابن خير: «زاد على كتاب الخليل نيفاً وأربعمئة ورقة مما وقع في «العين» مهملاً، فأملاه مستعملاً ومما قلل فيه الخليل، فأملى فيه زيادة كثيرة،... وكان ابتدأه من سنة 399هـ، وكماله في شوال من سنة 355هـ،... وخرج بخط فصيح في مئة وأربعة وستين جزءاً، عدد ورقها أربعة آلاف ورقة وأربعمئة ورقة وست وأربعون ورقة».

وهكذا استوعب القالي ما جاء به الخليل، ثم أضاف إليه من المواد والشواهد شيئاً كثيراً، فتلقاه الناس بالإعجاب والإكبار حتى قال الزبيدي: «ولا نعلم أحداً من

المتقدمين والمتأخرين ألف نظيره في الإحاطة والاستيعاب» وقال أيضاً: «جمع فيه كتب اللغة، وعزا كل كلمة إلى ناقلها من العلماء، واختصر الإسناد عنهم». ويعد هذا من خصائص «البارع»، فلا تكاد توجد فيه لفظة من اللغة غير منسوبة لواحد من أئمة اللغة في بغداد = المشرق.

وبالإضافة إلى الدراسة التي كتبها أبو بكر الزبيدي الإشبيلي – تلميذ القالي – حول المقارنة بين كتاب البارع وكتاب «العين» والتي سماها المستدرك من الزيادة في كتاب البارع على كتاب «العين» – هناك دراسة أخرى عبارة عن «استدراك على كتاب البارع» تنسب للوزير أبي مروان عبد الملك بن سراج (توفي 489هـ = 1095م)، وهو «إمام اللغة بالأندلس غير مدافع» كما يقول ابن بشكوال.

وصنف أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي الأندلسي المعروف بابن سيده (بكسر السين) (توفي 458هـ = 1065م) كتاب «المحكم والمحيط الأعظم»، رتبه على حروف المعجم، متبعاً الطريقة المعقدة التي سار عليها الخليل في «العين»، وقصد فيه إلى جمع المشتت من المواد اللغوية في الكتب والرسائل في كتاب واحد يغني عنها جميعها، مع دقة التعبير عن معانيها، وتصحيح ما فيها من آراء نحوية خاطئة. وقد استعان في ذلك بمنهج الخليل بعدما أدخله أبو بكر الزبيدي الإشبيلي عليه من إصلاح في «مختصره».

وقد لقي كتاب «المحكم» عناية فائقة في الأندلس وخارجها، وكثرت حوله الدارسات، اختصاراً واستدراكاً؛ فمن ذلك «تلخيص المحكم» لأبي بكر محمد بن إبراهيم الرعيني الأندلسي (توفي 620هـ = 1223م). وصنف أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن المعروف بابن برجان (توفي 627هـ = 1229م) ردا على «المحكم» بين فيه أغلاطه[666].

– تدوين الأندلسيين للأدب الأندلسي والمشرقي:

تتوزع المصادر التي وضعها الأندلسيون في «الأدب» بين مصادر تناولت أدب المشارقة دون التعرض للأدب الأندلسي إلا في حدود ضيقة، ويعد كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه ممثلاً لهذا النوع من التأليف. ومصادر أخرى تخصصت في عرض الأدب الأندلسي وحده وأخبار شعرائه وأدبائه مثل كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام.

وفيما يلي تعريف بأهم الكتب التي تعد من أركان الأدب وأصوله، ومرآة لثقافة الأندلسيين في هذا الفن وما يتعلق به من أخبار، ونبدأ بكتاب «العقد الفريد»:

– العقد الفريد لابن عبد ربه:

ومؤلف هذا الكتاب هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي (توفي 328هـ = 939م) شيخ الأدب بالأندلس. ويمثل كتابه في الحياة الأدبية المرتبة التي تلي كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني البغدادي. وهو بجملته لاحق بكتب المختارات والمحاضرات على شاكلة ما كان شائعاً في المشرق، مثل بعض كتب الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم. وأكثر ما فيه مختارات من الأدب المشرقي شعراً ونثراً منقول عنهم أو متصل بهم بسبب، ويتعرض للبلاغة والنقد والعروض والموسيقى الشعرية والعادات والتقاليد، ولا نعدم فيه آثاراً قليلة أندلسية، لكنها لا تقوى على صيغ الكتاب بصيغة أندلسية. وهذا ما حدا بالوزير الصاحب ابن عباد البغدادي (توفي 385هـ = 995م) إلى القول عن هذا الكتاب «هذه بضاعتنا ردت إلينا». ويبدو أن مؤلفه كان يهدف إلى وضع دائرة معارف صغيرة تفي بمطالب الأديب على النحو الذي كان يطلب منه في ذلك العصر، من الإلمام بطرف من كل علم. كما أنه أراد أن ينقل إلى مواطنيه ثقافة عامة عن المشرق تغنيهم عن الرجوع إلى كثير من الكتب وعديد من المراجع. ويبدو أنه أراد أيضاً أن يبين تفوق الأندلسيين حتى في الثقافة المشرقية نفسها[667].

ومن أهم الكتب الأندلسية التي أعطت عناية أكثر للبلاغة ودارت حول مجموعة من الآراء النقدية مما له صلة بالشعر والنثر من حيث أسرار البيان وجودة الصنعة ودراسة المعاني والألفاظ، وساعدت أيضاً على دفع البلاغة نحو الاستقلال: كتاب «إحكام صنعة الكلام» لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي (توفي في منتصف القرن السادس = بعد سنة 531هـ = 1136م)، وكان من الشعراء ومن الأدباء الكتاب، وخدم في دولة أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين.

وهذا الكتاب قصره مؤلفه على فن النثر، ويقع في مقدمة وبابين، أما المقدمة فتحدث فيها عن البيان ومعناه ومدلوله، وجعل الباب الأول لأدب الكاتب. والباب الثاني خص بضروب الكلام وأنواع الأساليب وأقسام السجع مما يدخل في النقد والبلاغة مباشرة. وقد أودع في كل ذلك عدة آراء دقيقة ومبتكرة أعطت كتابه أهمية خاصة، وميزته بشيء جديد يضاف على تاريخ النقد والبلاغة في الأندلس، واعتمد على عدد من مؤلفات البغداديين مثل إبراهيم بن هلال الصابي (توفي 384هـ) وابن العميد (توفي 360هـ) والثعالبي (توفي 429هـ). والكتاب في النهاية بعد مصدراً مهماً في تاريخ النثر العربي أقسامه وقواعده.

وممن يمكن التوقف عند بعض محاولاتهم من رجال الأندلس في ميدان البلاغة والنقد: أبو البقاء صالح بن زيد بن صالح بن موسى النفري الزندي (توفي 684هـ = 1285م) في كتابه «الوافي في نظم القوافي».

وهذا الكتاب من أهم الكتب الأندلسية فيما نحن بسبيله. قسمه مؤلفه على أربعة أجزاء. ويقع الجزء الأول منها في أربعة أبواب، وتحدث في أولها عن فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه. وفي الثاني: عن الشعراء وطبقاتهم. والباب الثالث: في عمل الشعر وآدابه. وفي الباب الرابع: عن أغراض الشعر وأبوابه. وجعل الجزء الثاني في محاسن الشعر وبديعة ومعانيه، فجاء في أربعين باباً ذكر فيها طائفة من

الفنون البديعية والبلاغية، كالمطابقة والمقابلة والتشبيه والاستعارة والتصدير والالتفات والتسجيع وغير ذلك. وقد درس في الجزء الثالث عيوب الشعر، وهي الإخلال والسرقة والضرورة، وجعل الإخلال تسعة أضرب، وعقد للسرقة ثلاثة فصول في ضروبها ومراتبها. أما الجزء الرابع والأخير فقد أوقفه على حد الشعر والعروض والقافية[668].

ومن شعراء الأندلس: ابن عثمان الأصم (توفي 335هـ = 946م) اشتهر بالأراجيز على طريقة رؤبة والعجاج، وكان لغوياً فصيح اللسان، شاعراً مجوداً «وأكثر أشعاره على مذاهب العرب» كما يقول الزبيدي. ومنهم أبو المطرف عبد الرحمن ابن أبي الفهد من شعراء الدولة العامرية «وكان من أشعر من أنبتته الأندلس بعد أبي المخشى ولم يكن يُبقي شاعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه».

والمتأمل لمثل شعر هؤلاء يجد أن شعرهم يسير على خطى المدرسة المشرقية المحافظة من حيث بناء القصيدة وانتزاع الصور والمعاني من البيئة البدوية القديمة، ثم من حيث التعبير بالأسلوب البدوي القديم، وأخيراً من حيث الميل إلى الأبحر الشعرية الطويلة ذات التفاعيل الكثيرة والقوافي الرنانة[669].

وأبرز الشعراء الأندلسيين الذين تأثروا بالمتنبي وطريقته: أحمد بن محمد بن دراج، أبو عمر الكاتب المعروف بالقسطلي (توفي قريباً من 420هـ = 1209م)، كان يسمى «متنبي الغرب»، وعده ابن حزم الأندلسي من مفاخر الأندلس وقال عنه: «لو قلت: لو لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد»، وقال أيضاً: «لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد ابن دراج لما تأخر عن شأو حبيب (أبي تمام) والمتنبي». وعنه يقول الدكتور إحسان عباس: «إليه انتهت الطريقة التي اختارها الأندلسيون وارتضوها بعد (الحكم الغزال)، وعنده بلغت آخر الشوط في تطورها وتعقدها والتوائها، لأنه جمع بين أبي تمام والمتنبي»[670].

ومن شعراء الأندلس: الشاعر إبراهيم بن سليمان الذي دخل الأندلس في أواخر أيام الأمير الحكم بن هشام (180- 206هـ = 796- 822م)، وكان قد أدرك بالمشرق كبار الشعراء كأبي نواس وأبي العتاهية. ومن الوافدين أيضاً من بغداد على الأندلس في عهد إمارة محمد ابن عبد الرحمن (238- 273هـ = 852- 886م): أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني، المعروف بالرياضي كان له سماع ببغداد من جلة المحدثين والفقهاء والنحويين، لقي من الأدباء واللغويين الجاحظ والمبرد وثعلباً وابن قتيبة، ولقي من الشعراء أبا تمام والبحتري ودعبلاً الخزاعي وغيرهم. وكان أديباً شاعراً، وعنه رواية لشعر أبي تمام في الأندلس.

ووفد على المنصور محمد بن أبي عامر وحظي بالأدب عنده: الشاعر البغدادي طاهر ابن محمد المعروف بابن المهند، يقال: إنه من سلالة أحمد بن أبي طاهر طيفور صاحب «تاريخ بغداد» وقد أورد له الحميدي في «جذوة المقتبس» مقطوعة شعرية تدل على براعته[671].

أما النثر؛ فإن أهم عملين أندلسيين فيه هما: كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه (توفي 328هـ = 939م). وفي هذا الكتاب ملاحظات متناثرة للمؤلف بث فيها شيئاً من آرائه في الشعر والنثر، وتحدث عن «الخطبة» التي تفاخر بها العرب وشهرت بها مواسمهم وأعيادهم، وعقد فصلاً عن التوقيعات والفصول والصدور وأدوات الكتابة وأخبار الكتاب، وقد أسهب في هذا الفصل فيما كان معروفاً من اهتمام الكتاب بتلقين قاصدي فن الكتابة مبادئ وأصولاً لا غنى لهم عنها. وكل ذلك يدخل في صميم النثر الفني.

والكتاب الثاني: رسالة «التوابع والزوابع» لأبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد القرطبي (382- 426هـ = 992- 1034م) وهو من كبار الأدباء والنقاد والشعراء الأندلسيين. ومن أعلام الأندلس المشهورين، برع في الكتابة النثرية، واتفق من ترجموا له على وصفه بالبراعة في البلاغة والإنشاء، وشبهوه بعبد الحميد

الكاتب في أوانه، وبالجاحظ في زمانه. وقال عنه الثعالبي في «يتيمة الدهر»: «نثره في غاية الملاحة وشعره في غاية الفصاحة».

أما عن رسالته «التوابع والزوابع» - والتي سماها ابن شهيد «شجرة الفكاهة» وتناولها عدد من الباحثين بالنقد والتحليل — فهي مليئة بالنصوص النثرية التي تدل على براعته في هذا الميدان. وناقش فيها بطريقة قصصية خيالية أدبية وبيانية عدة قضايا: مثل منزلته — هو — من شعراء قومه وكتابهم، ومنزلة شعره ونثره في الأدب العربي بعامة، وما هو الموقف من طغيان السجع على كتابة الكتاب؟، وعرج في مواضع مختلفة لينال من خصومه من المعلمين والأدباء ورجال الدولة بلسان لاذع يتراوح بين التصريح والتلويح، كما أنه أظهر غرامه بمعارضته الكتاب والشعراء المشارقة والحرص على التفوق عليهم[672].

سادساً – التاريخ:

يقول ابن خلدون مؤسس فلسفة التاريخ: «اعلم أن فن التاريخ فن غزير المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها مجرد النقل و لم تُحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق»[673].

وفيما يلي نستعرض تطور هذا العلم في العصرين العباسي والأندلسي:

1- مرحلة التدوين الأولى:

وقد امتدت هذه المرحلة حتى مطلع القرن الثاني الهجري، وفيها بدأت عملية التدوين مبكرة جداً نقلاً عن الشفاه ومن السجلات (كالوثائق وبعض الصحائف). وعملية التدوين هذه يرقي بعضها إلى العهد النبوي والخلافة الراشدة، لكنها ما اتسعت ولا وضحت إلا في العصر الأموي (40- 132هـ = 749م)، وظهرت فيها عدد من الاتجاهات؛ فبعضها للسيرة النبوية، وبعضها للأنساب، وبعضها لأخبار الفتوحات.... غير أن الاهتمام كان متوجهاً بصورة خاصة إلى مواضيع محددة من السيرة، وبرز فيها من الرعيل الأول: عبد الله بن عباس (ت78هـ) ثم أبان بن عثمان بن عفان (توفي ما بين 95- 105هـ) وعروة بن الزبير بن العوام (ت 94هـ = 722م) أول من ألف كتاباً في «المغازي».

2- مرحلة جمع الأخبار والروايات التاريخية في كتب ذات موضوع واحد:

وهي المرحلة التي اهتم الأخباريون خلالها بجمع أخبار الأحداث المختلفة والمواضيع المتنوعة، ومن جميع الأفواه والرواة، كل منها على حدة، وفي كتاب يختص بموضوع واحد لا يتجاوز إلى غيره.

ومن أبرز الإخباريين هنا:

أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الكوفي (ت 157هـ = 773م). ألف ما يقرب من (33) كتاباً في موضوعات مختلفة من التاريخ الإسلامي، منها: كتاب الردة – كتاب فتوح الشام – فتوح العراق – حرب صفين – الجمل – مقتل علي – مقتل الحسين – الشورى – الأزارقة... إلخ.

وسيف بن عمر الأسدي التميمي الكوفي (ت حوالي 180هـ = 796م). كان معاصراً لأبي مخنف، واشتهر وتوفي ببغداد. وله من الكتب: الردة – الفتوح – الفتنة – واقعة الجمل، وغيرها.

وهشام بن محمد بن السائب الكلبي الكوفي النسّابة (ت 204هـ = 819م). له كتب كثيرة تبلغ نحو (150) كتاباً في مختلف المواضيع والأحداث التاريخية في الجاهلية والإسلام، ذكرها ابن النديم وقسّمها إلى أقسام بحسب موضوعاتها. وقد اتصل هشام الكلبي بالخليفة المأمون وصنّف له كتاب «الفريد» في الأنساب، واتصل بجعفر بن يحيى البرمكي وألف له كتاب «الملوكي» في الأنساب أيضاً [674].

3- التأريخ على الأساس الزمني في إطار وحدة الأمة والتاريخ العالمي:

وعلى الرغم من وجود ذلك الجمع التوزعي المفرق لمواضيع التاريخ في المرحلة السابقة «مرحلة الأخباري» فقد ظهر خلالها وفي وقت مبكر مطالع مرحلة جديدة، يمكن تسميتها بمرحلة تدوين التاريخ على الأساس الزمني المتسلسل، وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد. وقد امتدت هذه المرحلة إلى نهاية القرن الثالث الهجري حتى استقرت وتوطدت، فتوطد بها علم التأريخ الإسلامي ومناهجه في التدوين.

وكان من أبرز الممثلين للتطور الجديد من العراقيين:

خليفة بن خياط العصفري البصري (ت 240هـ = 854م). له كتاب «التاريخ». وهو أقدم كتاب في أيدينا لتاريخ الإسلام العام ومرتب على المنهج الحولي، وفيه من الاهتمامات التاريخية ما لا نجده عند غيره، ولعله كان المثال الذي احتذاه المؤرخ الكبير ابن جرير الطبري. ولقد اعتمد خليفة بن خياط في كتابه هذا على عدد كبير من مرويات الإخباريين الأوائل كابن إسحق وهشام الكبي والمدائني وغيرهم. وتظهر أهميته البالغة في دقته وحسن انتقاء مؤلفه لرواياته بأسانيدها وفق منهج المحدثين الذين ينتمي خليفة بن خياط إلى مدرستهم.

وابن قتيبة: عبد الله بن مسلم البغدادي (ت 276هـ = 889م). إمام في اللغة والأدب والأخبار وعلوم القرآن والحديث، وله عدد من المؤلفات التاريخية تمثل بالنسبة للتأليف التاريخي مرحلة من النظرة العالمية والحضارية لم يعرفها المؤلفون

السابقون إلا جزئيا، وإن تكن محاولة محدودة بالقدر الذي سمحت به معارف ابن قتيبة وعصره ومواهبه، وأهم هذه المؤلفات كتاب «المعارف»، وهو أشبه بدائرة معارف تمتزج فيها مختلف خطوط الكتابة التاريخية. وله أيضاً كتاب «عيون الأخبار» يحتوى على الكثير من عناصر الحضارة الإسلامية.

البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت 279هـ = 892م) نديم الخليفة العباسي المتوكل. له كتاب «أنساب الأشراف» وهو كتاب عام للتاريخ الإسلامي في إطار الأنساب، لا الزمن التاريخي، بمعنى أنه ليس مؤلفاً تاريخياً متصل الحلقات، وإنما تجمع خطته بين أساليب كتابة كتب الطبقات وكتب الأخبار وكتب الأنساب، ويظهر فيه تلاقي طريقة الخبر بالأنساب في الطبقات بالتاريخ، وتلاقي طريقة الرواية المنفصلة والخبر المفرد مع الرواية التاريخية المتصلة والتاريخ المطرد، غير أنه في النهاية يعبر عن فكرة وحدة الأمة واتصال خبراتها في التاريخ الإسلامي.

والطبري: محمد بن جرير الطبري البغدادي (ت 310هـ = 922م). علم معروف من أعلام التاريخ الإسلامي وغيره من العلوم، بلغ في علمه بالروايات التاريخية منزلة لا تباري، ويمثل كتابه «تاريخ الرسل والملوك» قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند المسلمين في فترة التكوين، وحصاداً ناجحاً لكل المحاولات السابقة عليه، وصياغة تركيبية – في إطار المنهج الحولي – لكل التطورات والأنماط التأريخية التي حاولها مؤرخون قبل الطبري في مجال التدوين التاريخي: كابن إسحق وابن هشام والواقدي والمدائني وابن سعد والبلاذري، بل وفاقهم كثيراً من حيث الشمول والإحاطة ووفرة المادة وغزارتها. كما أن أهميته تكمن أيضاً في أنه «يعبر عن فكرتين أساسيتين في التاريخ هما: وحدة الرسالات من جهة، وأهمية خيرات الأمة الإسلامية واتصالها على الزمن من جهة أخرى»: إذ يتناول التاريخ العام منذ الخليقة وحتى نهاية سنة 302هـ = 914م[675].

وأما أهم المؤلفات في الفنون التاريخية فهي كمايلي:

1- السيرة النبوية:

بدأ التدوين التاريخي للسيرة النبوية في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك من الأمور الطبيعية، لأنها الموطن الأصلي للدعوة الإسلامية، ومنها انتشر الإسلام، فاكتسبت السيرة ثوباً مدنياً، وطبعت بالطابع الذي تميز به علماء الحجاز، وهو ميلهم إلى رواية الحديث النبوي، ومن هنا أخذت السيرة شكل الرواية الحديثية المجردة، وأصبحت جزءاً من الحديث نشأت وتطورت بنشوئه وتطوره، وظلت الدعامة الأساسية لتكوين المادة التأريخية لها.

وبهجرة محمد بن إسحق إلى بغداد وإهدائه «مغازيه» للخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (136- 158هـ = 753- 774م)، كما هاجر إليها أبو معشر السندي، استدعاه المهدي، وانتشرت بها «مغازيه». ومنذ ذلك الحين؛ ظهر منافسون لعلماء السيرة المدنيين، ظهروا في بغداد والكوفة والبصرة، بل في مصر كذلك، وهم وإن كانوا قد تأثروا بسيرة ابن إسحق المستمدة من روحية أهل المدينة (الميالة إلى الرواية والنقل) فإن الأمور سرعان ما تبدلت وظهرت روح النقل الميالة إلى النقد.

ولقد لاقت سيرة ابن إسحق رواجاً واسعاً في بغداد: فكان من أوثق رواتها وأشهرهم: زياد بن عبد الله بن طفيل العامري البكائي الكوفي البغدادي (ت 183هـ = 799م). ثم رواها عن البكائي كثيرون، أبرزهم عبد الملك بن هشام السدوسي البصري نزيل مصر (ت 213هـ = 828م)، وقد قام باختصارها وترتيبها فنُسبت إليه، وصارت لا تعرف إلا بسيرة ابن هشام، وأصبح للمصريين بها فرط غرام وكثرة رواية، وعنهم نقلت إلى سائر الآفاق كما يقول القفطي، ولاقت رواجا كبيرا في الأندلس.

وكان من أشهر المؤلفين في المغازي والسير اثنان: الواقدي (ت 207هـ = 822م) وابن سعد (ت 230هـ = 845م)، وهما – وإن كانا ممثلين لمدرسة

المدينة في الأصل – فإنهما يمثلان نهاية تطورها وقمتها في بغداد = العراق، حيث قضى الواقدي أعوامه الثلاثين الأخيرة في بغداد، وانتشرت بها مؤلفاته في السيرة. وكان ابن سعد كاتباً له وعلى صلة قوية به، وعليه اعتمدت في تأليف السيرة في القسم الأول من كتابه «الطبقات»، وعاش مدة طويلة في بغداد، وكانت وفاته بها[676].

2- كتب التاريخ العام:

وتتميز هذه الكتب بشمولها لأحداث الدولة الإسلامية على اتساعها، مع مقدمة لتاريخ ما قبل الإسلام، أو بدونها. وتميزت هذه الكتب في معظمها باتباع المنهج الحولي. وهذا المنهج هو أبرز المناهج التي اتبعها المؤرخون المسلمون في تنظيم وترتيب المادة التاريخية، وهو المنهاج الأساسي في كتابة التاريخ العالمي، ويعبر المؤرخ من خلاله عن إدراك واضح لمفهوم وحدة التاريخ العالمي ووحدة تاريخ الأمة الإسلامية وتجاربها عبر السنين. ومع أن هذه الطريقة لم تكن أكثر من أسلوب في عرض المادة التاريخية فقد كان لها تأثير كبير على المحتويات التاريخية: إذ كانت تحصر دائرة الأحداث حصراً من حيث الزمان والمكان.

ومن أبرز المؤرخين في هذا المجال: نفطويه إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي الواسطي البغدادي (ت 323هـ = 934م). وهو عالم في اللغة والنحو، وله كتاب «التاريخ»، قال عنه المسعودي: «محشو من ملاحات كتب الخاصة، مملوء من فوائد السادة». وقد اقتبس منه الخطيب البغدادي في مواضع كثرة من كتابه «تاريخ بغداد» ويبدو من بعض المقتطفات التي نقلها الخطيب أن هذا «التاريخ» مرتب على السنين، كما أنه يقتصر على الفترة الإسلامية: حيث تتناول تلك المقتطفات أخبار معظم الخلفاء العباسيين حتى زمن المقتدر (295- 320هـ = 907- 932م)، كما تناولت خطط بغداد وتاريخ وفيات وبعض أخبار الأمراء والوزراء والولاة والقادة والقضاة والكتاب والعلماء والشعراء والأدباء.

وأبو الحسن ثابت بن سنان بن قرة الصابئ المؤرخ الطبيب البغدادي (ت 365هـ = 975م). له كتاب «التاريخ» مرتب على السنين، بدأه من أول أيام الخليفة المقتدر (سنة 295هـ = 907م)، وينتهي به إلى (سنة 363هـ = 973م). وهذا الكتاب يعد بداية سلسلة من التواريخ كتبت من قبل أفراد من آل الصابئ، وكلها عبارة عن ذيول لتاريخ الطبري على غاية من الأهمية في رواية أخبار أحداثها، ولعل أهمها «ذيل» هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابئ (ت 448هـ = 1056م)، أتم به كتاب خاله ثابت بن سنان، و لم يتعرض أحد في مدته إلى ما تعرض له من الأمور والاطلاع على أسرار الدولة.

و المسعودي: علي بن الحسين المسعودي البغدادي (ت 345هـ = 956م). له سلسلة من التواريخ الخصبة، يأتي في مطلعها تاريخه الأكبر «أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة» في حوالي ثلاثين مجلداً، اختصره في «الكتاب الأوسط»، ثم عمد إلى الأخير فاختصره في «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وهذا أيضاً اختصره في «التنبيه والأشراف».

ولو أخذنا كتابه «مروج الذهب» نموذجاً لمؤلفاته التاريخية لوجدنا أنه في هذا الكتاب وضع تاريخاً عالمياً في (132) باباً، في أربعة أجزاء؛ تبدأ بذكر المبدأ والخليقة والأنبياء، وتنتهي بذكر من حج بالناس من أول الإسلام إلى سنة 335هـ = 946م. وبين هذا وذاك ذكر تاريخ أمم كثيرة، كبني إسرائيل والهنود واليونان والسريان والخزر والفرنجة، ومعلومات جغرافية واسعة حتى يصل بعد ذلك كله إلى السيرة النبوية ثم الخلفاء الراشدين فالأمويين، فالخلفاء العباسيين حتى خلافة المطيع لله (334- 363هـ = 945- 973م). وقد سرد المسعودي في مقدمة هذا الكتاب أكثر من مئة مصدر من مصادره التاريخية – سوى ما أعرض عن ذكره – تمثل أبرز ما أنتجه الفكر التاريخي الإسلامي حتى عهده[677].

3- التواريخ المحلية (تواريخ المدن):

وفي مقابل تلك التواريخ العامة الواسعة (سواء كانت مرتبة على السنين أو على الموضوعات) لجأ المؤرخون البغداديون = العراقيون في القرنين الثالث والرابع الهجريين إلى أنماط أخرى في التصنيف التأريخي، ومنها:

تاريخ بغداد، لأحمد بن أبي طاهر طيفور، المروزي الأصل، البغدادي (ت 280هـ = 893م)، عالج فيه خططها وتاريخها السياسي. وهذا الكتاب – الذي وصل إلى الأندلس – ربما يعد أول كتاب في سلسلة تاريخ مدينة السلام، وفي تواريخ المدن عامة.

كتاب «فضائل بغداد وصفتها» تأليف بزدجرد بن مهمندار الكسروى بن اسفنديار من أهل المئة الثالثة للهجرة في أيام المعتضد (279- 289هـ)، وهو يعنى بخصائص بغداد، وذكر عدد سككها وحماماتها وما يحتاج إليه في كل يوم من الأقوات والأموال.

4- كتب الفتوح:

وهناك بعض الكتب التاريخية التي يمكن أن تندرج في التاريخ المحلي، وهي الكتب الخاصة بالفتوحات الإسلامية، وتتناول المعارك التي خاضها المسلمون في الشام والعراق وفارس.

وأقدم من كتب في هذا الميدان: أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الكوفي (ت 157هـ = 773م) له «فتوح الشام» و«فتوح العراق»، ثم سيف بن عمر التميمي الكوفي (ت 200هـ = 815م) في كتابه «الفتوح الكبير». والواقدي نزيل بغداد (ت207هـ = 822م) الذي صنّف «فتوح العراق»، «فتوح الشام» و«فتوح إفريقية» وغيرها. ومنهم أيضاً علي بن محمد المدائني البصري البغدادي (ت225هـ = 839م)، له ما يقارب ستة عشر كتاباً في فتوح عدد من المدن والأقاليم غطت عدة فترات تاريخية.

وكل هذه الكتب لم تكن شاملة لجميع الفتوحات. وأول من كتب كتاباً شاملاً للفتوحات هو أحمد بن يحيى البلاذري البغدادي (ت 279هـ = 892م)، وهو من أروع كتب الفتوح في التاريخ العربي الإسلامي «وتظهر فيه خبرة الأمة للأغراض الإدارية والتشريعية». ويليه في الأهمية كتاب «الفتوح» لأحمد بن أعثم الكوفي (ت 314هـ = 926م)؛ انتهى فيه إلى أيام الرشيد العباسي[678].

5- كتب الأنساب:

وقد أعان النسّابون الدراسات التاريخية بما قدموا – مع الأنساب – من معلومات تاريخية عن أصحابها، وبعبارة أخرى حين انصرف النسابون إلى جمع مادتهم وتسجيلها جمعوا معها ومن حولها الكثير من المادة التاريخية التي دخلت التاريخ من بابه الواسع.

وكان من الطبيعي أن يكون النسّابون الأُول هم من الإخباريين الأوائل، مثل محمد بن السائب الكلبي الكوفي (ت146هـ = 763م) وابنه هشام (ت204هـ = 819م) – وهو من أشهر النسابين، وله تصانيف كثيرة في الأنساب – وأبو اليقظان النسابة (190هـ = 808م) والهيثم بن عدي (ت207هـ = 822م). ثم ظهر بعد هؤلاء:

مصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيري المدني نزيل بغداد (ت 236هـ = 850م). عالم بأيام العرب، وأفقه قرشي في علم النسب، أخذه عن الواقدي، وله كتابان فيه هما: «النسب الكبير» و«نسب قريش»، الذي أعطى فيه أخباراً مهمة ومفصلة عن بعض الشخصيات الهامة من جاهليين وإسلاميين.

ومحمد بن حبيب، مولى بني العباس (ت 245هـ = 859م). كان من علماء بغداد البارزين في النسب والأخبار واللغة. ومن أشهر كتبه في النسب كتاب «المحب» وكتاب «القبائل الكبير والأيام» في أربعين جزءاً.

الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب الزبيري المديني نزيل بغداد (ت بمكة 256هـ = 869م). إخباري نسابة، ومن أبرز كتبه: «نسب قريش وأخبارها» قال عنه ابن خلكان: «جمع فيه شيئاً كثيراً، وعليه معول الناس في معرفة نسب القرشيين»[679].

6- كتب التراجم وتواريخ الرجال:

تمثل كتب التراجم قسماً هاماً من الكتب التاريخية في القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة. وهذه الكتب ظهرت منذ بواكير التدوين عند المسلمين، وهي ضخمة في كميتها، متنوعة في مادتها. وقد نشط علماء الحديث دون سواهم – ولغرض توثيق الروايات الحديثية – في دراسة أحوال رجال الحديث (الرواة) من حيث مواليدهم ووفياتهم وأسماؤهم وأنسابهم وألقابهم وميولهم العقائدية، وأوردوا آراء العلماء الثقات فيهم تجريحاً أو تعديلاً. ومن هذه التراجم:

في الخلفاء: كتاب «أخبار الخلفاء الكبير» للمدائني البغدادي (225هـ = 839م). وكتاب «تاريخ الخلفاء» لمحمد بن حبيب النسابة البغدادي (ت 245هـ = 859م).

في الوزراء: صنّف الوزير محمد بن داود بن الجراح البغدادي (ت 296هـ = 908م) كتاب «الوزراء».

في الكتّاب والحجاب: وقد أرّخ الكتاب بدورهم لأبناء صناعتهم، فمنهم: محمد بن أحمد بن الحسين بن حرون البغدادي (من مطالع القرن الرابع الهجري)، له كتاب «الكتّاب».

القضاة: أقدم من صنّف في أخبارهم: أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري نزيل بغداد (ت208هـ = 823م) في كتابه «قضاة البصرة».

الفقهاء: وفي أخبار الفقهاء (عامة) صنّف كل من الواقدي نزيل بغداد (توفى 207هـ = 822م)، والهيثم بن عدي الكوفي البغدادي (ت 206هـ = 821م).

وفي تراجم النحاة واللغويين: مصنّفات كثيرة كتبها في الغالب علماء النحو واللغة أنفسهم، وبذلك أرّخوا لرجال صنعتهم، ومنها: «طبقات النحويين البصريين وأخبارهم» لمحمد بن يزيد المبرد البصري نزيل بغداد (ت285هـ = 898م) [680].

– التاريخ في الأندلس:

1– التأليف في السيرة النبوية:

شارك الأندلسيون في كتابة السيرة النبوية منذ وقت مبكر، وأول نموذج تقدمه الثقافة الأندلسية في هذا الباب هو الفقيه عبد الملك بن حبيب الإلبيري (توفي 238هـ = 852م)، فقد أفرد كتاباً في «مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم»، و القيمة العظمى لهذا الكتاب تكمن في توجيه أنظار مواطنيه الأندلسيين إلى الاهتمام بالسيرة النبوية وتتبع أخبارها عن المحدثين والمؤرخين الثقات في المشرق، والإنصاف يقتضينا أن نعترف لابن حبيب بأنه صاحب هذه البذرة الأولى في عناية الأندلسيين العلمية بهذا الموضوع حتى قدرت لهم فيه بعد ذلك درجة عالية من التميز والإجادة.

والبداية الحقيقية التي تتسم بكثير من الدقة والمنهجية العلمية في دراسة السيرة وتصنيفها بالأندلس كانت بعد مرور القرن الرابع الهجري، وكان ذلك مرتبطاً بحركة التجديد التي قام بها عدد من الفقهاء والمحدثين الأندلسيين في مجال الفقه والحديث النبوي، وفي مقدمتهم بقي بن مخلد (توفي 276هـ = 889م) ومحمد ابن وضاح (توفي 287هـ = 900م). وما إن أظل القرن الخامس الهجري – عصر الازدهار العلمي في الأندلس – حتى نشطت ظاهرة التأليف وغزر الإنتاج العلمي في جوانب المعرفة، وقد ازدان هذا القرن بجهود رائعة في كتابة السيرة لاثنين من كبار علماء الأندلس متعاصرين ومتقاربين في الاتجاه العلمي وهما ابن حزم وابن عبد البر.

أما الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (توفي 456هـ = 1063م) فقد صنف كتاب (جوامع السيرة)، ويسميه الذهبي «السيرة النبوية» وهو كتاب كبير يضم كل ما يتصل بتاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم – وقد خص ابن

حزم «حجة الوداع» بكتاب كبير جمع فيه بين الحديث والتاريخ في تناسق وانسجام، وضم سرداً وتمحيصاً لكل القضايا المتصلة بهذا الحديث. وكانت السيرة التي كتبها ابن حزم خاضعة لمنهجه النقدي، فجاءت مجردة من الأشعار والقصص، محررة في ضوء المذهب الظاهري الذي يدين به وينتصر له.

وفي القرن السادس الهجري يطالعنا الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي (توفي 581هـ = 1185م)، وهو من أعظم أعلام الأندلس في ميدان الكتابة حول السيرة النبوية، له فيها الكتاب المشهور بـ«الروض الأنف والمشرع الروي في تفسير ما اشتمل عليه كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتوى» في شرح سيرة ابن إسحق بتهذيب ابن هشام، وهو أشبه بموسوعة ضخمة فيها من كل علم نصيب ويدل على رسوخ قدم السهيلي في كل ما عالجه من مباحث.

ومن أفضل كتب السيرة التي تمثل درجة عالية من النضج في التآليف الأندلسية حول هذا الموضوع كتابه «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء» (في أربع مجلدات) للعالم المجاهد الشهيد أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري البلنسي المعروف بالكلاعي (توفي 634هـ = 1236م)، ويبدو من عنوان الكتاب التركيز على جانب الجهاد في سبيل الله في سيرة الرسول الكريم وخلفائه واستخلاص العبرة من قدوتهم الحسنة، وجاء تأليفه لتأصيل هذه المعاني في فترة اشتدت فيها وطأة الصراع بين الإسلام والمسيحية على أرض الأندلس[681].

2- التاريخ العام للأندلس:

وقد صنف ابن حيان مروان بن حيان بن خلف القرطبي (توفي 469 هـ = 1076م) في تاريخ الأندلس العام كتابين كبيرين:

الكتاب الأول: المقتبس في تاريخ الأندلس أو «المقتبس في أبناء أهل الأندلس» الذي لم يصلنا كله. ذكره ابن حزم من بين الكتب التي افتخر بها في رسالته عن فضل

الأندلس، وذكر أنه يقع في عشرة أسفار وقال عنه إنه: «من أجل كتاب ألف في هذا المعنى» – أي في التاريخ الأندلسي –. وهذا الكتاب (المقتبس) يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي (سنة 91هـ = 711م) إلى نهاية خلافة الحكم المستنصر (50-366هـ) على وجه التقريب.

وفيما يتعلق بمنهجه في «المقتبس» كان ابن حيان يستعين بكل المناهج التي استخدمها المؤرخون من قبله، المشارقة منهم والأندلسيون، ففيه النظرة الشاملة إلى كل أمير، وفيه التاريخ الداخلي الذي لا يقتصر على كبريات الأحداث السياسية والعسكرية المرتبطة بالحكم، وإنما يلقي ضوءاً على حياه الشعوب العامة والخاصة، وعلى أحواله الاجتماعية والاقتصادية، وفيه التاريخ الثقافي والفكري وفيه سرد الأحداث بترتيب السنين، وفي التراجم المفصلة لرجالات الدولة طبقاتها من حجاب ووزراء وكتاب وقضاة، فضلاً عن أن فيه فصولاً لتراجم العلماء من كل صنف وكان من المرونة بحيث يستخدم كل حقبة ما يلائمها. وجماع القول أن طريقة ابن حيان في تأليف «المقتبس» عبارة عن مزيج من طريقة الفصول وطريقة الحوليات، ويتخلل ذلك في أحيان كثيرة الحديث عن الشخصيات الهامة، وتعلق طريقة الحوليات بالأخص بالغزوات والحوادث العسكرية، وإبراز فضائلها أو خصائصها.

والكتاب الثاني: «المتين». وهو الذي وصفه ابن سعيد في تذييله على رسالة «فضل الأندلس» لابن حزم – الواردة في «نفح الطيب» بأنه الكتاب الذي يذكر ابن حيان فيه أخبار – عصر الطوائف ويمعن فيه مما شاهده، كان يتألف من ستين مجلدة. وقد ضاع هذا الكتاب، ولكن وردت في كتب المؤلفين التالين لعصر ابن حيان نقول كثيرة منه، أهمها وأوفرها ما في كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني» (توفي 542هـ = 1147م). حتى إنه لو استخرجت تلك النقول من مختلف أقسام «الذخيرة» ومن بعض المراجع الأندلسية الأخرى – لأمكن إعادة بناء قطعة جيدة من كتاب «المتين». وقد رجح الباحثون أن هذا الكتاب يبدأ

بأحداث الفتنة البربرية التي بدأت في قرطبة سنة (399هـ = 1008م) وينتهي في حدود سنة (463هـ = 1071م) لأن هذا هو التاريخ الذي تنقطع عنده الأحداث تبعاً لإشارة وردت لابن بسام في كتاب «الذخيرة». ومن ثم فإن ابن حيان يؤرخ في هذا الكتاب أربعة وستين عاماً عاصر أحداثها بنفسه، ومعظمها يندرج فيما يسمى بعصر ملوك الطوائف[682].

3- التأريخ للدول والأسر الحاكمة بالأندلس:

بعد انفراط عقد الخلافة الأموية بالأندلس وقيام دول الطوائف ظهر اتجاه آخر من الاتجاهات التأريخية، وهو التأريخ للأسر الحاكمة والدول المستقلة. وقد حظي هذا النوع من التأليف بعناية بعض المؤرخين الأندلسيين. وإذا كان كتاب «أخبار الدولة العامرية» لأبي مروان بن حيان من أفضل الكتب الأندلسية التي تندرج تحت هذا الاتجاه، فإن البعض سبق إلى ذلك، فقد صنف محمد بن عبد الرحمن اللغوي (توفي 423هـ = 1031م)، كتاب في تاريخ الدولة العامرية، وصنف في الموضوع نفسه الحسين بن عاصم (توفي 449هـ = 1058م)، له كتاب «المآثر العامرية» في سيرة المنصور بن أبي عامر وغزواته وأوقاتها، وكان هذا الكتاب محل افتخار الأندلسيين.

وفي تاريخ بني عباد أصحاب إشبيلية ألف محمد بن يوسف الشلبي (عاش بين القرنين الخامس والسادس الهجري)، وعندما خلع المرابطون عبد الله بن بلكين (حفيد باديس ابن زيري) عن السلطة في غرناطة ونفوه إلى المغرب عكف على تدوين هذه النكبة في كتاب بعنوان «التبيان عن الحادثة الكائنة في غرناطة»، سجل فيه تاريخ بني زيري في الأندلس تسجيلاً فريداً صادراً عن رجل منهم، وأورد فيه من الملاحظات الدقيقة ما يندر وجوده عن بني زيري في أثر آخر من آثار التاريخ الإسلامي.

وفي تاريخ المرابطين صنف يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المعروف بابن الصيرفي (توفي 557هـ = 1161م) كتاب «الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية»، وأخيراً صنف لسان الدين بن الخطيب – صاحب كتاب (الإحاطة)

– (توفي 776هـ = 1374م) كتاباً في تاريخ بني نصر آخر ملوك الأندلس في غرناطة، وسماه «اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، وله أيضاً كتاب «طرف العصر في دولة بني نصر» في ثلاث مجلدات. وصنف (أرجوزة) في تاريخ الدولة الإسلامية عامة بعنوان «رقم الحلل في نظم الدول» وأهداها إلى سلطان المغرب أبي سليم إبراهيم المريني (760- 762هـ = 1359- 1361م) [683].

4- التأريخ للمشرق:

تعرض الأندلسيون لكتابة التاريخ المشرقي؛ فبعضهم تناول فرعاً من فروع التاريخ المشرقي وأفردوا له كتباً على حده، كالسيرة النبوية أو الأنساب أو تراجم رواة الحديث.

وبعضهم تناول التاريخ العام للمشرق جنباً إلى جنب مع التاريخ الأندلسي العام، كما فعل عبد الملك بن حبيب الإلبيري القرطبي (توفي 238هـ = 852م) وعريب بن سعيد القرطبي (توفي حوالي 370هـ = 980م) الذي اختصر تاريخ الطبري، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس إلى عصره. وهناك مجموعة من كتب التاريخ التي صنفها الأندلسيون لا يعرف على وجه الدقة أنها ضمت إلى جانب التاريخ الأندلسي أحداث التاريخ المشرقي، وبعضها ضم تاريخ الإسلام، ونذكر من هذه المؤلفات على سبيل التمثيل:

«التاريخ الكبير» لمسلمة بن القاسم بن إبراهيم القرطبي (توفي 353هـ = 964م). كان عالماً مشاركاً في بعض العلوم، رحل إلى مصر والحجاز والعراق، ثم رجع إلى بلده وتوفي بها.

«التاريخ الكبير» لعبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد القرطبي (توفي 393هـ = 1002م).

«تاريخ الإسلام» لأبي عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي (توفي 488هـ = 1095م)، استوطن بغداد، وتوفي بها، وهو صاحب «جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس».

«جامع أخبار الأمم» للقاضي أبي القسم صاعد بن أحمد الطليطلي (توفي 462هـ = 1070م) [684].

5- التأريخ للمدن الأندلسية:

«المعارف في أخبار كورة إلبيرة وأهلها وفوائدها وأقاليمها» لأبي عبد الرحمن مطرف بن عيسى الغساني الغرناطي (توفي 377هـ = 987م). ألفه للحكم المستنصر (350- 366هـ)، ووصفه ابن بشكوال بأنه «كتاب حسن ممتع جداً».

«أخبار ريه وحصونها وولاتها وحروبها وفقهائها وشعرائها» لإسحق بن سلمة بن إسحق القيبني (توفي 320هـ = 932م) وهذا الكتاب يقع في أجزاء كثيرة وعده ابن حزم من مفاخر الأندلسيين.

«الإحاطة في أخبار غرناطة» - لسان الدين بن الخطيب (توفي 776هـ = 1374م) وهو من أهم الكتب الأندلسية في حقل الدراسات التاريخية، وقد حرص مؤلفه – على عادة الأندلسيين في التقديم للتاريخ بالجغرافيا – أن يورد في مقدمته وصفاً مطولاً للمنطقة التي شملها سلطان مملكة غرناطة. وقد سبق ابن الخطيب إلى صفة غرناطة والتأريخ لها ابن المواعيني: محمد بن إبراهيم بن خيره (توفي 564هـ = 1168م) وأبو القاسم محمد بن عبد الواحد بن إبراهيم الغافقي المعروف بالملاحي – نسبة إلى الملاحة: قرية جنوبي غرب غرناطة – (توفي 619هـ = 1222م) في مقدمة كتابه «تاريخ علماء إلبيرة». وإلبيرة كانت العاصمة القديمة للكورة التي سميت بعد بغرناطة. وهذا الكتاب الأخير كان اعتماد ابن الخطيب عليه كبيراً [685].

وأبرز عالمين أندلسيين متعاصرين صنفا في علم الأنساب خلال القرن الخامس الهجري هما ابن حزم وابن عبد البر القرطبين، وكلاهما إمام في هذا الفن.

أما ابن حزم (توفي 456هـ = 1063م) فله كتاب «جمهرة أنساب العرب»، وهو كتاب حظي بشهرة واسعة في الفكر التاريخي الإسلامي، وتغلب فيه النزعة التاريخية وتمتزج امتزاجاً كاملاً بالأنساب، بحيث يبدو لنا النسب علماً غير جاف، ونستطيع أن نستخرج من «الجمهرة» فصولاً تاريخية كاملة، وكان هذا الكتاب مرجعاً مهماً لبعض المؤرخين الأندلسيين كابن الأبار في (الحلة السيراء).

وأما ابن عبد البر (توفي 463هـ = 1070م) فله في ذلك كتاب «الإنباه على قبائل الرواه» جعله مدخلاً لكتابه «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، إيثاراً للاختصار وعدم التطويل في (الاستيعاب)، وقال عنه: «وجعلته دليلاً على أصول الأنساب، ومدخلاً إلى كتابي في الصحابة ليكون عوناً للناظرين فيه». وصنف أيضاً كتاباً آخر في الأنساب سماه «القصد والأمم في نسب العرب والعجم»[686].

6- السلسلة الأندلسية في تراجم الأندلسيين:

وقد صنف عدد من علماء الأندلس متعاقبين سلسلة أندلسية متصلة وشاملة لسيرة علماء الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب والشعر ورجال الإدارة والسياسة. وتبدأ هذه السلسلة بكتاب (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس) للحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي القرطبي المعروف بابن الفرضي (توفي 403هـ = 1012م)، جمع فيه ابن الفرضي – على حد تعبيره – «ما لم يقيد في كتاب ألف في معناه في الأندلس قبله».

وقد كان في عزم ابن الفرضي أن يؤلف كتاباً يرتبه على المدن الأندلسية، ويشتمل على كثير من الأخبار، غير أن العوائق عاقته عن بلوغ هذه الغاية، فألف كتابه المذكور، وتحرى فيه الاختصار، واعتمد فيه على عدد من مؤرخي الأندلس ممن صنف في تراجم الأندلسيين، كأبي القاسم خالد بن سعد القرطبي (توفي 352هـ = 963م) في كتاب له عن (رجال الأندلس) وابن عبد البر القرطبي (توفي 463هـ = 1070م) وأحمد بن محمد بن موسى الرازي القرطبي (توفي 344هـ = 955م)

وغيرهم، إضافة إلى مشاهداته ورواياته التي استقاها من شيوخه، ومصادره الشفوية، وكانت خطته «ذكر أسماء الرجال وكناهم وأنسابهم، ومن كان يغلب عليه حفظ الرأي منهم، ومن كان الحديث والرواية أملك به وأغلب عليه، ومن كانت له إلى المشرق رحلة، وعمن روى؟، ومن لقي؟، ومن بلغ منهم مبلغ الأخذ عنه، ومن كان يشاور في الأحكام، ومن ولي منهم خطة القضاء».

والكتاب الثاني في هذه السلسلة هو كتاب «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم» لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال الأنصاري القرطبي (توفي 578هـ = 1182م)، وهو ذيل على كتاب ابن الفرضي ابتدأه من حيث انتهى، ويسير فيه على خطته ومنهجه. ويعد من أفضل كتبه الخمسين التي ألفها في علوم مختلفة، بل هو أفضلها، وكما يقول ابن الأبار: «لا يستغني أهل الفقه عن النظر فيه والاحتجاج منه». ويقول أيضاً: «سلم له أكفاؤه كفايته فيه، و لم ينازعه أهل صناعته الانفراد به،... وهو كتاب في فنه خطير القيمة ضروري الاستعمال»[687].

7- تراجم الطبقات:

أمثلة هذه الكتب: كتاب «أخبار الفقهاء بالأندلس» لمحمد بن حارث الخشني القرطبي (توفي 361هـ = 971م) ويسمى أيضاً «أخبار الفقهاء والمحدثين» أو «تاريخ علماء الأندلس». ولعل التسمية الأولى هي الأوفق لمضمون الكتاب؛ فالنظرة الفاحصة المتأملة في تراجم هذا الكتاب ككل تشير بوضوح إلى غلبة الاهتمام بالفقهاء وكثرة تراجمهم بالنسبة إلى المحدثين.

ومنها ما يتخصص في فقهاء مدينة أندلسية معينة، مثل كتاب «فقهاء قرطبة» لأبي عبد الملك أحمد بن محمد بن عبد البر (توفي 338هـ = 949م).

ومنها ما تتناول فقهاء مذهب معين فتعرض لطبقات فقهاء المذهب أو مشاهيرهم من الأندلسين والمشارقة، أو تقتصر على الفقهاء المؤسسين للمذاهب، ومن

ذلك: كتاب «طبقات فقهاء المالكية» لأبي عبد الله محمد بن حارث الخشني القرطبي (توفي 361هـ = 971م)[688].

وفي طبقات النحويين واللغويين شارك الأندلسيون بعدد من الكتب، أهمها «طبقات النحويين واللغويين» لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي نزيل قرطبة (توفي 380هـ = 990م).

وقد كثر التصنيف في طبقات الشعراء الأندلسيين عامة أو شعراء مدينة أندلسية معينة، أو الشعراء من الخلفاء أو الأمراء أو الفقهاء. ومن أوائل المصنفين في هذا الباب: عثمان بن ربيعة الأندلسي (توفي 310هـ = 922م). وعثمان بن سعيد الكناني القرطبي – من أهل جيان – (توفي 320هـ = 932م). وأبو عبد الله محمد بن عبد الرؤوف بن عبد الحميد الأزدي المعروف بابن خنيس (توفي 343هـ = 954م)[689].

«طبقات الأطباء والحكماء». لأبي داود سليمان بن حيان القرطبي المعروف بابن جلجل (كان حياً وقت تأليف كتابه (377هـ = 987م).

في تراجم الخلفاء والأمراء: صنف أبو الوليد أحمد بن محمد بن أحمد بن زيدون القرطبي (توفي 463هـ = 1070م) كتاباً بعنوان «التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس»، وهو من الكتب التي يفتخر بها الأندلسيون في مجال الدراسات التاريخية، وقد حاكي فيه مؤلفه كتاباً للمؤرخ البغدادي على بن الحسين المسعودي (توفي 345هـ = 956م) المسمى «التعيين للخلفاء الماضيين» يعني خلفاء المشرق[690].

الفصل الرابع
العلوم التطبيقية

لا بد أن أُشير إلى أنني سأتناول هذه العلوم من خلال العلماء الأعلام، فهـذه أفضل طريقة – كما أرى – لبحث العلوم التطبيقية.

أولاً– العلوم الطبية:

1– أبو بكر الرازي:

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، المعروف عند الغربيين باسم رازيس.

ولد في مدينة الري جنوب غرب طهران عام 250 هـ، أو 251 هـ = 864 أو 865م، وتوفي عام 313هـ = 925م، وقيل 311 هـ = 923م، وقيل 320هـ = 932م.

قضى حياته في بغداد.

والغريب ـ مع إبداع الرازي بالطب ـ أنه لم يُقبل على دراسة العلوم الطبية إلا بعد سن الأربعين، وعوض ذلك بقراءة أمهات الكتب الطبية المعروفة، وخاصة مؤلفات أبقراط وجالينوس(691).

عمي الرازي في أواخر حياته بعد أن ضحى بطبه في سبيل الإنسانية، حيث ذُكر في سبب فقده لبصره عكوفه على تجاربه الكيميائية في معمله، كما كان يكثر من القراءة ليلاً وخاصة عند النوم، ولهذا كان يفضل النوم على ظهره، حتى إذا أخذته سنة من النوم وهو يقرأ سقط الكتاب على وجهه واستيقظ ليواصل القراءة(692).

ـ الحاوي في الطب:

صنف الرازي حوالي مئتي مصنف في الطب والفلسفة والكيمياء والأدب، منها ستة وخمسون مصنفاً في علم الطب حصراً، ولا تزال مكتبات أوروبا تفخر باقتناء

مؤلفاته، ولا زالت جامعة برنستون الأمريكية تحتفظ حتى الآن بكتبه ومآثره في قاعة من أفخم قاعاتها وأُطلق عليها اسمه، وأما أهم مؤلفاته على الإطلاق فهو الحاوي في الطب:

ويقع في ثلاثين مجلداً وسماه كذلك لأنه جمع بين دفتيه المعلومات الطبية التي حصل عليها من خلال ممارسته للطب، بالإضافة لمعلومات الأطباء الأقدمين والمعاصرين له إلى درجة يمكن القول معها أن هذا الكتاب يشكل موسوعة طبية كاملة.

ويزيد من أهميته أن الرازي نسب كل شيء إلى قائله، مما يدل على أمانة علمية كاملة أعطت الكتاب مصداقية إضافية، وظل هذا الكتاب طيلة ستمئة وخمسين عاماً تقريباً السفر الوحيد في مكتبة كلية الطب في باريس، ولذلك سمّاه بعض المؤرخين (أصغر مكتبة في العالم)، كما ظل المرجع الأساسي في معاهد أوروبة الطبية لمدة فاقت 400 سنة، وقد تمت ترجمته إلى اللغة اللاتينية على يد المترجم اليهودي فرج بن سالم، وبعد اختراع الطباعة تم طبعه في مجلدين باللغة اللاتينية أيضاً، وأخيراً تمت ترجمته عام 1921م = 1340هـ إلى اللغة الإنكليزية على يد أحد الباحثين ويدعى براون.

واحتوى هذا الكتاب على اثنين وعشرين قسماً هي:

علاج المرضى، الأمراض، حفظ الصحة، الرقبة والجبر والجراحات، الأدوية، التشريح، الأدوية المركبة، صناعة الطب، الأبدان، التشريح، مقاطع الأعضاء.

أما قصة ظهور هذا الكتاب فتشير إلى أن الرازي توفي قبل أن ينقح مجلدات كتابه التي دونها، فطلبه أحد العلماء من أخت الرازي التي أظهرت له مسودات الكتاب، فعرضه على تلاميذ الرازي، فرتبوا الكتاب ما استطاعوا، ثم ترجمه إلى اللاتينية فرج ابن سالم للملك شارل دانجو، وقد أمضى في ترجمته حياته كلها، وانتهى منه عام 1279م = 678هـ، وطبع في بريشيا في شمال إيطاليا عام 1486م =

892هـ، وهو أضخم الكتب التي طبعت بعد اختراع المطبعة مباشرة، ثم طبع مراراً في القرن السادس عشر الميلادي = العاشر الهجري[693].

– أوائل و إبداعات الرازي:

الدواء المضاد للجراثيم: ابتكر الرازي طريقة تحضير الكحول الجيدة من المواد النشوية والسكرية المتخمرة، كدواء لمعالجة الجروح المتعفنة، أي الدواء المبيد للجراثيم(Antibiotic)، وقد سلب الغرب (أو حاول) هذا الحق من الرازي ونسبوه إلى عالمين منهم هما: لويس باستور، وجوليس جوبرت، اللذان عاشا في القرن التاسع عشر، أي بما لا يقل عن ألف عام بعد الرازي، ومن لم يؤمن من فريق آخر من علماء الغرب المتخصصين بأسبقية باستور وجوبرت ذهب إلى أن هذا الدواء لم يستعمل قبل عام 1928م = 1347هـ، ولا يكتفي هؤلاء الغربيون بهذا القدر، بل إن بعضهم يدعي تجنياً أن أبا بكر الرازي كان متأثراً كثيراً بآراء أرسطو وسقراط، وأنه كان من المتطرفين الإسلاميين.

وذهب غير هؤلاء الغربيين أبعد من ذلك بكثير، حيث جهدوا في طمس اسم الرازي نهائياً، وهذا الكلام ليس تجنياً أو مبالغة أو تهويلاً منا نبتغي به الرفع من شأن عالمنا، بل هو كلام أقر به كبير مؤرخي العلوم في الغرب الأستاذ جورج سارتون، حينما قال بكل جرأة ومصداقية: «حاول كثير من العلماء في العالم وما زالوا يحاولون طمس اسم أبي بكر الرازي ومحوه من ميدان الطب، ولكن هذا مستحيل مادام فن الطب باقياً وآخذاً في التطور » [694].

هو أول طبيب فرّق بين مرض الجدري ومرض الحصبة، والحمى العادية، وكانت نظريته في ذلك أول دراسة في هذا المجال.

عُدّ من خلال كتابه (الجدري والحصبة) أول من وصف هذين المرضين وصفاً دقيقاً واضحاً مميزاً ومنطبقاً على المعلومات الحديثة.

اعتنى الرازي بالتشريح، فكان أول من ميّز العصب الحنجري من الأصل الذي هو مضاعف في الجهة اليمنى.

هو أول من أوصى باستجواب المريض واستقصاء سوابق المرض البعيدة والمباشرة، ثم تسجيل نتائج هذا الاستجواب والملاحظات الخاصة بكل حالة مرضية على حدة، وهو ما يسمى اليوم « نظام البطاقة الطبية » أو « الملف الطبي».

هو أول من أوصى باستخدام ما يسمى اليوم « التشخيص بالعلاج » كما هو موضح في كتابه « القولنج».

اهتم بدراسة المراهم اهتماماً بالغاً، وهو أول من أدخل إليها الزئبق، وقام بتجربته المشهورة عندما خلط الزئبق بالمراهم وجرب ذلك على القردة أولاً.

اهتم الرازي بالتجربة، وقام بنفسه ببعض التجارب على الحيوانات، والقرود، فكان يعطي الحيوان الدواء ويلاحظ تأثيره فيه، فإن نجح طبق تجربته على الإنسان، وقد أدرك الأطباء اليوم هذه الأهمية في إجراء التجارب العملية على الحيوان.

اخترع الرازي الفتيلة في العمليات الجراحية وأكثر من استعمالها.

وصف الطاعون، وما يُسمى اليوم «حمى الدرس».

أشار إلى استعمال أمعاء الحيوانات ــ التي كانت تستخدم كأوتار للآلات الموسيقية حتى ذلك الوقت ــ في خياطة الجروح.

ساهم في طب العيون، فدرس أمراضها، وكان مجدداً في هذا النوع من الطب، حيث وصف جراحة معينة لاستخراج الماء الأزرق من العين، كما تطرق إلى فيزيولوجيا النظر، وصنف أمراض القرنية بشكل يختلف عن سابقيه، وتعرض لأخطار استعمال المخدرات في طب العين دونما أصول.

اعتمد طريقة الاستعانة بإجراء بعض التحاليل المخبرية في سبيل تشخيص المرض، ومن ذلك تحليل البول، وهو ما كان يسميه (فحص القارورة)، ولكنّه حذر من المبالغة في الاعتماد على ذلك. (695).

2- أبو القاسم الزهراوي:

خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي.

ولد في الزهراء قرب قرطبة، وإليها نسبته، وذلك في عام 308 هـ = 920م، وقيل 324 هـ = 936م.

نشأ الزهراوي في الزهراء، ودرس الطب على علمائها حتى أصبح طبيب الحكم الثاني الذي اشتهر عصره بالازدهار.

توفي عام 404 هـ = 1013م، وقد أجمع النسابة على أن الزهراوي ينتمي إلى الأنصار أي إلى المدينة المنورة[696].

ـ كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف»:

ترك لنا الزهراوي كتاباً واحداً هو « التصريف لمن عجز عن التأليف »، والذي يعد موسوعة طبية، وهو أول كتاب يتناول موضوع الجراحة بشكل يقبله العقل، مع توضيح بالرسوم والأدوات، أو الحدايد كما يسميها الزهراوي، وهذه الموسوعة الطبية من أروع ما كُتب في تاريخ العلوم الطبية الإسلامية، وأصبح الزهراوي من خلالها أستاذ أطباء أوروبا، وظل هذا الكتاب هو المصدر المعتمد للطب في كل أوروبا وفي كل العالم، لسهولة الأسلوب وكثرة الرسوم للآلات الجراحية.

يتألف هذا الكتاب من ثلاثين جزءاً، وكل جزء يمكن أن يشكل كتاباً مستقلاً بحد ذاته، وأهم هذه الأجزاء الجزء الأول والثاني والثامن والعشرون، وهذا الجزء الأخير هو الذي يبحث في الجراحة، أما الأجزاء من ثلاثة حتى الجزء الخامس والعشرين فيتحدث فيها الزهراوي عن الأدوية وتركيبها بمعرفة وإسهاب جعلا البعض يطلق عليه صفة « الجراح الصيدلي» عن جداره واستحقاق، وقد تمت ترجمة الجزء الثامن والعشرين من هذا الكتاب من قبل جيرار الكريموني في مدينة طليطلة خلال القرن الثاني عشر الميلادي = السادس الهجري، كما تمت ترجمته للغة العبرية من قبل الحاخام شيم توف، ثم تمت ترجمة الكتاب كاملاً إلى اللغة اللاتينية تحت عنوان «

كتاب الزهراوي » فأصبحت هذه الترجمة المرجع الأساسي للطب والجراحة في الجامعات الأوروبية خلال عدة قرون.

وزادت شهرة الزهراوي في أوروبا بعد طبع كتابه في مدينة البندقية عام 1471م = 876هـ، وكانت آخر طبعة بالإنكليزية له عام 1778م = 1192هـ، في مدينة أكسفورد.

وتنصب الدراسات الحديثة اليوم على الجزء المتعلق بالجراحة من هذا الكتاب، ومن تلك الدراسات الدراسة التي نشرها قبل قرن ونيف الطبيب الفرنسي لوسيان لوكليرك تحت عنوان: «الجراحة عند الزهراوي»، ويصف هذا الطبيب كتاب التصريف بقوله: « إن مؤلف أبي القاسم سيبقى في تاريخ الطب كأول محاولة للنظر إلى علم الجراحة كعلم مستقل يستند إلى معرفة التشريح، وإن الرسوم التي تزينه هي تجديد موفق وناجح أمّن له نوعاً من الخلود في الذاكرة ».

ومن الدراسات الإنكليزية لهذا الكتاب دراسة الدكتور سبينك تحت عنوان: «الجراحة والآلات الجراحية عند الزهراوي ».

والمثير للحزن أننا لا نملك المخطوطات الأصلية لكتاب التصريف، وإنما توجد منه كنسخ أصلية مخطوطة في كل من مكتبة البودليانا في بريطانيا، ومخطوطة في دير الاسكوريال في إسبانيا، والأجزاء الأول والثاني والثامن عشر حتى الثلاثين في المكتبة الوطنية بباريس[697].

– أوائل و إبداعات الزهراوي:

الزهراوي هو أول من أسس علم الجراحة في العالم، وهو أول من مارسه من بين الأطباء، وأجرى عمليات جراحية أحجم غيره عن ممارستها، وهو أول من نقل الجراحة من مجال الصنعة المهنية إلى مجال العلم التخصصي، لذا فهو يستحق بكل ثقة لقب « مؤسس علم الجراحة »، وقد نُسب هذا السبق ظلماً إلى العالم الفرنسي (أمبرواز باريه) الذي جاء وادعى ذلك بعد أربعة قرون من عصر الزهراوي[698].

هو أول من ألّف كتاباً في الجراحة بوصفها علماً مستقلاً هو « التصريف لمن عجز عن التأليف ».

هو أول من أجرى عملية الحصاة.

أول من نجح في عملية فتح الحنجرة.

هو أول من استعمل طريقة إخراج المشيمة المحبوسة بعد ولادة الجنين بالضغط على الرحم من خلال جدار البطن.

كان أول طبيب مسلم تجرأ على المناداة بأن التشريح لا يتنافى مع الدين، ولا يشكل خرقاً لحرمة الموتى، وقد مارس التشريح بنفسه واستخدم فيه الآلات الجراحية المعروفة في زمنه، كما اخترع بعضها، ووضع في كتابه التصريف رسوماً لهذه الآلات جميعاً بلغ عددها 278 رسماً.

كان رائداً في مجال علم التخدير، وقد نصح بإعطاء الأفيون والقنب الهندي إلى المريض قبل إجراء العمل الجراحي عليه.

كان رائداً في معالجة تشوهات الفم والفك والأسنان المتخلخلة، أو التي تزعزعت بضربة قاسية عليها، واستخدم عظام الثيران لصنع طقوم الأسنان.

هو أول من وصف عملية القثطرة، وهو صاحب فكرتها الأولى وابتكار أدواتها.

ويعد أول من أجرى عملية لشق القصبة الهوائية، والتي أحجم عن إجرائها أطباء كثيرون قبله كابن سينا والرازي، أجراها على خادمة ونجح فيها.

برع الزهراوي في علاج المسالك البولية، وتفتيت حصاة المثانة بواسطة أدوات وآلات من تصميمه.

نجح في علاج الشلل الناشئ عن كسر فقرات الظهر.

استعمل الحرير على هيئة خيوط للربط في العمليات الجراحية.

استخدم المحقنة المعدنية لزرق المحاليل الطبية في المثانة.

استعمل آلة ضاغطة للسان، لكبسه أثناء إجراء عملية اللوزتين.

3- ابـــن سيـــنا:

أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي البخاري.

ولد عام 370هـــ = 980م في أفشنة، وهي قرية مشـــهورة مـــن قـــرى بخارى، توفي في همذان عام 428 هـــ = 1037م، ولا يزال قبره فيها حتى اليوم.

ومما يدل على عبقرية ابن سينا النقاط التالية:

حفظه للقرآن وإجادته للغة العربية في سن العاشرة.

نبوغه وإتقانه للطب والفلسفة والكيمياء والموسيقى في سن السادسة عشرة.

تفوقه على أستاذه في الطب (أبي سهل المصيبي) و لم يكن قد بلغ سن العشرين.

بدؤه التأليف في الواحدة والعشرين من العمر.

ثم أتيحت له فرصة ذهبية عندما استُدعي لمعالجة سلطان بخارى، حيث وضـــع السلطان مكتبته تحت تصرفه لكي ينهل من علومها ما يشاء.

ونال ابن سينا في حياته وبعد موته شهرة لم ينلها طبيب غيره، ولذلك كثرت ألقابه التي لُقب بها، فعرف بالشيخ الرئيس، والمعلم الثالث بعد أرســـطو والفـــارابي، ومصدر التأسيس، وشرف الملك، وحجة الحق، والدســـتور، وأرســـطو الإســـلام وأبقراطه، والحكيم الوزير، وفيلسوف الدهر.

وأهميته هذه في الفكر الإنساني جعلت الجنسيات المختلفة تتجاذب شخصيته، فالفرس عدوه فارسياً، والأتراك عدوه تركياً، والعرب عدوه عربياً، ومهما يكن فـــإن ابن سينا هو محصلة ثقافة إسلامية وعلم إسلامي نهل من معينه وأبدع.

ـــ القانون في الطب:

صنّف ابن سينا عشرات الكتب منها قرابة ستة عشر مصنفاً في الطب، وأهمها القانون في الطب:

واشتهر هذا الكتاب كثيراً ولا يزال، وامتاز بالدقة والتنظيم، وإحكام الترتيب وحسن التبويب، قسّمه ابن سينا إلى خمسة أجزاء مقسمة إلى أبـــواب، والأبـــواب مقسمة إلى مقالات، والمقالات مقسمة إلى فصول، وعالج فيه المواضيع التالية:

في الجزء الأول أفاض في الحديث عن حدود الطب، وموضـــوعاته وأركانـــه والأمزجة والأخلاط، وماهية الأعضاء وأقسامها، والعظام والعضـــلات، وتصـــنيف الأمراض وأسبابها، والطرائق العامة للعلاج.

وفي الجزء الثاني تحدث عن المفردات الطبية، فدرس ماهية الـــدواء وصـــفاته، ومفعوله على كل عضو من أعضاء الجسم، ثم سرد هذه المفردات بترتيب أبجدي.

وخصص الجزء الثالث لأمراض كل جزء من أجزاء الجسد، وتناول في الجـــزء الرابع الأمراض التي تقتصر على عضو واحد كالحميات، وعرض لـــلأورام والبثـــور والجذام والكسور والجبر.

وخصص الجزء الخامس والأخير لدراسة تركيب الأدوية[699].

وقد انتشر هذا الكتاب في جامعات أوروبا، وأقر الكثير من أطبائها بأن الطب كان ناقصاً حتى أتمه ابن سينا، وقد تمت ترجمته إلى اللغة اللاتينية منذ القـــرن الثـــاني عشر للميلاد = السادس للهجرة على يد جيرار الكريموني الذي عرف بأبي الترجمـــة والمترجمين، وقد أشار إلى قصته مع هذا الكتاب فقال: « لقد قضيت نحواً من نصف قرن في تعلم اللغة العربية، والتوفر على ترجمة نفائس المكتبة العربية، وكـــان قـــانون الشيخ الرئيس أعظم كتاب، وأعظم كتاب لاقيت في نقله مشقة وعنـــاء، وبـــذلت جهداً جباراً »[700].

ثم ترجم القانون (ألباجوس) إلى اللاتينية في القرن الثالث عشـــر للمـــيلاد = السابع للهجرة، كما تُرجم إلى اللغة العبرية خلال هذا القرن أيضاً في عـــام 1279م = 678هـــ.

وبعد اختراع المطبعة كان هذا الكتاب هو الكتاب الثاني في تاريخ طبعه بعد الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل)، حيث تم طبعه في عام 1473م = 878هـ، أي قبل انقضاء ربع قرن على اختراع الطباعة، وتم خلال القرنين من الزمان (1473ـ1665م = 878ـ1076هـ) طبع هذا الكتاب أكثر من ثلاثين مرة باللغة اللاتينية ناهيك عن اللغات الأوروبية الأخرى، ويدلل لوسيان لوكليرك أحد أهم مؤرخي علم الطب في العصر الحديث على أهمية قانون ابن سينا على الشرق والغرب بقوله: « إن الشرق لم ينقطع عن دراسة هذا الكتاب وشرحه كلياً أو جزئياً، والغرب اتخذه أساساً لتعليم الطب خلال عدة قرون وذلك بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية » (701).

– أوائل وإبداعات ابن سينا:

مرض الأنكلستوما: فابن سينا هو أول من وصف مرض الأنكلستوما، وبيّن أنه ناتج عن دودة معوية سماها الدودة المستديرة، ومع الأسف صدق الأوروبيون ما ادعاه العالم الإيطالي «دوبيني» من أنه أول من كشف هذا المرض، والحقيقة أن ابن سينا وصف هذا المرض قبل أن يعرفه دوبيني وأوروبا بنحو تسعمئة عام، وقد قام بالتحري في هذه القضية الطبيب محمد خليل عبد الخالق، عندما قام بفحص ودراسة ما جاء في كتاب «القانون» لابن سينا عن الديدان المعوية، وتبين من هذا: أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي ما نسميه الآن بالأنكلستوما، وقد أخذ جميع مؤلفي علم الطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الأخيرة، كما صدر في الآونة الأخيرة بحث رسمي عن مؤسسة روكفلر الأمريكية أثبت فيه أن مرض الأنكلستوما كان معروفاً لابن سينا، ومع ذلك أمعنت هذه المؤسسة في تعنتها ونسبت كشف هذا المرض إلى العالم الإيطالي دوبيني (702).

وهو أول من وصف الالتهاب السحائي.

وهو أول من فرّق بين الشلل الناتج عن سبب داخلي في الدماغ والناتج عن سبب خارجي.

وهو أول من أشار ضمناً إلى وجود البكتيريا والجراثيم حين قال بوجود حيوانات دقيقة لا ترى بالعين، يتناولها الإنسان مع الماء دون أن يشعر بها، وهي التي تسبب بعض الأمراض.

وهو أول من اكتشف مرض السل الرئوي، وأشار إلى أنه ينتقل بالعدوى.

وهو أول طبيب قام بحقن الدواء بالإبر تحت الجلد.

اختبر مدى قوة العقار بالتجربة عن طريق الشرج، ويقال إنه أول من استخدم الحقنة الشرجية.

وصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، فخالف بذلك الوصف اليوناني السائد آنذاك.

شخّص بدقة حصر المثانة السريرية حتى قال أحد المختصين بأنه يصعب علينا في هذه الأيام أن نضيف شيئاً جديداً إلى وصف ابن سينا لأعراض حصر المثانة السريرية.

شخّص كثيراً من الأمراض الجلدية.

درس لمدة طويلة سبب تعفن الرحم وعلاجه، وأدرك أن الحمى التي تنتاب النفساء أحياناً قد يكون سببها حدوث تعفن الرحم.

تطرق في كتابه «القانون في الطب» إلى علم التجميل، مما جعل العلماء يسمونه «رائد التجميل الإسلامي».

كان يرى أن أفضل مياه للشرب هي مياه العيون والينابيع.

أدرك أهمية الرضاعة الطبيعية بالنسبة للأم وطفلها معاً، وأوصى بوجوب تعيين مرضع للطفل في حال عدم وجود لبن كاف في صدر الأم.

استخدم طريقة تداعي الأفكار لمعالجة الأمراض النفسية[703].

4- الأهوازي:

علي بن العباس المعروف بالأهوازي، نسبة إلى مولده في مدينة الأهواز التي تقع بالقرب من جنديسابور في الجنوب الغربي من إيران.

لقّبه البعض بالمجوسي لأن عائلته كانت تعتنق الزرادشتية، أما هو فكان من أئمة الإسلام ولذلك حُذف لقب المجوسي منه اكتفاءً بالأهوازي نسبة لمسقط رأسه.

توفي عام 384 هـ = 994م.

ويذكر كثير من مؤرخي العلوم أن الأهوازي ربما يكون أول طبيب مسلم عرفه الغرب اللاتيني، واتخذوا كتاباته أساساً لدراسة الطب[704].

ـ الكامل في صناعة الطب:

وقام بإهدائه إلى سلطان الدولة آنذاك عضد الدين فناخسرو البويهي بمناسبة تدشينه البيمارستان الكبير في بغداد، ولذلك غلب على هذا الكتاب اسم «الملكي» فيما بعد، وتألف من جزأين يضم كل منهما عشر مقالات مما يجعل جملة عدد مقالاته عشرين مقالة، والمقالتان الأوليان تحويان فصولاً في التشريح ظلت المرجع الأساسي لعلم التشريح في أوروبا خلال عدة قرون، وتضمن هذا الكتاب آراء نقدية، فنقد فيه الأهوازي أبقراط وجالينوس، وأشاد بالرازي وكتابه «الحاوي»، وخصص فيه أقساماً كثيرة عن حفظ الصحة، وأعار الرياضة البدنية أهمية كبيرة فقال: « إن الرياضة من أفضل ما يستعمله الإنسان في حفظ الصحة، وأعظمها منفعة إذا كانت قبل الغذاء، وذلك أنها تقوي الأعضاء وتصلبها، وتحلل الفضول التي تبقى في الأعضاء من الغذاء، وكلما كانت الرياضة أقوى كان الهضم أجود وأسرع».

ويذكر الأهوازي دليلاً على ذلك ما يرى من صحة أبدان أصحاب الكد والتعب وقلة ما يعرض لهم من الأمراض، وهو يوحي بعدم اللجوء إلى الرياضة بعد الأكل مباشرة عندما يكون الطعام في المعدة لئلا ينحدر إلى الأمعاء قبل هضمه تماماً.

وقد نال هذا الكتاب شهرة ومصداقية لم ينلها في الغرب أي كتاب آخر قبل ذلك التاريخ، ولكن شهرته تضاءلت بعد صدور كتاب «القانون» لابن سينا على ما ذكر القفطي، الذي أجرى مقارنة بين الكتابين، حيث يقول: «والملكي في العمل أبلغ، والقانون في العلم أثبت».

وأكد كثير من علماء الطب أن هذا الكتاب تحفة نفيسة جداً، وهو بترتيبه أقرب إلى الكتب الطبية الحديثة من سواه، وأنه موسوعة طبية، يصفه الدكتور لوسيان لوكليرك بأنه « كتر طبي»، ويصف مؤلفه بأنه: «واحد من أعظم أطباء الشرق»، ويقول ليسلي ماركويز أن هذا الكتاب: « يمثل وضوح التعبير وأصالة الفكرة، وهو أفضل ما جاء في الطب الإسلامي من مؤلفات».

ولأهميته ترجمه قسطنطين، ثم أسطفان على ما ذكرنا، ثم ترجم وطبع باللغة الإنكليزية تحت

ـــ أوائل و إبداعات الأهوازي:

الشبكة الشعرية: عُدّ الأهوازي أول طبيب تحدث عن وجود شبكة شعرية من العروق النابضة (الشرايين)، ومن العروق غير النابضة (الأوردة)[705]، فقد قادته دراسته لوظيفتي الانقباض والانبساط إلى أهمية الدورة الدموية في الأوعية الشعرية، فتحدث عن وجود شبكة شعرية بين العروق النابضة وغير النابضة، أي بين الشرايين والأوردة، ونُسب هذا الإبداع إلى الطبيب وليم هارفي، وضُلل عن الأهوازي[706]، ومما قال الأهوازي في هذا الإبداع: « هناك في الأوعية غير النابضة فتحات صغيرة للاتصال بالأوعية النابضة، وللبرهان على هذا الاتصال نجد أن قطع شريان يخرج الدم كله حتى الموجود في الأوردة »[707].

وبعد دراسته للأهوازي وكتابه الكامل خلص الدكتور علي عبد الله الدفاع إلى النتيجة التالية: « نجد أن معظم نظريات ابن عباس الأهوازي سبق وأن نُسبت إلى علماء أوروبيين »[708].

هو أول من نبّه إلى صعوبة شفاء السل الرئوي بسبب حركة الرئة، فحركاتها المستمرة تمنع التحام القرحة.

أول من قال إن سبب الطلق وخروج الجنين من الرحم هو تقلصات الرحم، حيث إن الفكرة السائدة في كتب الطب اليونانية كانت تقول إن خروج الجنين من رحم أمه يتم بحركة من الجنين ذاته.

أول من أشار إلى ضرورة التدخل الجراحي في مداواة السرطان بشرط أن يتم ذلك في مرحلة مبكرة قبل استفحال المرض.

نقد من سبقه من الأطباء كجالينوس وأبقراط، وأشار إلى أخطائهم، فوصف عمل أبقراط بالموجز وبالغموض، ووصف عمل جالينوس بالتوسع والتطويل.

أعطى وصفاً دقيقاً لمرض الجدري، وكذلك لداء الجمرة الخبيثة (النار الفارسية).

اهتم بطب الأسنان اهتماماً بالغاً، فشرح شرحاً كاملاً مثلاً كسر الفك الأسفل إلى درجة أن هذه المعلومات بقيت معتمدة عبر العصور.

تكلم على تطور الجنين في رحم أمه بطريقة علمية مخبرية متطورة، أدت إلى استغراب كبير بين علماء العصر الحديث.

تكلم على السرطان في رحم المرأة وأعطى تشخيصاً علمياً ممتازاً له.

كان مفخرة لعلماء المسلمين حين قام بعملية شق وإخراج الحصاة بطريقة جراحية متطورة.

عرف الأهوازي مرض الصرع المسمى (أفيلبسيا) ووصف أسبابه بوضوح ونبوغ[709].

ثانياً – علم الفلك:

1 ــ الصوفي:

هو عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سهل الصوفي (ت 376 هـ = 986م)، أبو الحسين الرازي.

ولد في الري وعاش فيها، وعُد من أعظم فلكيّ المسلمين.

اتصل بعضد الدولة البويهي وصار منجمه، فبنى له مرصداً خاصاً به في حدائق قصره، وانقطع إليه يرصد النجوم ليلة بليلة، فتوصل إلى اكتشافات فلكية هامة لم يُسبق إليها.

اتبع الصوفي في أرصاده منهجاً علمياً دقيقاً يقوم على المشاهدة والمعاينة المباشرة والمتابعة اليومية، والتسجيل المستمر لكل ما يشاهده أو يكتشفه عن الأجرام السماوية يرسمها بالألوان ويمثلها على هيئة إنسان أو حيوان أو شيء ما [710].

– أوائل وإبداعات الصوفي:

اكتشف الصوفي السديم في السماء، والسديم أجرام سماوية متوهجة كبيرة الحجم تتكون من غازات شديدة الحرارة تدور حول نفسها، تظهر كأنها سحابة رقيقة.

حيث امتاز كتاب الصوفي (صور الكواكب الثابتة) برسومه الملونة للأبراج وبقية الصور السماوية، رسم فيه أكثر من 1000 نجمة صورها على هيئة الناس أو الحيوانات.

ومنها صورة رجل في يده اليسرى سيف، ومنها ما هو على هيئة امرأة جالسة على كرسي له قائمة كقائمة المنبر.

وهذا السديم لم تعرفه أوروبا حتى عام 1612م = 1021هـ، حين ظهر (سمعان ماريوس) وأعلن اكتشافه العظيم على العالم باكتشافه السديم الذي سبق أن ذكره الصوفي بدقة علمية كشيء مشاهد في عصره[711].

والسديم في الأصل الضباب أو السحاب الرقيق وقد أطلق على طائفة من الأجرام السماوية تشبه السحب الخفيفة في مظهرها لنا من خلال المناظير، وأول من شاهد أجراماً من هذا النوع كما قلنا المنجم المشهور عبد الرحمن الصوفي في أواسط القرن العاشر فقد شاهد ما يعرف اليوم بالسديم الأكبر في برج اندروميدا، وانتقل علمه هذا إلى الإسبان والهولنديين، وبالتالي فقد فتح الصوفي الباب لعلماء الغرب للتوسع في البحث عن السدم، وهذا ما ظهر جلياً في أبحاثهم التي ظهرت بعد الصوفي، فنجد موضع هذا السديم مدلولاً عليه بجملة نقط متقاربة في الخرائط السماوية الإسبانية والهولندية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إلا أن اكتشاف الصوفي هذا لم يكن معروفاً في أوروبا إلا إلى حد يسير ولذلك قام (سمعان ماريوس) باكتشاف السديم نفسه مرة أخرى عام 1612م = 1021هـ ووصف مظهره بأنه يشبه ضوء شمعة خلال قطعة من عظم القرن[712].

توصل الصوفي أثناء مراقبتة لحركة دائرة البروج في السماء ودراسة حركة ما يسمى بالإعتدالين إلى أنها تتحرك درجة واحدة كل 66 سنة، وكانت حسابات بطليموس كل 100 سنة، وعلى الحسابات الحديثة كل 71 سنة، أي أن الفارق بين الصوفي والمراصد الحديثة العملاقة بأدواتها لا يتجاوز الخمس سنوات.

ورسم الصوفي خريطةً للسماء بدقة فائقة حسب مواضع النجوم وأحجامها مقدراً إشعاع كل منها، فتبين فيما بعد أن تقديره متوافق تماماً مع قانون العالم (فخر).

وهو أول من وضع جداول دقيقة للنجوم الثابتة، وعلل الصوفي استخدام منجمي العرب لمنازل القمر باعتمادهم على الشهر القمري، وقال: « إن كثيرين يحسبون عدد النجوم الثابتة 1025، والحقيقة أن عدد النجوم الظاهرة أكثر من ذلك، والنجوم الخفية أكثر من أن تحصى، وعدّ 1022 من النجوم، 360 منها في الصور الشمالية، و 346 في دائرة البروج، و316 في الصور الجنوبية.

وامتازت أرصاد الصوفي في أنه لم يذكر لون الشعرى مع أن بطليموس وغـــيره قالوا إن لونها ضارب إلى الحمرة، فكأن احمرارها قد زال في أيامه، وصار لونها كمـــا هو الآن، وهذا ما أثبته المختصون الذين بينوا أن لون الشعرى كان أحمر في الأزمنـــة الغابرة[713].

لقد شهد علماء الغرب بعبقرية الصوفي، وامتدحوا إبداعاته ومؤلفاته، ومنـــهم جورج سارتون الذي قال: « إن كتاب الصوفي في الكواكب الثابتة أحد الكتـــب الرئيسة الثلاثة التي اشتهرت في علم الفلك عند المســـلمين،أما الكتابـــان الآخـــران فأحدهما لابن يونس، والآخر لألغ بك ».

وقوله: « إن الصوفي من أعظم فلكيي الإسلام ».

وقد ترجمت كتب الصوفي إلى عدد من اللغـــات، ففـــي ســـنة 1874م = 1291هـــ نشر (شيلرب) الفلكي الدانماركي ترجمة فرنسية لكتابين عـــربيين مـــن كتب الصوفي، أحدهما في المكتبة الملكية بكوبنهاجن، والثاني في بطرسبورغ [714].

2 ــ ابن الزرقالة:

وهو أبو إسحق إبراهيم بن يحيى التجيبي النقاش المعروف بابن الزرقالة.

نشأ في طليطلة الأندلس، وانتقل منها إلى قرطبة فاستوطنها وتوفي بها، وقـــد قيل عنه إن الأندلس لم تأت بمثله من حين فتحها المسلمون، وقال عنـــه القفطـــي: «أبصر أهل زمانه بإرصاد الكواكب وهيئة الأفلاك واستنباط الآلات النجومية ».

ــ أوائله و إبداعاته:

هو أول من أثبت حركة أوج الشمس بالنسبة إلى النجوم، وكان له شـــرف الوصول إلى أدق نتيجة عرفت في ذلك العصر في مقدار هذه الحركة الـــتي بلغـــت بحسب قياساته: 12,04 دقيقة في حين أن مقدارها الحقيقي هو 12,08 دقيقة.

كما أخذ كوبرنيكوس الكثير من آراء وأقوال ابن الزرقالة في كتابـــه «دوران الأجرام السماوية» ومنها قوله بدوران الكواكب في مدارات بيضية (إهليلجية).

برهن على أن تغير بعد الأرض والشمس التي عدها علماء اليونان ثابتة تلائم تقدم نقاط تعادل الليل والنهار، قال بذلك بعد أن أجرى ما لا يقل عن 402 مشاهدة.

أبدع طريقة جديدة تبين استخدام الإسطرلاب مع دليل لمعرفة ما يدرك بالرصد، وسميت باسمه (الصحيفة الزرقالية) وذلك عندما أضاف للإسطرلاب دائرة القمر التي تؤذن بتتبع حركات هذا الجرم التابع للأرض في مجراه، كما أضاف إليه مربعاً لحساب المثلثات يبين للباحث على الفور الأظلال المبسوطة والمنكوسة للزوايا المقيسة منسوبة إلى نصف قطر مقسم إلى (12) جزءاً، وقد ذاع صيت الصحيفة الزرقالية هذه في أوروبا، واشتهرت هناك باسم (Saphsea) أي الصفيحة.

استعمل رموزاً مثلثية مثل (جا جب) (جبا جيب التمام) (قتا قاطع التمام) هو أول من قال بدوران الكواكب في مدارات بيضية[715].

وقد شهدت زيغريد هونكه ببراعة ابن الزرقالة عندما قالت عنه: « إن أهم الزيج التي دخل معظمها بلاد الغرب وعمل بها حتى في أيام كوبرنيكس ذاته دون قيد أو شرط لعدم توفر إمكانية القيام برصود خاصة، أو بتحقيق زيج خاصة، نقول إن أهم تلك الزيَج كانت زيجة الخوارزمي والمأمون و البتاني و ابن يونس و الزيجة الطليطلية للزرقالي »[716].

ثالثاً – الرياضيات

1 ــ الخوارزمي:

محمد بن موسى الخوارزمي.

عاش في بغداد فيما بين عامي 164 و 235 هـ = 780 - 850م، وذلك في عهد المأمون بن هارون الرشيد، وكان ذا مقام كبير عنده، وأحاطه بضروب الرعاية والعناية، وولّاه إدارة بيت الحكمة، وجعله على رأس بعثة إلى الأفغان بقصد البحث والتنقيب.

يعود أصل الخوارزمي إلى خوارزم، ولكن إقامته كانت في بغداد عاصمة الدولة العباسية حيث اشتهر هناك[717].

ويذكر الدكتور علي عبد الله دفاع: «في بداية الأمر ابتكر الخوارزمي علم حساب اللوغاريتمات وعمل لها جداول تعرف باسمه محولاً عند الغربيين إلى اللوغاريتمات»[718].

ـ من مؤلفاته:

اهتم الخوارزمي في بداية الأمر بالاكتشافات في علمي الرياضيات والفلك، ثم بعدها بدأ بالتأليف، فصنف كثيراً من الكتب، ونورد أهمها على سبيل المثال.

إذ يعود الفضل للخوارزمي في تناول الأرقام عن طريق مؤلفاته وكتبه في الحساب، وقد أوضح وبيّن فوائدها ومزاياها، ولا يغيب عن الجميع أن من أكبر المآثر والنعم التي جاء بها العرب والمسلمون إلى العالم الحساب الهندي، وتهذيبهم الأرقام الهندية المنتشرة بين الناس والمعروفة عند الغربيين بالأرقام العربية لأنها وصلت إليهم عن طريق العرب في الأندلس، ويمتاز الخوارزمي عن غيره أنه وضع كتاباً في الحساب كان الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة، وقد نقله (إدلار باث) إلى اللاتيينة تحت عنوان «الغورتمي»، وبقي هذا الكتاب مرجعاً لعلماء أوروبا وتجارها ومحاسبيها، والمصدر الذي يعتمدون عليه في بحوثهم الحسابية، وقد يعجب القارئ إذا علم أن الحساب بقي عدة قرون معروفاً باسم الغورتمي نسبة للخوارزمي.

ويأتي في مقدمة كتبه «الجبر والمقابلة» وهو المصدر الذي اعتمد عليه العلماء في مشارق الأرض ومغاربها، ومعظم ما أُلف بعده في علم الجبر كان مستنداً عليه.

ومن كتبه الهامة أيضاً كتاب «الحساب» وبسّط فيه معارفه جداً، واستخدم فيه الأرقام العربية، والنظام العشري، فساعد بذلك على تعرف الناس بها [719].

أوائل وإبداعات الخوارزمي:

يقول الأستاذ جورج سارتون: «إذا أخذنا جميع الحالات بعين الاعتبار فإن الخوارزمي أحد أعظم الرياضيين في كل العصور».

وأكد كل من ديفيد سميث ولويس كاربينسكي: «بأن الخوارزمي هو الأستاذ الكبير في عصر بغداد الذهبي، إذ أنه أحد الكتاب المسلمين الأوائل الذين جمعوا الرياضيات الكلاسيكية من الشرق والغرب، محتفظين بها حتى استفادت منها أوروبا المتيقظة آنذاك، إن لهذا الرجل معرفة كبيرة، ويدين له العالم بمعرفتنا الحالية لعلمي الجبر والحساب».

هو أول من استعمل كلمة «الجبر» للعلم المعروف الآن بهذا الاسم، حيث إن الرياضيات التي ورثها المسلمون عن اليونان تجعل التقسيم الشرعي للممتلكات بين الأبناء معقداً للغاية، إن لم يكن مستحيلاً، وهذا ما قاد الخوارزمي للبحث عن طرق أدق وأشمل وأكثر قابلية للتكيف، فابتدع علم الجبر.

هو أول من ألّف كتاباً في الجبر وهو «الجبر والمقابلة» في علم يعد من أعظم ما وضع العقل البشري، وعليه اعتمد العلماء العرب في دراساتهم عن الجبر، ومنه عرف الغربيون هذا العلم، وقد نشر هذا الكتاب فريدريك روزن، كما نشر ترجمته في لندن عام 1831م = 1247هـ، ونشر في سنة 1915م = 1334هـ كاربنيسكي ترجمة للكتاب المذكور من ترجمة ألمانية.

قال رام لاندو في حق الخوارزمي وكتابه: «الخوارزمي ابتكر علم الجبر ونقل العدد من صفة البدائية الحسابية لكمية محدودة إلى عنصر ذي علاقة، وحدد لا نهاية لها من الاحتمالات، ويمكننا القول بأن الخطوة من الحساب إلى الجبر هي في جوهرها الخطوة من الكينونة إلى الملائمة، ومن العلم الإغريقي الساكن إلى العلم الإسلامي المتحرك الأبدي الرباني ».

هو أول من طور المحدودة، وهذا السبق سنتحدث عنه فيما بعد.

عرف الخوارزمي أن هناك حالات يستحيل فيها إيجاد قيمة للمجهول (الكميات التخيلية) وسمّاها الحالة المستحيلة، وبقيت معروفة بين علماء الرياضيات حتى بدأ العالم السويسري المعروف (ليونارد أويلر 1707 -1783م = 1119ـ1198هـ)، وعرّف الكيمياء التخيلية بأنها: الكمية إذا ضربت بنفسها كان الناتج مقداراً، وأعطى الكثير من الأمثلة على هذا، ثم جاء العالم الألماني المعروف (كارل قاوس 1777 - 1855م = 1191ـ1272هـ)، ومن ثم العالم الفرنسي (جان روبرت أرجان 1768 - 1822م = 1182ـ1238هـ)، والعالم الألماني (كومر 1810 - 1893م = 1225ـ1311هـ)وطوروا ما جاء به الخوارزمي، أي أن الجميع اعتمدوا عليه، ولا يخفى على القارئ المختص أن نظريات التحليل المركب لا تزال قابلة للتطور.

استخدم الخوارزمي اصطلاحات فنية خاصة: فسمى المجهول جذراً ومربعه قوة.

استعمل بنجاح الطريقة البيانية لإيجاد الجذر الحقيقي لصورة تقريبية.

عرف الوحدات المستعملة في المساحات، كما تطرق إلى إيجاد مساحات بعض السطوح المستقيمة الأضلاع والأجسام الدائرة والقطعة والهرم الثلاثي والرباعي والمخروط والكرة، كما استعمل النسبة التقريبية وقيمتها: (720)

$$\text{ط} = \frac{22}{7}\text{ ، أو }10\text{ أو }\frac{23826}{20000}$$

2 ـ سنان بن ثابت:

سنان بن ثابت بن قرة الحرّاني الحاسب.

طبيب رياضي، برع بشكل خاص في الحساب والجبر والأعداد.

أصله من حرّان، ونشأ في بغداد، وكان رفيع المنزلة عند الخليفة المقتدر العباسي فجعله رئيساً للأطباء، وكان منهم في بغداد ثمانمئة وستون طبيباً، ولم يؤذن لأحد منهم باحتراف الطب إلا بعد أن امتحنه سنان، توفي في بغداد عام 331 هـ = 942م[721].

وأجمع المختصون والمؤرخون على أن سناناً شرح في كتابه «كتاب الجمع والتفريق» الطريقة التي يمكن بواسطتها إجراء الأعمال الحسابية بالضرب والقسمة بوساطة الجمع والطرح، وهذا تمهيد لفكرة تسهيل عمليتي الضرب والقسمة، واستعمال عمليتي الجمع والطرح بدلاً منهما، وهي الفكرة التي قامت عليها بحوث اللوغاريتمات، وشرح سنان الأصول الموجودة في هذا الكتاب في كتاب آخر اسمه «كتاب شرح الجمع والتفريق»[722].

3 ــ البوزجاني:

محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس، أبو الوفاء البوزجاني الحاسب.

ولد في بوزجان وهي بلدة صغيرة واقعة بين هراة ونيسابور، وذلك عام 328 هـ = 940م.

قرأ البوزجاني على عدد من العلماء، ولما بلغ من العمر العشرين انتقل إلى بغداد حيث فاضت قريحته ولمع اسمه، وظهر للناس إنتاجه في كتبه ورسائله وشروحه لمؤلفات إقليدس والخوارزمي وغيرهم.

اختُلف في وفاة البوزجاني، فقيل إنه توفي سنة 376 هـ = 986م، في بوزجان، و قيل إنه توفي في بغداد سنة 388 هـ = 998م[723].

– أوائل و إبداعات البوزجاني:

من أهم إبداعات البوزجاني كشفه التغير بحركة القمر، وسبق بذلك العالم الدنماركي (تيخو براهي) الذي نُسب له هذا الكشف، فبعد أن اختلف العلماء في نسبة الخلل في حركة القمر، وجرى حول هذا الموضوع نقاشات طويلة في أكاديمية

العلوم الفرنسية في القرن التاسع عشر للميلاد = الثالث عشر الهجري، فادعى بعضهم أن معرفة الخلل ترجع إلى تيخو براهي الفلكي الدانماركي الشهير.

وقد بقي المؤرخون تجاه هذا الاختلاف مدة في حيرة إلى أن ثبت لدى باحثي هذا العصر بعد التحريات الدقيقة أن الخلل الثالث هو من اكتشاف البوزجاني، وأن تيخو براهي ادعاه لنفسه، أو نسبه الغير إليه[724]، ولهذا الاكتشاف أهمية كبرى تاريخية وعلمية لأنه أدى إلى اتساع نطاق علم الفلك والميكانيكا.

ويبدو أن أهمية هذا الاكتشاف لم تمكن أحداً من الغربيين على إنكاره، ويدلل على ذلك كثرة الاعترافات التي صدرت عنهم بسبق البوزجاني الصريح في هذا الاكتشاف، فمثلاً يقول العلامة المنصف سيديو: « استوقف نقض نظرية بطليموس القمرية نظر أبي الوفاء فصحح الأرصاد القديمة، فوجد عدا معادلة المركز ومعادلة الاختلاف، اختلافاً قمرياً ثالثاً لم يكن بالحقيقة سوى الاختلاف الذي عيّنه تيخو براهي بعد ستمئة سنة، ووُجد من العلماء من حاولوا ـــ دون جدوى ـــ حجب وجه الحق مستشهدين بعبارة مبهمة للعالم العربي أبي الوفاء، ولكن التعابير التي تؤيد اكتشافه لذلك الاختلاف الثالث قاطعة واضحة دالة على حيازة العلم له منذ ذلك الزمن »[725].

ويقول جاك ريسلر: « وكشف أبو الوفا الانحراف الثالث للقمر قبل تيخو براهي »[726].

ويقول كاجوري: « إن اكتشاف بعض الخلل في حركة القمر يرجع إلى أبي الوفا البوزجاني لا إلى تيخو براهي »[727].

ويذكر غوستاف لوبون: « وأشهر علماء الفلك الكثيرين الذين ظهروا بعد أولئك هو أبو الوفاء ... ومما عرفه هذا العالم الفلكي هو الاختلاف القمري الثالث ... وذلك كما ظهر من كتابه العربي الخطي المهم الذي عثر عليه سيديو منذ بضع سنين، وذلك أنه استوقف نظره ما في نظرية بطليموس من النقص في أمر القمر

فبحث في أسبابه فرأى اختلافاً ثالثاً غير المعادلة المركزية والاختلاف الدوري، يُعرف اليوم بالاختلاف، والحق أن هذا الاكتشاف الذي عُزي بعد أبي الوفاء بستمئة سنة إلى تيخو براهي عظيم للغاية »[728].

قدم البوزجاني إبداعات رائعة في علم المثلثات، حيث كان له السبق بوضع النسبة المثلثية (ظل)، وأدخل القاطع، والقاطع تمام كما مر، ووضع الجداول الرياضية للمماس، وأوجد طريقة جديدة لحساب جداول الجيب، وكانت جداوله دقيقة، ووضع بعض المعادلات التي تتعلق بجيب زاويتين، وكشف بعض العلاقات بين الجيب والمماس والقاطع ونظائرهما، و استعاض عن المثلث القائم من الرباعي التام مستعيناً بما يسمى قاعدة المقادير الأربعة.

وكان لجميع هذه المعادلات أثر كبير في تقدم المثلثات، بل كانت فتحاً جديداً في عالم الرياضيات، ولذلك استوقفت نظر كوبرنيكوس وسحرته وغيره من الغربيين، فراحوا يدعون محتويات كتب البوزجاني لأنفسهم، فلقد ادعى مثلاً (ريجيو مونتانوس) بعض النظريات والموضوعات الرياضية التي في مؤلفات البوزجاني لنفسه، وأدخلها في كتابه « المثلثات »، وبعد أن اطلع عدد من علماء الغرب أمثال (دي فو) (وسميث) (وسارتون) وغيرهم على بحوث البوزجاني في المثلثات أقروا له بفضل السبق، واعترفوا مثلاً أنه أول من وضع النسبة المثلثية (ظل) وأول من استعملها في حلول المسائل الرياضية[729].

ومن أقوال علماء الغرب التي تنسب الفضل للبوزجاني في تطوير علم الرياضيات وخاصة المثلثات ما قاله البروفسور جورج سارتون: « إن أبا الوفا أول من وضع النسب المثلثية (ظا)، وأول من استعملها في حلول المسائل المثلثية، كما أوجد طريقة لحساب جداول الجيب، وكانت جداوله رائعة بدقتها، فحسب زاوية 30 درجة، وكذلك 15 درجة، وكانت مقاديره صحيحة إلى ثمانية أرقام عشرية ».

ويقول (جوزيف هافمن): « إن أبا الوفا قد نجح في حساب جداول علم حساب المثلثات إلى ثمانية أرقام عشرية، وكتب في علم النجوم واستمر في تطوير علم حساب المثلثات كعلم مستقل بذاته عن علم الفلك ».[730]

4 ــ الخجندي:

الفلكي الرياضي حامد بن خضر أبو محمود الخجندي.

وهو من كبار علماء الهيئة، عاش في مدينة الري، وبرع بدراسة المثلثات الكروية، اشتغل بقياس فلك البروج، وحسب دائرة البروج، ومن كتبه « الآلة الشاملة في الفلك » و « رسالة في العمل بالصحيفة الآفاقية المسماة بالجامعة »، توفي الخجندي عام 391 هـ = 1000 م[731].

ــ أوائل وإبداعات الخجندي:

إن الخجندي هو أول من اكتشف حالة خاصة للنظرية القائلة: «إن مجموع عددين مكعبين لا يكون عدداً مكعباً »، وقد قال بذلك فيما بعد العالم الفرنسي (بيير دو فرما) بعد قرون عديدة[732].

وقد أقر العالم الغربي (شاخت وبوزورث) بأسبقية الخجندي على دي فرما عندما قال: «ومن الطريف أن نتذكر هنا أن الخجندي قد سبق اكتشاف حالة خاصة للنظرية القائلة: إن مجموع عددين مكعبين لا يكون عدداً مكعباً، وهي نظرية العالم الرياضي الفرنسي بيير دي فرما »[733].

ولم يكن الخجندي العالم المسلم الوحيد الذي أوجد هذه النظرية، بل إن عالمين مسلمين آخرين جاءا بعده وقبل دي فرما قالا بمثل ما قال الخجندي وهما: عمر الخيام، والذي ثبت أنه تكلم عن أن مجموع عددين مكعبين لا يمكن أن يكون مكعباً[734].

وقال بنفس هذه النظرية أيضاً عالم مسلم آخر هو أبو بكر محمد بن الحسن الكرخي[735]، وسنتحدث عنه بعد أسطر.

5 ــ الكرخي:

أبو بكر محمد بن الحسن الكرخي.

ولد في الكرخ من ضواحي بغداد، لا نعرف تاريخ ولادته ولا نعرف عن حياته سوى القليل، وما يعنينا نحن أنه عاش ووضع أهم إبداعاته في بغداد في نهاية القرن الرابع و بداية القرن الخامس الهجريين = العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلاديين.

توفي الكرخي في بغداد، وحدث خلاف في تاريخ وفاته على عدة أقوال بين 410 هـ = 1019م، و 407 هـ = 1016م، و 419 هـ = 1028م، و 421 هـ = 1030م [736].

ــ مؤلفاته:

ومن أهم كتب الكرخي كتابان « الفخري » و « الكافي »، وعرف فضل الكرخي على الرياضيات بكتابه « الفخري »، وقد أهداه إلى الوزير أبي غالب محمد ابن خلف، والذي اشتهر بلقب (فخر الملك)، ويقال إن تسمية الكتاب بالفخري يعود إلى نسبة الوزير المذكور، وقد ألّفه بين عامي 401 هـ = 1010م، و 407 هـ = 1016م.

أما كتابه « الكافي في الحساب » فقد تخبط المستشرقون في كيفية تشويهه، فمنهم من قال إنه مأخوذ عن المصادر الهندية، ومنهم من قال أنه مأخوذ عن المصادر اليونانية، وقد نفى ذلك الأستاذ صالح زكي بقوله: « إن القول بأن فريقاً من رياضي العرب حبّذ الطريقة اليونانية هو من خيالات المستشرقين، والحقيقة أنه لم يخطر ببال الكرخي أو غيره أن يسلك مسلكاً مغايراً لعلماء عصره ».

ويحتوي هذا الكتاب على مبادئ الحساب المعروفة في ذلك الوقت، وكذلك بعض القوانين والطرق الحسابية المبتكرة لتسهيل بعض المعاملات كالضرب.

ويحتوي أيضاً على كيفية إيجاد الجذر التربيعي للأعداد التي لا يمكن استخراج جذرها التربيعي، وقد استخرج ذلك الكرخي بطرق جبرية تدل على سعة عقله، وتمكنه من الجبر.

ونجد في هذا الكتاب أيضاً حساب مساحات بعض السطوح، ولا سيما المساحات التي تحتوي على جذور.

وقد ترجم هذا الكتاب العالم (هوشايم) إلى الألمانية بين سنتي 1878 و 1880م = 1295ـ1298هـ[737].

ـ أوائل و إبداعات الكرخي:

أشار مؤرخو العلوم إلى أن الكرخي هو أول من أبدع ما يسمى: مثلث معاملات ذات الحدين، وسبق بذلك باسكال بإبداعه المثلث المذكور بنحو ستة قرون، والعالم اليوم يعرف هذا الإبداع باسم: مثلث باسكال، وعلى من يتحلى بالأمانة العلمية أن يسميه: مثلث الكرخي.

وقد ذكر مثلث الكرخي تلميذه صموئيل بن عباس في كتابه «الباهر في الجبر»[738]، ولا يزال إلى اليوم من ينسب هذا الإبداع إلى باسكال[739].

ومن أهم الأفكار الرياضية التي ابتكرها الكرخي نظريته التي تقول إن العدد الذي لو أضيف إليه مربعه لكان الناتج مربعاً، ولو طرح منه لكان الناتج مربعاً.

وهو أول من أبدع في أبحاثه بالجذور الصم، وبمربعات الأعداد الطبيعية ومكعباتها، وهو أول من أبدع في المتواليات الطبيعية.

وابتدع النظريات التي تتعلق بإيجاد مجموع مربعات ومكعبات الأعداد التي عددها (ن).

ونظريته: عددان مجموع مكعبيهما يساوي مربع العدد الثالث، أي:

$س^3 + ص^3 = ع^2$، فحل الكرخي هذه المسألة مستعملاً الأعداد الجذرية.

ودرس الكرخي منظمة للمقادير الجبرية المرفوعة لأسس مختلفة، مستخدماً العمليات الحسابية على هذه المقادير، وكذلك دراسته للمتتاليات.

وحسّن في القانون المعروف لإيجاد الجذر التقريبي للأعداد التي لا يمكن إيجاد جذورها مثل:

م = ب^2 + جـ.

واستنبط قانوناً جديداً لإيجاد الجذر التربيعي.

وابتكر طريقة لجمع وطرح الأعداد الصم.(740)

يقول جورج سارتون: « إن أوروبا مدينة للكرخي الذي قدّم للرياضيات أهم وأكمل نظرية في علم الجبر عرفتها، كما بقيت حتى القرن التاسع عشر الميلادي تستعمل مؤلفاته في علمي الحساب والجبر ». ويقول سميث: « إن الكرخي من أعظم الرياضيين الذين كان لهم أثر حقيقي في تقدم العلوم الرياضية ».

و ترجم العالم (موسهيلم) كتب الكرخي « الكافي في الحساب » من اللغة العربية إلى اللغة الألمانية عام 1878م = 1295هـ، فكان أن أصبح مرجعاً مهماً في جميع أنحاء العالم حتى عهد قريب.

وقد قدم الكرخي خدمة هامة إلى تاريخ تطور الرياضيات حيث يشير المستشرق (ويبك) أن الكرخي قدم النظرية الأكثر اكتمالاً، أو بالأصح النظرية الوحيدة في الحساب الجبري عند العرب، والتي نعرفها حتى الآن، وذلك بعرضه لنظرية الحساب الجبري، وكانت غاية ذلك البحث تحقيق استقلالية وخصوصية لعلم الجبر كي يصبح بمقدوره بشكل خاص الاستغناء عن التمثيل الهندسي للعمليات الجبرية

ويشهد على أهمية كتابه (الفخري) الأستاذ (هورد إيفز) بقوله: « إن كتاب الفخري في الحساب أحسن كتاب كُتب في علم الجبر في العصور الوسطى ... لما فيه من الابتكارات الجديدة والمسائل التي لا يزال لها دور في الرياضيات الحديثة ».

وأضاف موريس كلاين: « إن الكرخي البغدادي العالم المشهور ... يعد مفكراً من الدرجة الأولى، وهذا يظهر من كتابه الفخري في الحساب، فطوّر هذا الحقل إلى درجة يمكن التعرف على عقليته الجبارة خلالها »[741].

رابعاً– علم الفيزياء

1 ــ ابن الهيثم:

أبو علي الحسن بن الهيثم البصري نسبةً لمسقط رأسه البصرة في العراق، المبدع في علوم الفيزياء وبخاصة البصريات، فلُقب لذلك ببطليموس الثاني.

نبغ ابن الهيثم إلى جانب البصريات بالفلك والهندسة والفلسفة والمنطق والموسيقى، وأتقن الطب وصنّف فيه وإن لم يمارسه، كان كثير الترحال في طلب العلم، فزار فارس والأهواز والشام.

لقد دأب ابن الهيثم منذ نعومة أظفاره على طلب العلم من مصادره المختلفة، فعكف على قراءة كل ما وقع في يده من مؤلفات الهنود والفرس واليونان وقدماء المصريين وغيرهم، حتى أصبح ذا ثقافة موسوعية شاملة، يدل على ذلك أنه عاش في أواسط القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي، هذا القرن الذي يعد من أزهى العصور العباسية في الآداب والعلوم، فحركة العلم كانت ناشطة في جميع حواضر المملكة الإسلامية، بما فيها بغداد والكوفة والبصرة والقاهرة.

كانت هندسة البناء إحدى علامات نبوغه المبكر، فذُكر أن سكان البصرة كانوا يلجئون إليه ليضع لهم رسوم وتصحيحات بيوتهم الهندسية، وعند حصولهم على مبتغاهم كانوا يعهدون إلى البنّائين والعمال بأمر تنفيذها وإنجازها.

كان للحسن مجلس علم يزدحم بالتلامذة الوافدين من سائر البلدان، وبينهم أمير من أمراء الشام ومعه تلميذ آخر كان يتعلم على يديه اسمه مبشر بن فاتك القائد.

توفي سنة430 هـ = 1038م[742].

ـــ كتاب المناظر:

والذي انبثقت عنه معظم الإبداعات السابقة، وهو أروع كتب ابـــن الهيـــثم، ومن أروع كتب الحضارة الإسلامية، وأكثرها انتشاراً في العالم، وأكثرها تـــأثيراً في العالم الغربي، وتكثر امتيازات هذا الكتاب، فهو أيضاً من أكثر الكتب القديمة استيفاءً لبحوث الضوء، وأرفعها قدراً ولا يقل مادةً وتبويباً عن الكتب الحديثة العالمية، إن لم يفقها في موضوعات انكسار الضوء وتشريح العين وكيفية تكوين الصور على شبكة العين لدرسها.

وهو يعد من أروع ما كتب في القرون الوسطى، وأبدع ما أخرجته القريحـــة الخصبة، فلقد أحدث انقلاباً في علم البصريات جاعلاً منه علماً مستقلاً لـــه أصـــوله وأسسه وقوانينه، والأهم من هذا وذاك، أن ابن الهيثم كان يسير فيه على نظام علمي يقوم على المشاهدة والتجربة والاستنباط.

ونستطيع أن نقول جازمين أن علماء أوروبة كانوا عالة على هذا الكتاب عدة قرون، وقد استقوا منه جميع معلوماتهم في الضوء كما تقدم في هذا المبحث، وعلـــى بحوث هذا الكتاب المبتكرة وما يحويه من نظريات استطاع علماء القرن التاسع عشر والعشرين أن يخطو بعلم الضوء خطوات فسيحة أدت إلى تقدمه تقدماً ساعد علـــى فهم كثير من الحقائق التي تتعلق بالفلك والكهرباء والبصريات، ولا أدل على عظمـــة هذا الكتاب ما ذكرناه من أن الأمريكيين اعتمدوا عليه وعلى دراسات أخرى لابـــن الهيثم في بحوثهم التمهيدية للصعود إلى سطح القمر.

و في مقدمته لهذا الكتاب يؤكد ابن الهيثم أنه لم يضف الجديد إلى ما أُثر عـــن اليونان في هذا الباب وحسب، بل صحح الكثير من النظريات التي كانـــت خاطئـــة بوضع نظريات مستمدة من الواقع والتجربة.

ويقع الكتاب في سبع مقالات:

الأولى: في كيفية الإبصار، وتتناول مميزات البصر وخواصه، والكلام عن الضوء وآلة الإبصار.

الثانية: تدور حول المعاني التي يدركها البصر، وكيفية هذا الإدراك وعلله.

الثالثة: خصّها بـ «أغلاط البصر» وعلل هذه الأغلاط، وهذه المقالة تمهيد للمقالة السادسة.

الرابعة: حول كيفية الإبصار بالانعكاس من الأجسام الصلبة الصقيلة.

الخامسة: تتناول الكلام على «الخيالات»، أي الصور التي تُرى في الأجسام الصقيلة.

السادسة: وتشتمل على أغلاط البصر التي تعرض في أنواع المرايا من مسطحة ومحدبة وأسطوانية ومخروطية ومقعرة وأسطوانية مقعرة ... الخ.

السابعة: وتتناول كيفية الإبصار في الانعطاف، وكيفية الانعطاف الضوئي في الأجسام المشعة.

ولأهمية هذا الكتاب وضرورته الكبرى للغرب، فقد تُرجم إلى الإيطالية في بادئ الأمر في القرن الرابع عشر الميلادي، ثم نقله إلى اللاتينية شيخ مترجمي الغرب (جيرار الكريموني) من العربية مباشرة، ونقله إلى اللاتينية أيضاً البولوني فيتلو، وظلت الترجمة إلى اللاتينية حتى أيام يوهان كبلر، وترجمه إلى اللاتينية فريدرك رزنر عام 1572م = 980هـ، تحت عنوان «كتز البصريات» وذلك في مدينة بال بسويسرا.

ويبدو أن هذه الشهرة للمناظر دفعت سنجر للقول: «إن كتاب ابن الهيثم يستبعد جداً أن يكون له مثيل بين مصنفات اليونان، أو أن يكون له نظير في تراث الحضارات السابقة»(743).

ـ أوائل و إبداعات ابن الهيثم:

اهتم الحسن بن الهيثم اهتماماً بالغاً بالأظلال و جعلها في مقالة خاصة أسماها «مقالة في الأظلال»، وذلك لأن ظاهرة الأظلال لها شأن عظيم في علم الفلك، وهي

كما يوضح هو في مقدمة مقالته أحد الأصول المعول عليها في علم الهيئة، فالخسوفات بأنواعها سببها الأظلال، وتحقيق مقادير الخسوفات وأزمانها لا يتأتى إلا بدراسة أشكالها، ومن قراءة مقالته في هذه الظاهرة يفهم أن الذين درسوا هذه الظاهرة من قبل لم يوفوا البحث حقه، و لم يبينوا أشكال الأظلال المختلفة، و لم يفرقوا بين ما ندعوه الظل، وما نسميه شبه الظل، فاقتصرت أقوالهم على ناحية واحدة فقط.

ولأجل هذا قام ابن الهيثم ببعض التجارب إذ استخدم سراجاً ذا فتيلة غليظة وجعله على مسرجة مرتفعه عن الأرض في بيت لا يدخل الضوء إليه، وجعل بُعد السراج عن الحائط قرابة ذراعين أو أقل، واعتمد عوداً دقيقاً قابل به السراج، ومدّ العود فيما بين السراج والحائط، فإذا تأمل المعتبر ما يظهر على الحائط في مثل هذه الحالة وجد ظلاً عريضاً أكثر عرضاً من العود، وإذا قدّم العود إلى السراج اتسع عرض الظل، وإذا أبعده عنه وقربه نحو الحائط ضاق عرض الظل، واختبر ابن الهيثم من جراء ذلك الظواهر العديدة في الخزانة ذات الثقب (بيت الشاهد في بحثنا)، وقام بالعديد من التجارب والأبحاث حتى توصل إلى دراسة كسوف الشمس والمقارنة بين صورة الشمس وصورة هلال القمر.

سميت تلك الآلة عند ابن الهيثم: (الخزانة المظلمة ذات الثقب) و (البيت المظلم)، وتفسيرها أن امتداد الأضواء على سمت الخطوط المستقيمة تؤدي رأساً إلى أن الضوء المشرق من جسم مبصر إذا نفذ من ثقب ضيق في حاجز، واستقبل على حاجز أبيض من خلفه، تكونت على هذا الحاجز صورة معكوسة للجسم، وتسمى عادة الآلة التي يحصل عليها ذلك في كتب الضوء القديمة البدائية الخزانة المظلمة ذات الثقب كما أسلفنا، ويطابق هذا الاسم اسمها اللاتيني الذي عرفت به في القرون الوسطى وفي عصر النهضة الأوروبية وهو (Camera Obscura)، وليس هذا الاسم إلا ترجمة حرفية للعبارة العربية (البيت المظلم) الذي تردد كثيراً في أقوال ابن الهيثم[744].

وهو أول من فكر بإقامة سد على نيل مصر في موضع الجنادل، تحقق بعد ثمانية قرون من وفاته ببناء السد العالي.

و أول من شرح تركيب العين ورسمها بوضوح.

وأول من اكتشف أن العدسة المحدبة ترى الأشياء أكبر مما هي عليه.

وأول من استخدم الغرفة المظلمة لرصد الخسوف.

وأول من قال أن العين ترى الأشياء بسبب النور الذي يصدر من تلك الأشياء، وليست بسبب نور يصدر من العين كما قال أهل اليونان.

و أول من فسر ظاهرتي الخسوف والكسوف.

وأول من ألف رسالة في الأخلاق.

وأبدع مسألة لا تزال تسمى مسألة الهازن (لأنه كان يسمى في أوروبا Hazen) أي مسألة ابن الهيثم، وهي: إذا فرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس فكيف تعين على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل منها إلى إحدى النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط، والواصل إلى الأخرى بمثابة شعاع منعكس.

وكان لهذه المسألة أثرها الكبير في تطور علمي الضوء والهندسة وعلاقتهما بعضهما مع بعض، والجمع بين الرياضيات والفيزياء، وأثر كل ذلك في التقدم العلمي الحديث.

وضع قانون الارتداد الذي كان له أثر ميكانيكي رائع في تقدم هذا العلم في أوروبا حديثاً.

وضع طريقة لاستخراج ارتفاع نجم القطب على غاية التحقيق ولا تزال إلى الآن تستعمل بالآلات الحديثة، ووصل بواسطتها إلى حسابات وأرصاد تكاد تخلو من الأخطاء وتتطابق مع الحسابات الحديثة.

أبدع بعض آلات الرصد وأصلح بعضها مثل ذات الحلق.

حسب ارتفاع الغلاف الجوي وقدّره بدقة عالية (15كم2).

توصل إلى أن القمر من دون الأجرام السماوية الأخرى يستمد نوره من ضوء الشمس ولا يضيء بذاته، وبذلك توصل إلى ظاهرة التظليل وكتب عن تطبيقها.

وخلص أيضاً من جراء ذلك ــ بعد البراهين الهندسية ــ إلى أن نسبة بعد الشمس عن مركز الأرض إلى قطر الشمس كنسبة 1,115، وهي نسبة قريبة إلى النسبة المعروفة اليوم [745].

2 ــ عبد الرحمن الخازن:

ويقال له أيضاً الخازني، برع في العلوم والفلك والهندسة، ولكنه برز أكثر ما برز في العلوم الفيزيائية التي أبدع فيها كثيراً، كان الخازن في صغره غلاماً لرجل يدعى علي الخازن المروزي، فترعرع في ظله ودرس في مدينة مرو أشهر مدن خراسان على أيدي كبار العلماء هناك.

ويخلط كثير من المؤرخين بينه وبين الحسن بن الهيثم، حيث عرف الغربيون ابن الهيثم (بالهازن) وهناك تشابه كبير في كتابة الاسمين بالإنكليزية (Alhazen) و (Alkhazen) وفرقهما حرف لاتيني واحد هو (K).

توفي سنة 550 هـ = 1155م.

ــ كتابه «ميزان الحكمة»:

وقد ظهرت جلّ إبداعات الخازن السابقة والتي سنتحدث عنها الآن، ظهرت في كتابه «ميزان الحكمة» في الفيزياء (الميكانيكا)، وهو الأول من نوعه بين الكتب القديمة العلمية القيمة، وقد يكون هو الكتاب الوحيد المعروف الذي يحتوي على بحوث مبتكرة جليلة لها أعظم الأثر في تقدم هذا العلم، وقد قال عنه جورج سارتون: «إنه من أجلّ الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات، وأروع ما أنتجته القريحة في القرون الوسطى».

يقع هذا الكتاب في مقدمة ومقالات ثمان هي:

- المقدمة: في الموازين وفوائدها وصورها.

و المقالات الثمان هي:

في المقدمات الهندسية والطبيعية التي يُبنى عليها الميزان الجامع.

في بيان الوزن واختلاف أسبابه.

في النسب بين الفلزات والجواهر.

في ذكر موازين الماء التي ذكرها الحكماء المتقدمون والمتأخرون وأشكالها والعمل بها.

في صنعة ميزان الحكمة وتركيبه وامتحانه.

في اتخاذ الصنجات المخصوصة، ثم كيفية العمل بها، والتمييز بين الفلزات المختلفة بالمنقلتين.

في ميزان الصرف وتقويمه على كل نسبة مفروضة، ووزن الدراهم والدنانير بصنجات أختها.

في ميزان الساعات [746].

ـ أوائل وإبداعات الخازن:

ابتكر ميزاناً لوزن الأجسام في الهواء والماء، له خمس كفّات تتحرك إحداها على ذراع مدرج، وبالتالي بحث في وزن الهواء وكثافته والضغط الذي يحدثه.

فقد ثبت في كتاب «ميزان الحكمة» للخازن من بين المواد التي تناولها بالبحث مادة الهواء ووزنه، و لم يقف عند هذا الحد، بل أشار إلى أن للهواء وزناً وقوة رافعة كالسوائل، وإن وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي، وأن مقدار ما ينقصه من الوزن يتبع كثافة الهواء.

وبيّن الخازن أيضاً كما مر معنا أن قاعدة أرخميدس لا تسري فقط على السوائل، بل تسري على الغازات أيضاً، وأبدع من خلال ذلك في البحث في مقدار ما يُغمر من الأجسام الطافية في السوائل.

ولا شك أن هذه البحوث هي الأسس التي بنى عليها العلماء الأوروبيون فيما بعد الاختراعات الهامة، كالباروميتر، ومفرغات الهواء، والمضخات المستعملة لرفع المياه [747].

الخازن من أوائل العلماء الذين مهدوا لاختراع الباروميتر (ميزان الضغط) إذ أظهر أن قاعدة أرخميدس لا تسري على السوائل فقط، بل تسري على الغازات والأجسام الموجودة في الهواء.

أبدع في بحث المقدار الذي يُغمر من الأجسام الطافية في السوائل، فمهدت أبحاثه إلى ابتكار مفرغات الهواء والمضخات.

أبدع معادلة سهلة تؤدي إلى معرفة الوزن المطلق لجسم مكون من مادتين بسيطتين وهما:

$$س = أ \left\{ \frac{\frac{1}{ك} - \frac{1}{ب_1}}{\frac{1}{ب_2} - \frac{1}{ب_1}} \right\}$$

وتعبر (س) عن الوزن المطلق المطلوب.

وتعبر (أ) عن الوزن المطلق للجسم المركب.

وتعبر (ك) عن الثقل النوعي للجسم المركب.

وتعبر(ب) عن كثافة المادة الأولى.

وتعبر(ب2) عن كثافة المادة الثانية.

درس مقاومة السوائل للحركة، يقول في كتابه المهم جداً «ميزان الحكمة»: «إذا تحرك جسم ثقيل في أجسام رطبة (أي سائلة) فإن حركته فيها تكون بحسب رطوبتها، فتكون حركته في الجسم الأرطب ــ أي الأكثر سيولة ــ أسرع»[748].

3 ــ ابن ملكا البغدادي:

هبة الله بن علي بن ملكا، المعروف بأوحد الزمان.

ولد بمدينة بلد على دجلة شمالي الموصل، وكان على ملة اليهود ومن كبار المتعصبين لليهودية، ثم درس الإسلام واعتنقه ديناً في أواخر حياته، وهجر اليهود، وبات من الفلاسفة والعلماء الكبار في الحضارة الإسلامية.

يقول عنه القفطي في أخبار العلماء: «اليهودي في أكثر عمره المهتدي في آخر أمره، أوحد الزمان».

وبعد أن سكن ابن ملكا بغداد اشتهر وحظي بمكانة جيدة عند الخليفة المستنجد بالله ودخل في خدمته، واشتهر بمعالجة الأمراض النفسية.

وقد أصر ابن ملكا على تمسكه باعتناق الإسلام على الرغم من أن بناته الثلاث رفضن العقيدة الإسلامية، وبقين يهوديات، ثم عاداه أبناء جلدته وصار معزولاً عن بناته، بيد أن العلماء المسلمين احتضنوه وقدروه ووضعوه في منزلته اللائقة، حتى صار في قائمة كبار علماء العرب والمسلمين في الطبيعة والطب

توفي سنة 560 هـ = 1165م [749].

– أوائل وإبداعات ابن ملكا:

جاء في كتاب «المعتبر في الحكمة» الموجود كمخطوط في تركيا في مكتبة أحمد الثالث (رقم 3222،مج2، ف14، الورقتان:48،47) جاء فيه نصوص هامة تختص بحركة الأجسام، ومنها ذكر القانون الأول في الحركة والسكون، ومن أقوال ابن ملكا التي وردت في هذا السياق: «فإن الحركة إما طبيعية وإما قسرية، والقسرية تتقدمها الطبيعة، لأن المقسور إنما هو مقسور عن طبعه، إلى طبع قاسره، فإذا لم يكن حركة بالطبع لم يكن حركة بالقسر، والطبيعة إنما تكون عن مباين بالطبع إلى مناسب بالطبع، أو إلى مناسب أنسب من مناسب».

ومما قاله أيضاً: «فبهذا يعلم أن لكل جسم طبيعي حيزاً طبيعياً، فيه يكون بالطبع، وإليه تتحرك إذا أزيل عنه، وهذا الحيز ليس هو للجسم بجسميته التي لا يخالف بها غيره من الأجسام، بل بصفة خاصة به هي طبيعية، فقوة أو صورة خاصة بذلك الجسم، خصته بذلك الحيز، وحركته إليه، فتلك الطبيعة الخاصة في ذلك الجسم مبدأ حركة بالطبع وسكون بالطبع، والتحريك النقلي المكاني إنما يكون عنها بعد سبب طارئ يخرج الجسم عن حيزه الطبيعي فتحركه هي إليه».

ويعد ما قاله ابن ملكا عن القانون الثاني للحركة أقرب ما توصل إليه علماء العرب والمسلمين من معاني، ومن أقواله عنه: «وكل حركة ففي زمان لا محالة، فالقوة الأشدية تحرك أسرع، وفي زمان أقصر، فكلما اشتدت القوة ازدادت السرعة، فقصر الزمان، فإذا لم تتناه الشدة لم تتناه السرعة، وفي ذلك أن تصير الحركة في غير زمان وأشد، لأن سلب الزمان في السرعة نهاية ما للشدة».

ويعني قول ابن ملكا هذا زيادة السرعة، حيث السرعة = المسافة مقسومة على الزمان، أو هي على الدقة معدل تغير السرعة بالنسبة للزمن، وكلامه قريب جداً من القول بتناسب القوة مع التسارع.

ويشير ابن ملكا إلى القانون الثالث للحركة في قوله: «إن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر، وليس إذا غلب أحدهما فجذبها نحوه تكون قد خلت من قوة جذب الآخر، بل تلك القوة موجودة مقهورة، ولولاها لما احتاج الآخر إلى كل ذلك الجذب ».

وهذا قول واضح في أن لكل فعل رد فعل مساوياً له في المقدار ومعاكساً له في الاتجاه، فالحلقة التي أشار إليها في المثال ما هي إلا جسم في حالة اتزان تحت تأثير قوتين متساويتين مقداراً متعاكستين اتجاهاً (750).

4 ــ بنو شاكر:

وهم ثلاثة أشقاء: محمد، وأحمد، والحسن.

ولدوا وتوفوا في بغداد في القرن الثالث للهجرة = التاسع للميلاد.

يقال إن والدهم موسى بن شاكر كان في حداثته قاطع طريق، ثم تاب وأصبح فلكياً ودخل في خدمة المأمون، إلى أن توفي وأولاده لا زالوا صغاراً، فتوصى بهم المأمون وجعلهم في بيت الحكمة حيث حملوا مع محمد الخوارزمي على عاتقهم قيادة وتوجيه البحث العلمي في بيت الحكمة، فقد اهتم الخوارزمي بالجبر، بينما اهتم بنو موسى بالهندسة والميكانيكا والفلك والموسيقى.

كان هؤلاء يمولون البعثات العلمية للبحث عن المخطوطات العلمية وشرائها، وأسسوا ما يمكننا تسميته مؤسسة للترجمة، وأحضروا إليها المترجمين من كافة الآفاق، وغلب على الشقيق الأصغر الانفراد بالهندسة، فكان معيناً بوضع البراهين الأصلية المبتكرة، وغلب على أحمد من العلوم الهندسة، والحيل، والحركات، والنجوم، والموسيقى، وكان محمد معنياً بالهندسة والفلك[751].

– أوائلهم و إبداعاتهم:

يعزى إليهم القول بالجاذبية العمودية بين الأجرام السماوية، و أنها هي التي يربط كواكب السماء بعضها ببعض، وتجعل الأجسام تقع على الأرض[752].

ومن ناحية ثانية يذكر العالم الغربي مارشال كلاجيت أن العديد من علماء العصور الوسطى اللاتين، أخذوا جلّ نظريات وبراهين كتب بني موسى أخذاً يكاد يكون حرفياً ونسبوها لأنفسهم، ومنهم ليوناردو فيبوناتشي (ت1220م = 617هـ)، وجوردانوس دي نيموري (ق 13م = 7هـ) وكامبانوس (ق13م = 7هـ) ولوكا باتشيولي (1494م = 900هـ) وبيردو لارامي (ق 16م = 10هـ)[753].

شرحوا صعود مياه الفرات والعيون إلى الأعلى، وكيفية ترشيح مياه الآبار من الجوانب، وبينوا كيفية صعود المياه إلى الأماكن العالية بالقلاع ورؤوس المنارات، وطبقوا ذلك على حاجاتهم اليومية، وفي القلاع المرتفعة.

قادوا بعثة علمية إلى سنجار العراق، لقياس المسافة التي تقابل درجة واحدة على خط الطول (وهذا ما يؤدي إلى قياس محيط الأرض إذا قدرت المسافة (بـ 360°) فبعد الحساب الطويل والدقيق توصلت البعثة إلى أن المسافة تساوي

$$66\frac{2}{1}$$

ميلاً عربياً (الميل العربي يساوي 1973,3متراً تقريباً)، وهذا ما يعادل 47,356 كيلومتراً لمحيط الأرض، وهذه النتيجة قريبة من الحقيقة، إذ أن محيط الأرض الفعلي يعادل 40,000 كيلومتر تقريباً.

لهم في سامراء مرصد فيه آلة، وهي ذات شكل دائري تُحصّل صور النجوم، ورموز الحيوانات في سطحها، وتديرها قوة مائية، وكلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها في الآلة، وإذا ما ظهر نجم في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الأفقي من الآلة[754].

خامساً– علم الكيمياء

1 ــ جابر بن حيان:

جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي الأزدي.

ولد في مدينة طوس بخراسان، حيث نزح والده إلى هناك، وهناك من يقول بالأدلة أنه عربي الأصل من قبيلة الأزد العربية التي قطنت جنوبي شبه الجزيرة العربية.

عاش أبوه في الكوفة في أواخر عصر بني أمية حيث كان يعمل صيدلياً، ثم انتقل إلى طوس كما ذكرنا ووُلد له جابر هناك، وكان من المخلصين للدعوة

العباسية، لذلك قتله الأمويون، فعادت عائلته من جديد إلى أراضيها الأزدية، وهنـــاك ترعرع جابر.

ولما تولى العباسيون الخلافة سنة 132 هـــ = 749م، رجع جابر بن حيان إلى الكوفة، وانخرط في حلقات التعليم التي كان يعقدها جعفر الصادق، ثم اتصل بـــه ولازمه، ودرس على يديه بعض علوم الفقه والدين، إلا أنه تميز في الكيمياء وحلّق في سمائها.

عاش جابر في بلاط هارون الرشيد، واتصل بالبرامكة عن قرب، وخاصة يحيى البرمكي وابنيه الفضل وجعفر.

عاش جابر تقريباً في الفترة ما بين 101ـــ200هـــ = 737ـــ813م [755].

ـــ أوائل و إبداعات جابر:

أسس جابر بن حيان للنظرية الذرية المشهورة التي تقول: «إن جميـــع المـــواد (العناصر) تتكون من دقائق متناهية في الصغر دائمة الحركة لا تقبل التجزئة تســـمى ذرات، وإن ذرات العنصر الواحد متشابهة في الخواص متساوية في الوزن، كما تختلف العناصر باختلاف ذراتها، وعندما تتحد الذرات لتشكيل مركبات فإن الاتحاد يتم بين ذراتها الصحيحة».

وبدأت القصة مع جابر حين أدخل إلى صنعة الكيمياء شيئاً جديداً اسمه: علم الميزان، فجعل لكل من الطبائع الأربع ميزاناً، ولما كان الذهب أصبر المعـــادن علـــى النار، فقد عد جابر أن الطبائع متوازنة متعادلة فيه، أما الفلزات الأخرى فطبائعها غير متوازنة، وفي رأيه إذا تعادلت الطبائع في أي منها أمكن تحويلها إلى الذهب الإبريز.

وقد قام جابر بالتجربة المشهورة التالية:

(زئبق+ كبريت = حجر أحمر) وهو ما يسميه العلماء بالزنجفر، وهما ليســـتا مادة جديدة في كلتيهما، والحقيقة أن هاتين المادتين لم تفقدا ماهيتهما، وكـــل مـــا حدث أنهما تحولتا إلى دقائق صغيرة مختلفة امتزجت ببعض فأصبحت العـــين المجـــردة

عاجزة عن التمييز بينهما، وظهرت المادة الناتجة من الاتحاد متجانسة التركيب، ولـــو كان هناك وسيلة تفرق بين دقائق النوعين لأدركنا أن كلاً منهما مـــتحفظ بهيئتـــه الطبيعية الدائمة.

فهذا التصور والذي ورد في كتاب جابر: «المعرفة بالصفة الإلهية والحكمـــة الفلسفية» يجلب الدهشة، حيث أن هذه التجربة توحي بالنظرية الذرية المشهورة التي تحدثنا عنها، والتي يدعي علماء الغرب خطأً أن مكتشفها هو العالم الإنكليزي (جون دالتون) الذي عاش فيما بين 1766ـــ1844م = 1180ـــ1260هـــ، وهو عالم مشهور في حقل الفيزياء والكيمياء، وبالتالي لم يزد دالتون أي شيء على نظرية جابر كما يؤكد المختصـــون، جابـــر الذي عاش قبل دالتون بأكثر من ألف عام، ثم جاء العلم الحديث وطوّر هذه النظرية.

وقد لخص أحد كبار مؤرخي العلوم وهو (هولميارد) هذه النظرية الذرية عنـــد جابر بن حيان مبتدئاً كمدخل لها بتفسير نظرية جابر في طبيعة المعادن.

وقد أدرك جابر هذه الفكرة وهذه النظرية وتبناها لأسباب عديدة، من أهمها:

1ـــ إن أغلب العناصر التي عُرفت في عهـــده اســـتخرجت مـــن كبريتاهـــا بالتحميص أو بالتشويه كما ذكرها هو، حيث تنبعث غـــازات الكبريـــت كثـــاني أوكسيد الكبريت وغيره أثناء تعدينها.

2ـــ إن أكثر العناصر التي حُضرت في ذلك الوقت قد عُدنت من كبريتاهـــا الأمر الذي يدعو المنتبه لهذه الحقيقة إلى الإيمان بوجود الكبريت في جميع ما استخرج من المعادن آنذاك، وقد كتب جابر في الكبريت كثيراً ووصف جميع صوره المعروفة في الوقت الحاضر من الكبريت الذهبي (زهرة الكبريت)، والكبريت العمود، والكبريـــت المطاط وغير ذلك.

3ـــ إن جعل الزئبق من الأساسين الرئيسيين في تكوين المعادن جميعها يرجـــع إلى أن الزئبق يكون مع أكثر المعادن المعروفة ملاغماً، فهو يتحـــد ببعضـــها اتحـــاداً

كيماوياً عن طريق تكوين (الآصرة المعدنية) والتي لم تعرف إلا في القرن العشـــرين، فيغير من صفات المعادن نفسها، ويظهرها بمظهر آخر، إلا أنه لا يتحد ببعض المعادن البخسة التي عرفت آنذاك، والتي لم يعرف منها سوى الحديد، وقد أشار جـــابر إلى ذلك في أكثر من موضع في كتابه «كتاب الخواص الكبير»، ونتيجة لما قام به جـــابر من الدراسات فقد تعرف على كثير من مركبات الزئبق كالسليماني وأوكسيد الزئبق الأحمر، فيكون قد سبق عصره بمئات السنين، مع العلم أن أوروبا جهدت طويلاً من أجل إبراز نظرية جون دالتون: أن الاتحاد الكيميائي يكون باتصال ذرات العناصـــر المتفاعلة بعضها ببعض، ونسوا أن جابراً قد سبقه بأكثر من ألف سنة[756].

هو أول عالم في العالم على وجه الإطلاق استعمل الميزان في تجاربه العلميـــة إذ اهتم بوزن المقادير التي يستخدمها، وأصغر الأوزان التي استعملها الحبة، وهي تساوي جزءاً من 6480 جزءاً من الرطل، وهذا المقدار لا يمكن وزنه إلا بميـــزان حســـاس يقارب ما نستعمله حالياً، وقد استعمل علماء الكيمياء في أوروبا الميزان في تجـــاربهم بعد استعمال جابر للميزان بأكثر من ستمئة سنة.

هو أول من استحضر حامض النتريك بتقطيره من الشبة، وسماه زيت الـــزاج، كما استخرج حامض النتريك.

هو أول من كشف الصودا الكاوية.

هو أول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بواسطة الحامض.

هو أول من قام بأول محاولة من نوعها في العالم تهدف إلى تحقيق الأمل الـــذي كان يراود علماء الكيمياء حتى الآن، ألا وهي تحضير الذهب من مواد أولية، وقـــد تمكن من تحضير معدن من لون أصفر برّاق يتعذر التمييز بينه وبين الذهب، ولـــيس أدل على متانة أخلاقه وما يتصف به من عدم حب الذات أو الأنانية وبيـــان رغبتـــه الشديدة في نشر العلم من أنه وثّق هذه التجربة في كتابه «الخواص» وشرح دقائقهـــا وتفاصيلها.

نقل جابر علم الكيمياء من مجاهل الخرافات إلى حقائق العلم التجريبي في المختبرات.

حضّر مركبات كثيرة لكربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم، واستعمل ثاني أكسيد المنغنيز في صنع الزجاج، ودرس خصائص الزئبق واستحضرها، واستعمل بعضها فيما بعد في تحضير الأوكسجين، ولا يخفى على أحد أن هذه المركبات ذات أهمية كبيرة في عالم الصناعة، فبعضها يستعمل في صنع المفرقعات والأصباغ، وبعضها الآخر في السماد الصناعي والصابون والحرير الصناعي.

قام جابر بالكثير من العمليات المخبرية، كالتبخير والتكليس والتصعيد والتقطير والتكثيف والترشيح والإذابة والصهر والبلورة، وحضّر عدداً كبيراً من المواد الكيماوية بالإضافة إلى التي ذكرناها، مثل أوكسيد الزئبق، وكبريتيد الزئبق، وحامض النتريك، وحامض الأوزيتك، والماء الملكي الذي يذيب الذهب.

حضّر حامض الكبريتيك، وسُمي: زيت الزاج، أو الزيت المذيب، وذلك نسبة إلى المادة الأولية التي استعملها في تحضيره، وهي الزاج الأزرق (أي كبريتات النحاس).

حضّر أبيض الرصاص، أي كاربونات الرصاص.

اكتشف طريقة فحص أيون النحاس فحصاً نوعياً، فقد عرف أن مركبات النحاس تُكسب اللهب لوناً أزرق.

بحث في المواد المعدنية والنباتية والحيوانية الشائعة، وتعرف على فوائدها في مداواة بعض الأمراض[757].

توصل جابر إلى إبداع مداد مضيء استُخدم في كتابة المخطوطات الثمينة لإمكان قراءتها في الظلام، واستخدم لأجل ذلك المرقيشيا الذهبية (بيريت الحديد، أو كبريتد النحاس)، واستخدمه بدل الذهب الغالي الثمن.

وتوصل جابر أيضاً إلى صنع ورق غير قابل للاحتراق، وذلك نزولاً عند رغبة أستاذه جعفر الصادق حينما وضع كتاباً في الحكمة يسمى «الضيم» وكان عزيزاً لديه، فأراد أن ينسخه على ورق لا يتأثر بالنار، فطلب من جابر أن يحاول تدبير هذا الأمر، فنجح جابر بصنع ذلك، وأُلقي الكتاب في النار فلم يحترق[758].

2- ــ المجريطي:

هو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي.

عاش فيما بين 338ــ398 هـ = 950ــ1008م.

ولقب بالمجريطي نسبة إلى مسقط رأسه مجريط (مدريد عصمة إسبانيا اليوم) بالأندلس، وتوفي في قرطبة بعد انتقاله إليها.

رحل في فترة من حياته إلى بلاد المشرق حيث التقى بالعلماء وحاورهم وتداول معهم آخر ما توصلوا إليه، وآخر ما توصل إليه في أبحاث الرياضيات والفلك وغيرها من العلوم، ثم عاد إلى قرطبة، وفي طريق عودته أنجز عملاً فريداً ومبدعاً عندما بنى مدرسة تتلمذ فيها على يديه كبار علماء الرياضيات والفلك والطب والفلسفة والكيمياء والحيوان.

كانت هذه المدرسة عبارة عن معهد علمي يضم دراسة العلوم البحتة والتطبيقية (على غرار الجامعات التكنولوجية الحديثة)، وخرّج منها تلاميذ حذو حذوه بتأسيسهم مدارس علمية في جميع أنحاء الدولة الإسلامية في المغرب العربي بما فيها الأندلس.

و قد ذهب بعض المؤرخين إلى أن المجريطي هو مؤلف «رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا» وجزم بعضهم بذلك، و لم يثبت البعض الآخر هذه المقولة[759].

- أوائل وإبداعات المجريطي:

يعد المجريطي قائد أكبر حركة كيميائية في الأندلس في القرن العاشر الميلادي = الرابع الهجري، ومن أهم آثاره كتاب «رتبة الحكيم» الذي يعد حجة في علم

الكيمياء، وتألف من أربع مقالات، والكتاب يدل على مقدرة مؤلفه ودقة ملاحظته في النواحي العلمية، فقد جاء فيه كلام مفصل عن تنقية الذهب والفضة لا يخرج في جوهره عما هو معروف الآن، وتحدث عن فصل هذين الفلزين أحدهما عن الآخر في سبائكهما بواسطة الحل بحامض الأزديتك[760].

وأهم ما جاء في كتاب المجريطي هو عملية تحضير أكسيد الزئبق، وهنا بيت القصيد، فقد نال أبو القاسم المجريطي شهرة عظيمة بتحضيره هذا، حيث أنه لم يسبقه أحد في وصف التجربة التي أدت إلى تحويل الزئبق إلى أكسيد الزئبق.

والجدير ذكره أن كلاً من (بريستلي) و(لافوازيه) أخذا هذه التجربة واستفادا منها، وقدر لهما أن يلعبا بهذه المادة دوراً تاريخياً هاماً في أبحاثهما، ولكن دون أن يذكرا مسلمة المجريطي، أو يبينا أي دور له في هذه التجربة.

ومن الجحود للعلم أن تُنسب مثل هذه التجربة التاريخية لعلماء الإفرنج دون أن يشار إلى أن المسلمين هم البادئين بها، ودون أن يلتفت أحد إلى الحقيقة التي تقول أن المجريطي هو أول من حضر أكسيد الزئبق، و لم يفعل كل من لافوازيه أو بريستلي سوى أن أخذا بهذه التجربة، وقاما بتطويرها مخبرياً.

وقد وصف المجريطي هذه التجربة بنفسه، مما يدل على بعده عن الأنانية، وعلى نيته في بعث العلم، وإن صدق نيته هذا هو الذي أبقى ذكره وتجربته حتى هذه اللحظة.

وهذه القاعدة تعني بشكل آخر: إن مجموع كتل المواد الداخلة في أي تفاعل كيماوي مساوٍ لمجموع كتل المواد الناتجة عن التفاعل.

وهذه الإبداع من هذا العالم المدريدي أدهش معظم علماء الكيمياء، وقد أشار هولميارد إلى أن هذه التجربة قد استقصاها لافوازيه وبريستلي ولعبت بين أيديهم دوراً تاريخياً، ثم أكد على إبداع المجريطي وأهمية تجربته هذه قائلاً: «حين عمد إلى تنفيذ التجربة كمياً إنما هو أمر في حد ذاته غاية في الأهمية مما يدل على أنه فطن إلى

قاعدة كيماوية، و لم يفطن إليها أحد قط في أي مكان قبل مضي قرون من بعده»[761].

هو أول من علّق على الخريطة الفلكية لبطليموس، والجداول الفلكية لمحمد ابن موسى الخوارزمي.

كتب في الكيمياء كتابين صارا من أشهر كتب الكيمياء في الشرق والغرب، وهما «رتبة الحكيم» و« غاية الحكيم»، وتُرجم هذا الأخير بأمر من الملك ألفونسو إلى اللغة اللاتينية عام 1252م = 650هـ.

هو أول من أدخل موسوعة إخوان الصفا وخلان الوفا إلى الأندلس، وقيل بأنه هو مؤلفها.

برع في الرياضيات والفلك كثيراً، وبات إمام الرياضيين في المغرب العربي، وبرزت شهرته في المشرق بالكيمياء.

حرر الكيمياء من الخرافات والسحر والطلسمات، وحاول وبكل جدارة أن يبرز هذا العلم على أنه علم شريف.

اعتمد في دراسته على التجربة والاستقراء، فكان ينصح طلابه بأن يتأنوا بدراسة النظريات الأساسية، ويدربوا أنفسهم على إجراء التجارب المخبرية، وأن يتعودوا على التفكير في المواد الكيمياوية، وما يحصل بينها من تفاعل كيماوي، وما ينتج من هذا التفاعل من صور جديدة.

أشار إلى أهمية إلمام من يريد الاشتغال بالكيمياء بالرياضيات، و أن يقف على أصولها.

اهتم بتجارب الاحتراق والتفاعلات التي تنتج عن هذا الاحتراق، والتغيرات التي تتم عن أوزانها، هذه التجارب التي كانت أساساً لكافة النظريات الكيماوية الخاصة بأوزان المواد وتغييرها بالاحتراق[762].

3 ــ الجلدكي:

أيدمر بن علي الجلدكي.

لُقب بالجلدكي نسبةً إلى جلدك وهي قرية من قرى خراسان.

كاد أن يكون ضحية للجهل بعلم الكيمياء في عصره، ولولا ما خلّفه لنا من ثروة علمية متمثلة بمؤلفاته لما عرفنا عنه شيئاً، فالمعلومات عن حياته قد عُرفت من خلال مؤلفاته، وأدى ذلك إلى الاختلاف حتى في اسمه، وتحديد تاريخ وفاته، فذهب بعضهم إلى أن اسمه آيدمر بن علي، وقيل إن اسمه علي بن آيدمر.

تنقل الجلدكي بين دمشق والقاهرة، ثم استوطن القاهرة، وتوفي فيها عام 762 هـ = 1360م، وقيل 742 هـ = 1341م، وقيل 743 هـ = 1342م، وقيل 750 هـ = 1349م.

ــ مؤلفاته:

وتُمثل مؤلفاته ثروة علمية قيمة، وهي كثيرة؛ ومنها «التقريب في أسرار التركيب»، وهو موسوعة علمية تشتمل على المبادئ والنظريات ووصف العمليات الكيميائية كالتقطير والتصعيد والتكليس، و«غناء الملهوف في أسرار التركيب»، و«المصباح في أسرار علم المفتاح»، ويشتمل على خلاصة خمسة كتب مهمة في الكيمياء[763]، و«بغية الخبير في قانون طلب الإكسير»[764]، و«الشمس والمنير في تحقيق الإكسير» و«نهاية الطلب في شرح المكتسب في زراعة الذهب» و«ميزان الذهب» و«البرهان في أسرار الميزان» و«الدرة المعنية في شرح مخمس الماء والأرض النجمية» و«الرحمة في الكيمياء»[765].

– أوائل وإبداعات الجلدكي:

توصل الجلدكي إلى قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي، وقرر بذلك أن المواد لا تتفاعل إلا بأوزان متعددة ومحددة، وهو إبداعٌ لم يسبقه إليه أحد.

والذي حصل فيما بعد هو أن قام الكيميائي الفرنسي (لويس بروست: ت 1826 م = 1242هـ) بالادعاء بهذا السبق، وكشف هذا الالتباس العالم الكيميائي الأمريكي برنارد جافي، فقال: «وظل بروست ثمانية أعوام يغري العالم الكيميائي بتصديق ما يقول؛ بتصديق أن العناصر عندما تتحد تتحد بنسب في الوزن واحدة، وتلك نظرية قديمة جاء بها في القرن الرابع عشر الميلادي = الثامن الهجري الجلدكي، وهو كيميائي قاهري قديم»[766].

وللجلدكي إنجاز هام آخر، إذ من الباحثين من أقسم أن الجلدكي هو مكتشف الذرة، فانظر إلى قول الدكتورة عزة مريدن عميد كلية الطب بجامعة دمشق، وعضو المجلس الأعلى للعلوم عام 1961م = 1381هـ، في معرض حديثها عن إبداعات المسلمين، تقول: «ومنهم الجلدكي العجيب، الذي ما قرأت قصيدته مرة إلا أقسمت غير حانث أن هذا هو مكتشف الذرة، وواضع أسس الصواريخ ... فلنصغ إليه بإمعان حين يصف كنه الذرة في المعادن والعناصر الكيماوية، ويشبهها بالمجموعة الشمسية كما يفعل علماء الذرة اليوم، حينما يبحثون في البروتون والنوترون المركزيين، والإلكترون الذي يحيط بهما»، ثم يذكر تلك القصيدة (الدليل) على اكتشاف الجلدكي للذرة، يقول الجلدكي:

فشتان بين اثنين هذا مكوكب ... يدور وهذا مركز للمراكز
وإنهما عند الحكيم لواحد ... لأنهما من واحدٍ متمايز
فهذا على هذا يدور وهذه ... لها مركز رأس بقدرة راكز
وبينهما ضدان عال وسافل ... بقاؤهما فردين ليس بجائز
وبينهما جسم مُشف كأنه ... من اللطف فيما بينهما غير حاجز
فاعجب بها من أربع حال بعضها ... إلى بعضها عن نسبة في الغرائز[767].

توصل إلى فصل الذهب عن الفضة باستخدام حمض النتريك الذي يذيب الفضة تاركاً الذهب الخالص، و هذه الطريقة ما تزال تستعمل إلى يومنا هذا.

هو أول من أبدع فكرة استخدام الكمامات في مخابر الكيمياء لاتقاء خطر استنشاق الغازات الناتجة عن التفاعلات الكيميائية، فأوصى بوضع قطعة من قطن أو قماش في الأنف.

طوّر طريقة التقطير.

هو أول من قال أن المادة تعطي لوناً خاصاً بها عند احتراقها.

أبدع في تعريف التموج، حيث عرّفه بمايلي: «ليس المراد منه حركة انتقالية من ماء وهواء واحد بعينه، بل هو أمر يحدث بصدم بعد صدم، وسكون بعد سكون».

قدّم بعض التحسينات على طريقة صناعة الصابون المعروفة آنذاك، وذلك بإضافة المواد الكيميائية التي تقلل من مفعول الصودا الكاوية التي تحرق الغسيل.

كان أميناً بالنقل، حيث كان يذكر المصدر وصاحبه[768].

سادساً – الجغرافية:

1– الجغرافية في العصر العباسي:

الجغرافية: هي علم وصف الأرض، و هي كلمة ذات أصل إغريقي لاتيني[769]، و يبحث هذا العلم في أصول الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار والبحار[770]. ويحتاج علم الجغرافية إلى علوم كثيرة؛ كالفلك والرياضيات والهندسة والتنقل (الرحلات) والرسم (رسم المصورات) وغير هذه العلوم، ولذلك رأيت أنه أقرب إلى العلوم التطبيقية منه إلى العلوم النظرية.

و لم يكن هناك قبل القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي مصنفات جغرافية قائمة بذاتها، وإنما هي معلومات جغرافية متناثرة، ومع حلول القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي تم التعرف على مصنفات بطليموس، وظهرت الترجمات التي بدأت بها سلسلة الجغرافية العلمية، كما تشكلت من ناحية أخرى الأنماط المتعددة للجغرافية الوصفية، وبلغ الأدب الجغرافي أوجه في القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي،

وذلك عندما ظهرت المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب، التي تميّزت باهتمامها بوصف المسالك والممالك ورسم المصورات الجغرافية، وبدأت منذ القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي تظهر مصادر من نوع جديد، وهي المعاجم الجغرافية والأوصاف العامة لجميع العالم سمائه وأرضه[771].

إن أقدم ما دونه المسلمون مما له علاقة بمسائل الجغرافيا تلك الكتب التي صنّفها اللغويون العراقيون بهدف لغوي وبمنهج لغوي، حيث عنوا بتحديد البقاع والبلدان الكثيرة الواردة في أدب الجاهليين والإسلاميين وأحاديث الرسول وآي القرآن الكريم، وعالجوها معالجة لغوية أدبية. وتكاد تنحصر هذه المؤلفات – أو جلها – في وصف جزيرة العرب وما فيها من أعلام جغرافية، بحيث يمكن أن نسمى ما كتبوه «بالجغرافيا الخاصة».

وهناك عالم عراقي كبير – من الكوفة وذاعت مؤلفاته في بغداد – يمثل ظاهرة نادرة بين لغويي ذلك العهد بما اتصف به من اتساع الأفق: ذلك أن أغلبهم اكتفى بوضع ملخصات لغوية عن جزيرة العرب، أما هو فقد كتب في موضوعات جغرافية عامة تتجاوز نطاق الجزيرة العربية. وهذا العالم هو المؤرخ هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت 206هـ = 821م). ومن بين العدد الضخم من مؤلفاته يذكر ابن النديم في «الفهرست» عشرة منها في الجغرافيا. وإذا كانت له مؤلفات تتعلق بجزيرة العرب على نمط اللغويين – مثل «كتاب تسمية من بالحجاز من أحياء العرب» – فثمة أخرى عالج فيها موضوعاً أوسع من ذلك: فلديه كتاب «الأقاليم» و«كتاب البلدان الصغير» وكتاب «البلدان الكبير» وكتاب «العجائب السبعة». والذي يؤكد ما ذهبنا إليه تلك الاقتباسات التي ينقلها عنه ياقوت الحموي مشيراً في العادة لابن الكلبي إلى كتاب «أنساب البلدان»، والمقصود به في أغلب الظن كتاب «اشتقاق البلدان» الذي ينسبه ياقوت إلى ابن الكلبي في مقدمة «معجم البلدان». وهذه

الاقتباسات تمس بعض المدن خارج جزيرة العرب، مثل الكوفة والرها والمخرم (قرب بغداد) والنهروان.

وتقدم لنا مؤلفات أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري البغدادي (ت 255هـ = 868م) – والبالغ عددها أكثر من (360) كتاباً ورسالة – مادة جغرافية ضخمة، خاصة في كتابه «الحيوان» الذي يحفل بكثير من المعلومات في الجغرافية الحيوانية والإثنوجرافيا (طبائع البلدان)، على الرغم من غلبة الموضوعات الأدبية عليه. وإن هذا الكتاب يمثل معلمة واسعة وصورة لثقافة العصر العباسي المتشعبة.

وللجاحظ كتاب آخر عن صفات ومحاسن الحواضر الكبرى، يدور الكلام فيه عن مواطنيها أكثر مما يدور عن البلاد نفسها، ويتحدث فيه عن البصرة والكوفة وبغداد ودمشق ومصر والفسطاط والري ونيسابور وبلخ وسمرقند. وهذا الكتاب يطلق عليه المسعودي اسم «الأمصار وعجائب البلدان»، ويقابلنا أحياناً بعنوان «كتاب البلدان»، وأشار إليه الثعالبي باسم «خصائص البلدان» ونشره الأستاذ عبد السلام هارون في مجموعة رسائل الجاحظ باسم «الأمصار» أو «الأوطان والبلدان». وقد كان لهذا الكتاب تأثير مباشر على الجغرافيين اللاحقين، فنقلوا عنه وقدروه حق قدره كابن حوقل في كتابه «صورة الأرض = المسالك والممالك»، وابن الفقيه في كتابه «تقويم البلدان» والمسعودي في «مروج الذهب»، وهذا الأخير قال عنه: «كتاب في نهاية الحسن، وإن كان الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار»[772].

ويعد كتاب «المسالك والممالك» لأبي القاسم عبيد الله بن أحمد ابن خرداذبة (ت حوالي 280هـ = 893م) أول مؤلف كامل يصلنا في الجغرافية الوصفية. وابن خرداذبة كان فارسي الأصل مجوسياً، وقدم بغداد وأسلم على يد البرامكة، واتصل بالموسيقى الشهير إسحق الموصلي، فجمع بين الموسيقى والأدب، ونادم الخليفة

العباسي المعتمد (256- 279هـ = 869- 892م) وعين عاملاً على البريد يختص بالإشراف على شؤونه في إقليم الجبال.

و لم يتبع ابن خرداذبة في تأليف كتابه نظاماً دقيقاً، وربما بدا لنا هذا لأن الكتاب لم يصلنا إلا مختصراً. و لم يقتصر فيه على العالم العربي وطرق التجارة الرئيسية فيه، وإنما تحدث – إلى جانب ذلك – عن جهات قاصية عن هذا العالم كالصين واليابان، غير أنه كان يخلط في مواضع عدة بين الحقيقة والشائعات. وقد كان لاهتمامه بالرحلة أن حفظ لنا مادة جيدة خاصة فيما يتعلق بوصف الطرق في عهود مبكرة. وتعد المادة التي جمعها في الكتاب بمثابة الأساس المتين بالنسبة لكثيرين من بعده، وكان تأثيره على الجغرافيين اللاحقين كبيراً (773).

ومن قبيل كتاب ابن خرداذبة: كتاب «البلدان» أو «أسماء البلدان» للمؤرخ والجغرافي الكبير أحمد بن إسحق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي البغدادي مولى بني هاشم (ت 284هـ = 899م) ويطلق عليه أيضاً اسم «المسالك والممالك» كما أشار أبو الفداء.

وعلى الرغم من أن اليعقوبي بغدادي الأصل فإنه أمضى معظم حياته في مصر والمغرب، وقام برحلات طويلة في أرمينية وإيران والهند ومصر والشام وبلاد المغرب، وكان في رحلاته مغرماً بالبحث والتمحيص، ومعتمداً دقة الملاحظة من أجل جمع المعلومات والبيانات التفصيلية عن بنية كل منطقة أو مدينة أو إقليم أو ظاهرة، مما يؤكد وصفه بحق أول البلدانيين الذين جعلوا الرحلة وسيلة أساسية لإثراء المعرفة... وقد وظف ما يملكه من معارف وخبرات ومشاهدات لتسجيل البيانات الوافية والدقيقة عن البلدان التي زارها، مازجاً بين الجغرافيا والتاريخ الحضاري في أكثر من حال، معتبراً الجغرافيا إطاراً مكانياً ووعاء للتاريخ بأبعاده المختلفة.

ويتميز كتاب «البلدان» لليعقوبي بمعلومات دقيقة ومتعددة، وتتناثر فيه محاولات بذلت لتقرير حقائق الجغرافيا الطبيعية وإيضاح الجغرافيا البشرية (الأجناس

والسكان وحياتهم داخل المدن وخارجها)، فضلاً عن الجغرافيا الإقليمية والجغرافيا الاقتصادية (الزراعة والري والمعادن وطرق المواصلات والخراج). وتتجلى فيه عناية خاصة بالنواحي الإحصائية، وفي كل ذلك تفرد بتقديم معلومات جديدة لم يتطرق إليها من سبقه، ويمثل وصفه للخطط التاريخية لبغداد وسامراء أهمية منقطعة النظير، كما يقول كراتشكوفسكي وهذا يعني أن اليعقوبي كان يهتم بوصف المدن وخططها أكثر من اهتمامه بالمسالك والطرق كما عند ابن خرداذبة. ويتميز الكتاب – بالإضافة إلى ما سبق – بجوانب عديدة جيدة عرض لها بعض الباحثين في مجال تاريخ الجغرافيا عند المسلمين[774].

وهناك المدرسة الكلاسيكية الجغرافية، ومثّلها:

أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (ت 322هـ = 933م). وهو رأس هذه المدرسة، ويسمى كتابه «صورة الأرض».

أبو إسحق إبراهيم بن محمد الإصطخري الكرخي (توفي في حدود سنة 346هـ = 957م). واسم كتابه «الأقاليم» أو «المسالك والممالك».

أبو القاسم محمد بن حوقل النَّصيبيني البغدادي التاجر (توفي في حدود 367هـ = 977م). واسم كتابه «صورة الأرض» أو «المسالك والممالك»[775].

وإلى جانب الكلاسيكيين، توافر علماء ساهموا في نشر المعارف الجغرافية وتقدمها، ومنهم:

ابن فضلان: أحمد بن فضلان بن العباس بن رشيد البغدادي. وهو من طلائع الجغرافيين الرحالة، أوفده الخليفة العباسي المقتدر (295- 320هـ = 907- 932م) سنة 309هـ = 921م من قبله إلى ملك البلغار بالفلجا (نهر إتيل). وكان بلغار الفولجا (الصقالبة) قد أرسلوا رسولاً إلى عاصمة الخلافة يطلبون العون ضد ضغط الخزر عليهم من الجنوب، وأن ينفذ إليهم من يفقههم في الدين ويعرفهم بشعائر الإسلام، فأرسلت إليهم سفارة كان من أفرادها ابن فضلان كفقيه ذي خبرة.

وفي طريق عودته إلى بغداد دوّن وصفه لرحلته في كتاب لعله أول ما يعـــول عليـــه بالنسبة لمنطقة ما كان يعلم عنها إلى ذلك الوقت إلا القليل (وهي المنطقة التي تكّـــون روسيا الآن).

ومع أن ابن فضلان لم يتحدث في رسالته عن تفاصيل مهمة ونتائجها إلا أنـــه ترك صورة واضحة للبلغار وحضارتهم وعاداتهم وتجاراتهم، ويحفـــل كتابـــه بمـــادة اثنوجرافية قيمة ومتنوعة وفريدة تمس عدد من القبائل التركية البدوية القاطنة في آسيا الصغرى، وعدداً من الشعوب التي كانت تلعب آنذاك دوراً سياسياً في تاريخ أوربـــا الشرقية كالروس والخزر والبلغار(776).

وإذا انتقلنا إلى الجغرافيا الفلكية والرياضية، فسنجد أن أكثر الذين عنوا بهـــذا المجال هم علماء الفلك والرياضيات بالعراق، مثل محمد بن موسى الخوارزمي القـــائم على خزانة بيت الحكمة ببغداد في خلافة المأمون (ت 236هـــ = 851م) ومحمـــد بن جابر بن سنان المعروف بالبتاني (ت 317هـــ = 929م) وغيرهما. وقد اعتمـــد هؤلاء العلماء في هذا الجانب في بادئ الأمر على كتب اليونـــان، وخاصـــة كتـــابي «المجسطي» (رسالة في الفلك) وكتاب «الجغرافيا»، وكلاهما لبطليموس. والكتـــاب الأخير يمثل في جوهره جداول فلكية لعروض وأطوال النقاط الرئيسية المســـكونة في العالم. وقد اهتم علماء الفلك والرياضيات بالعراق بترجمة هذين الكتابين، وكانـــت أقدم هذه الترجمات وأحسنها تلك الترجمة التي قام بها الخوارزمي لكتاب «الجغرافيا» لبطليموس، والتي يمكن اعتبارها في الوقت ذاته أول رسالة أصيلة في الجغرافيا الرياضية والفلكية عند العرب، وشاملة لجميع العالم المعروف لهم، وذلـــك لأن الكتـــاب وفي الحقيقة – كما يقول كراتشكوفسكي - «ليس بترجمة ولكنه ترتيب لمادة بطليموس على هيئة جداول. مع إضافات واسعة من ميدان الجغرافيـــا العربيـــة وطائفـــة مـــن التعديلات الأخرى».

وقد وضع الخوارزمي كتاباً عن «صورة الأرض» قال عنه نللينو: «إن مثل هذا الكتاب لا تقوى على وضعه أمة أوربية في فجر نهضتها العلمية»، وعالج فيه بصفة أساسية أهم الموضوعات الجغرافية المتعلقة بخطوط طول وعرض الأماكن والجبال والأنهار وأسماء المدن الواقعة على الجانب المعمور من الأرض.

و في الجغرافيا الطبيعية: تناول الجغرافيون العراقيون أمورا تتعلق بعلم ظواهر الجو وعلم المحيطات وعلم وصف الطبيعة، ومن هذه الظواهر: ظاهرة المد والجزر، والعوامل المؤثرة في المناخ وطبيعة الأقاليم المناخية وحركة الرياح، وفصول السنة الأربعة وأوصافها وطبقات الجو، وكيفية تكون الأمطار، وطبيعة الأرض ومكوناتها، والمياه الجوفية، وغير ذلك من الدراسات.

ويُذكر المسعودي (ت 346هـ = 966م) باعتباره أحد المبرزين في الجغرافيا الوصفية، ولكن بجانب ذلك تتناثر هنا وهناك بحوث خلال كتابه «مروج الذهب» تعرض لمعلومات وآراء مهمة في الجغرافيا الطبيعية اكتسبها عن طريق النظر والتجربة والإفادة من خبرات البحارة.

وتفرد اليعقوبي (ت 284هـ = 897م) بمعلومات جديدة في الجغرافيا الطبيعية لم يتطرق إليها من سبقه، ومن أهم ما جلب انتباهه في هذا المجال ظاهرة تضرس الأرض، وتطرق إلى دراسة المناخ واعتبره عاملاً أساسياً في إقامة المدن، ودرس ظاهرة الغيوم التي تسبب الظلام واختفاء ضوء الشمس. وانعكس اهتمامه بظاهرة الأنهار على دراسته للأقاليم.

2- الجغرافية في الأندلس:

ونتحدث الآن عن أهم ما في التراث الأندلسي في هذا المجال، ونبدأ بالمؤسس الأول للجغرافية الأندلسية:

أحمد بن محمد بن موسى الرازي القرطبي (توفي 344هـ = 955م):

صنف أبو بكر الرازي في جغرافية الأندلس كتابين عدهما ابن حزم من مفاخر الأندلسيين:

الأول: في «صفة قرطبة وخططها ومنازل العلماء (والأعيان) بها». تأثر فيه بالمقدمة الجغرافية التي كتبها ابن أبي طاهر طيفور البغدادي لكتابه «أخبار بغداد» وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها.

والكتاب الثاني: يصفه ابن حزم بأنه «كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة وخواص كل بلد منها، وما فيه مما ليس في غيره، وهو كتاب مريح مليح». ويعتقد البعض أن هذا الكتاب ما هو إلا مقدمة جغرافية لكتابه الكبير «أخبار ملوك الأندلس».

وهذه المؤلفات ضاعت ولم يبق منها إلا ما ذكره المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون الذين جاؤوا من بعده، وفي مقدمتهم المقري في «نفح الطيب»، إضافة إلى قطعة في صفة الأندلس وصلت إلينا مترجمة إلى اللغتين الإسبانية والبرتغالية القديمتين.

أبو عبد الله محمد بن يوسف الوراق (توفي 363هـ = 973م):

وأول جغرافي أندلسي كتب في المغرب الإسلامي كتاباً بعنوان «مسالك إفريقية وممالكها» هو أبو عبد الله محمد بن يوسف التاريخي الوراق (توفي 363هـ = 973م)، صنفه للخليفة الأندلسي الحكم المستنصر، وصنف له أيضاً كتباً في أخبار ملوك إفريقية وحروبهم والغالبين عليهم، وكذلك ألف أيضاً في أخبار تيهرت ووهران وتنيس وسجلماسة ونكور وبصرة المغرب وغيرها تواليف حساناً.

وكتاب الوراق عن مسالك إفريقية استصفاه أبو عبيد البكري الأندلسي (توفي 487هـ = 1094م) في كتابه «المسالك والممالك»، فقد اعتمد عليه اعتماداً تاماً في الجزء الذي كتبه عن إفريقية والمغرب «ويسند إليه ما يقتبسه منه أحياناً، ولكنه لا يسند أحياناً أخرى، ولهذا لا نستطيع أن نتبين على وجه التحديد نصيب الوراق من

كتاب البكري خاصة وأن هذا الأخير لم يكن مجرد ناقل، بل كان جغرافياً متصرفاً يعدل فيما ينقله ويزيد عليه وينقص منه».

إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي اليهودي (من أهل القرن الرابع الهجري):

ويوجد في التراث الأندلسي أثر جغرافي ممتاز لأحد الرحالة اليهود الأندلسيين يدعى «إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي»، عاش في القرن الرابع الهجري، وكان يشتغل بتجارة الرقيق، ولهذا كان يقوم برحلات إلى ألمانيا وبلاد الصقالبة وشمالي أوربا، ويقال: «إنه كتب رسالة للحكم المستنصر عن رحلة قام بها إلى ألمانيا أيام الإمبراطور (أوتو Otto) وذلك في حدود عام (354هـ = 965م)، واحتفظ لنا البكري بجانب كبير من هذه الرسالة فيما يبقى لنا من أجزاء جغرافية. وقد سجل إبراهيم بن يعقوب في رسالته معلومات واسعة عن إمارات الصقالبة في أوربا الوسطى في ذلك العصر، وحدثنا عن أربعة منها هي: بلغاريا وبولندا والتشيك وإمارة ناكون الأبدريتي (Nakon of Abdorites)، وأورد تفاصيل وافية عن بعض المدن الساحلية أو القريبة من الساحل بفرنسا وهولندا وألمانيا، وطريقته أن يذكر البلدان ويصفها ويعدد حاصلاتها وما يتاجر فيه أهلها، ثم يذكر الطرق ومسافاتها بالأميال. وكل ذلك بتفصيل واسع تتخلله معلومات هامة عن الأحوال الاجتماعية والسياسية. وبهذا يكون كتابه أقرب إلى كتب البلدانيين والمسالكيين.

وقد اعتمد أبو عبيد البكري على ما كتبه إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي اعتماداً يكاد يكون تاماً فيما كتب عن وسط أوربا وشرقها والقطع التي أدرجها في «مسالكه» هي أطول ما بقي من كتابه وأدلة على طبيعة ماداته الجغرافية.

أبو عبيد البكري (توفي 487هـ = 1094م):

ويعد الوزير أبو عبيد: عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي نزيل قرطبة (توفي 487هـ = 1094م) أكبر جغرافي أندلسي ظهر في القرن الخامس الهجري بل هو «أكبر جغرافي أنجبه الأندلس» كما يقول «دوزي». وقد اكتسب هذا اللقب

نتيجة دراساته العميقة وخبرته الواسعة في هذا المجال. وهو واحد من فحول العلماء الذين أطلعهم الأندلس خلال ذلك القرن كالعذري (ت476هـ = 1054م) وابن حزم الظاهري (ت456هـ = 1063م) وابن حيان صاحب «المقتبس» (ت469هـ = 1076م) وابن بسام صاحب «الذخيرة» (ت542هـ = 1147م) وغيرهم من الموسوعيين.

كان البكري من أهل اللغة والآداب الواسعة والمعرفة بالأنساب والأخبار، وتعكس كتبه ثقافته الموسوعية التي تجاوزت العلوم الأدبية واللغوية إلى الطب والصيدلة والنبات والجغرافيا. ومن آثاره في هذا المجال الأخير كتابان:

«معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع»: وهو معجم لغوي جغرافي يصف جزيرة العرب ومرتب على حروف الهجاء حسب ترتيبها عند الأندلسيين في عصره، يذكر فيه البكري – كما يقول في مقدمته – «جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار، والجبال والآثار، والمياه والآبار، والدارات والحرار». ويتألف الكتاب من سبعمئة وأربعة وثمانين باباً، تضم خمسة آلاف ومئتي موضع. ويعده البعض معجماً لغوياً أكثر من كونه معجماً جغرافياً حيث إن الذي دفعه إلى تصنيفه شيوع التصحيف في أسماء المواضع بين الناس، ولا نكاد نجد لهذا المعجم نظيراً في معاجم البلدان من حيث غزارة المادة وكثرة التفاصيل واكتمال العناصر ودقة المنهج وتمام الضبط وجمال الأسلوب وتحرير العبارة. والذي يزيد من قيمة هذا الكتاب – إلى جانب الدقة العالية في الضبط والتحري – تلك المقدمة الطويلة التي يعين فيها البكري حدود جزيرة العرب وأقسامها (الحجاز وتهامة واليمن) ويتحدث فيها عن القبائل العربية التي نزلت هذه النواحي وما أصاب هذه المنازل من تغيير.

وإذا كانت مدرسة (بغداد = المشرق) قد شهدت تجربة نظيرة لتجربة معجم البكري فإن التجربة الأندلسية في مجال المعجم الجغرافي سبقت التجربة المشرقية في

هذا المجال، حيث يعد (معجم ما استعجم) رائد الحركة اللغوية الجغرافية في شكلها الناضج، وأعلن بظهور ميلاد نوع جديد من المعاجم العربية المتخصصة[777].

أما الجغرافي الذي يتحتم علينا أن نتحدث عنه بشيء من التفصيل؛ فهو الإدريسي (560 هـ = 1166م) محمد بن محمد بن عبد الله الشريف الإدريسي، يتصل نسبه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولد في سبتة التي لا زالت تحت الاحتلال الإسباني، ثم انتقل إلى قرطبة وتلقى فيها علومه.

تعددت معارف الإدريسي في الفلك وعلم النبات والتاريخ والشعر، واهتم بالطب والصيدلة، ولكن اهتمامه الأول الذي قضى فيه جل وقته كان العلوم الجغرافية التي أبدع فيها أيما إبداع[778].

وعُدّ الإدريسي بين مؤرخي العلوم أهم جغرافيّ المسلمين وأكثرهم أثراً، وأهم نشاطاته رحلته المشهورة التي زار خلالها مدن الأندلس والمغرب وبلاد البحر المتوسط والمشرق العربي وآسيا الصغرى، وبعض بلاد أوروبة، ووصل إلى سواحل إنكلترا الغربية والبحر الأسود، وانتهت رحلته في صقلية فنزل عند ملكها روجر الثاني فأكرمه، وصنف له مصنفات اشتهرت فيما بعد، ورسم له بعض الخرائط، ووضع له أول كرة أرضية عُرفت في العالم من الفضة الخالصة، رسم عليها أنحاء الأرض رسماً غائراً، وكل ما يتعلق بالعالم من جبال وأنهار وغير ذلك، وبإبداعه كرة سماوية من الفضة يكون الإدريسي من أوائل القائلين بكروية الأرض كبقية أبناء جلدته من علماء المسلمين.

أبدع الإدريسي خريطة تمثل المسكون والمعمور من الكرة الأرضية في عصره، ورسمه محصوراً بين خط العرض 63 شمالاً وعد ما بعده شمالاً منطقة ثلجية، وبين خط العرض 16 جنوباً حيث منابع النيل من هضبة البحيرات الاستوائية، وكانت هذه الخريطة منقوشة على جدار قصر من قصور بالرمو عاصمة صقلية، وفُقدت بعد

اهدامه في أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان قد نقلها قبل ذلك عالم ألماني وسجل وترجم الأسماء التي عليها للألمانية، ويحتفظ المتحف الوطني ببغداد بنسخة منها.

قسّم الإدريسي الأرض إلى سبعة أقاليم متوازية، يبدأ الأول عند خط الاستواء وينتهي السابع عند البلدان الشمالية ويحده بحر الظلمات، وقسم كل إقليم من هذه الأقاليم سبعة أقسام، وكل ذلك كان في كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » الذي يعد أكمل بحث جغرافي ورثته أوروبا عن المسلمين، ثم إن الدقة والضبط اللذين بيّن بهما الإدريسي تقسيماته، وأهمية التفاصيل التي ذكرها، تجعل من هذا العمل وثيقة ثمينة في علم الجغرافيا.

وقدّم الإدريسي للملك روجر الثاني سبعين خريطة تقول عنها هونكه أنها «خرائط تفوق خريطة بطليموس الشهيرة في دقتها ووضوحها وقلة أخطائها ».

وكتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » من أثمن الكتب قيمة في علم الجغرافية، وهو أصح كتاب وُصفت به أوروبا آنذاك، ويتضمن أصح مصدر على عهده تناول فيه جغرافية الأرض كاملة، وعين عليها خط الاستواء، وضبط درجات الطول والعرض للبلدان، وكل من كتب عن الغرب من علماء المسلمين أخذ عنه، وقد تُرجم إلى لغات عدة، كما لُخص ونُقل إلى اللاتينية في القرن العاشر الهجري = السادس عشر الميلادي.

وبقيت جامعات أوروبا تدرس هذا الكتاب زهاء أربعة قرون، والقيمة الرئيسية لكتابه هذا تقوم على الخرائط السبعين التي تعطينا صورة عن العالم أكثر دقة من أي مجموعة أخرى من الخرائط، ومن بين سماتها قول الإدريسي بكروية الأرض في زمان ساد خلاله الاعتقاد بأنها مسطحة، ويقينه ينابيع النيل، وهو صنع لا يزال كثيرون يعدونه حتى اليوم اكتشافاً غريباً لا يرقى إلى أبعد من القرن التاسع عشر الميلادي.

إذن حدد الإدريسي منابع النيل والحيوانات المتواجدة فيه، ووصف المناطق المحيطة به، وميّز حدود البحيرات الاستوائية التي فشل بها علماء أوروبا.

ولا يعرف أن أحداً سبق الإدريسي إلى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا، كما حفظت الخرائط التي بقيت في بعض المتاحف الأوروبية، ومنها خريطة محفوظة في متحف سان مارتين الفرنسي ترسم النيل آتياً من بحيرات إلى جنوب خط الاستواء، بعد أن تخبط الجغرافيون في وصف منابعه وتعليل فيضانه.

ونجد في كتاب الإدريسي كذلك وصفاً شاملاً لمدن العالم المعروف، ووصفاً دقيقاً للأقاليم المختلفة، وللنباتات التي تنمو فيها، ومختلف الزراعات والسكان، وتحقيقاً للبحار والجبال والأنهار والوديان والسهول، كما يقدم لنا أيضاً بياناً عن المحصولات المختلفة، والفواكه وخاصياتها، ووصفاً حسناً للفنون والحرف التي يحسنها سكان الأقاليم المختلفة، وخاصياتها وعاداتها وتقاليدها وخلفياتها وأدياتها وملابسها ولغاتها.

وقد جمع الإدريسي مادة هذا الكتاب من المصادر الإغريقية والإسلامية، وأضاف إليها الكثير من خبراته الشخصية وتقاريره التي تمخضت عنها أسفاره الواسعة، فجاء الكتاب موسوعة شاملة تجمع بين الجغرافية الوصفية، والجغرافيا الفلكية، والجغرافية الرياضية، ففيه نجد عالمنا يتناول الأقاليم المناخية السبعة للأرض التي صورها في خريطته، ويصف بلدانها، وجبالها، وأنهارها، وغلاتها، وأجناسها البشرية، وأنشطتها الاقتصادية، وصناعتها، وفنونها، وثقافتها، وقد بلغ درجة عالية من التمكن والاقتدار خصوصاً في وصفه للبحر المتوسط، وما يلحق به من بلدان، ووصفه للقارة الأوروبية وأقاليمها، وساق الإدريسي في ثنايا كتابه معلومات طريفة للغاية، وآراء كبيرة الأهمية، منها مثلاً هذه المقولة العجيبة عن البحر المتوسط: «... كان بركة منحازة (أي معزولة)، و لم يكن يتصل ببحر الظلمات، وكان أهل المغرب يغيرون على الأندلس، إلى أن شكوا أمرهم إلى الإسكندر الذي أحضر الفعلة

والمهندسين وأمر بحفر الأرض بين طنجة وبلاد الأندلس، وبنى رصيفاً ووصل بين البحرين فطغى الماء وغرقت مدن كثيرة ».

وإذا ما تأملنا هذه الكلمات، وإذا ما تغاضينا عن الإشارة إلى الإسكندر والعمل الهندسي المزعوم الذي تنسبه هذه المقولة إليه، فسوف نجدها تتضمن حقيقتين علميتين أثبت العلم صحتهما:

الأولى: وهي حقيقة جيولوجية، أن البحر المتوسط كان في العصور الغابرة يتكون من بحيرتين، غربية مالحة، وشرقية عذبة، وكان يغذي هذه الأخيرة نهر النيل ونهر قديم توقف عن الجريان يعرف بالنهر الأدرياتي، وعند نهاية العصر الجليدي منذ 25 ألف عام ارتفع مستوى الماء في المحيط الأطلنطي بعد ذوبان البقعة الجليدية الهائلة التي كانت تكسو القسم الشمالي من كوكبنا، فاتسع البحر المتوسط واتصل بالمحيط الأطلنطي، وغرقت أراضٍ لم تكن مغمورة في السابق.

والثانية: وهي حقيقة أنثروبولوجية، أنه حدثت بالفعل هجرات قديمة من أقصى غرب الشمال الإفريقي على شبه جزيرة إيبريا عبر منطقة الاتصال البري قبل اتصال البحر المتوسط بالمحيط الأطلنطي.

ولا زالت تُسمع إلى اليوم أصداء أفضال الإدريسي على أوروبا، فهذا العالم (أوثر لا يسي) يقول أمام وفود عربية في حفلة عقدت في مدينة ديترويت الأمريكية: «إنني كفرد ينتمي إلى العنصر الغربي أعترف بأننا مدينون لكم معشر العرب وأنتم الدائنون، وعلى هذا أقف بينكم الليلة لأوفيكم ولو شيئاً من حقكم، جرت العادة أن يرجع الناس بأصول مدنيتنا الغربية إلى اليونان والرومان، مع أن آثارهما كانت في زوايا نظرية وفلسفية بحتة، ولو لم يقدر لها أن تناولتها أيدي علماء العرب لأصاب إنتاجهم الوهن والاضمحلال، ولا يجب أن ننسى ما قدمه الشريف الإدريسي من معلومات عن صورة الأرض، وكذلك الكرة الفضية التي تضمنت صور الأقاليم ببلادها وأقطارها التي صنعها لروجر الثاني ملك صقلية ».

و يقول البارون دي سيلان عن كتابه « نزهة المشتاق »: «.. إنه كتـــاب لا يقارن به أي كتاب جغرافي قبله، وهو لا يزال دليلنا إلى بعض أنحاء الأرض».[779].


Damascus University

حواشي توثيقات الكتاب

(1) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبع مصر 1285هـ ج3. ص109 وما بعدها.

(2) ابن هشام: السيرة النبويه، دار إحياء التراث العربي، بيروت ج2 ص158.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت 1967، ج2 ص35.

(4) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير، تحقيق sochav طبعة Leiden، 1905 ج1 ص20.

(5) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبعة مصر 1285هـ ج3 ص193، 194.

(6) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص226.

(7) النوبختي: كتاب فرق الشيعة صححه محمد الصادق، النجف 1936، ص33 و 39.

(8) النوبختي: كتاب فرق الشيعة، صححه محمد الصادق، النجف، 1936، ص33.

(9) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج4، ص37.

(10) الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، الطبعة الأولى، القاهرة،1960 ص342.

(11) ابن كثير: البداية والنهاية، دار المعارف، بيروت، ط2، 1977، ج10، ص52.

(12) الطبري: تاريخ الطبري محمد بن جرير، تاريخ الطبري: تاريخ الطبري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعارف بمصر، طبعة 14 1966م، ج7 ص426.

(13) العبادي، عبد لحميد: صور وبحوث في التاريخ الإسلامي، الاسكندرية 1948م، ج2، ص70.

(14) الجهشياري، محمد بن عبدوس: الوزراء والكتاب تحقيق مصطفى القا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1938م، ص90.

(15) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 40.

(16) علي، محمد كرد: خطط الشام دمشق، 1925م، ج5 ص16.

(17) أمين، أحمد: ضحى الإسلام، القاهرة، ط1، 1933م، ج1 ص165.

(18) الطبري: تاريخ الطبري: تاريخ الطبري ج7 ص449.

(19) الطبري: تاريخ الطبري، ج7 ص470، 471.

(20) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، تحقيق الأمير مهنا، مؤسسة الأعظمي للمطبوعات، بيروت، ط1993،1م، ج2، ص302.

(21) الطبري: تاريخ الطبري، ج7 ص482.

(22) الطبري: تاريخ الطبري، ج7 ص490، 491.

(23) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص66، 76.

(24) الطبري: تاريخ الطبري، ج7 ص596، 646.

(25) الطبري: تاريخ الطبري، ج7، ص497.

(26) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص26.

(27) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص26.

(28) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص26.

(29) الحموي ياقوت: معجم البلدان، دار صـــادر، بـــيروت، 1979م، ج1 ص456، 457.

(30) الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت، 1966م، ص172، 173.

(31) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج5 ص52، 53.

(32) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف أسعد داغر: دار الأندلس، بيروت، 1966م، ج3 ص312، 313.

(33) عمر، فاروق: التاريخ الإسلامي وفكر القـــرن العشـــرين، بغـــداد، ج2 1985م، ص113، 114.

(34) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب، ص165.

(35) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص211، 212.

(36) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، النجف، 1967م، ج2 ص471.

(37) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص60.

(38) الطقطقي: الفخري في الأداب السلطانية، ص180.

(39) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص192، دار المعارف، مصر،1966م،

(40) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2 ص348.

(41) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص76.

(42) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص90.

(43) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص207.

(44) الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص193.

(45) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، تحقيق أحمد صقر، بيروت، ط2، 1978م، ص401.

(46) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص256.

(47) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص314.

(48) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2 ص386.

(49) البلخي: البدء والتاريخ، باريس 1899، 1907م، ج6 ص104.

(50) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب، ص177.

(51) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب، ص254.

(52) العمرو، عبد الرحمن: أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول، ط5، 1993م، ص236.

(53) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب، ص246.

(54) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص321، 322.

(55) Runcimjn, s: chotlemjgne and palestin eip607
Einhard: The Life of charlemagne p42. English Histori cjl Review I. London 1953

(56) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3 ص353، 354.

(57) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص240، 241.

(58) الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، ص222.

(59) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص361.

(60) الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، ص289.

(61) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص374.

(62) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص472، 489.

(63) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3 ص443.

(64) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص554، 555.

(65) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص574.

(66) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص528.

(67) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص598.

(68) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص232.

(69) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص232.

(70) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2 ص423.

(71) الدينوري: الأخبار الطوال، دار الفكر الحديث، بيروت 1988م، ص280.

(72) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص623.

(73) الطبري: تاريخ الطبري، ج8 ص650.

(74) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص472.

(75) الطبري: تاريخ الطبري، ج9 ص54، 55.

(76) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3 ص465.

(77) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3 ص466.

(78) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5 ص226.

(79) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3 ص464.

(80) الطبري: تاريخ الطبري، ج9 ص56.

(81) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2 ص436.

(82) الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص236.

(83) الطبري: تاريخ الطبري، ج9 ص129.

(84) الطبري: تاريخ الطبري، ج9 ص135.

(85) الطبري: تاريخ الطبري، ج9 ص150، 151.

(86) العش، يوسف: تاريخ عصر الخلافة العباسية، الطبعة 9، 2009م، ص138.

(87) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6ص116.

(88) السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط4، 1969م، ص340.

(89) المسعودي: مووج الذهب ومعادن الجوهر، ج4ص3.

(90) الطبري: تاريخ الطبري، ج9 ص168، 169.

(91) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص210.

(92) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص256، 258.

(93) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص251.

(94) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص262.

(95) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ج4ص79.

(96) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2ص468.

(97) الطبري: تاريخ الطبري، ج9 ص389.

(98) ابن عمراني، محمد بن علي بن محمد: الأنباء في تاريخ الخلفاء، باهتمام تقي بينش، إيران، مشهد، ص98.

(99) المسعودي: مروج الذهب، ج4ص96.

(100) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص392.

(101) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص456.

(102) الطبري: تاريخ الطبري، ج10 ص20.

(103) المسعودي: مروج الذهب، ج4ص142.

(104) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6 ص534.

(105) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص410.

(106) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص412.

(107) علبي، أحمد: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، دار الفارابي، بيروت، 1991م، ص54.

(108) عمر، فاروق: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص335.

(109) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص414.

(110) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2ص474.

(111) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص631.

(112) علبي، أحمد: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، ص145.

(113) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص620.

(114) صبحي، أحمد محمود: نظرية الإمامة لدى الشيعة الأثني عشرية، دار اليقظة العربية، بيروت، 1991م، ص380.

(115) كاهن، كلود: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة ببيروت ط3، 1983م، ص178.

(116) الخضري، الشيخ محمد: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، المكتبة التجارية الكبرى. ط10، القاهرة، ص300.

(117) ابن خلدون: العبر، ج3ص147.

(118) ابن خلدون: العبر، ج3ص350.

(119) الطبري: تاريخ الطبري، ج10ص99.

(120) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6ص111.

(121) الطبري: تاريخ الطبري، ج10ص138.

(122) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6ص175.

(123) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6ص203.

(124) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6ص200.

(125) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص386.

(126) المسعودي: مروج الذهب، ج4ص221.

(127) مسكوية، أبو علي أحمد بن محمد: تجارب الأمم، طبعة أحد روز. القاهرة، 1914، 1919م، ج1ص351.

(128) مسكوية: تجارب الأمم، ج1ص351.

(129) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6ص254.

(130) مسكوية: تجارب الأمم، ج1ص393.

(131) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أخبار الراضي بالله والمتقي بالله، نشر هيورث دك، القاهرة، 1935م، ص106

(132) مسكوية: تجارب الأمم، ج2ص9.

(133) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6ص276.

(134) مسكوية: تجارب الأمم، ج2ص23.

(135) ابن عمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص134.

(136) مسكوية: تجارب الأمم، ج2ص28.

(137) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص395.

(138) ابن عمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص141.

(139) مسكوية: تجارب الأمم، ج2ص141.

(140) حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة ط7، 1964م، ج3ص35.

(141) الحموي: معجم البلدان، ج4ص446.

(142) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6ص234.

(143) إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام، تعريب محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990م، ص40.

(144) ابن الأثير: الكامل، ج6 ص235.

(145) ابن الأثير: الكامل، ج6ص246.

(146) ابن الأثير: الكامل، ج6ص239.

(147) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت 1968، 1971، ج2ص118.

(148) ابن الأثير: الكامل، ج6ص263.

(149) محمود، حسن أحمد والشريف، أحمد إبراهيم: العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط5، ص512.

(150) ابن الأثير: الكامل، ج6ص292.

(151) ابن الأثير: الكامل، ج6ص315.

(152) محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص524.

(153) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ليبزك، 1878م، ص132.

(154) العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت 1972م، ص163.

(155) الزهراني، محمد بن مسفر: نظام الوزارة في الدولة العباسية، العمران البويهي والسلجوقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1986م، ص24.

(156) الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص24.

(157) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4ص276.

(158) مسكويه: تجارب الأمم، ج2ص86.

(159) ابن عمراني، محمد بن علي بن محمد: الأبناء في تاريخ الخلفاء، ص148.

(160) السيوطي، عبد الرحمن: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط4 1969، ص172.

(161) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي بالله، ص131.

(162) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6ص314.

(163) الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص26.

(164) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تـــاريخ الملـــوك والأمم، دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الركن 1357هـــ، ج7ص87.

(165) ابن الجوزي: المنتظم، ج7ص92.

(166) الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص27.

(167) ابن الجوزي: المنتظم، ج8ص30.

(168) محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص520.

(169) ابن الأثير: الكامل، ج7ص65.

(170) ابن الجوزي: المنتظم، ج7ص113.

(171) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12ص43.

(172) ابن الأثير: الكامل، ج8ص48.

(173) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6ص315.

(174) ابن خلدون: العبر، ج3ص425.

(175) ابن خلدون: العبر، ج3ص429.

(176) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7ص147.

(177) الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص291.

(178) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7ص214.

(179) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7ص268.

(180) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12ص66.

(181) ابن خلدون: العبر، ج3ص459.

(182) الحسيني، صدر الدين بن علي: أخبار الدولة السلجوقية، باعتناء عباس إقبـــال، دار الآفاقة الجديدة، بيروت، ط 1، 1984م، ص 2، 3.

(183) فامبري، آرمينيوس: تاريخ بخارى في أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة محمود الساداتي، المؤسسة العربية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1965م، ص127.

(184) الراوندي، أبو بكر محمد بن علي، راحة الصدور (تاريخ الدولة السلجوقية): تعريب الشواربي، الصياد وحسنين، دار القلم، القاهرة، 1960م، ص 168، 169.

(185) ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان، دار المشرق، بيروت، 1986م، ص 90.

(186) ابن الأثير: الكامل، ج 8 ص 83.

(187) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص 18.

(188) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 8 ص 77.

(189) محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص 563.

(190) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 104.

(191) ابن عمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص 161.

(192) ابن الأثير: الكامل، ج 8 ص 87.

(193) ابن الأثير: الكامل، ج 8 ص 89.

(194) البنداري، الفتح بن عل بن محمد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1980، ص 21.

(195) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص 21.

(196) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، ص 46.

(197) ابن الأثير: الكامل، ج 8 ص 92.

(198) ابن الأثير: الكامل، ج 8 ص 109.

(199) ابن الأثير: الكامل، ج 8 ص 122.

(200) ابن الأثير: الكامل، ج 8 ص 121.

(201) ابن عمراني: الأنباء في تاريخ الخلفاء، ص 170.

(202) ابن الأثير: الكامل، ج 8 ص 345.

(203) ابن الأثير: الكامل، ج 9 ص 352.

(204) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 9 ص 32.

(205) الراوندي: راحة الصدور، ص 382.

(206) البنداري: راحة الصدور، ص 268.

(207) ابن الأثير: الكامل، ج 9 ص 255.

(208) الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية، العهدان البويهي والسلجوقي، ص 67.

(209) القلقشندي، أبو العباس أحمد: صح الأعشى في صناعة الإنشاء، منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة، 1913، 1917م، ج 4 ص 458.

(210) أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين: الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، 1965م، ج 1 ص 24.

(211) ابن الأثير: الكامل، ج 9 ص 205.

(212) الجويني، عطا ملك: تاريخ قاهر العالم، ترجمة أحمد آلتونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، حلب، 1985م، ج 1 ص 60.

(213) الجويني: تاريخ قاهر العالم، ج 2 ص 29،

(214) إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص 332.

(215) العريني: السيد الباز: الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، 1982م، ص 142.

(216) رشيد الدين، فضل الله بن عماد الدولة الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران، ترجمة نشأت وهمذاوي والعباد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1970م، ج 2 ص 236.

(217) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص 333.

(218) الصياد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، ص 252.

(219) صفا، ذبيح الله: تاريخ آدبيات درايران، طهران، 1329هـ، ج 3، ص 120.

(220) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 465.

(221) الجويني: تاريخ قاهر العالم، ج 2 ص 363.

(222) رشيد الدين: جامع التواريخ، ج 2 ص 271.

(223) العريني، الدولة البيزنطية، ص 216.

(224) حسن: تاريخ الإسلام السياسي والدين والثقافي والاجتماعي، ج 4 ص 156.

(225) رشيد الدين: جامع التواريخ، ج 2 ص 272.

(226) ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ الزمان. ص 307، دار المشرق، بيروت، 1986م.

(227) رشيد الدين: جامع التواريخ، ج 2 ص 290.

(228) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 13 ص 201.

(229) ابن كثير: البداية و النهاية، ج 13 205.

(230) الطبري: تاريخ الطبري، ج8ص577.

(231) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2ص413.

(232) الطبري: تاريخ الطبري، ج8ص595.

(233) ابن خلدون: العبر،ج3ص309.

(234) ابن الأثير: الكامل، ج6ص143.

(235) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2ص459.

(236) ابن خلكان: وفيات الأعيان وفيات الأعيان، ج6ص412.

(237) الطبري: تاريخ الطبري، ج9ص514.

(238) ا بن الأثير: الكامل، ج6ص21.

(239) ابن الأثير: الكامل، ج6ص62.

(240) ابن خلكان: وفيات الأعيان وفيات الأعيان، ج6ص424.

(241) الطبري: تاريخ الطبري، ج10ص7.

(242) إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص113.

(243) ذبيح الله، صفا: تاريخ أديبات در إيران، ج1ص204.

(244) ابن الأثير: الكامل، ج6ص4.

(245) ابن الأثير: الكامل، ج6ص503.

(246) إقبال: تاريخ إيران، ص146.

(247) ابن الأثير: الكامل، ج6ص96.

(248) إقبال: تاريخ إيران، ص144.

(249) بارتولد، فاسيلي فلاد يميروفتش: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي. تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، 1981م، ص371.

(250) إقبال: تاريخ إيران، ص162.

(251) ابن خلكان: وفيات الأعيان وفيات الأعيان، ج1ص152.

(252) ابن الأثير: الكامل، ج7ص86.

(253) ابن الأثير: الكامل، ج7ص196.

(254) ابن الأثير: الكامل، ج7ص196.

(255) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج3 ص87.

(256) ابن الأثير: الكامل، ج7ص163.

(257) ابن الأثير: الكامل، ج6ص284.

(258) ابن الأثير: الكامل، ج6ص312.

(259) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب بنيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1988م، ص242.

(260) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: يتيمة الدهر، القاهرة، 1934م، ج1ص21.

(261) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ج3ص7.

(262) ابن الأثير: الكامل، ج6ص250.

(263) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج3ص14.

(264) ابن الأثير: الكامل، ج6ص250.

(265) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف: كتاب الولاة والقضاة، مطبعة الآباء اليسوعين، بيروت، 1908م، ص225.

(266) الطبري: تاريخ الطبري، ج10ص8.

(267) الطبري: تاريخ الطبري، ج10ص20.

(268) ابن تغري بردي: النجوم، ج3ص134.

(269) ابن تغري بردي: النجوم، ج3ص251.

(270) الكندي: كتاب الولاة والقضاة، ص288.

(271) ابن الأثير: الكامل، ج7ص104.

(272) ابن الأثير: الكامل، ج7ص163.

(273) ابن تغري بردي: النجوم، ج4ص18.

(274) الطبري: تاريخ الطبري، ج3ص200.

(275) الطبري: تاريخ الطبري، ج3ص240.

(276) الطبري: تاريخ الطبري، ج3ص143.

(277) زكار، سهيل: الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان، دمشق، ط3، 1987م، ج1ص42.

(278) الشهر ستاني، محمد عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1968، ج1ص167.

(279) عماد الدين، إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، 1984م، السفر الرابع ص334.

(280) زكار: الجامع في أخبار القرامطة، ج1ص164.

(281) ابن عذارى، أبو محمد عبد الله محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج. س. ولان، وإ. ليفي بروفنسال، ليدن، 1948، ج1ص143.

(282) ابن عذارى، ج1ص210.

(283) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1967م، ج1ص97.

(284) ابن الأثير: الكامل، ج7ص280.

(285) المقربزي: اتعاظ الحنفا، ج1ص233.

(286) ابن خلكان: وفيات الأعيان وفيات الأعيان، ج5ص227.

(287) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1ص230.

(288) ابن الأثير: الكامل، ج7ص318.

(289) ابن الأثير: الكامل، ج7ص338.

(290) ابن خلكان: وفيات الأعيان وفيات الأعيان، ج5ص371.

(291) حتي، فيليب: تاريخ العرب (مطول)، بيروت، 1965م، ص735.

(292) ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ الزمان، دار الشرق، بيروت، 1986، ص70.

(293) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1ص274.

(294) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1ص292.

(295) الأنطاكي، يحيى بن سعيد: تاريخ الإنطاكي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس بوس، طرابلس، لبنان، 1990، ص240.

(296) ماجد، عبد المنعم: الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي المفترى عليه، القاهرة، 1959م، ص86.

(297) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5ص293.

(298) الأنطاكي: تاريخ الإنطاكي، ص334.

(299) الأنطاكي: تاريخ الإنطاكي، ص306.

(300) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2ص89.

(301) الأنطاكي: تاريخ الإنطاكي، ص366.

(302) المسبّحي، الأمير المختار عز الملك محمد: أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1978م، ص77.

(303) ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف، أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1981، ص24.

(304) ابن ميسر: أخبار مصر، ص40.

(305) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1ص280.

(306) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق ط1، 1983م، ص175.

(307) ابن ميسر: أخبار مصر، ص61.

(308) ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، النشرات الإسلامية، شتوتجارت، 1992، ص5.

(309) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5ص158.

(310) ابن خلدون: العبر، ج6ص130.

(311) القلقشندي: صبح الأعشى، ج5ص159.

(312) مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1992م، ج1ص340.

(313) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1ص156.

(314) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1ص152.

(315) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1ص158.

(316) ابن الأثير: الكامل، ج5ص104.

(317) الحموي: معجم البلدان، ج4ص75.

(318) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1ص13.

(319) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، القاهرة، 1966، ص385.

(320) ابن الأثير: الكامل، ج6ص129.

(321) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص422.

(322) الطبري: تاريخ الطبري، ج8ص198.

(323) الطبري: تاريخ الطبري، ج10ص29.

(324) الحموي: معجم البلدان، ج14ص23.

(325) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص465.

(326)البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسي: جغرافية الأندلس وأوروبا، من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت، ط 1، 1998م، ص 75.

(327) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أحداثها والحروب الواقعة بينهم، مدريد، 1867م، ص 5.

(328) بيضون، إبراهيم: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجر، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م، ص 296.

(329) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص 6.

(330) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص 7.

(331) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 2 ص 8.

(332) عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس: العصر الأول، القسم الأول، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1970م، ص 52.

(333) ابن القوطية، أبو بكر محمد القرطبي: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله الطباع؛ مؤسسة المعارف، بيروت، ط 1، 1994، ص 78.

(334) ابن الأثير: الكامل، ج 4 ص 144.

(335) ابن الأثير: الكامل، ج 4 ص 144.

(336) بيضون، إبراهيم: الدولة العربية في الأندلس، ص 90.

(337) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 79.

(338) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص26.

(339) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 80.

(340) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص 24.

(341) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس، ص 29.

(342) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 30.

(343) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 32.

(344) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 83.

(345) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 83.

(346) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 26.

(347) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 27.

(348) الغنيمي، عبد الفتاح مقلد: معركة بلاط الشهداء، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 1966م، ص 72.

(349) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، ج 1 ص 109.

(350) بيضون: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجر، ص 159.

(351) أرسلان، شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 106.

(352) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 86.

(353) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص 85.

(354) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص 89.

(355) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص 93.

(356) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص 96.

(357) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص 107.

(358) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 53.

(359) ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الإسلام من ملوك الإسلام، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتفاني، الدار البيضاء، 1964م، ص 9.

(360) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج 1 قسم 1، ص 175.

(361) بيضون: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجر، ص 203.

(362) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 62.

(363) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 97.

(364) ابن الأثير: الكامل، ج 5 ص 311.

(365) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص 15.

(366) ابن القوطية: البيان المغرب، ص 98.

(367) ابن القوطية: البيان المغرب، ص 101.

(368) العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 333.

(369) ابن القوطية: البيان المغرب، ص 103.

(370) بيضون: ملامح التيارات السياسية، ص 245.

(371) ابن الفرضي، عبد الله بن يوسف الأزدي: تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية، القاهرة، 1966م، ص 28.

(372) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 1 ص 83.

(373) بيضون: ملامح التيارات السياسية، ص 255.

(374) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 86.

(375) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 87.

(376) المقري: نفح الطيب، ج1 ص 323.

(377) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 90.

(378) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 114.

(379) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 120.

(380) ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإسلام في ملوك الإسلام: ص 28.

(381) ابن عذارى: البيان المغرب، ص 157.

(382) ابن عذارى: البيان المغرب، ص 158.

(383) ابن عذارى: البيان المغرب، ص 161.

(384) ابن عذارى: البيان المغرب، ص 169.

(385) المقري: نفح الطيب، ج 1 ص 330.

(386) العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 380.

(387) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 172.

(388) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 175.

(389) الحميدي، أبو عبد الله محمدة، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، المكتبة الأندلسية، 3 تراثنا، ص 42.

(390) بيضون: الدولة العربية في الأندلس، ص 318.

(391) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 213.

(392) المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963، ص 55.

(393) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 218.

(394) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 235.

(395) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 236.

(396) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 244.

(397) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 247.

(398) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 253.

(399) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 275.

(400) ابن الخطيب: إعمال الاعلام، ص 98.

(401) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 280.

(402) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 2 ص 5.

(403) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 3 ص 37.

(404) ابن الخطيب: إعمال الاعلام، ص 66.

(405) ابن الخطيب: إعمال الاعلام، ص 97.

(406) ابن الخطيب: إعمال الإعلام، ص 114.

(407) ابن خلدون: العبر، ج 4 ص 153.

(408) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 3 ص 151.

(409) ابن عذارى: البيان المغرب، ج 3 ص 199.

(410) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971، ص 85.

(411) العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 556.

(412) ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 186.

(413) ابن أبي الزرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط، 1980م، ص 93.

(414) ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 187.

(415) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 7 ص 122.

(416) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 96.

(417) ابن أبي زرع: ص 99.

(418) السلاوي، الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء. دار الكتب، 1954م، ج 1 ص 120.

(419) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص 101.

(420) ابن الاثير: الكامل، ج 8 ص 155.

(421) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 7 ص 123.

(422) ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 233.

(423) ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 242.

(424) ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 242.

(425) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص 258.

(426) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص 273.

(427) ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 251.

(428) ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 252.

(429) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص 275.

(430) ابن خلدون: العبر، ج 4 ص 170.

(431) ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في أخبار الدولة النصـــرية، دار الأفـــاق الجديدة، بيروت، ط3، 1980، ص 39.

(432) الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق، ط5، 1997م، ص 520.

(433) ابن خلدون: العبر، ج 4 ص 170.

(434) ابن خلدون: العبر، ج 4 ص 171.

(435) ابن خلدون: العبر، ج 4 ص171.

(436) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص 48.

(437) ابن خلدون: العبر، ج 7 ص 191.

(438) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 4 ص 104.

(439) الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد، قدم له أيمن شعبان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995م، ص13ــ 15.

(440) سورة آل عمران، الآية (96).

(441) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج3، ص63.

(442) أخرجه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي، ج2، كتاب الصلاة.

(443) انظر ابن هشام عبد الملك: السيرة النبوية، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 2001م، ص228.

(444) انظر محمد الوكيل الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه، الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه، جدة، دار المجتمع، ط2، 1989م، ص14، 15.

(445) خير الدين وانلي: المسجد في الإسلام، ط1، 1971م، ص3ــ 8.

(446) أخرجه البخاري: صحيح البخاري، ج4 ص1511.

(447) انظر سعاد محمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص31.

(448) عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، 2001م، ص161، 188، 254، 303، 325.

(449) عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، ص102.

(450) أحمد أمين: ضحى الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ج2، ص52، 53.

(451) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة، ط3، 1996م، ص44.

(452) محمد الأبراشي: التربية الإسلامية وفلاسفتها، ط2، 1969م، ص73، 74، الوكيل: الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه، ص47.

(453) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص58.

(454) من أشهر المؤدبين في قصور الخلفاء مؤدبو الأمين والمأمون ولدي هارون الرشـــيد، وأشهرهم علي بن حمزة بن عبد الله الكسائي، شيخ القرَّاء والنحاة، وصاحب إحدى القراءات السبع المشهورة، توفي عام 189هـــ - 806م، انظر عنه محمد بن إسماعيل البخاري: التاريخ الكبير، التاريخ الكبير، مؤسسة الكتب الثقافية، ج6، ص268، أحمد بن علي البغـــدادي: تاريخ بغداد، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية، مج11، ص403 وما بعد. محمد بن أحمد الذهبي: تاريخ الإسلام، تح بشار معروف وآخرون، بيروت، مؤسسة الرســـالة، ط1، 1988م، ح و 181ـــ 190هـــ، ص299 وما بعد.

(455) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص58.

(456) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص59، 60.

(457) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص67.

(458) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، بيروت، دار الكتب العلميـــة، ط1، 1990م، ج3، ص183.

ومن منازل التعليم مترل الطبيب ابن سينا، الذي كان عامراً بالطلبة، يقول أحـــد تلامذتـــه: «وكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم، وكنت أقرأ من الشفاء، وكان غيري يقـــرأ مـــن القانون ... وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير»، انظر أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح نزار رضا، بـــيروت، مكتبـــة الحيـــاة، ص441.

(459) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص71ـــ 73.

(460) تاريخ التربية الإسلامية: شلبي، ص96ـــ 100.

(461) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ص77ـــ 80.

(462) انظر أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، بيروت، دار صادر، ج2، ص363، عبد الرحمن السيوطي: حسن المحاضرة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1997م، مج2، ص223، 224.

(463) أحمد بن محمد بن خلكان: وفيات الأعيان، وفيات الأعيان، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج2، ص129.

(464) انظر السيوطي: حسن المحاضرة، مج2، ص223.

(465) انظر محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى،، تطوان، دار الطباعة المغربية، 1953م، ص66، 67.

(466) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص113.

(467) الوكيل: الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه، ص47.

(468) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص113، 114.

(469) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفس في مصر، القاهرة، مطبعة حسان، ص5.

(470) أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص414.

(471) أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص415، وانظر السيوطي: حسن المحاضرة، مج2، ص226.

(472) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفس في مصر، ص36، 37.

(473) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفس في مصر، ص63.

(474) انزوى القوم بعضهم إلى بعض إذا تدانوا وتضاموا، انظر محمد بن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر،ط1، 1997م، مج14، مادة (زوى).

(475) إبراهيم بن دقماق: الانتصار، بيروت، لجنة إحياء التراث، دار الآفاق، ق1، ص100، وانظر أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص255، 256.

(476) عبد الله: معاهد تزكية النفس في مصر، ص53.

(477) محمد كرد علي: خطط الشام، خطط الشام، دمشق، مكتبة النـــوري، 1983م، ج6، ص136.

(478) ابن منظور: لسان العرب، مج7،، ص302، مادة ربط.

(479) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفس في مصر، ص50.

(480) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفس في مصر، ص44.

(481) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفس في مصر، ص44، 45.

(482) أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص427.

(483) دولت عبد الله: معاهد تزكية النفس في مصر، ص48.

(484) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بيروت، دار الرائد العـــربي، ط2، 1981م، ص4.

(485) أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص405.

(486) أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، 405.

(487) ابن دقماق: الانتصار، ق1، ص99.

(488) ابن دقماق: الانتصار، ق1، ص99.

(489) أحمد بن علي المقريزي: لخطط المقريزية، ج2، ص406.

(490) أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص407.

(491) ابن جبير محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، 1959م، ص15.

(492) أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص407.

(493) مجتبى اللاري: الإسلام والحضارة الغربية، تر: محمد الغروي، قم، مركـــز الثقافـــة الإسلامية في العالم، ص145، 146.

(494) أحمد النويري: نهاية الأرب، تح الباز العريني، الهيئة المصـــرية العامـــة للكتـــاب، 1992م، ج31، ص106، أحمد القلقشندي: صبح الأعشى، تح محمد حســـين شمـــس

الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م، ج3، ص418، المقريـــزي: المصـــدر المتقدم، ج2، ص406

(495) ابن بطوطة محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة، تح عبد الهادي النازي، الربـــاط، أكاديمية المملكة المغربية، 1997م، ج1، ص203.

(496) أحمد بن أبي حجلة: سكردان السلطان، تح علي عمر، القاهرة، مكتبة الخـــانجي، ط1، 2001م، ص54.

(497) النويري: نهاية الأرب، ج31، ص107، الحسن بن حبيب: تذكرة النبيه، تح محمد أمين، مصر، مطبعة دار الكتب، 1976م، ملحق فيه وثيقة وقف السلطان قـــلاوون علـــى مصالح البيمارستان، وهي وثيقة مهمة جداً تطلعنا على موضوع اجتماعي مهم هو الرعايـــة الصحية في مصر في عصر سلاطين المماليك، وتعطي فكرة عن دور الدولة في مجال الرعايـــة الصحية في العصور الوسطى، ص297، 302.

(498) محمد بن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تح قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت، المطبعة الأمريكية، 1939م، ج8، ص26.

(499) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج1، ملحق، ص303، 306، أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص406، 407.

(500) النويري: نهاية الأرب، ج31، ص107، ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج1، ملحق ص305.

(501) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج1، ملحق ص302 - 306.

(502) النويري: نهاية الأرب، ج31، ص107، 108. أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص406.

(503) انظر ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج1، ملحق ص305 ص307.

(504) النويري: نهاية الأرب، ج31، ص108.

(505) انظر عن هذه المراسيم ابن الفرات: تاريخ ابـــن الفـــرات، ج8، ص23، 26، القلقشندي: صبح الأعشى، ج11، ص249.

(506) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج8، ص26، 27.

(507) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج8، ص23.

(508)أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربيـــة الإســـلامية والمجتمـــع العـــربي، 1963م، ص89- 91.

(509) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإســـلامية والمجتمـــع العـــربي، ص96- 98.

(510) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإســـلامية والمجتمـــع العـــربي، ص92- 96.

(511) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإســـلامية والمجتمـــع العـــربي، ص98- 101.

(512) عبد الستار الحلوجي: دراسات في الكتب والمكتبات، جدة، الســـعودية، مكتبـــة صباح، ط1، 1988م، ص17ــ 24، انظر أنواع المكتبات في الإسلام: محمـــد مـــاهر حمادة، المكتبات في الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط6، 1994م، ص82، وما بعد.

(513) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص25.

(514) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، تر فـــاروق بيضـــون، كمـــال دسوقي، بيروت، دار صادر، ط9، 2000م، ص385، ص386.

(515) في سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد، التي كانت تضم أكثر من مئة متجـــر، كان المتعلمون من كل أنحاء العالم الإسلامي يجتمعون، هنا يفـــتش الفيلســـوف والشـــاعر والفلكي عما صدر حديثاً من الكتب، وهناك ينقب الطبيب والمؤرخ وجامع الكتـــب عـــن

النسخ القديمة، وهنا وهنالك يتناقشون جميعاً ويتبادلون المعرفة أو تقرأ عليهم برمتهم مقتطفات مما كتب.

(516) انظر محمد بن النديم: الفهرست، سوسة، تونس، دار المعارف، ص1.

(517) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص387، 392.

(518) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص353، 354.

(519) مجتبى اللاري: الإسلام والحضارة الغربية، ص135- 137.

(520) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، ص130- 133، 196.

(521) جاك ريسلر: الحضارة العربية، باريس، منشورات عويدات، ط1، 1993م، ص104- 106.

(522) عمار محمد النهار: العصر المفترى عليه، عصر المماليك البحرية، دمشق، دار النهضة، ط1، 2007م، ص 223.

(523) أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص212.

(524) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004م، مج1 ص43- 45. ولتفاصيل وافية انظر علي بن يوسف القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مكتبة المتنبي. الفهرست: ابن النديم.

(525) أحمد بن حجر: الدرر الكامنة، تح محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط2، 1966م، ج1، ص40.

(526) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج4، ص71، 72.

(527) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج5، ص57، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج5، ص32.

(528) عبد الوهاب السبكي: طبقات الشافعية، تح محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلـــو، الجيزة، هجر للطباعة، ط2، 1992م، ج8، ص306.

(529) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلـــوم الإســـلامية)، مـــج1 ص43- 45. ولتفاصيل وافية انظر القفطي: أخبار العلماء. ابن النديم: الفهرست.

(530) عبد العظيم رمضان: تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، الهيئـــة المصـــرية العامـــة للكتاب، 1992م، ص203.

(531) عبد العظيم رمضان: تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، ص219.

(532) النويري: نهاية الأرب، ج31، ص111. عبد الوهاب السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1986م، ص87.

(533) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص87، 88.

(534) محمد أمين: الأوقاف و الحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة، ط1، 1980م، ص257، 258.

(535) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص88.

(536) محمد بن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، حيدر آباد، جمعية دائرة المعارف العثمانية، 1353هـــ، ص167.

(537) محمد أمين: الأوقاف و الحياة الاجتماعية في مصر، ص258.

(538) إبراهيم المسلم: إطلالة على علوم الأوائل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006م، ص22.

(539) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلـــوم الإســـلامية)، مـــج1 ص46، 47.

(540) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإســـلامية والمجتمـــع العـــربي، ص195، ص196.

(541) مجتبى اللاري: الإسلام والحضارة الغربية، ص134، ص135.

(542) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، ص191.

(543) إبراهيم المسلم: إطلالة على علوم الأوائل، ص24، 25.

(544) منتغمري واط: أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، تر: عادل أبي جابر، دمشق، وزارة الثقافة، 1981، ص80، 81.

(545) منتغمري واط: أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، ص50. مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين، ط2، 1975م، ص140، ص141.

(546) منتغمري واط: أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، ص51.

(547) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص289.

(548) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، ص290، ص291. أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، ص192.

(549) انظر الموسوعة العربية العالمية.

(550) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، ص191، ص192.

(551) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص292.

(552) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص414.

(553) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص293. محمد عللوه: دور العرب والمسلمين في صنع الحضارة الغربية، دمشق، دار الأقصى، ص74.

(554) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، ص192، 193.

(555) انظر الموسوعة العربية العالمية.

(556) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، ص193.

(557) دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، تر: أحمد فؤاد باشا، الكويت، عالم المعرفة، 2004م، ص29.

(558) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، ص194.

(559) دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص28-30.

(560) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، ص194، 195.

(561) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص295، ص296. وانظر رشيد الجميلي: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، طرابلس، ليبيا، ط1، 1982م، ص77، 78.

(562) دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص27. طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1، ص296.

(563) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلـــوم الإســـلامية)، مـــج1 ص297- ص299. وانظر رشيد الجميلي: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، ص89.

(564) دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص27، ص28.

(565) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلـــوم الإســـلامية)، مـــج1 ص299.

(566) منتغمري واط: أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، ص82.

(567) انظر عن حنين: ابن النديم: الفهرست، ص409، 410. القفطي: أخبار العلماء، ص117-122

(568) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلـــوم الإســـلامية)، مـــج1 ص301- ص303. وانظر رشيد الجميلي: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، ص113.

(569) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإســـلامية والمجتمـــع العـــربي، ص195. دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص30.

(570) قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربية، العصر العباسي، بـــيروت، دار البحـــار، 2005م، ص491. وانظر في تراجم هؤلاء المترجمين ابن النديم: الفهرست. القفطي: أخبار العلماء.

(571) انظر أحمد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانتـــه في تـــاريخ العلـــم والحضارة، ط2، 1984م، ص32، 33. قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربية، العصر العباسي، ص492.

(572) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص303، 304. وانظر جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة، دار الهلال، 1958م، ج3 ص170-182.

(573) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص305، ص306.

(574) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص334- ص336. وتفاصيل هذا الكتاب في: القفطي: أخبار العلماء. ابن النديم: الفهرست.

(575) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص337- ص339. وتفاصيل هذا الكتاب في: القفطي: أخبار العلماء. ابن النديم: الفهرست.

(576) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص425، 426.

(577) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج2 ص645.

(578) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص426، 427.

(579) عز الدين فراج: الطب الإسلامي، القاهرة، دار الفكر، ص14، 15. طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، مج1 ص430، ص431.

(580) أحمد الشطي: مجموعة أبحاث في الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، ص194.

(581) عبد الحي الحسني: الثقافة الإسلامية في الهند (معارف العوارف في أنـــواع العلـــوم والمعارف)، دمشق، مجمع اللغة العربية، ط2، 1983م، ص296- ص298. و ذكر ابن النديم كتب الهند المنقولة إلى العربية في كتابه الفهرست، ص421.

(582) طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلـــوم الإســـلامية)، مـــج1 ص403.

(583) دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص287- 289.

(584) دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص289، ص290.

(585) هوارد تيرنر: العلوم عند المسلمين، ص246، 247.

(586) دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ص291.

(587) محمد بن محمد ابن الجزري: منجد المقرئين ومرشد الطـــالبين، راجعـــه محمـــد الشنقيطي، أحمد شاكر، دار زاهد القدسي، ص 3.

(588) محمد بن بهادر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح يوسف المرعشلي وغـــيره، بـــــــــــــــــــــــــــيروت، دار المعرفـــــــــــــــــــــــــــــــة، ط2، 1994م، ج1، ص 465.

(589) محمد الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، الجامعة الأزهرية، 1991م، ج1، ص 405.

(590) أي لغة أو لهجة؛ لأن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، والأحاديث الصـــحيحة في ذلك كثيرة، وذلك توسعة على العباد لاختلاف اللغات والألفاظ المتقاربة، ومـــا يقـــارب معناها. انظر عن ذلك بالتفصـــيل الزركشـــي: البرهـــان في علـــوم القـــرآن، ج1، ص 302ــ304، و محمد بن جرير الطبري: تفسير الطبري، تح محمود شاكر، محمد شاكر، مصر، دار المعارف، ج1، ص 21ــ 66.

(591) وهم القرَّاء السبعة: ابن عامر عبد الله اليحصبي (ت 118هـ = 737م)، وعبد الله بن كثير الداري (ت 120هـ = 739م) وعاصم بن أبي النجود الأسدي (ت 127هـ = 746م)، وأبو عمرو زبان بن العلاء بن عمار البصري (ت 154هـ = 771م) وحمزة بن حبيب الزيات (ت 156هـ = 773م)، ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني (ت169هـ = 786م) وعلي بن حمزة الكسائي (ت 189هـ = 806م). انظر الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص 449ـ 455.

(592) الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص 405، 406.

(593) الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص 454.

(594) محمد بن أحمد الذهبي: معرفة القرَّاء الكبار، تح بشار معروف وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1984م، ج2، ص 573ـ 574، عبد الرحمن الأسنوي: طبقات الشافعية، تح: كمال الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م، ج2، ص 27، 28.

(595) القاسم بن فيرة الشاطبي: حرز الأماني ووجه التهاني، بيروت، دار الكتاب النفيس، ط1، 1987م، ص 15.

(596) الذهبي: معرفة القرَّاء الكبار، ج2، ص 573، 574.

(597) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص 71.

(598) محمد بن محمد بن الجزري: غاية النهاية، غاية النهاية في طبقات القراء، نشره ج برجستراسر، مصر، مكتبة الخانجي، 1933م، ج1، ص162، ج2، ص305، 381. ابن النديم: الفهرست، بيروت، دار المعرفة، 1978، ص42 – 53. عبد الرحمن السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى، ط1، 1964م، ج2، ص231، 251. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص55.

(599) السبكي: طبقات الشافعية، ج3، 57. ابن الجزري: غاية النهاية، ج1، ص139، 142. ابن النديم: الفهرست، ص42 – 47، 53، 88. السيوطي: بغية الوعـــاة، ج2، ص231، 251. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص57 - 59.

(600) محمد بن الحسن الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، تح محمد أبـــو الفضـــل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط2، ص253، 254. ابن الجزري: غاية النهايـــة، ج1، ص120، 357، 358، ج2، ص217. الداودي: طبقات المفسرين، تح علـــي عمـــر، مطبعة الاستقلال، 1972م، ج1، ص79، 80، 297. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص695 – 697.

(601) ابن الجزري: غايـــة النهايـــة، ج1، ص503، 504، 559، ج2، ص153، 309. الذهبي: سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسســـة الرســـالة، ط2، 1982م، ج18، ص80، 81، 555. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 697 - 700.

(602) انظر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 104ــ 106، وعبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ضبط وحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكـــار، بـــيروت، دار الفكر، ط2، 1988م ص 553 ــ 555، و عبد الرحمن السيوطي: الإتقـــان في علـــوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، 1987م، ج1، ص 3 ومـــا بعد.

(603) الداودي: طبقات المفســـرين، ج1، ص185، 384، ج2، ص4. الســـبكي: طبقات الشافعية، ج3، 145، 146. ابن النديم: الفهرست، ص320 - 323. عبيـــة: الحضارة الإسلامية، ج1، ص72، 73.

(604) الداودي: طبقات المفسرين، ج2، ص110 – 117. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج14، ص267 - 282. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص73 - 75.

(605) الداودي: طبقات المفسرين، ج2، ص191، 192، 357، 274، 275. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج6، ص11. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص76.

(606) الداودي: طبقات المفسرين، ج2، ص191 - 195، 256. الحموي: معجم الأدباء، مصر، دار المأمون، 1936م، ج14، ص75، ج16، ص26. ابن النديم: الفهرست، ص55 - 57. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص84 – 86.

(607) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط2، 1988م، ج1، ص16، 300، ج2، ص34، 150. الداودي: طبقات المفسرين، ج1، ص8، 9، 33، 34، 118، 119، 253، 297. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 705 - 707.

(608) ابن بشكوال: الصلة، الدار المصرية، 1966م، 294، 295، 348، 349، 590، 591. الداودي: طبقات المفسرين، ج1، ص54 – 56، 85 - 87. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 711.

(609) كحالة: علوم الدين الإسلامي، ص 77ـ 79، وانظر صبحي الصالح: علوم الحديث، بيروت، دار العلم للملايين، ط18، 1991م، ص 23، 39، 41.

(610) كحالة: علوم الدين الإسلامي، دمشق، مطبعة الحجاز، 1974م، ص 79ـــ 81.

(611) الصالح: علوم الحديث، ص 48.

(612) كحالة: علوم الدين الإسلامي، ص 83، الصالح: علوم الحديث، ص 48.

(613) الصالح: علوم الحديث، ص 48، كحالة: علوم الحديث، ص 84.

(614) ابن خلدون: المقدمة، ص 559.

(615) ابن خلدون: المقدمة، ص 560.

(616) عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص93، 94.

(617) ابن النديم: الفهرست، ص320. البغدادي: تاريخ بغـــداد، ج2، ص9، ج13، ص101. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج12، ص403 – 405. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص94 – 97.

(618) البغدادي: تاريخ بغداد، ج7، ص394، ج4، ص18 - 20. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج9، ص480. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص100 - 102.

(619) عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 729.

(620) عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 730، 731.

(621) ابن فرحون: الديباج المذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2، 146، 313. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 732، 733.

(622) ابن بشكوال: الصلة، 117. المقري: نفح الطيب، تح إحسان عباس، بـــيروت، دار صادر، 1988م، ج2، ص519. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 730، 731.

(623) ابن بشكوال: الصلة، 414، 555، 557. المقـــري: نفـــح الطيـــب، ج2، ص242. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 737 - 739.

(624) المقري: نفح الطيب، ج2، ص 69، ج3، ص170. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 739، 740.

(625) أحمد طاش كبري زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، تح علـــي دحـــروج، بيروت، مكتبة لبنان، ط1، 1998م، ص 587.

(626) أحمد طاش كبري زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ص 233.

(627) كحالة: علوم الدين الإسلامي، ص 111، 112.

(628) محمد: الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1988م، ص 25.

(629) كحالة: علوم الدين الإسلامي، ص 112.

(630) الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، ص 76.

(631) كحالة: علوم الدين الإسلامي، ص 116 ــ 120.

(632) كحالة: علوم الدين الإسلامي، ص 123، 124، 135، 136، الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، ص 122 وما بعد.

(633) كحالة: علوم الدين الإسلامي، ص 142، 145، 152.

(634) عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص129، 130.

(635) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص433، 434، 441، ج2، ص178، 232، 233. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج16، ص560، 561، ج17، ص188 عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 748، 749.

(636) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص 325، 384 ج2، 200، 332، 333. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج17، ص188، 189، ج18، ص538. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، 750 - 752.

(637) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص20، 137، 177. ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص312، 313، ج2، ص8. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 748، 749.

(638) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص224، 296، 300، 355، ج2، ص96، 97، 137، 138، 167، 204. ابن بشكوال: الصلة، 303، 313، عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 756، 757.

(639) ابن بشكوال: الصلة، ص34. عبية: الحضـــارة الإســـلامية، ج2، ص 761، 762.

(640) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص384.ابن الفرضـــي: تـــاريخ علمـــاء الأندلس، ج1، ص399، ج2، ص182. عبية: الحضارة الإســـلامية، ج2، ص 764، 765.

(641) يوسف بن محمد السكاكي: مفتاح العلوم، تح عبد الحميد هنداوي، بـــيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م، ص 125.

(642) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص 12، 21، العمري: مسالك الأبصـــار، نشرة سزكين، ج7، ص 51.

(643) عبد الرحمن بن محمد الأنباري: نزهة الالباء في طبقات الأدباء، القاهرة، دار نهضـــة مصر، ص 4.

(644) ابن خلدون: المقدمة، ص 755.

(645) الأنباري: نزهة الالباء في طبقات الأدباء، ص 4، 5.

(646) السكاكي: مفتاح العلوم، ص 42.

(647) هو أحد كبار علماء اللغة العربية، وشيخ الكسائي فيها، وُلد في أيام عبد الملك بن مروان، وألف الكتب في النحو، انظر عنه الزبيدي: المصدر المتقدم، ص 125، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص 218ــ 221، السيوطي: بغية الوعـــاة، ج2، ص290ـــــ 293، علي بن يوسف القفطي: أنباه الرواة على أنباه النحاة، تح محمد إبراهيم، القاهرة، دار الفكر، ط1، 1986م، ج3، ص 288ــ 295.

(648) عبد الله محمد الأسطى: الطريف في علم التصريف، طرابلس، ليبية، كلية الـــدعوة الإسلامية، 1992م، ص 15ــ17، وانظر السيوطي: بغية الوعاة، ج2، ص 291.

(649) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص127 – 130. الحموي: معجم الأدباء، ج20، ص9 – 14، ج13، ص 167، 168، ج15، ص77، 78. البغدادي: تاريخ بغداد، ج13، ص252 – 256، ج14، ص149 – 152. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص190 - 192.

(650) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص141، 142. البغدادي: تاريخ بغـــداد، ج3، ص380 - 387. ابن النديم: الفهرست، 88، 111. عبية: الحضارة الإســـلامية، ج1، ص192 - 194.

(651) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ط24، ص 370، 371.

(652) ابن النديم: الفهرست، 64، 65، 109 - 121. الحموي: معجم الأدباء، ج1، ص272، ج17، ص164، 165، ج18، ص232. عبية: الحضارة الإســـلامية، ج1، ص200 - 202.

(653) عبد العزيز عتيق: علم البيان، بيروت، دار النهضة العربية، 1985م، ص 7.

(654) محمد بن عبد الرحمن القزويني: التلخيص في علم البلاغة، تح عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1997م، ص 6، 8.

(655) القزويني: التلخيص في علم البلاغة، ص 10.

(656) محمد بن عبد الرحمن القزويني: الإيضاح في علم البلاغة، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، مصر، مكتبة الحسين، ط1، 1950، ج4، ص 27، القزويني: التلخيص، ص 61.

(657) القزويني: الإيضاح، ج6، ص 4، القزويني: التلخيص، ص 86.

(658) عتيق: علم البيان، ص 7ـــ22.

(659) ابن النديم: الفهرست، ص168، 169، 189. الحموي: معجم الأدبـــاء، ج5، ص79، 80. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص209.

(660) البغدادي: تاريخ بغداد، ج10، ص170. ابن النـــديم: الفهرســـت، ص196. الحموي: معجم الأدباء، ج14، ص75، ج17، ص143. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص207، 208.

(661) ابن خلدون: المقدمة، ص 553.

(662) عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص212 - 216. الجواري: الشعر في بغـــداد، بغداد، 1956م، ص212 وما بعد.

(663) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص273. ابن الفرضي: تـــاريخ علمـــاء الأندلس، ج2، ص140. السيوطي: بغيـــة الوعـــاة، ج2، ص296. عبيـــة: الحضـــارة الإسلامية، ج2، ص 774 - 776.

(664) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص256، 257. ابن الفرضي: تـــاريخ علماء الأندلس، ج1، ص112. ابن فرحون: الديباج المـــذهب، ج2، ص220. عبيـــة: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 778، 779.

(665) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج2، ص78، 79. ابن الأبار: التكملـــة، التكملة، القاهرة، مطبعة السعادة، بغداد، مكتبة المثنى، 1955م، ج2، ص791. المقـــري: نفح الطيب، ج3، ص172، 254. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 780، 781.

(666) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص186. ابن بشكوال: الصلة، ص120، 121، 363، 417، 418. ابن فرحون: الديباج المـــذهب، ج2، ص106. عبيـــة: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 785، 786.

(667) الحموي: معجم الأدباء، ج4، ص214، 215. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 788، 789.

(668) ابن الأبار: التكملة، ج2، ص468. عباس: تاريخ النقد الأدبي عنـــد العـــرب، بيروت، دار الثقافة، ط5، 1986م، ص511. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 800، 801.

(669) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص306. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص805.

(670) عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص813.

(671) المقري: نفح الطيب، ج3، ص121، 134، 135. ابن الأبار: التكملة، ج1، ص173، 174عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص814.

(672) الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1993م، ص282، 283، 301. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، 819، 820.

(673) ابن خلدون: المقدمة، ص 9.

(674) ابن النديم: الفهرست، ص134 - 164. الحموي: معجم الأدباء، ج3، ص26 – 32، ج5، ص89 – 101، ج19، ص310. عبية: الحضـــارة الإســـلامية، ج1، ص232 - 236. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1978م، ج1، ص99، 100، 244 – 249.

(675) ابن النديم: الفهرست، ص134 - 164. الحموي: معجم الأدباء، ج3، ص26 – 32، ج5، ص89 – 101، ج19، ص310. عبية: الحضـــارة الإســـلامية، ج1، ص227 - 236. شاكر مصطفى: التاريخ العـــربي والمؤرخـــون، ج1، ص94 - 99، 100، 244 – 249.

(676) البغدادي: تاريخ بغداد، ج1، ص214 – 234، ج3، ص121، 326، ج4، ص89،ج5، ص321، ج7، ص277. ابن النديم: الفهرست، ص136، 145، 146. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص664، ج9، ص5 – 7.الحموي: معجم الأدباء، ج3،

ص26 – 32، ج5، ص89 – 101، ج19، ص310. عبية: الحضـــارة الإســـلامية، ج1، ص240 – 242.

(677) البغدادي: تاريخ بغداد، ج6، ص128. ابن النديم: الفهرست، ص121.الحموي: معجم الأدباء، ج1، ص271. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص242 – 245.

(678) ابن النديم: الفهرست، ص155 - 160. الحموي: معجـــم الأدبـــاء، ج11، ص161 – 165، ج18، ص112 - 117. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص250، 251. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ج1، ص190.

(679) ابن النديم: الفهرست، ص136 - 150.الحمـــوي: معجـــم الأدبـــاء، ج14، ص129 – 139، ج17، ص41 – 43، ج18، ص227 - 282. عبية: الحضـــارة الإسلامية، ج1، ص246 – 250. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخـــون، ج2، ص15 – 39.

(680) ابن النديم: الفهرست، ص88، 144 - 186.الحموي: معجم الأدبـــاء، ج18، ص109 - 282. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص252 - 256.

(681) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج18، ص198. ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص13. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص828 - 830.

(682) المقري: نفح الطيب، ج3، ص174، 181. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج18، ص371. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص837، 838.

(683) ابن الأبار: التكملة، ج1، ص384. ابن بشكوال: الصلة، ص141. عبيـــة: الحضارة الإسلامية، ج2، ص840، 841.

(684) المقري: نفح الطيب، ج2، ص113، 182. عبية: الحضارة الإســـلامية، ج2، ص841، 842.

(685) ابن بشكوال: الصلة، ص622. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 844، 845.

(686) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج18، ص159، عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 847.

(687) ابن الأبار: التكملة، ج1، ص306، ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص9، 10، 155، 156. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 849، 850.

(688) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج2، ص16. ابن بشكوال: الصلة، ص396. ابن فرحون: الديباج المذهب، ج2، ص213. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 852، 853.

(689) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص288، 309. ابن الفرضي: تاريخ علماءالأندلس، ج1، ص346، ج2، ص62. عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 854، 855، 786.

(690) عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص 856، 857.

(691) أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة، ص 414، 415.

(692) انظر في ترجمة الرازي: ابن النديم: الفهرست، ص 504. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 414ـ427. علي بن يوسف القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 178ـ182. غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 158. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص157ـ161. سليمان بن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تح فؤاد سيد، ط2، 1985م، ص71ـ81. خليل بن أيبك الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان، طبعة أحمد زكي بك، مصر، المطبعة الجمالية، 1911م، ص 249، 250. خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت

ريتر، دار فرانز شتاينر، ط2، 1962م، ج 3، ص 75 ــ 77. علي عبد الله الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983م، ص83 ــ105.

(693) انظر أمجد الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، دار سعاد الصباح، بيروت، ط1، 1998م، ص55- 57. علي عبد الله دفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط3، 1987م، ص 192ــ195، 205ـــ218. محمد حسين و آخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس، ص395ــ399. محمد بن زكريا الرازي: مخطوطتان للرازي في طب العيون، تح عبد الوهاب أسعد، جامعة دمشق 1976 ــ 1977م، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في الطب، ص 12ـــ18. غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص489،488. ول ديورانت: قصة الحضارة، تر علي أبو درة، بيروت، دار الجيل، ص 13، 192،191. محمد زهير البابا: تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، جامعة دمشق،1986م، ص 148ــ150. جوزيف كلاس: مسيرة الطب في الحضارات القديمة: دار طلاس، ط1، 1995م، ص 268 ــ271.

(694) الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، ص 197، 217 ــ219.

(695) الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص 53 ــ 55. الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، ص 183 ــ239. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص 83ــ105. حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة، ص 395 ــ 399. البابا: تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص 140ــ150. ديورانت: قصة الحضارة، ص 141،13. كلاس: مسيرة الطب في الحضارات القديمة، ص 264 ـــ 273،272،266. لوبون: حضارة العرب، ص 476، 489.

(696) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 501. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج 13، ص 370. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط12، 1997م، ج2، ص310، 311. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993م، ج1، ص 674.

(697) انظر الهندي: دور العرب في تقدم علم الطب، ص 65، 66. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص 132 ــ 136. نزار أباظه و غيره: موسوعة الأوائل والمبدعين، دار المنبر، ج4، ص 636. البابا: تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص 175 ــ 178.

(698) الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص 67. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج4، ص634. وامبرواز باريه طبيب فرنسي، وهو من أشهر أطباء عصر النهضة، ولد سنة 1517م = 923هـ، انظر عنه هيكل نعمة الله: موسوعة علماء الطب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م، ص102،103.

(699) انظر الحسين بن عبد الله بن سينا: القانون في الطب، تح سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، 1994م. محمد مصطفى: ابن سينا، دار القلم العربي، حلب، ط1، 2003م، ص10، 11. الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص 75، 76.

(700) الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص 159.

(701) الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص 78، 79. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص 153 وما بعد. البابا: تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص 152، 153. كلاس: مسيرة الطب في الحضارات القديمة: 282 ــ 286.

(702) الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص 153. قدري طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1954م، ص294.

(703) أحمد الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر، ص134 ــــ 136. حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص 100ــ104. الهندي:

دور العرب في تقدم علوم الطب، ص 79ــ81. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص 150ــ157. البابا: تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص 154.

(704) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص319،320. القفطي: أخبار العلماء، ص 155، 156. كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص454. الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص 58. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص 105. عمر كحالة: العلوم العملية في الحضارة الإسلامية، مطبعة الترقي، دمشق، 1972م، ص28، 29.

(705) الدفاع: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج2، ص118. الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص60.

(706) الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص 112،113. الدفاع: إسهام العرب والمسلمين في الصيدلة، ص 251.

(707) كلاس: مسيرة الطب في الحضارات القديمة، ص 259.

(708) الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، ص 243.

(709) الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص 111 ــ 116. الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، ص 239 ــ 267. الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص 59، 60. حسين: الموجز في تاريخ الطب عند العرب، ص 388 ــ 391. كحالة: العلوم العملية في العصور الإسلامية، ص 28، 29. زهير حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، وزارة الثقافة، 1996م، ج2، ص118. كلاس: مسيرة الطب في الحضارات القديمة، ص259 ــ 261.

(710) انظر عنه القفطي: أخبار العلماء، ص152،153. كحالة: معجم المؤلفين، ج2، 104. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج3، ص580،581.

(711) أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج 3،ص580، 581. طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، 194،195.

(712) علي مصطفى مشرفة: مطالعات علمية، مطبعة الاعتماد، مصـــر، ط1، 1943م، ص 47 ــ 49.

(713) طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 194-196. أباظـــة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج 3، ص580، 581.

(714) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 194-196.

(715) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1 ص 120. هونكه: شمس العرب تســـطع على الغرب، ص144،145. سلام ضاهر: مملكة بلنسية في عصر ملوك الطوائف، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2010م، ص 256، 257. الزركلي: الأعلام، ج1 ص 79. آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصـــرية، ط1، 1955م، ص451، 452.

(716) هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص 144،145.

(717) انظر عنه القفطي: أخبار العلماء، ص 187،188. ابن العبري: تـــاريخ مختصـــر الدول، ص 138. علي عبد الله الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، دار الاعتصام، ص61،62. طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 123.

(718) الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص 62.

(719) الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص 83-85.

(720) طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 123-130. الـــدفاع: نوابغ العلماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص 63-86. جلال مظهر: أثر العـــرب في الحضارة الأوروبية، دار الرائد، بيروت، 1967م، ص285.

(721) انظر عنه ابن النديم: الفهرست، ص 380. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح عمر الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1999م، ج4، ص321. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص 300- 304. القفطي: أخبار العلماء، ص 130-134. الزركلي: الأعلام، ج3، ص141.

(722) طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 65، 66، 149،150. عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، المكتبة العصرية، بيروت، ط4، 1980م، ص 80، 81. عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار العلم للملايين، 1970م، ص 138-140. أباظة موسوعة الأوائل والمبدعين، ج 3، ص548.

(723) انظر عنه ابن النديم: الفهرست، ص394، 395. القفطي: أخبار العلماء، ص 188، 189. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص119. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج1، ص209. طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 198،197.

(724) طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 202. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج 4، ص607. مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص 287.

(725) سيديو: تاريخ العرب العام، ص 346.

(726) جاك ريسلر: الحضارة العربية، تر غنيم عبدون، الدار المصرية للترجمة والنشر، ص 177.

(727) صلاح الدين خربوطلي: الرواد العرب في الرياضيات والفلك، دار مجلة الثقافة، دمشق، ص 144.

(728) لوبون: حضارة العرب، ص 457.

(729) طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 198-202. الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص 135.

(730) طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 202-205. الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص 132-135.

(731) مصطفى القسطنطني حاجي خلفية: كشف الظنون، بيروت، دار الفكر، 1982م، ج1، ص870، ج2، ص1441. أباظة: موسوعة الأوائل والمبـــدعين، ج4، ص609، 610. طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص241.

(732) طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 58،59،241. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج4، ص610. مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص 281، 282.

(733) شاخت وبوزورث: تراث الإسلام، تر حسن مؤنس، إحسان العمد، الكويـــت، المجلس الوطني للثقافة، 1978م، ج3، ص176، 177.

(734) الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص 192.

(735) الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص 158.

(736) انظر عنه ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 5، ص125. عبد الحي أحمد بن العماد: شذرات الذهب تح محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابـــن كـــثير، ط1، 1991م، ج5، ص49. الزركلي: الأعلام، ج6، ص83. الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص150، 151. طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلـــك، ص 249.

(737) محمد بن الحسن الكرخي: الكافي في الحساب، تح سامي شلهوب، جامعة حلب، 1986م، المقدمة. طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلـــك، 254، 255. الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات والفلك، ص 152-157

(738) أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج 4، ص628 - 629.

(739) انظر مثلاً موريس شربل: موسوعة علماء الرياضيات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1991م، ص 47-50.

(740) الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات والفلك، ص 152-158. طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 249 -254.

(741) رشدي راشد: تاريخ الرياضيات العربية، تر حسين زين الدين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1989م، ص 33 - 46. الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص 151،152. طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 249. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج 4، ص628،629.

(742) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص 550ـ560. القفطي: أخبار العلماء، ص 114ـ116. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 182، 183، 238. حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج2، ص 302، 303. عمر الطباع: ابن الهيثم، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1993م، ص 45ـ69. الأعلام، ج 6، ص83، 84.

(743) الطباع: ابن الهيثم، ص 85ـ87. علي عبد اللطيف: ابن الهيثم، عمان، الجامعة الأردنية، 1993م، ص 349 ـ367. حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج2، ص311. الكتبي: الحسن بن الهيثم، وزارة الثقافة، دمشق، 1972م، ص105ـــ158. رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم، دار الفكر العربي، بيروت،1997م، ص 46، 47. علي الدفاع، جلال شوقي: أعلام الفيزياء في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1985م، 166،167. الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص 138ـ40.

(744) مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص 297. الدفاع وشوقي: أعلام الفيزياء في الإسلام، ص 169، 170. حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج2، ص304. الحسن بن الهيثم: عكاوي، ص 93. الكتبي: الحسن بن الهيثم، ص 153ـ155. الطباع: ابن الهيثم، ص 129.

(745) فروخ: عبقرية العرب، ص 107ــ110. الدفاع: نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات، ص 138ــ140. طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 262ــ269. الدفاع: أعلام الفيزياء في الإسلام، ص 56ــ59، 162ــ167. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج4، ص644، 645.

(746) حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج2، ص30.

(747) طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 316. الدفاع: أعلام الفيزياء في الإسلام، ص 249ــ251. حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج2، ص26. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج 4، ص726، 727.

(748) الدفاع: أعلام الفيزياء في الإسلام، ص240ــ251. حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج2، ص23ــ29. ألدوميلي: العلم عند العرب، تر عبد الحليم النجار، دار القلم، ط1، 1962م، ص194-196. طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 313-317. موسوعة الأوائل والمبدعين، ج4، ص726، 727. عبقرية العرب، ص 104ــ106. فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، ص 222،223. كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، تر عبد الحليم نجار و آخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م:،5ج، ص294، 295. كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص88.

(749) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص374ــ376. القفطي: أخبار العلماء، ص 224ــ226. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج27، ص300ــ302. الدفاع وشوقي: أعلام الفيزياء في الإسلام، ص 254ــ259. حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج4، ص471،470. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج5، ص72.

(750) حميدان: أعلام الحضارة الإسلامية، ج4، ص470، 471.

(751) ابن النديم: الفهرست، ص378. القفطي: أخبار العلماء، ص 208. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 5، ص161 ــ163. كحالة: معجم المؤلفين، ج1، ص315، ج3، ص932. الزركلي: الأعلام، ج 7، ص117، 323.

(752) الدفاع وشوقي: أعلام الفيزياء في الإسلام، ص 101، طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 160.

(753) علي عبد اللطيف: ابن الهيثم، ص39.

(754) طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 158ــ164. الدفاع وشوقي: أعلام الفيزياء في الإسلام، ص 97ــ106. فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، ص226ــ228.

(755) ابن النديم: الفهرست، ص498-500. القفطي: أخبار العلماء، ص111-113. الزركلي: الأعلام، ج2، ص103، 104. كحالة: معجم المؤلفين، ج1، ص469. عبد الرزاق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، ص49-51.

(756) انظر علي عبد الله دفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983م، ص124-132. فاضل أحمد الطائي: أعلام العرب في الكيمياء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م، ص51، 52. حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج1، ص219، 220. نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص51. زكي نجيب محمود: جابر بن حيان، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط2، 1987م، ص225-227. رحاب عكاوي: جابر بن حيان، دار الفكر، بيروت، ط1، 1998م، ص127.

(757) الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، ص 114-131. نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص 49-56. محمد محمد فياض: جابر بن حيان وخلفاؤه، دار المعارف، مصر، ص24-45. عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم، دار المعارف، ط8، ص105-107. زكي: جابر بن حيان، ص184-230. مظهر: أثر العرب في الحضارة

الأوروبية، ص 203-225. عمر رضا كحالة: العلوم البحتة في العصور الإسلامية، دمشق، المكتبة العربية، 1972م، ص250. أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، 1973م، ص611-617. حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج1، 218-220.

(758) نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص52. فياض: جابر بن حيان وخلفاؤه، ص55، 56.

(759) انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص 482. القفطي: أخبار العلماء، ص 214. الزركلي: الأعلام، ج7، ص224. الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، ص 197،198. كحالة: معجم المؤلفين، ج 3، ص853.

(760) كحالة: العلوم البحتة في العصور الإسلامية، ص259، 260. نوفل: المسلمون والعلم الحديث، 58، 59. فياض: جابر بن حيان، ص81- 87.

(761) انظر مصطفى لبيب عبد الغني: الكيمياء عند العرب، مكتبة الأنجلو مصرية، ط3، 1985م، ص99، 100. الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، ص 205-207. جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العلمي، ص 288. مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص221. فياض: جابر بن حيان وخلفاؤه، 83، 84.

(762) الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، ص 199-205. كحالة: العلوم البحتة في العصور الإسلامية، ص 258-260. نوفل: المسلمون والعلم الحديث، ص 58، 59. عبد الغني: الكيمياء عند العرب، ص 98-100.

(763) انظر أيدمر الجلدكي: المصباح في أسرار علم المفتاح، مخطوط نُسخ بالقاهرة عام 1302 هـ = 1484م، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، المخطوطات النادرة، رقم ص 106674 ن، ص1 وما بعدها.

(764) الإكسير اسم يطلق قديماً على الأدوية التي كانت تحضر بالأصول المستخرجة مع غاية الاعتناء من جسم أو جملة أجسام دوائية منتجة، أما الآن فيطلق على جميع المستحضرات الطبية المركبة من الكحول والأصول الدوائية، ويزعم قدامى الكيميائيين أن الإكسير إذا ما أُلقي على الفضة حوّلها إلى ذهب خالص، وكانوا يسمونه بحجر الفلاسفة، ولكن الامتحان أثبت بطلان زعمهم. انظر دائرة المعارف، ج4، ص139.

(765) انظر عن الجلدكي و إبداعاته و مؤلفاته: حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج3، ص160-170. الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، ص280ـ294. الطائي: الكيمياء في الحضارة الإسلامية ص90-92. كحالة: العلوم البحتة في العصور الإسلامية، ج59، ص268، 269، محسن الأمين: أعيان الشيعة، تح حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، 1983م، ص12، 17، 18، أقا بزرك الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار لأضواء، بيروت، ج3، ص89. وانظر حاجي خليفة: كشف الظنون، ج5، ص723، 724.

(766) برنارد جافي: بواتق وأنابيق، تر أحمد زكي، مؤسسة فرانكلين، ص153، 154. و انظر نوفل: المسلمون و العلم الحديث، ص56.

(767) عزة مريدن: فضل العرب على الإنسانية في الميادين العلمية، المجلس الأعلى للعلوم، 1961، ص9، 10.

(768) انظر عن الجلدكي و إبداعاته و مؤلفاته: حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج3، ص160-170. الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، ص280ـ294. الطائي: الكيمياء في الحضارة الإسلامية، ص90ـ92. كحالة: العلوم البحتة في العصور الإسلامية، ص59، 268، 269، محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج12، ص17، 18، أقا بزرك الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج3، ص89. وانظر حاجي خليفة: كشف الظنون، ج5، ص 723، 724.

(769) عبد الله عطوي: الجغرافية البشرية، بيروت، دار النهضة العربيـــة، ط1، 1996م، ص 13.

(770) طاش كبري زاده: مفتاح السعادة، ص 379، عمر رضـــا كحالـــة: التـــاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، مطبعة الحجاز، دمشق، 1974م، ص 215.

(771) انظر إغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر صلاح الـــدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1987م، ص 23، وانظـــر دلال جـــوهر: جغرافية العالم الإسلامي، دمشق، مطبعة الصباح، 1992م، ص 13.

(772) ابن النديم: الفهرست، ص142. علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب، تـــح قاسم الرفاعي، بيروت، دار القلم، ط1، 1989م، ج1، ص206، 207. عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص265 - 268. كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، ص126 – 130.

(773) ابن النديم: الفهرست، ص212، 213. عبيـــة: الحضـــارة الإســـلامية، ج1، ص270، 271. كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغـــرافي العـــربي، ج2، ص156 - 158.

(774) عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص270، 271. كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، طبعة جامعة الدول العربية، ج1، 158 - 161.

(775) ابن النديم: الفهرست، ص198، 199. عبيـــة: الحضـــارة الإســـلامية، ج1، ص273.

(776) عبية: الحضارة الإسلامية، ج1، ص274، 275. كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، طبعة جامعة الدول العربية، ج1، ص186، 187.

(777) المقري: نفح الطيب، ج3، ص160 - 163، 173. كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، طبعة جامعة الدول العربية، ج1، ص169، 190، عبية: الحضارة الإسلامية، ج2، ص867 - 872.

(778) كحالة: معجم المؤلفين: 3 ص653. حاجي خليفة: كشف الظنـــون، ج2 ص 1947. الزركلي: الأعلام، ج7 ص 24.

(779) انظر الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، ص371-374. مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص 314- 317. أباظة: موسوعة الأوائل والمبـــدعين، ج4، ص736-738. هونكه: شمس العرب تسطع على الغـــرب لهونكـــه، ص416، 417. أيمن أبو الروس: الكشوف الجغرافية، دار الطلائع، القاهرة، 2003م، ص7 ــ 11.

قائمة المصادر والمراجع

القسم الأول

المصادر:

- ابن أبي الزرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط، 1980م.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ – منشورات دار الكتاب العربي – بيروت 1967.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الركن 1357هـ.

- ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الإسلام من ملوك الإسلام، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكفافي الدار البيضاء، 1964م.
- ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في أخبار الدولة النصرية. دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1980.
- ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، النشرات الإسلامية شتوتجارت، 1992.
- ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان، دار المشرق بيروت 1986م.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ الزمان، دار الشرق بيروت، 1986.
- ابن الفرضي، عبد الله بن يوسف الأزدي: تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية، القاهرة، 1966م.
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسان- دمشق ط1، 1983م.
- ابن القوطية، أبو بكر محمد القرطبي: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله الطباع؛ مؤسسة المعارف، بيروت. ط 1، 1994.
- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971.
- ابن النديم: الفهرست. تحقيق الشيخ إبراهيم رمضان – دار المعرفة بيروت ط1، 1994م.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية.
- ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر – الأعلمي، بيروت 1971م.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان– دار الثقافة بيروت 1968- 1971.
- ابن عذارى، أبو محمد عبد الله محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج. س. ولان، وإ. ليفي بروفنسال، ليدن، 1948.
- ابن كثير: البداية والنهاية – دار المعارف – بيروت ط2، 1977.
- ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف- أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1981.
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين: الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد القاهرة 1965م.
- إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام، تعريب محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1990م.
- الأصفهاني: مقاتل الطالبيين – تحقيق أحمد صقر – بيروت ط2، 1978م،.
- الأنطاكي، يحيى بن سعيد: تاريخ الإنطاكي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس بوس، طرابلس. لبنان: 1990.
- البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسي: جغرافية الأندلس وأوروبا، من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت ط 1، 1998م.
- البلخي: البدء والتاريخ باريس 1899- 1907م.
- البنداري، الفتح بن عل بن محمد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط 3، 1980.
- البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ليبزك 1878م.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك: يتيمة الدهر، القاهرة، 1934م.

- الجهشياري، محمد بن عبدوس: الوزراء والكتاب تحقيق مصطفى السقا وآخرون مطبعة مصطفى البامي الحلبي القاهرة 1938م.
- الجويني، عطا ملك: تاريخ قاهر العالم، ترجمة أحمد آلتونجي. دار الملاح للطباعة والنشر، حلب، 1985م.
- الحموي ياقوت: معجم البلدان– دار صادر، بيروت 1979م.
- الحميدي، أبو عبد الله محمدة، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، المكتبة الأندلسية، 3 تراثنا.
- خليفة بن خياط – تاريخ خليفة بن خياط، النجف 1967م.
- الدينوري: الأخبار الطوال – مراجعة من الذين دار الفكر الحديث بيروت 1988م.
- الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، الطبعة الأولى القاهرة 1960.
- الراوندي، أبو بكر محمد بن علي، راحة الصدور (تاريخ الدولة السلجوقية): تعريب الشواربي، الصياد وحسنين، دار القلم القاهرة، 1960م.
- رشيد الدين، فضل الله بن عماد الدولة الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران، ترجمة نشأت وهمذاوي والعباد وزارة الثقافة والإرشاد القومي. القاهرة 1970م.
- الزهراني، محمد بن مسفر: نظام الوزارة في الدولة العباسية. العمران البويهي والسلجوقي، مؤسسة الرسالة. بيروت ط3، 1986م.
- السلاوي، الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء. دار الكتب، 1954م.

- السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ط4- 1969م.
- السيوطي، عبد الرحمن: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ط4 1969.
- الشهر ستاني، محمد عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الجلي، القاهرة 1968.
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أخبار الراضي بالله والمتقي بالله.
- الطبري: أبي جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعارف بمصر طبعة 14 1966م.
- الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية– دار صادر بيروت 1966م.
- العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان، دار المشرق بيروت 1986م.
- العريني: السيد الباز: الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية بيروت 1982م.
- عماد الدين، إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت 1984م.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد: صح الأعشى في صناعة الإنشاء. منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة 1913-1917م.
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف: كتاب الولاة والقضاة، مطبعة الآباء اليسوعين، بيروت 1908م.
- المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963.
- المسبّحي، الأمير المختار عز الملك محمد: أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1978م.

- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف أسعد داغر. دار الأندلس – بيروت 1966م.
- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار الكتاب العربي، بيروت.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة 1967م.
- النوبختي: كتاب فرق الشيعة صححه محمد الصادق، النجف 1936.
- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي – تحقيق الأمير منها، مؤسسة الأعظمي للمطبوعات بيروت ط1.
- مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أحداثها والحروب الواقعة بينهم، مدريد، 1867م.
- مسكوية، أبو علي أحمد بن محمد: تجارب الأمم، طبعة أحد روز. القاهرة 1914-1919م.

- المراجع:

- ابن عمراني، محمد بن علي بن محمد: الأنباء في تاريخ الخلفاء، باهتمام تقي بينش. إيران- مشهد.
- أرسلان، شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط. دار الكتب العلمية. بيروت.
- الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق، ط5، 1997م.

- الحسيني، صدر الدين بن علي: أخبار الدولة السلجوقية، باعتناء عباس إقبال، دار الآفاقة الجديدة. بيروت ط 1، 1984م.
- الخضري، الشيخ محمد: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية: المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة. ص300.
- السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، القاهرة 1966.
- الصياد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية بيروت 1980م.
- العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية بيروت 1972م.
- العبادي، عبد لحميد: صور وبحوث في التاريخ الإسلامي، الاسكندرية 1948م.
- العش، يوسف: تاريخ عصر الخلافة العباسية. الطبعة التاسعة 2009م.
- العمرو، عبد الرحمن: أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول، ط5، 1993م.
- الغنيمي، عبد الفتاح مقلد: معركة بلاط الشهداء، عالم الكتب. القاهرة ط 1، 1966م.
- أمين، أحمد: ضحى الإسلام القاهرة ط1، 1933م.
- بارتولد، فاسيلي فلاد يميروفتش: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي. تعريب صلاح الدين عثمان هاشم الكويت 1981م.
- بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب بنيه أمين فارس ومنير البعلبكي- دار العلم للملايين بيروت 1988م.

- بيضون، إبراهيم: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجر، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م.
- حتي، فيليب: تاريخ العرب (مطول)، بيروت 1965م.
- حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي القاهرة ط7. 1964م.
- زكار، سهيل: الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان، دمشق ط3، 1987م.
- صبحي، أحمد محمود: نظرية الإمامة لدى الشيعة الأثني عشرية: دار اليقظة العربية بيروت 1991م.
- صفا، ذبيح الله: تاريخ آدبيات درايران، طهران، 1329هـ.
- علبي، أحمد: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، دار الفارابي، بيروت 1991م.
- علي، محمد كرد: خطط الشام دمشق 1925م.
- عمر، فاروق: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين. بغداد جـ2 1985م.
- عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس: العصر الأول، القسم الأول، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1970م.
- فامبري، آرمينيوس: تاريخ بخارى في أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة محمود الساداتي، المؤسسة العربية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة 1965م.
- كاهن، كلود: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، ترجمة: بدر الدين القاسم- دار الحقيقة، بيروت ط3، 1983م.

- ماجد، عبد المنعم: الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي المفترى عليه، القاهرة 1959م.
- محمود، حسن أحمد والشريف، أحمد إبراهيم: العالم الإسلامي في العصر العباسي. دار الفكر العربي، القاهرة، ط5.

قائمة المصادر والمراجع

القسم الثاني

- المصادر:

- إبراهيم بن دقماق: الانتصار، بيروت، لجنة إحياء التراث، دار الآفاق.
- إبراهيم محمد الإصطخري الكوفي: المسالك والممالك، تح محمد الحسيني، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية المتحدة، 1961.
- ابن الأبار: التكملة، القاهرة، مطبعة السعادة، بغداد، مكتبة المثنى، 1955م.
- ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبع مصر 1285هـ.
- ابن الجزري: غاية النهاية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط3، 1982.
- ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس (تاريخ العلماء والرواة في الأندلس)، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط2، 1988م.
- ابن النديم: الفهرست، بيروت، دار المعرفة، 1978.
- ابن بشكوال: الصلة، الدار المصرية، 1966م.
- ابن بطوطة محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة، تح عبد الهادي النازي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، 1997م.
- ابن جبير محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، 1959م.

- ابن خلكان: وفيات الأعيان، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968م.
- ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير. تحقيق sochav طبعة Leiden 1905.
- ابن فرحون: الديباج المذهب، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن هشام عبد الملك: السيرة النبوية، السيرة النبوية، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 2001م.
- ابن هشام، السيرة النبوية – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: في تحقيق ما للهند، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، 1958م.
- أحمد العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، تح سمير الدروبي، الكرك، جامعة مؤتة، ط1، 1992م.
- أحمد القلقشندي: صبح الأعشى، تح محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م.
- أحمد النويري: نهاية الأرب، تح الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.
- أحمد بن أبي حجلة: سكردان السلطان، تح علي عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 2001م.
- أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة.
- أحمد بن حجر: الدرر الكامنة، تح محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط2، 1966م.
- أحمد بن علي البغدادي: تاريخ بغداد، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية.

- أحمد بن علي المقريزي: الخطط المقريزية، بيروت، دار صادر.
- أحمد بن محمد ابن خلكان: وفيات الأعيان، وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.
- البغدادي: تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الحسن بن الهيثم: الشكوك على بطليموس، تر عبد الحميد صبره، نبيل الشهابي، مطبعة دار الكتب، مصر، 1971م.
- الحسن بن حبيب: تذكرة النبيه، تح محمد أمين، مصر، مطبعة دار الكتب، 1976م.
- الحموي: معجم الأدباء، مصر، دار المأمون، 1936م.
- الداودي: طبقات المفسرين، تح علي عمر، مطبعة الاستقلال، 1972م.
- الذهبي: سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1982م.
- الزبيدي: طبقات النحويين واللغات، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1984م.
- الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد، قدم له أيمن شعبان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995م.
- السبكي: طبقات الشافعية، تح محمود الطناحي، ط1، 1964م.
- السيوطي: بغية الوعاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية.
- القاسم بن فيرة الشاطبي: حرز الأماني ووجه التهاني، بيروت، دار الكتاب النفيس، ط1، 1987م.
- المقري: نفح الطيب، تح إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1988م.
- الموطأ: تخريج وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الحديث.

- أيدمر الجلدكي: المصباح في أسرار علم المفتاح، مخطوط نُسخ بالقاهرة عام 1302 هـ = 1484م، مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، المخطوطات النادرة، رقم ص 106674 ن.
- خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط2، 1962م.
- خليل بن أيبك الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان، طبعة أحمد زكي بك، مصر، المطبعة الجمالية، 1911م.
- سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، المكتبة الأنجلو مصرية، ط10، 1986م.
- سليمان بن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تح فؤاد سيد، ط2، 1985م.
- صحيح مسلم بشرح النووي.
- عبد الحي أحمد بن العماد: شذرات الذهب تح محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط1، 1991م.
- عبد الرحمن الأسنوي: طبقات الشافعية، تح: كمال الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م.
- عبد الرحمن السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، 1987م.
- عبد الرحمن السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى، ط1، 1964م.
- عبد الرحمن السيوطي: حسن المحاضرة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1997م.

- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ضبط وحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط2، 1988م.
- عبد الوهاب السبكي: طبقات الشافعية، تح محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو، الجيزة، هجر للطباعة، ط2، 1992م.
- عبد الوهاب السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1986م.
- علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب، تح قاسم الرفاعي، بيروت، دار القلم، ط1، 1989م.
- علي بن يوسف القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مكتبة المتنبي.
- غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري: تاريخ مختصر الدول.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري.
- محمد بن أحمد البناء المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987م.
- محمد بن أحمد الذهبي: تاريخ الإسلام، تح: بشار معروف وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1988م.
- محمد بن أحمد الذهبي: معرفة القرَّاء الكبار، تح بشار معروف وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1984م.
- محمد بن إسماعيل البخاري: التاريخ الكبير، التاريخ الكبير،مؤسسة الكتب الثقافية.
- محمد بن الحسن الكرخي: الكافي في الحساب، تح سامي شلهوب، جامعة حلب، 1986م.

– محمد بن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تح قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت، المطبعة الأمريكية، 1939م.
– محمد بن النديم: الفهرست، سوسة، تونس، دار المعارف.
– محمد بن بهادر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح يوسف المرعشلي وغيره، بيروت، دار المعرفة، ط2، 1994م.
– محمد بن جرير الطبري: تفسير الطبري، تح محمود شاكر، محمد شاكر، مصر، دار المعارف.
– محمد بن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، حيدر آباد، جمعية دائرة المعارف العثمانية، 1353هـ.
– محمد بن زكريا الرازي: الشكوك على جالينوس، تح مهدي محقق، طهران، 1372هـ.
– محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1990م.
– محمد بن محمد ابن الجزري: منجد المقرئين ومرشد الطالبين، راجعه محمد الشنقيطي، أحمد شاكر، دار زاهد القدسي.
– محمد بن محمد بن الأخوة: معالم القربة، نقل وتصحيح روبن ليوي، القاهرة، مكتبة المتنبي.
– محمد بن محمد بن الجزري: غاية النهاية، غاية النهاية في طبقات القراء، نشره ج برجستراسر، مصر، مكتبة الخانجي، 1933م.
– محمد بن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر،ط1، 1997م.
– محيي الدين بن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور،، تح مراد كامل، القاهرة، الشركة العربية، ط1، 1961م.

- مصطفى القسطنطني حاجي خلفية: كشف الظنـــون، بـــيروت، دار الفكـــر، 1982م.

محمد بن زكريا الرازي: مخطوطتان للرازي في طب العيون، تح عبـــد الوهـــاب أسعد، جامعة دمشق 1976، 1977م.

- المراجع:

- شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، دار العلـــم للملايـــين، ط1، 1978م.

- إبراهيم المسلم: إطلالة على علوم الأوائل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006م.

- أحمد الشـــطي: مجموعـــة أبحـــاث في الحضـــارة العربيـــة الإســـلامية والمجتمـــع العربي،1963م، ص84، 85.

- أحمد الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر.

- أحمد أمين: ضحى الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي.

- أحمد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضـــارة، ط2، 1984م.

- أحمد سوسة: العراق في الخوارط القديمة، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1379 هـــ.

- أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة، ط3، 1996م.

- أحمد عودة، فتحي ملكاوي: أساسيات البحث العلمي،، إربد، ط2، 1992م.

- أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بيروت، دار الرائد العربي، ط2، 1981م.

- إغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر صلاح الدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1987م.
- إغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر صلاح عثمان، جامعة الدول العربية، 1957م.
- أقا بزرك الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار لأضواء، بيروت.
- الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، 2001م.
- الجواري: الشعر في بغداد، بغداد، 1956م.
- الحسين بن عبد الله بن سينا: القانون في الطب، تح سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، 1994م.
- الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1993م.
- ألدوميلي: العلم عند العرب، تر عبد الحليم النجار، دار القلم، ط1، 1962م.
- الدين فراج: الطب الإسلامي، القاهرة، دار الفكر.
- الكتبي: الحسن بن الهيثم، وزارة الثقافة، دمشق، 1972م.
- أمجد الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، دار سعاد الصباح، بيروت، ط1، 1998م.
- آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1955م.
- أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، دمشق، 1973م.
- أيمن أبو الروس: الكشوف الجغرافية، دار الطلائع، القاهرة، 2003م.
- برنارد جافي: بواتق وأنابيق، تر أحمد زكي، مؤسسة فرانكلين.
- جاك ريسلر: الحضارة العربية، باريس، منشورات عويدات، ط1، 1993م.

- جاك ريسلر: الحضارة العربية، تر غنيم عبدون، الدار المصرية للترجمة والنشر.
- جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة، دار الهلال، 1958م.
- جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، دار الرائد، بيروت، 1967م.
- جوزيف كلاس: مسيرة الطب في الحضارات القديمة: دار طلاس، ط1، 1995م.
- خالد محمد سالم: ربابنة الخليج العربي، الكويت، ط1، 1982م.
- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط12، 1997م.
- دلال جوهر: جغرافية العالم الإسلامي، دمشق، مطبعة الصباح، 1992م.
- دولت عبد الله: معاهد تزكية النفس في مصر، القاهرة، مطبعة حسان.
- دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، تر: أحمد فؤاد باشا، الكويت، عالم المعرفة، 2004م.
- رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم، دار الفكر العربي، بيروت،1997م.
- رحاب عكاوي: جابر بن حيان:، دار الفكر، بيروت، ط1، 1998م.
- رشدي راشد: تاريخ الرياضيات العربية، تر حسين زين الدين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1989م.
- رشيد الجميلي: حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، طرابلس، ليبيا، ط1، 1982م.
- زكي نجيب محمود: جابر بن حيان، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط2، 1987م.
- زهير حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، وزارة الثقافة، 1996م.
- زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، تر فاروق بيضون، كمال دسوقي، بيروت، دار صادر، ط9، 2000م.
- سعاد محمد: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

- سلام ضاهر: مملكة بلنسية في عصر ملوك الطوائف، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2010م.
- سيديو: تاريخ العرب العام، تر عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، 1948م.
- شاخت وبوزورث: تراث الإسلام، تر: حسن مؤنس، إحسان العمد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، 1978م.
- طه أبو عبية: الحضارة الإسلامية (دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2004م.
- عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بيروت، دار الثقافة، ط5، 1986م.
- عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم، دار المعارف، ط8.
- عبد الحي الحسني: الثقافة الإسلامية في الهند (معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف)، دمشق، مجمع اللغة العربية، ط2، 1983م.
- عبد الرزاق نوفل: المسلمون والعلم الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت.
- عبد الستار الحلوجي: دراسات في الكتب والمكتبات، جدة، السعودية، مكتبة صباح، ط1، 1988م.
- عبد العظيم رمضان: تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.
- عبد الله عطوي: الجغرافية البشرية، بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 1996م.
- عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، المكتبة الأنجلو مصرية، ط5، 1986م.
- عزة مريدن: فضل العرب على الإنسانية في الميادين العلمية، المجلس الأعلى للعلوم، 1961.

- علي الدفاع، جلال شوقي: أعلام الفيزياء في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1985م.
- علي عبد اللطيف: ابن الهيثم، عمان، الجامعة الأردنية، 1993م.
- علي عبد الله الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983م.
- علي عبد الله دفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط3، 1987م.
- علي عبد الله دفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983م.
- علي مصطفى مشرفة: مطالعات علمية، مطبعة الاعتماد، مصر، ط1، 1943م.
- عمار محمد النهار: العصر المفترى عليه، عصر المماليك البحرية، دمشق، دار النهضة، ط1، 2007م.
- عمر الطباع: ابن الهيثم، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1993م.
- عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، مطبعة الحجاز، دمشق، 1974م.
- عمر رضا كحالة: العلوم البحتة في العصور الإسلامية:، دمشق، المكتبة العربية، 1972م.
- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993م.
- عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار العلم للملايين، 1970م.
- عمر كحالة: العلوم العملية في الحضارة الإسلامية، مطبعة الترقي، دمشق، 1972م.

- غوستاف لوبون: حضارة العرب، تر عادل زعيتر، مصر، الهيئة المصـــرية العامـــة للكتاب، 2000م.
- فاضل أحمد الطائي: أعلام العرب في الكيمياء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م.
- فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، جدة، الدار الســـعودية، ط6، 1996م.
- فهمي مقبل: دور العرب في اكتشاف العـــالم الجديـــد، دار الثقافـــة، القـــاهرة، 1994م.
- قدري طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، جامعة الدول العربيـــة، القاهرة، 1954م.
- قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربية، العصر العباسي، بـــيروت، دار البحـــار، 2005م.
- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، تر عبد الحليم نجار و آخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.
- مجتبى اللاري: الإسلام والحضارة الغربية، تر: محمد الغروي، قم، مركـــز الثقافـــة الإسلامية في العالم.
- محسن الأمين: أعيان الشيعة، تح حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، 1983م.
- محمد الأبراشي: التربية الإسلامية وفلاسفتها، ط2، 1969م.
- محمد الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، الجامعة الأزهرية، 1991م.
- محمد الوكيل الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه، الحركة العلمية في عصر الرســـول وخلفائه، جدة، دار المجتمع، ط2، 1989م.
- محمد أمين: الأوقاف و الحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة، ط1، 1980م.

- محمد حسين و آخرون: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس.
- محمد زهير البابا: تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، جامعة دمشق،1986م.
- محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى،، تطوان، دار الطباعة المغربية، 1953م.
- محمد عللوه: دور العرب والمسلمين في صنع الحضارة الغربية، دمشق، دار الأقصى.
- محمد كرد علي: خطط الشام، خطط الشام، دمشق، مكتبة النوري، 1983م.
- محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط6، 1994م.
- محمد محمد فياض: جابر بن حيان وخلفاؤه، دار المعارف، مصر.
- محمد مصطفى: ابن سينا، دار القلم العربي، حلب، ط1، 2003م.
- مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين، ط2، 1975م.
- مصطفى لبيب عبد الغني: الكيمياء عند العرب، مكتبة الأنجلو مصرية، ط3، 1985م.
- منتغمري واط: أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، تر: عادل أبي جابر، دمشق، وزارة الثقافة، 1981.
- موريس شربل: موسوعة علماء الرياضيات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1991م.
- نزار أباظه و غيره: موسوعة الأوائل والمبدعين، دار المنبر.
- هيكل نعمة الله: موسوعة علماء الطب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م.

- ول ديورانت: قصة الحضارة، تر علي أبو درة، بيروت، دار الجيل.
- يسري الجوهري: الفكر الجغرافي، الإسكندرية، منشأة المعارف.

اللجنة العلمية:

- الدكتورة سميحة أبو الفضل
- الدكتور محمود فرعون
- الدكتورة فايزة كلاس

المدقق اللغوي:

- الدكتور نبيل أبو عمشة

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات